وزارة المعارف العمومية

# المفصّل

## فى تاريخ الأدب العربى

للمدارس الثانوية

تأليف

أحمد الأسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم

عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف

الجزء الثانى



القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٦

# فهرس الجزء الثانى

## العصر العباسى الثانى

## العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة

### عصر المماليك

## العصر العثمانى



## عصر النهضة الحديثة

# العصر العباسى الثانى

## لمحة فى الحياة الإسلامية من الوجهة السياسية
## أو
## نشوء الأوطان السياسية وأثر ذلك فى ظهور آداب قومية

كان من أكبر أغلاط الخليفة المعتصم قلة ثقته بالعرب ، وإخراجهم من ديوان الجيش ، وإنشاء جيش عظيم من أرقاء الترك يستعين به عليهم وعلى الفرس أنصار الدعوة العباسية الأولين : فأصبح هؤلاء الأجناد الأتراك بعد حين من الدهر أصحاب الأمر والنهى فى الدولة على جهلهم وسفههم . وتدخلوا هم ونساء القصر فى اختيار أرباب المناصب العالية من الوزراء والكتاب والولاة والقضاة، واستطالوا على الخلفاء يقتلونهم ويسملون أعينهم ، ويولون الخلافة من يشاءون من الصبيان والمستضعفين من أبناء الخلفاء ، فسقطت هيبة الخلافة من أعين الناس واختل نظام الحكم فى بغداد وسر من رأى ، وثارت العامة مرارا فيهما ، وكثر الشغب والهرج ، وامتدت الفتن والثورات إلى الأقاليم ، وعجز الخلفاء والمسيطرون عليهم من الأتراك عن إخمادها .

فحينئذ رأى بعض ولاة الأقاليم أنهم ليسوا دون أتراك دار الخلافة ، حتى يسمعون لهم ويطيعون تلك الأوامر الخرقاء التى تصدر منهم إليهم باسم الخليفة المستضعف فاستبد كل منهم بحكم البلاد التى تحت يده

كذلك رأى زعماء الفرس وسلائل الأكاسرة الذين كانوا يتربصون بدولة العرب الدوائر أن قد آن الأوانُ لاستنقاذ مُلْكِهِم من أيدى العرب وأيدى الأتراك المغتصبين سلطتَهم ، فدعَوْا إلى أنفسهم ، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة ، وأنشئوا عِدَّةَ دُوَلٍ وإمارات كالدولة السامانية فى خُراسان والبوَيهية فى فارس والجبل ؛ وتَبَجَّحَ هؤلاء فزحفوا بجيوش الدَّيْلَم والفرس على بغداد ، وانتزعوا السلطة من أيدى الأتراك ، وحَجَروا على الخلفاء فى قصورهم وكَفُّوا أيديَهم عن كل شىء من أمور الملك .

ولما رأى رؤساء القبائل العربية النازلين بسِقْى الفرات وبالجزيرة وشرقىّ الشام ما فعل غيرهم قاموا هم أيضا بنَصيبهم من الثورة ، واستبد كل منهم بجهته .

أما العَلَوِيُّون الذين لم تَفْتُر همتهم يوما عن المطالبة بالخلافة منذ زمن يزيد بن معاوية فقد وجدوا الفرصة مُواتيةً لهم أيضا ، فهبُّوا يُنْشِئُون لهم دُوَلًا وإمارات بطَبَرِسْتان والحجاز واليمن ؛ بل تهيأ لبعضهم — وهم الفاطميون — أن ينشئوا لهم خلافة عتيدة امتدت أملاكها من المحيط الاطلنطى إلى شمالىّ الشام وشرقىّ الحجاز .

ولهذا السبب عينِه رأى أمراء بنى أمية بالأندلس الذين كانوا يَتَهَيَّبُون مزاحمة خليفةِ بغداد فى لقبِه أنهم أصبحوا بعدُ أولَى منه بهذا اللقب فتلقَّبُوا بالخلفاء وأمراء المؤمنين ، وتبعهم بعضُ ملوك الطوائف الذين أَتَوْا بعدهم وإن لم يكونوا من قريش ولا مِن العرب .

وهكذا آل أمر الدولة العباسية إلى تجزئتها إلى دُوَلٍ وإمارات : إما مستقلة استقلالا تاما ، وإمّا مستقلة استقلالا فعليا داخليا مع اعتراف ملوكها وأمرائها بإمامة خليفة بغداد ويتولَّوْن الحكم بتقليده ، ويخطبون على المنابر باسمه .

ومع تميز بعض هذه الإمارات مِن بعض فى الجنس واللغة الوطنية لم يستغنوا جميعهم عن اتخاذ العربية الفصيحة لغة رسمية لهم فى التعليم والسياسة والقضاء والتعبُّد ، إلا أن بعضها طال عمرها إلى أكثر من قرن أو قرنين ، وأصبح لها أنظمة فى حكمها وفى معيشةِ قومِها وفى ثقافتهم العقلية والأدبية . فاقتضت طبيعة الحال أن تصطبغ الآداب العربية فيها بصبغة مَوْضِعِيَّة قوميَّة ، وإن لم تُخْرِجها هذه الصبغة عن طبيعتها الأصلية ، من وجْهة البلاغة والذوق العربى وطُرُق الأداء والتفاهم .

وهذه الصبغة القومية التى طرأت على الآداب العربية فى كل صُقْع ، هى التى نتعرض لها الآن ببعض البحث والبيان .

# الادب العربى فى الشرق

## العراق وفارس وخراسان

### فى العصر العباسى الثانى

فتح العرب أواسط آسيا وورِثوا فيها ملك دولةٍ عريقة فى القدم ذاتِ حضارة راسخةٍ ، ونظامٍ وطيدٍ ، ولغـةٍ منتشرةٍ ، وديانةٍ ذات رسـوم وتقاليد ، وعصبية للجنس : تلك هى دولة الفرس .

وكل هذه الأمورِ قُوًى معنوية عظيمة يقاوِم بها المغلوب سلطان الغالِب عليه ، القاهِرِ له . وتحملُ الغالبَ على أن يعمل بِحذق ودأْبٍ على إخمادِ هذه القوى المعنوية فوق إخماده القوى الحِسِّية ، قوةِ السيف والساعدِ .

ولذلك كانت أواسط آسيا مجال نِضالٍ دائم بين الفرس والعرب ؛ فقد حاول الفرس استعادة ملكهم بجميع هـذه القوى وابتدءوا بالقوة الأولى الأصلية ؛ وهى قوة السيف ، نخابت تجربتهـم مِرارا . وبقى العرب قابضين على ناصيـة الحكم والسيطرة لِشجاعتهم وقوة عَصَبِيَّتهم ، فأصبح النزال بين الأمتين مقصورا على مغالبةِ كل منهما للأخرى بمـا عندها من القوى المعنوية . ولمتانة دين الإسلام وعظمة اللغة العربية وافتراض التعبُّد بها على من يدخل فى الإسلام غَلَبت العربُ أيضا بدينها ولغتها . فنُسِخَت المجوسية ، واضمحلَّت آداب اللغة الفارسية القديمة ، ونُقِلت إلى العربية ، وامتزجت حضارتا الأمتين ، فلم تعودا موضع نزاع . وبقيت العصبية الجنسية والحَمِيَّة الوطنية على الرغمِ مِن كل هذه الحوادث راسخة فى رءوس دُهاة الفرس وسلائِل ملوكهم يتوارثونها خلفا عن سلفٍ ، حتى إذا فترت عصبية

العرب بقاصيةِ المشرق وبادَتْ عناصرهم فيه أو اندغمت لقلتها فى العناصر الوطنية بالتزاوُج والتناسل ، وكثر إقطاع الخلفاء العباسيين هؤلاء الدهاة من الفرس ولاياتِ الشرق طعمة لهم ولذُرّيتهم ، هبوا يُنشئون ممالك وإماراتٍ وطنية على أديم مملكتهم الفارسية القديمة ، ولكن عملهم جاء متأخرا جدا فما استعادوا بعض ملكهم حتى وجدوا الإسلام قد نسخ دينهم ، والعربيةَ وحروفها هضمتْ علومهم وآدابهم وحروفَ لغتهم بما لا يمكن مقاومته بحالٍ مِن الأحوال ، فلم يسعهم إلا أن يخضعوا للخليفة الشرعى الواجب طاعتُه ، واستمداد الحكم منه ، وكثير منهم اتخذ الإسلام ونُصْرتَه والدعوة إليه أو إلى التشيُّع لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم إما ذريعة إلى تأييد دولته وتمكين سلطانه بإرضاء العامة ، وإما رغبة فى الثواب ناشئة عن اعتقاد صحيح للإسلام وإخلاص له .

ولكن الإسلامَ الذى غَلَبَ على أعظم شىء فى الأمم التى بسط عليها سلطانه لم يَغْلِب العصبية الجنسية فى الأمم القويَّةِ كالفرس والترك والبربر .

لذلك نرى الفرس ، بعد أن أنشئوا لهم دولا مستقلة فى أواخر القرن الثالث وكلّ الرابع ، شرعوا فى تجديد آدابهم بلغتهم الفارسية يكتبونها بحروف عربية وفى نقل علوم الإسلام إليها فنجحوا فى الأولى بعض النجاح وأخفقوا فى الثانية ؛ إذ كان ذلك يستدعى وضع كثيرٍ من الاصطلاحات والرجوع إلى الإحاطة بلغة كانت قد نُسِيتْ أو كادت وخلفتها عاميةٌ فارسية لا تنهض بمثل هذا العمل العظيم . هذا إلى أنَّ علوم الإسلام مُسْتَمَدَّةٌ من القرءان والحديث وهما فى قِمَّةِ اللسان العربى ، وأن الرابطة بينهم وبين الخليفة وبقيةِ الممالك الإسلامية ليست إلا باللسان العربى ؛ لسانِ الحضارةِ والسياسة العامة فى ذلك الزمان. نعم إن بعض البيوت من الترك وَرِث ملك هذه البلاد : كآل سبكتكين بغزنة ، ومَن خلفهم من الغُورية ، وكآل سلجوق الذين استولَوْا على أكثر ممالك الشرق والعراق والجزيرة ، وتولد من سلائلهم ومماليكهم إمارات كثيرة فى الشرق والعراق والجزيرة والشام . وكبيت

خوارزم شاه ، إلا أنهم اضطُرُّوا إلى مُجاراةِ رعاياهم فاصطبغوا فى آدابهم بصبغة فارسية ، بل كانوا أشد عصبية من الفرس فى إحياء آداب الفرس .

ولذلك لم تجد هذه الممالك المستقلة بُدًّا من اتخاذ العربية لغة رسمية للدين والعلم والأدب والسياسة والإدارة دهرا طويلا ، وزادها فى ذلك رغبةً استيلاءُ أكثرِها على بغداد مقرِّ الخلافة ، ومنازعةُ الخليفة السلطة فيها وغلبتها على بعض البلاد التى أصبحت عربية بحتة كالعراق والجزيرة ، فطاول ملوكها الخلفاء فى تعلُّم العلمِ والأدب والفصاحة ونافسوهم فى اقتناء الكتب العربيةِ وتقريبِ العلماء إليهم ونفحِهم المال العظيم ، واتخاذِ الوزراء ورؤساء الدواوين من عِلْيَةِ الكُتَّاب وفحولِ البلاغة . بل نافس بعضُ هؤلاء بعضا فى تزيين كلٍّ منهم مملكته بخدمةِ نوابغ العلماء والأدباء . فبقيت العربية وآدابها وعلومها فى هذه البلاد رائجة السوق مدة قرنين مَمْسُوحةً بمَسْحةٍ فارسية لم تُخْرِجها عن كِيانها . غير أنه فى غضون هذين القرنين كانت الفارسية الحديثة نمت وترعرعت وظهر لها آداب وشعر حتى زاحمت العربية الفصيحة فى الأدبِ والعلمِ بمساعى السامانيين ثم الغزنويين ثم السلجوقيين ، فأخذت لذلك العربيةُ وآدابُها تتراجع إلى العراق والشام ومصر ، وبقيتْ مقصورة فى الشرق على علماء الدين . أما بقايا العناصر العربية التى كانت تتكلم بالعربية فقد انقرضت هى ولسانُها شيئا فشيئا واندمجت فى غمار الأعاجم أخريات العصر العباسى .

## الشـــعر

**انفراد بغداد بحيازة الأدب فى العصر العباسى الأول** — كانت بغداد فى العصر العباسيّ الأول مركز الثقافة فى الدولة ، ومَنْبِتَ العلم والأدب ، وكان العلماء والأدباء والشعراء فى الأقاصي والأطراف يرحلون إليها ليَعْرِضوا مواهبهم ، وينشروا علومهم وفنونهم ، وكانوا يجدون هناك آذانا تستمع لهم ، وعقولا تقدر فضلهم وتعرف منزلتهم ، فيصلون إلى الشهرة من أقرب طريق ، ويسير ذكرهم فى الآفاق وتُشَدّ إليهم الرِحالُ ، وتَدِرّ عليهم أخلافُ الرزق . فرب عالمٍ مغمور فى بلد بعيد عن حاضرة الإسلام ، رأى أن العودَ فى أرضه نوعٌ من الحشب ، فهاجر إلى بغداد ، فما كاد يستقر بها حتى برز فضله ، وصعِد نجمه . ولنا من الشعراء الكثيرين الذين وردوا على بغداد فى عهدها الزاهر فارتفع شأنهم ، وسما قدرهم ، شواهد ناطقة بما نقول .

ونحن نعرف كثيرا من أخبار الأعراب الذين كانوا يفِدون على الخلفاء ورجال الدولة بالبيت أو البيتين أو بطرائف البادية ونوادرها ، فينقلبون إلى أهلهم مسرورين ، ويرجعون إلى ذويهم بُجْرَ الحقائب . وكان الخلفاء والوزراء ومَن إليهم يتنافسون فى العطايا والصِلات ، ويَجْهَدُون جُهْدَهم فى معاضدة النابغين ، والإغداق على المجيدين . والأدب العربى فياض بأخبار هؤلاء ، وأخبار جودهم على الشعراء والأدباء ، مع ما فيها من إغراق ومبالغة تتجاوز حد التصديق . لذلك لا نكاد نسمع فى العصر العباسى الأولِ بشهرة شاعرٍ أو كاتب فى أطراف الدولة . وهذا لا يدل على أن الولاياتِ كانت خاليةً من النبوغ ، قَفْرًا من العبقرية . فكم من أدباء فيها قعد بهم الجَدُّ ، وعُمِّيَتْ عليهم أسباب الشهرة ، فقبعوا فى بلادهم راضين بالكَفاف من الرزق فى ظل السلامة والخمول .

انقسام الدولة من أسباب قوة الشعر — فلما انقسمت الدولة أوطانا واستقلت أطرافها ، وجد الشعر له أوطانا عدة ، وتعددت طرق الشهرة أمام الأدباء والشعراء ، واتسع حولهم مجال الاختيار ، وبعد أن كان الشاعر لا يجد أمامه غير بغداد ، أصبح الآن يستطيع أن يختار الأمير الذى يزوره ، والبلد الذى ينزل به. ومن العجيب أن انقسام الدولة وضعفها هنا كان سببا فى قوة الأدب ونشاطه ؛ مع أنه من القواعد المعروفة فى تاريخ الأدب أنه يقوى و يضعف بقوة الدولة وضعفها ، وذلك لأن ضعف الدولة هنا سبب انقسامها أوطانا ، وذلك اقتضى أن يكون لكل وطن ملك أو أمير ملأه الزهو ، وأراد أن يجمع لديه أسباب الملك والعظمة ، وأن يعيد إلى العلم والأدب أيامهما ، وأن ينافس الأمراء حوله ، وأن يجعل إمارته مباءة الأدباء والعلماء ، وأن يرسل اسمه علما فى الآفاق ، وقد عرف أن الشعر خير أسباب الإذاعة ، وأعظم وسائل الشهرة ، فأغرى الشعراء بزيارته والإقامة فى كنفه ، وقيدهم فى ذراه بإحسانه ، وغمرهم بصلاته .

يسقط الطير حيث يلتقط الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

وهكذا كان يصنع كل أمير ، فارتفع شأن الشعر وجود الشعراء فيه ، وأبرزوا مكنون بدائعهم ، وتنافسوا وتسابقوا . لهذا نهض الشعر نهضة مباركة وبلغ منزلة عالية .

وسبب آخر دعا إلى رقى الشعر خاصة والآداب عامة فى هذا العصر ، ذلك أن الغرس الذى نبت ونما فى العصر العباسى الأول آتى أكله فى هذا العصر ، وأن جميع الوسائل التى بذلت فى إنهاض العلوم والفنون أيام العباسيين الأولى ظهرت آثارها ناضجة ، وأن إحياء العلوم والإقبال على ترجمة آثار الأولين من فرس وروم و يونان فى عهود المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم ظهر فى النابتة العربية فى العصر الثانى ممتزجا بروحها ، مخالطا أفكارها ومشاعرها ، بعد أن تم

نَضْجُه ، ومَرَّ من الزمن ما يكفى لتمَثُّلِه وهَضْمه ؛ فتَجلَّتْ آثارُ هـذه الثقافة القديمة فى أشعارهم ، وبرزتْ نتائج تلك الجهود المـاضية جليّةً فى معانيهم وأساليبهم وتلوَّنُ الشعرِ بلون جديد — ولا سيما فى صدر هذا العصر — يَدُلُّ على عراقة فى المدنية ، وتمكُّن فى أسباب الحضارة ، ولم يعُد يظهر فيه آثار البداوة إلا بقدر المحافظة على جمال الأسلوب ورَوْعة البيان .

**الأغراض الجديدة : الحكمة ، الفلسفة ، التصوّف** — فأنت ترى فى هذا العصر شعرا فلسفيا ، وترى فيـه شعرا صوفيا ، كلاهما أغرق فى الفلسفة والتصوّف ، كما فى شعر المتنبي والمَعَرّى وابن الفارض . وقد كان الشعراء منـذ الجاهلية يأتون بالحكمة ، ويُرْسِلون المثل على الفِطرة الخـالصة والسليقة الصافية . فلمـا جاء العصر العباسىّ الأوّل وتُرْجِمَتْ علومُ الأوائل وفلسفتهم أخذ الشعراء يتَظرَّفون بإبراز شىء من ذلك فى شعرهم ، ولكن ذلك لم يكن كثيرا ، ولم يكن متغلغلا فى قرارة نفوسهم ، فلما جاء شـعراء العصر الثـانى ظهرت الفلسفة قوية فى شـعرهم ، وكاد المنطق يقضِى فيــه على روعة الخيال ، وأصبحت القصائد والمقطَّعات تؤسَّس على غرض فلسفىّ أو صـوفىّ ، وأدخلوا اصطلاحات العلوم العقلية والرياضية فى عباراتهم وتشبيهاتهم ، حتى لقد زعم قوم — لهول ما رأوه من ذلك — أن الشعراء فى هذا العصر أفسدوا الشعر وقَضَوْا على ما يتحلَّى به فى عصوره الأولى من سَذاجة الخيال وجمال البداوة ورَوْعة البيان .

قال ابن خلدون : "ولا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ، ولهذا كان شيوخنا (رحِمهم الله) يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعرِ شرقىّ الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شـعر المتنبي والمعرى لعدم النسج على الأساليب العربية" .

ومن أشهر شعراء الفلسفة غيرَ مَن ذكرنا ابنُ سينا والرازى وابن التلميذ الطبيب . ومن أشهر شعراء التصوُّف الحلّاجُ والشِّبْلى والقُشَيْرى .

الشعر التهكمى والهزلى — وكثر فى هـذا العصر الشعرُ التهكمىّ والهزلىّ ، كما فى شعر ابن حَجّاج وابن سُكَّرة وأبى الرَّقَعْمَق وصريع الدِّلاء .

التراسل بالشعر والتهانى — واستجدَّ أو كثُر فى هذا العصر التراسل بالشعر، فحلّ الشعر محلّ الكتابة ؛ وكثُرت قصائد التهانى بالأعياد والمواسم ، التى تعددت أيامُها فى العهد الفاطمىّ .

وصف الوقائع الحربية — كما شاع وصفُ الوقائع الحربيـــة لكثرة الحروب بين المسلمين وغيرهم من الروم والصليبيين. وقال الشعراء وأفاضوا فى التهنئات بالفتوح والحضّ على الجهاد .

الشعر الشامى والشعر المصرى — ويمتـاز الشعر الشامى — ولا سيما فى طليعة هـذا العصر — بقوة الأسلوب و بلاغتِه وكثرةِ المعانى ودقتها ، واتّساع مدى الخيال ، وذلك لقرب الشام من بلاد العرب مهدِ العربية ، ومن العراق منشأ الحضارة الإسلامية .

وقد كثر فى الشام أوّل هذا العصر الشعراءُ الوصّافون الذين لا يُشَقّ لهم غبار ؛ وهم معظم من اتصلوا بسيف الدولة كالسَّرِىّ الرَّفاء وكُشاجِم وغيرهما .

وقد بلغ الشعرُ منتهى رُقيِّه فى صدر هذا العصر ، ثم أخذ فى التَّدَلِّى شيئا فشيئا ، وكأنه أراد أن يستعيض عن فخامة الأسلوب ودقة المعانى بالرقة والانسجام ، فنجح أكثر النجاح حتى وصل إلى غاية الرقة بظهور بهـاء الدين زهير وأمثاله فى الدولة المصرية أيام الصلاحيين ، و بهذهِ الميزة وحدها فاق الشعرَ الشامىَّ وظهرَ عليه .

تأثر الشعر بالصناعة اللفظية — وظهرت العناية بأنواع البديع فى هـــذا العصر ، وتَعَمَّدَها الشعراءُ تعمُّدًا لتحلية أشعارهم وتزيينها ، وقد كانت بِدايةُ الاهتمام

بالبديع فى العصر الأول . فكان مسلمُ بن الوليد يُجمّل شعره بالبديع أحيانا ، ولكنه لم يُغْرِق ولم يتجاوز الحد ، فكان شعره رفيع القدر بعيدا عن التكلف ، ثم تلاه أبو تمام فأولع بالبديع ، وملك عليه الجناسُ نفسَه ، وكادَ يُفْسِد عليه شعرَه ، لولا بقية من البادية فيه ، ولولا ذَوْقٌ أصيل يحول بينه و بين التدهور : وقصيدتُه البائيةُ البديعةُ التى قالها فى فتح عَمُّورِيَّةَ — وهى من عيون قصائده — تتجلّى فيها النزعةُ إلى الجناس والاشتقاق ظاهرةً ، و إن كان شىء من ذلك لم يذهب بجمالها فى رأى أهل الأدب ونَقَدَةِ الكلام .

وقد يَسْخُفُ أحيانا فيقول :

إنَّ مَنْ عَقَّ والديْه لملعو ... نٌ ومَنْ عَقَّ منزِلًا بالعقيق

فيأتى بعقوق الوالدين فى باب النسيب من غير مناسبة ليجانس بينه و بين العقيق .

وكان البحترىُّ يقصد إلى البديع أحيانا ، ولكنّ ديباجته البديعة كانت تأبى أن يؤخذ عليها شىء من تكلُّف الصناعة ، أو تعمُّدِ ما لا يجرى مع الطبع السليم . فأنت تقرأ له القصيدة فَيَفِرُّ من بين يديك بعضُ أبياتها ، وقد تحلَّى بالبديع ، من غير أن تلمحه ، لأنك لم تجد فيه نُبُوًّا ولم تجد فيه حَشْوًا ولم تجد فى ألفاظه قلقًا ، كقوله :

وذَكَّرَنيكِ والذِّكْرَى عَناءٌ ... مَشابِهُ فيكِ بيِّنةُ الشُّكُولِ

نَسيمُ الرَّوْضِ فى ريحٍ شَمالٍ ... وصَوْبُ المُزْنِ فى راحٍ شَمُولِ

ثم جاء ابنُ المعتز ، وألَّفَ فى البديع ، وأغرِم به بعضَ الإغرام ، ورَقَّشَ به شعرَه ، ولكنّ دقة صناعتِه ، وروعة بيانه ، وحسن تشبيهاته ، حالتْ دون أن يهون شعرُه ، ودون أن يُسْقِطه عَبَثُ الصناعة اللفظية .

وإذا رجعنا إلى هذا العصر رأينا للبديع سُوقا رائجة ، وحظا موفورا ، فأكْثَرَ الشعراءُ منه وتَعَمَّدوه ، كقول الوَأْواءِ الدِمَشْقى :

يَطُوفُ براحٍ ريحُها ومَذاقُها نسيمُ الصَّبا والعَيْشُ فى زمن الصِّبا

وقول أبى فِراسٍ فى الفخر :

إنَّ أسيافَنا القِصارَ الدَّوامِى صَيَّرَتْ مُلْكَنَا طويلَ الدَّوامِ
نحنُ قَوْمٌ لنا سَدادُ أمُورٍ واصْطِلامُ الأَعْداءِ مِنْ وَسْطِ لامِ[1]
واقتسامُ الأموالِ مِنْ وقتِ سامٍ واقتحامُ الأهوالِ مِنْ وَقْتِ حامِ

وقول أبى الفتح البُسْتى :

إذا تَحَدَّثْتَ فى قومٍ لتُؤْنِسَهُمْ بما تُحَدِّثُ من ماضٍ ومن آتِ
فلا تُعِدْ لحديثٍ إنَّ طَبْعَهُمُ مُوَكَّلٌ بمُعاداة المُعاداتِ

(١) اللام جمع لأمة وهى الدرع .

## الشعر فى فارس والعراق وخراسان

كان للانقلاب السياسى وضعف دولة بنى العباس فى القرن الثالث الهجرى ، وانقسام الدولة إلى ممالك و إمارات ، أن تفرقت جهود العلماء والأدباء التى كانت مدينةُ بغداد مقرًّا لها أكثرَ من قرنين من التاريخ الإسلامى . فانتقل كثيرٌ من الأدباء والشعراء إلى خراسان وتركستان ، حيث أنشأ السامانيون دولتهم ، و إلى فارس والعراق ، حيث أقام بنو بويه هناك ملكهم ، وذهب جماعة منهم إلى أفغانستان والهند مع الدولة الغَزْنَوِيَّة ، و بعضهم إلى جرجان مع الدولة الزيارية . وقد كان التنافس بين هذه الدول عظيما على ما هو معروف ، وأكثر ما كان ذلك موجها إلى نشر العلوم والآداب . وكان ملوك هذه الدول يحاكون بذلك مركز الخلافة فى بغداد أيام عصرها الزاهر . فكان الشعر أسبق علوم الأدب انتشارا ، حتى كان كثير من الأمراء يقول الشعر ويجيد نظمه : كملوك بنى بويه الذين كانوا فضلا عن ذلك يَفْسَحُون صدورهم للأدباء ويستوزرون الكتّاب والشعراء ، كالصاحب ابن عباد، وزير مؤيد الدولة، وسابور بن أرْدَشِير وزير بهاء الدولة فى العراق وغيرهم من ملوك الدول الأخرى الذين كانوا يعملون على نشر الآداب والشعر . فكان للشعراء عندهم منزلة رفيعة ، وكثير من هؤلاء الشعراء كان يعيش من شعره ، ويرتق إلى منصب الوزارة . وكثير منهم كان من الأعاجم ، فكثر فى شعرهم مدحُ الملوك والسلاطين والتملُّق لهم ، وتنافسوا فى الحُظْوَة لدى هؤلاء السلاطين . فهجا بعضُهم بعضا ، وكثر فى الشعر التهكُّم والملَق . وكان من بينهم من عرفَ الآراءَ الفلسفية والاجتماعية من الكتب التى تُرجمت ، والمعانى التى نُقِلَتْ إليهم ، فذكروها فى شعرهم ، واشتمل الشعر على كثير من هذه المعانى الجديدة . ولكن الاضطراب والحروب التى وقعتْ بعدُ بين السلاطين والأمراء كان عاقبتها أن عمَّ البؤسُ ونال الشعراءَ شيءٌ كثير من ذلك ، فكثرت الشكوى فى الشعر من الأيام وجَوْرها

والزمان وبؤسه . وأحيانا كان يسود الوضيعُ على الشريف ، فهزّت الأريحيةُ بعضَ الشعراء إلى الفخر بأنسابهم وأحسابهم ، وكَثُرَتْ هذه المعانى فى الشعر . وكان من بين الشعراء الفلاسـفةُ والأطباءُ والفقهاءُ والعلماء . فكان الشعر يحتوى على بعض الآراء الفلسفية والعلمية ، وظهرتْ فيه أساليبُ الفقهاء والعلماء ، فضعفتْ ديباجتُه لعنايتهم بالمعانى دون الخيال .

ومع ما كان هناك من ذيوع الثقافة الفارسية ، والعناية بأدب الفرس وترجمة كثير من الشعر الفارسىّ ، والأمثال الفارسية إلى العربيـة وتَسرُّب بعضِ المعانى الدخيلة فى الشعر العربىّ ، كانت الصبغة العربية غالبة على الأدباء كما غلبت الروحُ العربية على الكتّاب النـاثرين من الفرس وغيرهم من الأعاجم . وكانت أساليب الشعر العربىّ مالكةً منهم زمام التفكير ، فلم يخرج الشعراءُ عن طريقة الشعر العربى إلا فى نشر بعض الآراء ، والتعمُّق فى الصناعة أحيانا ومَزْج الحكم والأمثال بالشعر وعدم قَصْر الشعر على الخيال .

وقد ظهرتْ فى شعر شعراء هـذا العصر الأخيلةُ والأوصافُ التى اقتضتها معالمُ الحضارة ، وأصبح الشعر صناعة كالنثر وبراعة فى تجميل الكلام ، وذاعت محاكاة بعض الشعراء بعضا .

فكان الشعر فى هذا العصر يشتمل على كل المعانى المعروفة والأغراض المألوفة من نسيب ووصف وحكم وأمثال وحماسة وفخر وعَتْب ، وشكوى وفكاهة . وكان أسلوبه فى جملته أسلوبا صناعيا لامتلاء نفوس الأدباء من كتّاب وشعراء بالصناعة اللفظية ، فامتلأ بأنواع المحسِّنات اللفظية والمعنوية : من أنواع البيان والبديع ، ولم يكن الشعر فى كثير من أحواله إلا نوعا من التسلِّى والتفكُّه ، والمبالغة فى المدح والذم والشكوى . ولكنّ كثيرا منه كان من الشعر الفنىّ الجميل والكلام البليغ .

## السرى الرفاء

السَّرِىُّ بن أحمد الكِنْدِىّ المعروف بالرَّفَّاء ، من شعراء المَوْصِل المشهورين نشأ بالمَوْصِل وكان وهو صبىّ يرفو ويُطَرِّز فى دكان هناك ، ويختلط بالشعراء وأهل الأدب ، حتى وَلِعَ بالشعر وعالج نظمه ، وجاد شعرُه وذاع أمرُه بين الشعراء . فقصَد سيفَ الدولة بن حمدان بحلب ومدحه ، وأقام هناك إلى أن مات سيف الدولة ، فانتقل إلى بغداد ومدح الوزير المُهَلَّبىّ وغيره من كبار الرجال ، وأصبح من المتكسبين بالشعر فى المشرق . فكان يعيش من مدائحه ، فأيسر بعد أن كان فقيرا معدِما وهو بالموصل . ولما رجع إلى بغداد سار شعره مسير الأمثال فى الشام والعراق وخراسان ، حتى بَزَّ غيره من شعراء زمانه . وكانت وفاته فى سنة ٣٦٢ هـ على أرجح الأقوال .

شعره — كان السرِىُّ الرَّفَّاءُ أول أمره يخالط العامة من الناس فى الأسواق . ولما صار من الشعراء المجيدين عاشر الخاصّة ، فجمع فى نفسه إلى الفكاهة الحلوة وخفةِ الروح ، حسنَ الأدب ورقة التعبير وسَعَة الخيال . وقد كان منذ نعومةِ أظافره دقيق الإدراك ، فلما عالج نظم الشعر جمع شعرُه بين الرِقة والسلاسة وجزالة المعنى . وكان يستمد ذلك مما يحيط به و يراه فى المجالس والمجامع ومخالطة الناس . ولكنه لم يأت فى شعره بشىء يدلّ على قوة التفكير وسَعَةِ الاطلاع ، أو الفلسفة كما فى شعر الشريف الرضىّ . لأنه لم يتلق العلم عن أحد ، ولم يُعْن بالاطلاع على غير الشعر الذى كان من هُواته ، إذ كان يميل بطبعه إلى جمال القول ، ويدرك أسرار بلاغة الكلام . فلما قرأ الشعر البليغ ، وامتلأت نفسُه به ، أخذ فى مجاراة كبار الشعراء ومحاكاتهم فى أساليبهم ، حتى امتاز عن غيره من شعراء زمانه .

أما أنواع شعره فهى الغزل والهجاء والوصف والملح والدعابات ، وقد امتلأت كلها برقيق المعانى . فكلُّ شعره أو جُلُّه رقيق ، وذلك ما يمتاز به عن

سواه ، كما يمتاز شعره بطَرْق الموضوعات التى كانت تُحيط به فى معاشرة الناس ، وعدم الإكثار من الموضوعات الخيالية .

أما أسلوبه فأسلوب سَلِسٌ شائق ، لا تكاد تجد به شيئا من التكلف . على أنه يميل أحيانا إلى الصنعة ، ولكنها صنعة خفيّة تدعو إلى الإعجاب .

فمما قاله فى العتاب يتهكم :

قد كانتِ الدنيا عليكَ فسيحةً ... فاليومَ أَضحتْ وَهْىَ سَمُّ خِياطِ
أَسخطْتَنِى وجَنَاةُ عَيْشِكَ حُلْوَةٌ ... فجنيتَ مُرَّ العيشِ من إسخاطى
وعلِمتَ ، إذ كلَّفتَ نفسكَ غايتى ، ... أنَّ الرياحَ بعيدةُ الأشواطِ
أتَرومُنِى وعلى السِّماكِ محلَّتى ... شرفًا وبينَ الفرقدينِ صِراطى ؟

وقال يهجو ويتهكم على شاعر قيل إنه كان جزارا بالمدينة وسَرَقَ من شعره :

أرى الجزَّارَ هيَّجنى وولَّى ... فكاشَفَنى وأسرعَ فى انكشافِ
ورقَّعَ شِعْرَه بِعيُونِ شِعْرى ... فشابَ الشَّهْدَ بالسُّمِّ الزُّعافِ
لقد شقيتْ بِمُدْيَتِكَ الأضاحِى ... كما شَقِيَتْ بغارَتِكَ القوافِى
توعَّرَ نَهجُها بك وهو سهلٌ ... وكُدِّرَ وِرْدُها بك وهو صافِ
فكنْتَ بها مُثقَّفةَ النَواحِى ... على فِكْرٍ أشدَّ من الثِقافِ
لها أرَجُ السَوالِفِ حين تُجْلَى ... على الأسماعِ أو أرَجُ السُّلافِ
جمعنَ الحُسْنَيينِ فمِنْ رِياحٍ ... مُعنبرَةٍ وأرْواحٍ خِفافِ
وما عدِمتْ مُغيرًا منكَ يرْمِى ... رقيقَ طباعِها بِطِباعِ جافِ
معانٍ تُستعارُ منَ الدَّياجِى ... وألفاظٌ تُقَدُّ من الأثافِى
كأنَّكَ قاطِفٌ منها ثِمارًا ... سبقتَ إليه إبَّانَ القِطافِ
وشرُّ الشِّعْرِ ما أدَّاهُ فِكْرٌ ... تَعثَّرَ بينَ كدٍّ واعتِسافِ

وقال فى عتاب صديق أفشى سرا :

رأيتكَ تَبرِى للصديقِ نوافذًا (١) ... عدُوكَ من أمثالها الدهْر آمنُ
وتكْشِفُ أسرارَ الأخلاءِ مازحًا ... و يارُبَّ مَزْحٍ راحَ وهوَ ضغائنُ
سأحفظُ ما بينى و بينك صائنًا ... عُهودكَ إنّ الحُرَّ للعهْدِ صائنُ
وألقاكَ بالبِشْرِ الجميلِ مُداهنًا (٢) ... فَلِى منكَ خِلٌّ ما عرفْتُ مُداهِنُ
أنَمُّ بما استودعته من زُجاجةٍ ... ترَى الشىءَ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

وقال فى وصف الورد :

لو رحَّبتْ كأسٌ بذى زَوْرةٍ ... لَرحَّبَتْ بالوردِ إذ زارها
جاء نخِلْناهُ خُدودًا بدَتْ ... مُضرِمَةً من خجلٍ نارَها
وعطَّرَ الدنيا فطابَتْ به ... لا عدِمَت دنياهُ عطَّارَها

وقال يدعو صديقا له ويصف غرفة بالموصل على النهر . ويصف قِدرا وكانون نار :

لنا غُرفةٌ حسُنَتْ منظَرا ... وطابَتْ لسُكَّانِها مَخْبَرا
ترَى العينُ من تحتها رَوْضةً ... ومن فوقها عارضًا مُمْطرا
وينْسابُ قُدَّامها جدْوَلٌ ... كما ذُعِرَ الأيْمُ (٣) أو نُفِّرا
وراحٌ كأنَّ نسيمَ الصَّبا ... تحمَّلُ من نشْرِها العنْبرا
ودهْماءُ (٤) تهْدِرُ هدْرَ الفنيقِ (٥) ... إذا ما امتطتْ لهبًا مُسْعرا
تجيشُ بأوْصالِ وحْشيَّةٍ (٦) ... رعتْ زهَراتِ الرُّبا أشْهُرا
كأنَّ على النارِ زَنْجيَّةً ... تُفرِّجُ ثوْباً لها أصْفَرا

(١) سهام نوافذ ثاقبة . (٢) داهنه أظهر خلاف ما يبطن . (٣) الأيم الحية . (٤) يراد بها القدر ودهماء سوداء . (٥) الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته ولا يركب . (٦) تغلى بقطع من لحم حيوان وحشى .

ومن قوله يذكر صناعته :

وكانتِ الإبرةُ فيما مَضَى صائنةً وَجْهِي وأَشْعَارِى
فأَصْبَحَ الرِزْقُ بها ضَيِّقاً كأنَّهُ مِنْ ثقبها جارى

وقال فى المدح :

أَلبَسْتَنِي نِعَماً رأيتُ بها الدُّجى صُبْحاً وكُنْتُ أَرَى الصباحَ بهِيما
وَغَدَوْتُ يَحْسُدُنِى الصديقُ وقبلَها قد كانَ يَلْقَانِي العَدُوُّ رحيما

ومن غزله الرقيق قوله :

بنفسى مَنْ أَجُودُ له بنفسى ويبخلُ بالتحية والسلامِ
وحَتْفِي كامِنٌ فى مُقْلَتَيْه كُمُونَ المَوْتِ فى حَدِّ الحُسامِ

## مهيار الديلمى

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ عاش ببغداد وتوفى سنة ٤٢٨ هـ. أصله من بلاد الديلم. كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضى؛ ولازمه وأخذ عنه الأدب والشعر، حتى تخرج عليـه وحاكاه فى أسلوبه وطول قصائده وسَعة خياله، وهو أحد الكتّاب المشهورين، والشعراء المطبوعين، اشتغل بالكتابة فى ديوان الخلافة ببغداد.

أما شعره فيشتمل على أكثر الأنواع المعروفة، وقد امتلأ بالمعانى ودقة الإدراك وكثير من معانيه طريف مبتكر، وأكثر ذلك فى مدائحه. وله صِبغة خاصّة فى شعره تدلّ على ما بقى فى نفسه من أثر الحياة الفارسية وميله إلى جعل شعره وصفا لما يحيط به وما يجول بخاطره.

أما أسلوبه فأسلوب رقيق سَلِسٌ، بعيد عن الغرابة والغُموض، وقد جارى الشريفَ الرضى فى كثير من خصائص ديباجته.

فمن قوله إلى أبى طالب بن أيوب فى النيروز.

بَلَوْتُ هـذا الدّهرَ أطـوارَه — علىَّ طَـوْرًا ومـعى تارَه
وبَصَّـرَتْنِي كَيْفَ أَخْلاقُـه — تَجارِبُ كَشَّفْنَ أَخْبـارَه
فَصِرْتُ لا أنـكُرُ إِحْـلاءَه — يومًا، ولا أُنـكِرُ إِمْرارَه
لا هُوَ إنْ شَـدَّ رَأَى كاهِلِي — رِخْوًا ولا نَفْسِيَ خَـوَّارَه
ولا تَصَبَّانِيَ مِنْ سَـلْمِهِ — زَخارِفُ للعَـيْنِ غَرَّارَه
مَنْ عاذِرِى مِنْـهُ على أَنَّنِي — ضرورةً أَقْبَـلُ أَعْـذارَه

ومنها فى المدح :

لولا بَنُو أيُّوبَ لَوْلا هُمُ ... ما وَجَدَ المظلومُ أنْصَارَه
قومٌ إذا اسْتَنجدْتَهُمْ لم أخَفْ ... سَهْمًا ولا ناضِلَنِي القَارَه [1]
وبِتُّ فيهم حيْثُ لا يُؤكَلُ الـ ... ـجارُ ولا تُنْتَهَكُ الجارَه
البَيْتُ لا يُنْكَرُ طُرَّاقُهُ ... والليلُ لا يَعْدَمُ سُمَّارَه
والجَفَنَاتُ الغُرُّ يُسْنَى [2] لها ... كُلُّ غَضُوبٍ [3] الغَلْيِ هَدَّارَه
تَرى الجَزُورَ العَبْلَ فى قَلْبِها ... أعْشارُهُ تلعن جَزَّارَه
إنْ صَمَّ عنكَ الناسُ أو أغمضتْ ... فى الخَطْبِ عَيْنٌ وهى نَظَّارَه
فَتَحْتَ منهم فى مَغَالِيقِهِ ... أسْمَاعَ ذا الدهرِ وأبْصَارَه

ومن قوله يتغزل :

هَبِينِي أسْتُرُ النَّجْوَى ... أليسَ الدَّمْعُ يَفْضَحُنِي
لسانى فيكِ أمْلِكُهُ ... ودَمْعُ العَيْنِ يَمْلِكُنِي

ومن قوله :

كم صاحبٍ والنارُ لى فى قلبِهِ ... خالبتُ [4] بارِقَ وَجْهِهِ المتهلّلا
وأريْتُهُ أنّى وإياه يَدٌ ... مع أختها فيما أهَمَّ وأعْضَلا
فإذا ظَفِرْتَ من الزمانِ بما جِدٍ ... فأنِخْ إليه وكُنْ عَلَيْهِ مُعَوّلا

وقال :

يُذْنِبُ دَهْرٌ وَيَسْتَقِيلُ ... وَيَسْتَقِيمُ الأِذى يَمِيلُ
والعَيْشُ لَوْنٌ يومًا ولَوْنٌ ... كلاهما صِبْغَةٌ تَحُولُ
ورُبَّما حَنَّتِ اللَّيالى ... ثُمَّ لها مَرَّةً غَفُولُ

---

(١) القارة قبيلة مشهورة بالرماية . (٢) يسنى : يرفع . (٣) يريد كل قدر لها عند الغليان ثورة كثورة الغضبان وصوت كصوت البعير . (٤) المخالبة المخادعة .

فاسْرِ فإنَّ الدُّنا طَريقٌ أَسْهَلُ مِيلٍ وشَقُّ مِيلُ
لا غَرْوَ أَنْ تَظْلَعَ [١] المطَايا فيها وأَنْ يَغْلَطَ الدَّليلُ
والرَّجلُ الضَّرْبُ [٢] مَنْ تَسَاوَى في نَفْسِه الصَّعْبُ والذَّلولُ
فَهو إذا انْحَطَّ أو تَعالَى لا التِّيهُ مِنْهُ ولا الخُمولُ
كالسَّيْفِ لا زَيْنُهُ التَّحلِّي يَوْمًا ولا عَيْبُهُ الفُلُولُ

---

(١) تعرج. (٢) الضرب: الشديد.

## أبو الفتح البستى

أبو الفتح علىّ بن محمد البُسْتى من كبار الكتّاب المعروفين بحسن الصناعة ، والإمعان فى أنواع البديع ، ولا سيما الجناس . وهو أيضا شاعر مُفْتَن يميل إلى الصنعة والتعمُّل . وقد كان من كبار أدباء زمانه وأعرفهم باللغة والأدب . كتب لصاحب مدينة بُسْت (١) . وبعد أن دخلت هذه المدينة تحت حكم أبى منصور سُبُكْتِكِين كان كاتبا له ، فوَكَلَ إليه كثيرا من أمور الديوان وأمراره . فكان معظَّما مبجَّلا معترفا له بالفضل . وقد توفى ببخارى سنة ٤٠٠ هجرية .

وله فِقَر نثرية قصيرة مُسَجَّعَة تدخل فى باب الأمثال ، رَصَّعها بأنواع الجناس ، ذات معان مُمْتِعة ، تظهر فيها الصنعة كثيرا ، وقد اقتبس بعضها من الحكم المعروفة ، أو الأمثال المضروبة . كقوله :

"عادات السادات ، سادات العادات . مَن أصلح فاسده ، أرغم حاسِدَه . مِن سعادة جَدِّك ، وقوفُك عند حدِّك . الدَّعَةُ رائد الضَّعَة . مَنْ يكن لك نسيبا ، فلا ترجُ منه نصيبا . إذا بَقِيَ ما فاتَكَ ، فلا تأس على ما فاتك" .

ومثل ذلك كثير فى كلامه .

أما شعره فهو شعر صناعى أيضا . ولكنه مملوء بالمعانى ، فهو من الشعراء الفنيِّين الذين يُعْنَوْنَ باختيار اللفظ وحُسن الأسلوب . وله شعر رقيق فى الغزل والوصف ، ومقطوعات طريفة فى باب الحكم والأمثال . فهو ناظما أكْثَرُ منه شاعرا مطبوعا . ومن قوله :

لما أتانى كتابٌ منك مُبْتَسِمٌ ... عن كل بِرٍّ وفَضْلٍ غير محدودِ
حَكَتْ مَعانيهِ فى أثناءِ أسْطُرِه ... آثارَكَ البِيضَ فى أحْوالِيَ السُّودِ

---

(١) مدينة من إقليم سجستان كانت ببلاد الفرس .

ومن قوله :

إنْ سَنَّ أقلامه يوماً ليُعملَها    أنساك كُلَّ كَمِيٍّ (١) هَزَّ عامِلَهُ (٢)
وإنْ أمَرَّ على رَقٍّ أنامِــلَهُ    أَقَــرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأنامِ له

وقوله :

لم تَرَ عَيْني مِثْــلَهُ كاتبــاً    لِكُلِّ شيءٍ شاءَ وَشّاءَ (٣)
يُبْـدِعُ فى الكُتْبِ وفى غيرِها    بدائِعاً إنْ شَـاءَ إنْشَـاء

وقوله :

ما إنْ سَمِعْتُ بِنُوّارٍ له ثَمَــرٌ    فى الوقتِ يُمْتِـعُ سَمْعَ المرءِ والبَصَرا
حتى أتانِى كِتَابٌ منكَ مُبْتَسِمٌ    عَنْ كُلِّ لَفْظٍ ومَعْنًى يُشْبِهُ الدُّرَرا
فكانَ لَفظُكَ مِنْ لألائِه زَهَــرًا    وكان مَعْنَاهُ فى أثنــائِهِ ثَمَــرا
تَسَابَقَا فأصابا القَصْدَ فى طَلَقٍ (٤)    لِلهِ مِنْ ثَمَــرٍ قَدْ سَابق الزَّهَرا

ومن قوله فى المدح :

إذا نَسِىَ النــاسُ إخوانَهم    وخانَ المَــوَدَّةَ خَوّانُهــا
فَعِنْدى لإخوانِىَ الغــائبيــنَ صحائفُ ذِكْرُكَ عُنْوانُهــا

ومن قوله فى الشكوى :

الدَّهْرُ خَدّاعــةٌ خَلُوبُ    وصَـــفْوُهُ بالقَذَى مَشُوبُ
وأكْثَرُ النــاسِ ، فاعْتَزِلْهُمْ ،    قَوالِبٌ مالَهــا قُلُوبُ
فلا تَغُــرَّنْكَ اللَّيـــالِى    وبَرْقُها الخُلَّبُ (٥) الكَذُوبُ
ففى قَفَــا أُنْسِها كُرُوبُ    وفى حَشَا سِلْمِهــا حُــرُوبُ

(١) الكمى : الشجاع أو لابس السلاح . (٢) عامل الرمح صدره وهو ما يلى السنان . (٣) الوشاء ناقش الثياب بالألوان . (٤) الشوط فى جرى الخيل . (٥) برق معه سحاب لا ماء فيه .

ومن قوله فى الشَّيْب والكِبر :

دَعْ دُموعِى تَسِيلُ سَيْلاً بِدارا ... وضُلُوعِى يَضْلَيْنَ بالوَجْدِ نارا
قد أَعادَ الأَسى نَهارِى لَيْلاً ... مُذْ أَعادَ المَشِيبُ لَيْلِى نَهارا

ومن قوله فى الفخر :

يَقُولونَ ذِكْرُ المرءِ يَحْيا بِنَسْلِه ... ولَيْسَ لَهُ ذِكْرٌ إذا لم يَكُنْ نَسْلُ
فَقُلْتُ لهم نَسْلِى بدائعُ حِكْمَتِى ... فإنْ فاتَنَا نَسْلٌ فإنَّا بها نَسْلُو

وقال :

تَأَخَّرتُ عَنْ قَوْم ولا غَرْوَ أَنَّنى ... سأَسْبِقُهُمْ بالجِدِّ والجِدُّ مِعْوانُ
أَلَسْتَ تَرَى العُنْوانَ يُكْتَبُ آخِراً ... وأَوَّلُ مَقْروءٍ من الكُتْبِ عنْوانُ

## الشريف الرضى

هو أبو الحسن بن الطاهر أحمد بن أبى الحسين . ومن أجداده موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ، ولذلك سمى بالموسوى ، وجَدُّه الأعلى الحسين بن على بن أبى طالب . ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ . وتوفى هناك سنة ٤٠٦ هـ .

أخلاقه وصفاته — كان الشريف الرضى ، لعلو منزلته وشرف نسبه ، ذا نفس أبية ، ومكانة رفيعة بين الناس ، وكانت فيه هيبة وجلالة ، وورع وعفة وتقشف وحب لأهله . كان أبوه نقيب الأشراف الطالبيين ثم صارت النقابة إليه ، وكان لاستقامته فى أمور الدين والدنيا يرى فى نفسه فضلا عظيما ؛ وهذا ما دفعه إلى الميل إلى الفخر فى شعره ، والتحدث بكرم أخلاقه ، والتغنى بعلو نسبه وحسبه .

وقد كان العصر الذى عاش فيه عصرَ تنافس فى العلم والأدب بين الدول التى خرجت على الدولة العباسية ، وقد نَضِجَت العلوم ، فقرأ الشريف الرضى كتب الأوائل من علم وأدب ، وشبَّ على حب القراءة ، وحَذِق اللغة العربية وفروعها ، وقرأ علوم الدين ، وصنف فى ذلك كتبا كما صنف فى الأدب والتاريخ . وهو الذى جمع كتاب نهج البلاغة المعروف ، المحتوى على كثير مما نسب إلى الأمام على بن أبى طالب من الخطب والرسائل البليغة ، مما يحسب من الطراز الأول فى بلاغة الكلام . وكان اشتغاله بالأدب واللغة سببا فى أن أصبح من كبار شعراء اللغة العربية ، ومن أشعر قريش ، حتى فاق كثيرا من أدباء زمانه وشعرائهم .

شعره — يحسب شعر الشريف الرضى من أمتع الشعر العربى وأجزله ، وأجمعه للمعانى النفسية والفلسفية ، وصور النفوس المفكرة ، ونقد الاجتماع وشكوى الزمان والأيام . وقصائده الطويلة الكثيرة مملوءة بالتأمل فى الحياة وشرح أسرارِ النفوس .

فليس شعره شعرا خياليا صرفا ، وليست معانيه من المعانى التى يتصيدها الشاعر، يقصد بذلك إظهار براعته فى نظم الكلام والتصرف فى ضروب التعبير ، كما هى حال كثير من الشعراء ، لأنه ليس شاعرا فنيا ليس غير ، يميل إلى دقة الصنعة الظاهرة أو الخفية ، كما هى الحال فى شعر أبى تمام والبحترى ، أو يقصد إلى عرض صور من هزل الحياة فى أسلوب فنى بليغ كما فى أكثر شعر أبى نواس، أو يعمد إلى سلاسة القول بعبارات شعرية جميلة كأنها كلام منثور ، كما فى شعر ابن الرومى، أوغير ذلك من الأغراض الكثيرة لصناعة الشعر . وإنما أراد من شعره أن يكون صورة لنفسه التى امتلأت بالتهكم على الناس والحياة ، كما امتلأت بالحِكم والعِبَر التى كانت له من تجاربه وقراءته شعر الفلاسفة ، وأن يكون تعبيرا عما فى نفسه من عزة وإباء وفخر بقومه ، وتمدح بالفضيلة والمكارم .

هذه هى الصفات العامة لشعره التى لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده. وأكثر شعره فى المدح والفخر والرثاء والشكوى . وقد أجاد فى كل ذلك إجادة تشهد له بكثرة الاطلاع وسعة الخيال ، والوقوف على معانى الشعر وأساليبه المعروفة . وأكثر المعانى ذيوعا فى شعره مايدل على التأمل فى الحياة وخفاياها والناس وأخلاقهم . ويظهر فى نواحى شعره كثير من ميول الخواصّ والأشراف وتلك الأَنَفَةُ التى تُظْهِر عُجْبَهُ وخُيَلاءه . وقد جرّه التعمق فى طَرْق هذه المعانى إلى الابتعاد عن الخيال الصِّرْف ، والمعانى الشعرية الخالصة . لذلك كان أكثر شعره وخَيْرُه فى الشكوى والرثاء ، حتى لقد تغلبه أحيانا هذه المعانى الجديةُ الممتلئة بها نَفْسُه فلا يكاد يَحِيدُ عنها فى مدح أو عتاب .

فهو يُعْنَى بالمعنى قبل عنايته باللفظ والصنعة . ولذلك كان شعره كثير المعانى ، رَصينا ، واسع الخيال . يَبُثُّ فى قصائده كثيرا من الآراء الفلسفية التى تشبه ما فى شعر المتنبي . وكثير من تلك الآراء تشبه أن تكون محاكاة له . إذ يظهر عليه أنه

قرا شعره وأعجب به وعمــل على محاكاته ، كما فى قصيدته التى يمــدح بها الوزير سابور بن أردشير :

لا تَصْحَبِ الدهر إلا غَيْرَ مُنْتَظِرٍ فالهَمُّ يَطْرُدُهُ قَرْعُ الظَّنابِيبِ (١)
واقْذِفْ بِنَفْسِكَ فى شَعْواءَ خابِطَةٍ كالسَّيْلِ يَعْصِفُ بالصَّوّانِ واللُّوبِ (٢)
إنْ حَنَّتِ النِّيبُ (٣) شَوْقًا وَهْىَ وَاقِفَةٌ فإنَّ عَزْمِىَ مُشْتَاقٌ إلى النِّيبِ

ولكنه مع ذكر هذه الحكم والنَّظَر فى الزمان وأحوال الناس ونَقْدِ الاجتماع ، كثيرا ما كان يُعْنَى بأحواله الخاصّة والميل إلى التمدُّح بصفاته فيقول :

لى مُهْجَةٌ لا أَرَى لها عِوَضًا غَيْرَ بُلُوغِ العُـلا ، ولا ثَمَنـا
أَكُرُّ طَرْفِى فلا أَرَى أَحَدًا إلَّا مَغِيظًا عَلَىَّ مُضْطَغِنـا
يُنْبِضُ لى من لِسانه أَبَدًا نِصَالَ ذَمٍّ يُرْزَقُ الجُنَنا (٤)
ما ضَرَّنا أَنَّنـا بلا جِدَةٍ والبَيْتُ والرُّكْنُ والمقامُ لنـا

وكثيرا ما يردد فى شعره مثل هذه المعانى ويجاهر بعلو شأنه ويسرف فى ذم الدنيا ناقما منها فيقول :

وخلائقُ الدنيا خلائقُ مُومِسٍ للمَنْـعِ آونَةً وللإعطـاءِ
طَوْرًا تُبـادِلُكَ الصَّـفاءَ وتارَةً تَلْقاكَ تُنْكِرُها مِنَ البَغْضاءِ

---

(١) جمع ظنبوب : وهو حرف عظم الساق من الأمام يقال قرع ظنابيب الأمر أى سهلة .

(٢) اللوب جمع لوبة : الحجارة السود .

(٣) جمع ناب : الناقة المسنة .

(٤) جمع جنة : وهى كل ما وقى من سلاح .

وهو فى هذا أشبهُ بالمتنبي فى كِبْرِه وخُيَلائه . وتجده أيضا فى أكثر شعره مُنْقبِضَ الصدر، مبتئس النفس، تضيق به الدنيا فَيَنْدُب أيامه الماضية، ويُعلّل النفس أحيانا فيقول :

وما كُلُّ أيَّامِ المَشِيبِ مَرِيرةً ولا كُلُّ أيَّامِ الشَّبابِ عِذابُ
أؤمِّلُ مالا يَبْلُغُ العُمْرُ بَعْضَهُ كأنَّ الذى بَعْدَ المَشِيبِ شَبابُ
إذا شِئْتُ قَلَّدْتُ(١) الزمانَ وصافَحَتْ لِحاظِى أُمُورًا كُلُّهنَّ عُجَابُ

وقوله :

فأيْنَ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِماعُ ظُلامَتِى إذا نَظَرَتْ أيَّامُهُ فى المَظَالِمِ
ولم أدْرِ أنَّ الدَّهْرَ يَخْفِضُ أهْلَهُ إذا سَكَنَتْ فيهم نفوسُ الضَّراغِمِ
سأصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أنَّنِي مَلَكْتُ به دَفْعَ الخُطُوبِ الهَوَاجِمِ

ويَمْزُج الحِكَم بكُلِّ نوع من أنواع شعره فى أسلوب سهل رشيق يمتاز برِقَّتِه وسلاسةِ عِباراتِه وقُوَّته مع أنها من الحِكَم المعروفة ، كما قال يهنئ أباه بعيد الفطر:

وفى شِدَّةِ الدَّهْرِ اعْتِبارٌ لعاقِلٍ وفى لَذَّةِ الدُّنْيا غُرُورٌ لِواثِقِ
وأكْثَرُ مَنْ شاوَرْتَهُ غَيْرُ حازِمٍ وأكْثَرُ مَنْ صَاحَبْتَ غَيْرُ المُوافِقِ
إذا أنتَ فَتَّشْتَ القُلُوبَ وَجَدْتَها قلوبَ الأَعادِى فى جُسُومِ الأَصادِقِ
وعندى من الوُدِّ الذى لا يَشُوبُهُ لِحاظُ المُرائِي أو كلامُ المُنافِقِ
أُغالِطُ نَفْسِى بَعْدَ مَرْأًى ومَسْمعٍ ولا أَنْظُرُ الدنيا بِعَيْنِ الحَقائِقِ
وما جَمْعِىَ الأَمْوالَ إلا غَنِيمَةٌ لِمَنْ عاشَ بَعْدِى واتِّهامٌ لرازِقِ

أما رثاؤه فهو من أفضل الشعر وأجمعه للمعانى الفلسفية ؛ لأنه ليس من نوع الكلام العام الذى يقال لكل إنسان ، ولا من باب تَعْداد الفضائل ، وإنما هو أقرب إلى المواعظ منه إلى غير ذلك ، ولكنه فى رثائه متشائم يَمْزُجه بما يجول

(١) جعلت فى عنق الزمان قلادة أى كان لى فضل على الزمان .

بخاطره من السَّخَط على الحياة ، وتنساب إليه المعانى بدون تكلُّف ، مما يدلُّ على أنه شاعر مفطور ، وفى رثائه أيضا كثير من الحكم والأمثال والعِظَة . كما قال فى رثاء والدته :

أَبْكِيكِ لو نَقَعَ الغَليلَ بكائى وأقولُ لو ذَهَبَ المقالُ بِدائى
وأعوذُ بالصَّبرِ الجميلِ تَعَزِّيًا لو كانَ بالصبرِ الجميـــل عَزائى
طَوْرًا تُكاثِرُنى الدُّمُوعُ وتارَةً آوى إلى أُكْرُومَتِى (١) وحَيائِى
ما كُنْتُ أَدَّخِرُ فى فِداكِ رَغيبَةً لو كانَ يَرْجِعُ مَيْتٌ بِفِـــداء
لو كانَ يَدْفَعُ ذا الحِمامُ بِقُوَّةٍ لَتَكَدَّسَتْ عُصَبٌ وَرَاءَ لِوائى
قومٌ إذا مَرُّوا بأَغْباب (٢) الثَّرَى كَحَلُوا العُيُون بإثْمِـدِ الظَّلْماء
يَمْشُونَ فى حَلَقِ الدُّروعِ كأنَّهمْ صُمُّ الجَلامِدِ فى غَدِيرِ الماءِ
قد كُنْتُ آمُلُ أنْ أَكُونَ لكِ الفِدَا مِمَّـا أَلَمَّ ؛ فَكُنْتِ أَنْتِ فِدائى
آباؤُكِ الغُرُّ الذينَ تَفَجَّرَتْ بِهِمِ يَنَـابِيعُ مِنَ النَّعْماءِ
مِنْ ناصِرٍ لِلْحَقِّ أو داعٍ إلى سُبُلِ الهُدَى أو كاشِفِ الغَمَّاءِ
مِنْ كُلِّ مُسْتَبِقِ اليَدَيْنِ إلى النَّدَى ومُسَدَّدِ الأَقْـوَالِ والآراءِ

وتجده فى مدحه كثير المعانى والمبالغة على طريقة المتنبي . وغَزَلُه رقيق ليس فيه فُحْشٌ ولا هُجْرٌ كقوله :

قال لى صاحبى غداةَ التقَيْنا نَتَشاكَى حَرَّ القُلُوبِ الظِّماءِ
كُنْتَ خَبَّرْتَنِى بأنَّكَ فى الوَجْـــدِ عَقِيدى وأنَّ داءَكَ دائى
ما تَرَى النَّفْرَ والتَّحَمُّلَ لِلْبَيْـــنِ فماذا انتظارُنا للبكاء ؟
لم يَقُلْها حَتَّى انْثَنَيْتُ لِمـا بى أَتَلَقَّى دَمْعِى بِفَضْلِ ردائى

---

(١) الأكرومة : فعل الكرم .

(٢) الغب بفتح الغين : الغامض من الأرض .

أسلوبه — نعود فنقول إن الشريف الرضى لم يُعْنَ باللفظ والصناعة مثل عنايته بأن يكون من بين الشعراء المفكِّرين . ولكنه كان شاعرا مفطورا على قول الشعر الجميل وبلاغة الكلام . يعرف الجيد من الردىء فى ذلك . فكان أسلوبه بليغا بلا تكلُّف ولا قَصْد ، وكان يغلب عليه أحيانا محاكاة بعض الشعراء، وأكثر ما كان ذلك لأسلوب المتنبي فى التفكير ونسج الكلام . يظهر ذلك فى كثير من شعره حتى لقد يُخَيَّلُ إلى من قرأ شعر المتنبى أن الشريف ناقل عنه كما فى قوله :

خُطُوبٌ لا يُقاوِمُها البَقَاءُ ... وأَحْوالٌ يَدِبُّ لها الضَّراء
ودَهْرٌ لا يَصِحُّ بهِ سَقِيمٌ ... وكَيْفَ يَصِحُّ والأَيامُ داءُ ؟
وأَمْلاكٌ يَرَوْنَ القتْلَ ظُلْمًا ... وفى الأَمْوالِ لو قَنِعُوا فِداءُ

وأحيانا تجده يحاكى البحترى ،وابن الرومى فى السهولة والرقة، وعدم التكلُّف وخفاء الصنعة ، كما فى قصيدته التى مدح بها الطائع لله :

هِمَّةٌ كالسَّماءِ بُعْدًا وكالرِيـ ... ـحِ هُبُوبًا فى كُلِّ شَرْقٍ وغَرْبِ
ونِزاعٌ إلى العُلا يَفْطِمُ العِيـ ... ـسَ عَنِ الوِرْدِ بَيْنَ ماءٍ وعُشْبِ
رُبَّ بُؤْسٍ غَدَا عَلَيَّ بنُعْمَى ... وبِعادٍ أَفْضَى إلَيَّ بقُـرْبِ
وإذا قَلَّبَ الزَّمانَ لَبِيبٌ ... أَبْصَرَ الجَدَّ حَرْبَ عَقْلٍ ولُبِّ

وتجده أحيانا شاعرا بدويا بذكر العِيسَ والبِيدَ ومَرْتَعَ الظبى الرَّبيب كقوله :

حَيِّيَا دونَ الكَثِيب ... مَرْتَعَ الظَّبْيِ الرَّبيب
وَقْفَةً بالرَّبْعِ أَقْوَى (١) ... بَيْنَ أَعْقادِ (٢) الكَثِيب

---

(١) ذهب أو دثر.

(٢) الرمل المتراكم المعقود.

أو يقول :

وعُجْنا العِيسَ تُوسِعُنَا حَنِينًا تُغَنِّينَا ، ونُوسعُها بُكاء

ويميل أحيانا إلى ذكر الألفاظ الغريبة فى شعره مما يجعل بعض أبياته ثقيلة على السمع .

وقد يميل إلى الصناعة اللفظية والتشبيهات المعروفة كقوله :

أعدْتَ سَوادَ أيامى بياضا وأيامُ الوَرَى بِيض وَشِيم [1]

وجملة القول أن أسلوب الشريف الرضى مَزَجَ بين الابتكار والتقليد والسهولة والحُزونة، ولكنّ أكثره فطرىّ سَلِس ، و بين الحضرىّ والبَدَوىّ ، والغُموض والوُضوح، ولكنّه واضحا أكثر منه غامضا . ومن شعره فى الحكم قوله :

وكم صاحب كالرمح زاغَتْ كعوبه أَبَى بعد طول الغمز أن يتقوَّما
تقبَّلتُ منه ظاهرا متبلِّجاً وأَدْمَجَ دونى باطِنا متجهِّما
ولو أننى كَشَّفْتُهُ عن ضميره أقمت على ما بَيْنَنا اليومَ مأتَما
فلا باسِطاً بالسُّوءِ إن ساءَنى يداً ولا فاغِرًا بالذَّمِّ إنْ رَابَنِى فَمَا
كَعُضْوٍ رَمَتْ فيه الليالى بفادِحٍ ومَنْ حَمَلَ العُضْوَ الأليمَ تألَّما
إذا أَمَرَ الطَّبُّ [2] اللَّبِيبُ بِقَطْعِهِ أقولُ عَسَى، ضَنًّا بهِ ، ولعَلَّمَا
صَبَرْتُ على إيلامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ ومَنْ لَامَ مَنْ لا يرعَوِى كَانَ ألْوَمَا
هِىَ الكَفُّ مَضٌّ تَرْكُها بعْدَ دائِها وإنْ قُطِعَتْ شانَتْ ذراعاً ومِعْصَما
أراكَ على قلبى، وإنْ كُنْتَ عاصِياً أعزَّ مِنَ القَلْبِ المُطيعِ وأكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ العَيْنِ لَجَّ بِها القَذَى ولا تَنْجَلِى يومًا ولا تَبْلُغُ العَمَى
دَعِ المَرْءَ مَطْوِيّاً على ما ذَمَمْتَهُ ولا تَنْشُرِ الدَّاءَ العُضَالَ فتَندَما
ومَنْ لم يُوَطِّنْ للصَّغِيرِ من الأذَى تعرَّضَ أنْ يَلْقَى أجَلَّ وأعْظَمَا

---

(١) شيم جمع أشيم : وهو ما يخالط بياضه سواد . (٢) الطب : الماهر الحاذق بعمله كالطبيب .

# الشعر فى مصر

الشعر فى عصر الإخشيد — حينما ضَعُفَ أمرُ الخلافة العباسية ، واستقلّتْ إماراتُها كانت مصرُ والشامُ فى يد محمد بن طُغْج الإخشيد منذ سنة ٣٢٣ هـ من قِبَل أمير المؤمنين الراضى . والشعراء فى هذا العصر مغمورون لا نكاد نُحِسُّ منهم من أحدٍ ، و إن كنّا نؤكد أن مصر فى هذا الوقت لم تَخْلُ من شعراء قد يكونون مجيدين ، ولكنهم لم يَسْعَدوا بالشهرة و بُعْدِ الصِّيت ، أو لم يَتَّصِلْ شِعْرهم بملك مشهور يرتفع برفعته ، ويُذْكَرُ فى التاريخ بذكره . وقد يكون لِقِصَرِ مُدة دولة الإخشيد شأنٌ فى هذا ، فإنها لم تتجاوز أربعا وثلاثين سنة . نعم إن المتنبى زار مصر فى هذه الفترة ، وامتدح كافورا ولكنه لا يُعَدُّ شاعرا مصريا .

ابن طباطبا — وأظهر مَنْ نعرِفه من الشعراء فى هذا العصر ، أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا . قال ابن خلكان : " كان نقيبَ الطالبيين بمصر ، وكان من أكابر رؤسائها ، وله شعر مليح فى الزهد والغزل وغير ذلك " .

ومن قوله :

خَلِيلَىَّ إنِّى للثُرَيَّا لحاسِدٌ ... وإنِّى على رَيْبِ الزمانِ لواجِدُ
أَيَبْقَى جَميعًا شَمْلُها وهىَ سِتَّةٌ ... وأفْقِدُ مَنْ أُحْبِبْتُه وهو واحدُ !

ومما يُنْسَبُ إليه فى طُول الليل :

كأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نهارَها ... فوافَتْ عِشاءً وهْىَ أَنْضاءُ أسْفارِ
وقد خَيَّمَتْ كى تَسْتَرِيحَ رِكابُها ... فلا فَلَكٌ جارٍ ولا كَوْكَبٌ سارِ

( توفى بمصر سنة ٣٤٥ هـ ) .

إبراهيم الجيزى — ونعرِف من بين الشعراء فى هـذا العصر أيضا إبراهيم ابن عبد الله الجيزى اللغوى الأخبارى ، كاتب كافور وداعِيته . قال ابن خلكان :

"دخل رجل مجلس كافور الإخشيدى ودعا له وقال فى دعائه : أدام الله أيام مولانا بكسر الميم من "أيام" فتحدث جماعة من الحاضرين فى ذلك فقام الجيزى وأنشد مرتجلا :

لا غَرْوَ إنْ لَحَنَ الدَّاعِى لِسـيِّدنا ... أو غَصَّ مِنْ دَهَشٍ بالرِيق أوْ بَهِرِ
فتِلْكَ هَيْبَتُهُ حَالَتْ جَلالَتُهـا ... بَيْنَ الأديبِ وبَيْنَ القَوْلِ بالحَصَرِ
فإنْ يَكُنْ خَفَضَ الأيام مِنْ غَلَطٍ ... فى مَوْضِع النَّصْبِ لاعَنْ قِلَّةِ النَّظَرِ
فَقَـدْ تَفَاءَلْتُ عن هـذا لِسَيِّدنا ... والفَالُ مأثُورةٌ عَنْ سَـيِّد البَشَرِ
بأنَّ أيَّامَهُ خَفْضٌ بـلا نَصَبٍ ... وأنَّ أيامَهُ صَـفْوٌ بلا كَدَرِ

الشعر فى عهد الفاطميين — وفى سنة ٣٥٨هـ تغلب الفاطميون على مصر فملكوها ومدّوا فتوحهم إلى الشام حتى بلغوا دِمشق ، وأسسوا مدينة القاهرة ، وجعلوها حاضرة ملكهم . وليس من شأننا هنا أن نبحث فى صحـة انتسابِ الفاطميين إلى فاطمة الزهراء ؛ فقد اختلفت فى ذلك آراء المؤرخين اختلافا كبيرا ، والذى يعنينا الآن أن نعرف أنهم كانوا عربا يفهمون الشعر و يعـدّونه وسيلة من وسائل اعتزازهم وتأييد ملكهم ونشر مذهبهم ، و إن فى مقابلة محمد بن هانئ جيش جوهرٍ القائد وهو زاحف لفتح مصر رمزا خفيا ، واتفاقا عجيبا ، يدل على أن هذه الدولة تقوم فى دعوتها السياسية والدينية على الشعر ، كما تقوم على السيف والرمح وعُدَدِ القتال .

وكان الخلفاء الفاطميون ، وبخاصةٍ أوّلُهم المعزّ لدين الله ، ينافسون بغداد فى كل شىء من أسباب العلم والأدب والحضارة ، وكان النُضار يَسيل من أيديهم

كرما وجودا ، وكانت مصر فى أكثر أيامهم فياضة بالخير ، وكانت لهم عادات ومواسم يكثر فيها الإحسان ويعم ؛ وقد كثرت فى أيامهم الأعياد التى كانت مجالا فسيحا للشعر ، ويكفيك أن تَطَّلِع على ما كتبه المقريزى فى أيام هذه الدولة ومنشآتها وثروتها ، التى كانت تفيض على الأهلين فيضا ، لتعرف ما كانت عليه مصر فى معظم أيامهم من البهجة والجمال واليسر والرخاء ، ولتستطيع بعد هذا أن تستنبط حال الشعر فى أيامهم ، وما كان من كثرة الشعراء والتفافهم حولهم ، وتسابقهم إلى الإحسان فى مديحهم ، ثم ما ينشأ عن ذلك من ارتفاع شأن الشعر ورواج سوقه ، فقد اتصل بهم كثير من الشعراء بين شِيعة وسنِّيين .

أشهر الشعراء — وكان تميم بن المعز لدين الله شاعرا مجيدا ، وسنخصص به كلاما . ومن أشهر من اتصل بالمعز من الشعراء أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بأبى الرَّقَعْمَق . قال صاحب اليتيمة : "هو نادرة الزمان ، وجملة الإحسان ، وممن تصرف بالشعر الجزل ، فى أنواع الجدّ والهزل ، وهو بالشام كابن حَجّاج بالعراق" .

قال السُّيُوطى : "دخل مصر ، ومدح المعز وأولاده والوزير ابن كِلِّس ومات سنة ٣٩٩ هـ" .

ومن مجونه :

| | |
|---|---|
| لَــوْ برِجْلِى ما برأْسِى | لم أبِتْ إلا بِنَجْــد |
| خِفَّــةٌ لَيْسَتْ لِغَيْرِى | لا أرانى اللهُ فَقْــدِى |

ومن ذكرياته لمصر قوله :

| | |
|---|---|
| ليالىَ النيــلِ لا أنساك ما هَتَفَتْ | وُرْقُ الحَمَامِ على دَوْحٍ وأغْصانِ |
| أَصْبُو إلى هَفَواتٍ فيكَ لى سَلَفَتْ | قَطَعْتُهن وعينُ الدهر تَرْعانى |
| مع سادةٍ نُجُــبٍ غُرٍّ غَــطَارِفَةٍ | فى ذِرْوَةِ المجدِ من ذُهْلِ ابنِ شَيْبان |

ومن كبراء الشعراء فى هذا العصر أبو الحسين علىّ البغدادى الشاعر الماجن توفى سنة ٤١٢ هـ. ومنهم محمد بن القاسم وكان شاعر الحاكم بأمر الله ، وهو صاحب البيت المشهور :

ما زُلْزِلَتْ مِصْرُ من سُوءٍ يرادُ بها          لكِنَّها رَقَصَتْ من عَدْلِه طَرَبا

وهناك شعراء كثيرون جدا لا يتسع المجال لاستقصائهم ، وكافيك أن تعلم كَثْرَةَ الشعراء وجُودَ الفاطميين فى صَدْر هذا العصر مما ذكره ابن خِلكان ؛ وهو أنه غداة وفاة الوزير يعقوب بن كِلّس زار الشعراء قبره فرثاه مائةُ شاعر وأُجيزَ كلٌّ منهم .

الصالح بن رزيك — وكان يُجيدُ الشعرَ فى أخريات هـذه الدولة الصالحُ طلائع بن رُزِّيك ، كان وزير الدولة فى أيام الفائز والعاضد مستبدا بشؤونها ، توفى سنة ٥٥٦ هـ .

وله فى كتاب الروضتين لأبى شامة قصائدُ جيِّدةُ النسج ، كان يرسل بها إلى أسامة ابن مُنقِذ لتحريض نور الدين محمود بن زنكى على غزو الصليبيين ، منها قصيدة أولها :

ألا هكذا فى اللهِ تَمْضِى العزائمُ          وتَنْضَى لَدَى الحربِ السُّيُوفُ الصَّوارِمُ

قال العِماد الأَصبهانى فى ترجمتـه : "ونَفَقَ فى زمانه النظم والنثر ، وقَرَّبَ الفُضَلاء ، واتَّخذهم جُلَساء ، ورحَلَ إليـه ذَوُو الرجاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام . وما يُصَدِّق أَحَدٌ أنَّ ذلك شعره لجودته ، وإحكام معانى حكمته ، فيقالُ إن المهذَّب بن الزبير كان ينظم له ، والجليسَ بن الحبَّاب كان يُعينُه ، وله ديوان كبير وإحسان كثير . ولما جلَسَ فى دَسْتِ الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

انظر إلى ذى الدارِ كم          قد حَلَّ ساحَتَها وزيرُ
ولَكَمْ تَبَختَرَ آمنًا          وَسْطَ الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا واللهِ ما          يبقَ الصَّغيرُ ولا الكَبيرُ
ولِمثلِ ما صاروا إليـهِ من الفناءِ غدًا نَصِيرُ"

وعجيبٌ من العماد أن يَجْحَدَ الصالحُ شعره لا لشيء إلا أنه جيِّـد مُحْكَم ، وهل مقام الوزارة وعُلُوُّ المكانة ينافى القُدْرَة الشعرية والسَّبْقَ فى ميدان البيان ؟

المهذب بن الزبير — ومن شعراء هذه الفترة المهذَّبُ بن الزبيْر ، قال فى الروضتين :

" لم يكن فى زمانه أشعر منـه ، وله شعر كثير ، فمما جاء فى إحدى قصائده فى مدح الصالح بن رُزِّيك :

ولقد بعَثْتَ إلى الفرَنْج كتائباً | كالأُسْد حين تَصُولُ فى خَفَّانِ
لَبِسُوا الدُّروعَ ولم تَخَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ | أَنَّ البِحارَ تَحُلُّ فى غُدْرانِ "

وله قصيدة كتب بهـا إلى الداعى باليمن يستعطفه ، لمـا قبَضَ على أخيـه الرشيد فأطلقه :

يا رَبْعُ أَيْنَ تُرى الأَحِبَّـةُ يَمَّمُوا | هَلْ أَنْجَدُوا مِنْ بعدِنا أَوْ أَتْهمُوا؟
نَزَلُوا مِنَ العَيْنِ السَّوادَ وإِن نَأَوْا | ومِنَ الفؤادِ مكانَ ما أنا أَكْتُمُ
رَحَلُوا وفى القَلْبِ المُعَنَّى بَعْدَهُمْ | وَجْدٌ على مَرِّ الزمانِ مُخَيِّمُ
وتعوضَتْ بالأُنْسِ رُوحِى وَحْشَةً | لا أَوْحَشَ اللهُ المنازِلَ مِنْكُمُ
لا تَبْعَثُـوا لى فى النَّسِيم تَحِيَّـةً | إِنِّى أَغارُ مِنَ النَّسيم عليـكُمُ
إِنى امْرُؤٌ قد بِعْتُ حَظِّى راضِياً | مِنْ هـذه الدنيـا بِحَظِّى منكمُ
فَسَـلَوْتُ إلاَّ عنكُمُ وقَنِعْتُ إلاَّ | مِنْـكُمُ وزَهِدْتُ إلا فيـكمُ

( توفى سنة ٥٦١ هـ )

الجليس بن الحباب — ومنهم الجَلِيس بن الحُبَاب ، قال العماد : " جَليسُ صاحب مصر ، فضلُهُ مشهور ، وشعره مأثور ، وكان أوحدَ عصره فى مصر نظماً ونثرا ، وتَرسُّلاً وشعرا ، مات سنة ٥٦١ هـ " .

وله يشكو طبيبا :

وأَصلُ بَلِيَّتِى من قَـدْ غزانِى ... مِنَ السُّقمِ المُلِحّ بعَسْكَرَيْنِ
طَبيبٌ طِبُّهُ كغُـرابِ بَيْنٍ ... يُفرِّقُ بينَ عافيَتِى وبيْنِى
أَتَى الحُمَّى وقدْ شاخَت وباخَتْ ... فرَدَّ لها الشَّبابَ بنُسْخَتَيْنِ
ودَبَّرها بِتَـدْبيرٍ لَطِيـفٍ ... حَكَاهُ عَنْ سِنانٍ أَو حُنَيْنِ
وكانَتْ نَوْبَةً فى كلِّ يَوْمٍ ... فَصَيَّرَها بِحِـذْقٍ نَوْبَتَيْنِ

وكان الجليس كبير الأنف ، فأُولِـعَ ابنُ الصَّيَّاد بهجائه والتَّقْلِيس على أنفه ، وله فى ذلك أكثرُ من ألفِ مَقْطُوعة .

ومن أشهر شعراء هذا العهد عِمارةُ اليمنىّ ، وهو و إن مات فى عهد الأيوبيين ، قال أكثر شعره وأروعه فى عصر الفاطميين ، ولم يَعِشْ فى دولة الأيوبيين طويلا ، وسنخصِّصُ به كلاما فيما بعد .

اهتمام الفاطميين بالشعر والشعراء — ومما يدل على عناية الخلفاء بالشعر واحتفالِهم بالشعراء ، ما حكاه المقريزى عند كلامه على المَنْظَرةِ التى كانت تُطِلُّ على بركة الحَبَش التى شيَّدها الخليفةُ الآمر قال :

" فى هـذه المَنْظَرة طاقات وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل من هـذه الطاقات قطعة من القُماش كُتِبَ عليها قطعةٌ من شعر الشاعر فى المدح ، وعلى الجانب الآخر رَفٌّ لطيف مُذْهَبٌ . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رفّ صُرَّةٌ مختومةٌ فيها خمسون دينارا ، وأن يَدْخُلَ كُلُّ شاعرٍ ويأخُذ صُرّته بيده " .

وقد كان للشعراء بجانب هـذه الصلات والجوائز فى هـذه الدولة مرتبات ، وكان الشعراء يتقدمون بالمدائح فى كل موسِم أو عِيد ، وما كان أكثرَ أعيادَهم ومواسمَهم ، فينالون من مواهب الخلفاء القدر الكثير .

حَكَى المقريزى عند الكلام على فتح الخليج ، بعد أن وصف الاحتفال باليوم وصفا دقيقا ، أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحبُ الباب لحضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، ولهم منازلُ على مقدار أقدارهم .

فالواحد يتقدم الواحد بخُطْوَة فى الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مُسْتَخْدَم يقال له النائب . ففى بعض السنين تقدم شاعر يقال له ابن جَبْر ، وأنشد قصيدة مطلعها :

فُتِحَ الخليجُ فسالَ منه الماءُ     وعَلَتْ عليه الرايةُ البيْضاءُ
فَصَفَتْ مَوارِدُهُ لنا فكأنَّهُ     كَفُّ الإمامِ فَعُرْفُها الإعطاءُ

فانتقد الناس عليه فى قوله " فسال منه الماء " وقالوا أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير وأنشد :

ما زالَ هذا السَّدُّ يَنْظُرُ فَتْحَهُ     إذْنَ الخليفة بالنوال المُرْسَلِ
حتى إذا بَرَزَ الإمامُ بوجهه     وسَطَا عليه كُلُّ حامِلِ مِعْوَلِ

فانتقدوا عليه فى البيت الثانى ، وقالوا : "أهلكَ وَجْهَ الإمام بسَطَواتِ المعاول عليه" مع أنه قَصَد فتحَ السدِّ بالمعاول ، ولكنه لشُؤم طالعه خلَط بين الضمائر .

ثم تقدم شاعر يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وقال قصيدة منها :

لِمَنِ اجتماعُ الخَلْقِ فى ذا المَشْهَدِ     للنيلِ أم لك يا بنَ بنت محمدِ
أم لاجتماعِكما معا فى مَوْطِنٍ     وافيتما فيه لأصدقِ موعِدِ

فأمر له على الفور بخمسين دينارا وخلع عليه وزيد فى جاريه .

نستطيع أن نأخذ من هذه الحادثة أمورا :

أولا — أن الشعراء المتصلين بالقصر كانوا مرتبين على حسب منازلهم فى الإجادة والإحسان .

ثانيا — أن النقد الصحيح كان قويا فى هذه الدولة .

ثالثا — أن الشعراء كانوا يتنافسون فى القول ليصلوا إلى منازل فوق منازلهم .

رابعا — أن الشعراء كانت لهم مرتباتٌ جارية عليهم غيرَ ما كان يوهب لهم من الصِّلات .

خامسا — أن الشعر المصرىّ فى هذا العهد كان دون الشعر الشامىّ منزلة وقوةً ، لأن الأبياتَ التى عُرِضَتْ علينا هنا ، وقد قالها الشعراء المقرَّبون ، وقد قِيلَتْ فى اكبر المواقف وأعظَمها حَفْلا ، ليست من الشعر الجيد الرصين ، والحق أن شعر الشام فى هذا العهد ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى موضع آخر ، كان أسْلَسَ أسلوبا وأنصعَ ديباجةً وأبعدَ مدًى فى المعانى والأخيلة .

تميم بن المعز — هو أبو علىّ تميم بن الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمىّ ، كان من أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه العزيز ، وكان شاعرا مجيدا . قال ابن فضل الله العمرى : "تشبه بابن المعتز وتشبث بذيله ، وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره" (توفى سنة ٣٦٨ ه) .

وقد كان كبير النفس بعيد غايات الآمال ، ويظهر أنه كان يحنّ إلى الخلافة أحيانا فيجِدُ لذلك فى نفسه حَسَراتٍ ينُمُّ عليها شعره كقوله :

يادَهْرُ ما أقساكَ مِن مُتَلَوِّنٍ فى حَالَتَيْـــكَ وما أَقَلَّكَ مُنْصِفا
أَتَرُوحُ للنَّكْسِ الجَهُـولِ مُمَـهِّدًا وعلى اللَّبِيبِ الحُـرِّ سَيْفًا مُرْهَفا
ما قَامَ خَيْرُكَ يازمانُ بِشَرِّه أَوْلَى بنـا ما قَلَّ منـكَ وما كَفَى

وقوله :

أَما والذى لا يَمْلِكُ الأَمْرَ غيرُه ... ومَنْ هُوَ بالسِّرِّ المُكَتَّمِ أَعْلَمُ
لَئِنْ كان كِتْمانُ المَصائبِ مؤلِماً ... لَإعلانُها عِنْدى أَشَدُّ وآلَمُ
وبى كُلُّ ما تَشْكُو العُيونُ أَقلُّهُ ... وإنْ كُنْتُ مِنْهُ دائماً أَتَبسَّمُ

وقد كانت له أخلاق الملوك ، فهو جليد صبور مخاطر ، يستهين بالمصاعب ، قوىُّ العزيمة ، لايهاب الموت ، كريم سامى الهمة :

وإنِّى لأَلْقَى كُلَّ خَطْبٍ بِمُهْجةٍ ... يَهُونُ عليها مِنْهُ ما يَتَصَعَّبُ
وأَسْتَصْحِبُ الأَهْوالَ فى كُلِّ مَوْطِنٍ ... ويَمْزِجُ لى السُّمَّ الزُّعافُ فأَشْرَبُ
فما الحُرُّ إلَّا مَنْ تَدَرَّعَ عَزْمَةً ... ولم يَكُ إلَّا بالقَنا يَتَنَكَّبُ
ومالى أَخافُ الحادثاتِ كأَنَّنى ... جهولٌ بأَنَّ المَوْتَ ما مِنْهُ مَهْرَبُ
خَليلَىَّ ما فى أَكْؤُسِ الراحِ راحَتى ... ولا فى المَثانى لَذَّتى حِينَ تَضْرِبُ
ولكنَّنى للمدحِ أَرْتاحُ والعُلا ... وللجُودِ والإعطاءِ أَصْبُو وأَطْرَبُ
ومَنْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَنَفْسِى وهِمَّتى ... يَرُوحُ لهُ فَوْقَ الكواكِبِ مَرْكَبُ

ومن فخره أيضا :

أَلْقَى الكَمِىَّ فلا أَخافُ لقاءَهُ ... ويَفُلُّ إقدامى شَبا الحَدَثانِ
وأَكُرُّ فى صَدْرِ الخَميسِ مُعانِقاً ... للموتِ حِينَ يَفِرُّ كُلُّ جَبانِ
ويَزيدُنِى كَرُّ الخُطُوبِ تَعَظُّماً ... وتَسَلُّطُ الأَيامِ عِزَّ مَكانِ
وعَلِمْتُ أَخلاقَ الزمانِ فلم أَضِقْ ... ذَرْعاً بأَيامى وغَدْرِ زَمانى
وكما يَمَلُّ الدَّهْرُ مِنْ إعطائِه ... فكذا مَلالَتُهُ من الحِرْمانِ
وكما يَكُرُّ لِمَعْشَرٍ بِسَعادَةٍ ... فكذا يَكُرُّ لِمَعْشَرٍ بِهَوانِ
فإذا رَماكَ بِشِدَّةٍ فاصْبِرْ لها ... فَلَسوفَ يأْتِى بَعْدَها بِلَيانِ

ومن أوصافه التى يتشبه فيها بابن المعتز قوله :

أَمَا تَرَى الرعدَ بكَى فاشتكَى ... والبرقَ قد أَوْمَضَ فاستضحكا
فاشْرَبْ على غَيْمٍ كصِبْغِ الدُّجَى ... أَضحكَ وجْهَ الأرضِ لمَّا بكَى
وانظر لماءِ النيلِ فى مدِّه ... كأَنَّهُ صُندَلَ أو مُسَّكَا

ومن بدائع غزَله قوله :

وما أُمُّ خِشْفٍ ظَلَّ يومًا وليلةً ... ببَلْقعةٍ بَيْداءَ ظمآنَ صاديا
تَهِيمُ فلا تَدْرِى إلى أينَ تَنْتَهِى ... مُوَلَّهَةً حيْرَى تجُوبُ الفيافيا
أَضَرَّ بِها حَرُّ الهَجِيرِ فلم تَجِدْ ... لِغُلَّتِها من باردِ الماءِ شافيا
إذا بَعُدَتْ عن خِشْفِها انعطفَتْ لَهُ ... فأَلْفَتْهُ مَلْهُوفًا من الجُوعِ ظاميا
بأَوْجَعَ منى يومَ شَدُّوا رِحالَهمْ ... ونادَى مُنادِى الحَىِّ أَنْ لا تَلاقِيا

ورَوَى له الثعالبى فى يتيمة الدهر مخمسة طويلة بدئت بالغزل وانتهت بمدح أخيه نزار أولها :

دَمُ العُشَّاقِ مَطْلُولُ ... ودَيْنُ الحُبِّ مَمْطُول
وسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولُ ... ومُبْدِى الحُبِّ مَعْذُول
وإن لم يَصْغَ لِلَّائم

عمارة اليمنى — شاعر كبير سياسى ، كانت حياته مزيجا من النعيم والشقاء، ونهايته المحزنة جديرة بأن تثير العطف والإشفاق . ولد سنة ٥١٥ ﻫ وكان عربيا فقيهاً أديباً ، وله كتاب ذَكَرَ فيه أحواله وأخباره باليمن ثم بمصر ، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يُقْرأ عليه فيها مذهبُ الإمام الشافعى . قال : ”ولى فى الفرائض مُصَنَّفٌ يُقْرأ باليمن وفى سنة ٥٣٩ ﻫ زارنى والدى وخمسةٌ من إخوتى بزبيد ، فأنشدته شيئا من شعرى فاستحسنه ، ثم قال : تعَلَّمْ والله إن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذمّ الناس ، واستحلفنى ألا أهجوَ مسلما ببيت شعر ، فحلفتُ له على ذلك“ .

وحج مع أم فاتك ملك زبيد ، وقد حصل له وجاهة عندها فأثرى .وكثر ماله . ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن . ثم حج سنة ٥٤٩ هـ فطلب منه والى الحرمين السِفارةَ عنه إلى الدولة المصرية . قال : "فقدمتُها سنة ٥٥٠ هـ ، والخليفةُ يومئذ الفائزُ ، والوزيرُله الملكُ الصالحُ طلائع بن رُزِّيك ، فلما حضرتُ للسلام عليهما فى قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما :

الحمدُ للعِيس بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ — حمْدًا يقومُ بما أَوْلَتْ من النِعَمِ"

وفى هذه القصيدة يقول :

فهل دَرَى البيتُ أنّى بعدَ زَوْرَته — ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلاَّ إلى حَرَمِ
حيثُ الخلافةُ مَضْروبٌ سُرادِقُها — بينَ النَّقيضَيْنِ مِن عَفْوٍ ومِن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مُقَدَّسَةٌ — تجلو البغيضَيْنِ مِن ظُلْمٍ ومِن ظُلَمِ
وللنُبُوّةِ آياتٌ تُضِىءُ لنا — على الخفيَّيْنِ من حُكْمٍ ومِنْ حِكَمِ

وفيها يقول :

أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ مُعْتَقِدًا — فوزَ النجاةِ وأجْرَ البِرِّ فى القَسَمِ
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما — وزيرُه الصالحُ الفرّاجُ للغُمَمِ

قال عُمارة : " وكان الصالح يستعيدها مراراً ، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون فى الاستحسان كُلَّ مذهب ، ثم أُفيضتْ علَىَّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذْهبَةٌ ، ودفعَ إلىّ الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعضُ الأستاذين قد خرَجَ لى من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحُمِلَ المالُ معى إلى منزلى ، وأُطْلِقت لى من دار الضِيافة رُسُوم لم تُطْلَق لأَحَد قبلى " .

ولما انثالتْ عليه الصِلاتُ ، وطابَ له بمصر المُقامُ قال :

لياليَّ بالفُسطاط من شاطئ مصرِ ... سَقَى عَهْدَكِ الماضِى عِهادٌ من القَطْرِ
ليالٍ هى العمرُ السعيدُ وكُلُّ ما ... مَضَى مِن سِواها لا يُعدُّ من العُمْرِ
أفادتنىَ الأقدارُ فيها مَوالِيًا ... صَفَتْ بهمُ الأيامُ من كَدَرِ الغَدْ
تَواصَوْا علَى ألَّا تُرَدَّ إرادَتى ... ولو سُمْتُهم نَثْرَ الكواكبِ فى حِجْرِى

وكان من أظهر أخلاق عُمارة الوفاءُ ، فلما قُتِلَ الصالحُ بن رُزِّيْك وجلس شَاوَرُ فى دار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ينالُون من بنى رُزِّيْك أَبَى عُمارة أن يمسّهم بهجاء ، فكان مما قاله :

زالتْ ليالِى بنى رُزِّيْكَ وانصَرَمَتْ ... والحمدُ والذمُّ فيها غيرُ مُنْصرِمِ

إلى أن قال :

ولم يكونوا عَدُوًّا ذَلَّ جانبُـه ... وإنَّما غَرِقُوا فى سَيْلِكَ العَرِم
وما قَصَدْتُ بتَعْظِيمى عِداكَ سِوَى ... تَعْظِيمِ شَأْنِكَ فاعْذُرْنِى ولا تَلُمِ
ولو فَتَحْتُ فَمِى يوماً بذمِّهِمِ ... لم يرضَ فَضْلُكَ إلاّ أن يَسُدَّ فمى

فشكره شاوَرُ وأبناؤه على الوفاء لبنى رُزِّيْك .

ولما زالتْ دولةُ الفاطميين ، وكان لهم مُخْلِصاً ولفَضْلِهم ذاكرا ، امتلأ قلبُ عُمارة حزنا عليهم ، وحَسْرة على ماضى أيامهم ، ولكنه اضْطُرّ إلى مدح صلاح الدين ، فمن مدائحه فيه قوله :

صَحّتْ به مصرٌ وكانتْ قَبْلَه ... تَشْكُو سَقاماً لم يُعَنْ بطبيبِ
عَجَبًا لمعجزةٍ أتتْ فى عَصْرِهِ ... والدهرُ ولّادٌ لكُلِّ عَجِيبِ
رَدَّ الإلهُ به قَضِيَّةَ يوسُف ... نَسقًا على ضَرْبٍ من التقريب
جاءته إخوتُه ووالدُه إلى ... مصرٍ على التدريج والترتيب

وهو كما ترى شعر ضعيف لم يخرج من القلب .

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يهتاجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة فى رثاء دولتهم ، وهى تشرح كثيرا من أحوال الفاطميين وعاداتهم وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر فى رثاء الدول .

قال المقريزى : ” وبسبب هـذه القصيدة قُتِلَ عُمارة رحمه الله وتُحمِّلَتْ له الذنوب “ ، وأول هذه القصيدة :

رَمَيْتَ يادهرُ كَفَّ المجدِ بالشَّلَلِ ... وجِيدَهُ بَعْدَ حَلْيِ الحُسْنِ بالعَطَلِ

ومنها :

لَهْفِي ولَهْفُ بنِي الآمال قاطبةً ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدِمْتُ مصر فأَوْلَتْنِي خلائفُها ... من المكارِمِ ما أَرْبَى على الأَمَلِ

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا تُرَى كانت الأفرنج فاعلةً ... فى نَسْلِ آلِ أمير المؤمنين على ؟
هل كان فى الأمرِ شىءٌ غير قسمةِ ما ... مَلَكْتم بين حُكْمِ السَّبْيِ والنَّفْلِ

ومنها فى ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أُنْسَ وافدِكم ... واليوم أَوْحَشُ من رَسْمٍ على طَلَلِ
وفِطْرَةُ الصومِ إن أَصْغَتْ مكارِمُكم ... تشكو من الدهر حَيْفًا غيرَ مُحتمِلِ
وكُسْوَةُ الناسِ فى الفَصْلَينِ قد دَرَسَتْ ... ورَثَّ منها جديدٌ عنهم وبَلِي
وموسِمٌ كان فى كَسْرِ الخليج لكم ... يأتى تَجَمُّلُكُمْ فيـه على الْجُمَلِ
وأوَّلُ العـام والعيدان كان لكم ... فيهن من وَبْلِ جُودٍ ليس بالوَشَلِ
والأرضُ تهتزُّ فى عِيدِ الغَدِيرِ بما ... يَهتزُّ ما بين قَصْرَيْكُم من الأَسَلِ
والخيلُ تُعْرَضُ فى وَشْيٍ وفى شِيَةٍ ... مثل العرائس فى حَلْيٍ وفى حُلَلِ
ولا حَمَلْتم قِرَى الأضياف من سَعَةِ الـ ... أطباقِ إلاّ على الأعنـاق والعَجَلِ
وما خَصَصْتم ببرٍ أَهْـلَ مِلَّتِكُمْ ... حتى عممتم به الأقصى من المِلَلِ
وللجوامع من أحباسكم نِعَمٌ ... لمن تَصَـدَّرَ فى عِلْمٍ وفى عملِ

وجملة الخبر فى سبب قتله ما ذكره العماد ، وكان متعصبا للأيوبيين ، قال ما ملخصه : "واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصّبة، يعنى الفاطمية، وتزاوروا فيما بينهم خِفْيَة ، وَعيَّنُوا الخليفةَ والوزير ، وأَحْكَموا الرأىَ والتدبير ، وكان عُمارة اليمنىّ عَقِيدَهم ، وكان الفقيه الواعظ زين الدين علىّ يشاركهم ، ويُضْمِرُ لهم الوَقيعة ، فجاء زين الدين وأطلع صلاح الدين على أمرهم ، وطلب مالا بْنِ كامل داعيتهم من المال والعَقار ، فبَذَل له السلطان كُلَّ ما طلبه ، ثم أمر السلطانُ بإحضار رؤسائهم ، فاعترفوا بجُرْمهم ، فاستفتى العلماء فأفتَوْه بقتلهم ، فَصُلِبوا بين القَصْرَيْن ، وفيهم عُمارة اليمنى" .

ويقال إن عُمارة لما مَرُّوا به لِيُصْلَب عَبَروا على جهة دار القاضى الفاضل ، فطلب الاجتماع به ، فقيل ليس إليه طريق ، فقال :

عبـد الرحيم قد احتجب    إن الخلاصَ هو العَجَب

( توفى سنة ٥٦٩ هـ )

## الشعر فى الشام

الدولة الحَمْدَانية — لما ضَعُفَتْ الخلافةُ العباسية، كانت الدولة الحَمْدَانيَّة تسيطر على المَوْصِل وحلب وديار بكر، وكان الحَمْدَانيُّون عَرَبا من قبيلة تغلب، فيهم كثيرٌ من صفات العرب السامية، فكانوا يفهمون الشعر، ويُدركون ما فيه من رَوْعة وجمال، وكان من قبيلتهم فى الجاهلية عمرو بن كُلثوم أحد أصحاب المعلقات.

سيف الدولة — وَلِىَ راسُ أسرتهم عبد الله بن حَمْدان الموصِلَ من قِبَلِ الخليفة المكتفى، ولَقَّبَ الخليفةُ ولَدَه حَسَنًا بناصر الدولة، وولَدَه عليًا بسيف الدولة، وبعد سنة ٣٣٣ هـ تَغَلَّبَ سيفُ الدولة على حلب بانتزاعها من يد أحمد بن سعيد الكلابىّ، وسَيْطَر على شمال الشام. وقد قضى مدّة حكمه، وكانت ثلاثا وعشرين سنة، فى طرد الروم من حدود آسيا الصغرى، ومقاتلة العرب الثائرين الطامعين فى مملكته، وقد ظفر بالروم فى وقائع كثيرة، غَنَّى المتنبى فيها بانتصاراته الباهرة. ويظهر ان هذه الجهود التى بذلها فى حياته استنفدت قوّة الدولة وأموالها، فأدرك دولَتَه شىءٌ من الضعفِ فى أخريات أيامه، وأصبح خلفاؤه عاجزين عن المحافظة على إماراتهم الصغيرة من صولات الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب.

والحَمْدانيون جديرون بعطف التاريخ، وأن تُشيِّعهُم الأقلامُ بكلمات الإعجاب والثناء؛ لأنهم فى مدّة قصيرة من الزمان أَحْيَوْا آداب العرب، وأخلاق العرب، التى مُحِيَتْ أو كادت تُمْحَى فى عصرٍ غَلَبَتْ فيه العُجْمة، وسَيْطَر فيه الأعاجمُ على دِول الإسلام، ذلك العصر الذى يقول فيه المتنبى:

بِكُلِّ أرضٍ وطِئْتُها أُمَمٌ  تُرْعَى بعَبْـدٍ كأنها غَنَمُ

وكان لسيف الدولة بجانب الشهرة التى نالها بانتصاراته المتوالية همةٌ سامية فى إحياء العلم والأدب ، ورغبة صادقة فى تجديد ما كاد يندثر من آداب العربيّة وعلومها ، وقد ندهش حقًّا إذا نظرنا إلى قصر مدة حكمه ، وضيق موارد دولته ، ثم إلى ما كان فى عهده من نهضة كادت تُعيد عهد الرشيد والمأمون ، فقد جمع بِساطُه أعاظم الأدباء ، وكبارَ الشعراء الذين كان من بينهم المتنبي الذى اتصل بقصره تسعَ سنين ،وهو أشعر الشعراء ، ثم أبو فراس ابن عمه ذلك الفارس المغوار الذى له كثير من القصائد الحماسية الرائعة ، ورومياتُه التى قالها فى الأَسر تُثير الحزن وتبعث الشجون ، ومن شعرائه السَّرِى الرفاءُ أكبر الوصَّافين وأبو العباس النامى وأبوالفرج الببغاء وابن نباتة السعدىّ .

وممن اتصل بدولتــه أبو الفرج الأصفَهانى ، الذى أهدَى إليه كتابه الأغانى ، فوصله سيف الدولة بألف دينار ،واعتذر إليه لقلة الصِلة وعِظَمِ الهدية .

وكان خطيبُ جيوشه عبدَ الرحيم بن نباتة الذى كان يُثير حماسة الجند بروائع خَطبه عند مصادمة الروم .

وعاش فى كَنَفه فيلسوف الإسلام الأعظمُ أبو نصر الفارابى ، الذى لم يقبل لزهده أن يتقاضى فى اليوم من بيت المال أكثر من أربعة دراهم .

ونزل فى ذَراه كثيرٌ من علماء اللغة والادب ، اشهرُهم ابنُ خالويهْ الذى كانت ترْحل إليه الطلبة من جميع الأقطار .

وقد بذل سيفُ الدولة للشعراء المالَ الكثير ، لأنه كان عربيا جَوَادًا أريحيًا يهتز للمديح ، فنهضَ الشعرُ فى عهده نهضة مباركة ، وبلغ القِمّة .

رَوَى الثعالبي في اليتيمة عن أبي الحسن محمد قال : "كنت واقفا في السِّماطَيْن بين يَدَىْ سيفِ الدولة بحلب ، والشعراء يُنْشدونه ، فتقدم إليه أعرابيٌّ رَثُّ الهيئة فاستأذن الحُجَّابَ في الإنشاد فأذِنوا له ، فأنشد :

أنتَ عَلِيٌّ وهــذه حَلَبُ ... قد نَفِدَ الزادُ وانتهى الطَّلَبُ
بهــذه تفخَرُ البلادُ وبالْ ... أميرِ تُزْهَى على الوَرَى العَرَبُ
وَعَبْدُكَ الدهرُ قـد أَضَرَّ بنا ... إليكَ من جَوْرِ عَبْدِك الهَرَبُ

فقال سيف الدولة أحسنتَ ولله أنت ، وأمر له بمائتي دينار".

قال الثعالبي : "وحكى ابن لبيب غلام أبي الفرج البَبْغاء أنّ سيفَ الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصِلات ، في كل دينار منها عشرةُ مثاقيل ، وعليــه اسمُه وصورتُه ، فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير ، فقال ارتجالا :

نحنُ بجُودِ الأميرِ في حَرَمِ ... نَرْتَعُ بينَ السُّعُودِ والنِّعَمِ
أَبْدَعُ من هذه الدنانيرِ لم ... يجْرِ قديماً في خاطرِ الكَرَمِ
قد غَدَتْ باسْمِــهِ وصُورَتِهِ ... في دَهْرِنا عُوذَةً من العَـدَمِ

فزادَهُ عشرة أخرى .

وكان أبو فِراسٍ يوما بين يديه في نَفَر من نُدَمائه ؛ فقال لهم سيف الدولة : أيُّكم يُجيز قولى ؟ وليس له إلا سيِّدى . يعنى أبا فِراسٍ :

لكَ جِسْــمِي تُعِلُّهُ ... فدَمِي لِمْ تُحِــلُّهُ ؟

فارتجل أبو فِراس وقال :

أنا إنْ كنتُ مالِكاً ... فلكَ الأَمْرُ كُــلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضَيْعَةً بِمَنْبِج تُغِلُّ ألفَ دينار".

وأخبار جود سيف الدولة و إغداقه على الشعراء ورجال الأدب شائعة مستفيضة.

ورَوَى التاريخُ لسيف الدولة شعرًا جيدا ونقدًا فى الأدب يدل على ذوق عربى مستقيم ، فمن جيد شعره :

راقبتنى العيونُ فيك فأشفقـ ... تُ ولم أخلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيتُ العدوَّ يحسدُنى فيـ ... ـكَ مُجِدًّا بأنفس الأعلاقِ
فتمنيتُ أن تكونى بعيدًا ... والذى بيننا من الوُدِّ باقِ
رُبَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ ... وفِراقٍ يكونُ خوفَ فِراقِ

وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ ، وهى سنة ولادة المتنبى .

ومات بحلب سنة ٣٥٦ هـ ، ولم يكن فى الملوك أغْزَى منه ، حتى إنه جمع من نَفِض الغُبار الذى يجتمعُ عليه فى غَزَواته شيئا ، وعمله لَبِنَةً بقدر الكفِّ وأوصى أن يوضع خَدُّه عليها فى لحده ، فأنفذوا وصيته .

وتَوَلَّى بعدَ سيف الدولة ولدُه سعدُ الدولة أبو المعالى شريف ، ومات سنة ٣٨١هـ وتولَّى بعده وَلَدُه أبو الفضائل سَعْدٌ ، وبموته انقرض مُلْكُ الحَمْدانيين .

حكم نور الدين بن زنكى — واستمرَّ الشعرُ قويًّا بالشام بعد زوال الدولة الحَمْدانية وما وليها من دويلات ، حتى جاء حكم نور الدين محمود بن زَنْكِى ، فرأى الشعرُ الشامىُّ فى الحروب الصليبية مجالا فسيحا فصال وجال .

والحق أن الشعر فى الشام كان كثيرا جدا فى هذه الفترة ، وكان معظمه جيدا . وقد التف الشعراء — وهم كثيرو العدد — حول الغزاة فى الحروب الصليبية يُسجِّلون بطولتهم ، ويُغنُّون بفتوحهم ، فلم يتركوا موقعة إلا دوّنوا حوادثها ، ولا انتصارا إلا أشادوا به ، ولو أردنا الاستشهادَ هنا لحال بيننا ذلك وبين ما نقصد إليه من الإيجاز .

وكانت وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ . وعلى الرغم من كثرة الشعراء فى أيامه والتفافهم حوله ، ذكروا فى ترجمته أنه كان قليل الابتهاج بالشعر ، مرميا بالبخل .

قال يحيى بن محمد الوَهْرانىّ وقد سُئل عن نور الدين : " هو سهمٌ للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تساعده الأفلاك ، وتَعْضُدُه الجيوش والأملاك ، غير أنه عُرِفَ بالمرعَى الوَبِيل ، لابن السبيل ، وبالمحلّ الجديب ، للشاعر الأديب " .

وقال فيه أسامة بن مُنْقِذ :

سلطانُنا زاهدٌ والناسُ قد زَهِدوا ... له فكلٌّ عن الخيرات مُنْكَمِشُ
أيامُه مثلُ شهرِ الصومِ طاهِرةٌ ... من المعاصِي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

وقد رد أبو شامة على مَن وصفه بالبخل مستشهداً بأشعار الشعراء من وصفه بالجود والكرم ، قال : " وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال تعالى : " فإن أُعْطُوا منْها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعْطَوْا منها إذا هُمْ يَسْخَطُون " .

وأشهرُ الشعراء فى عصر نور الدين شاعران : هما أبو الحسين أحمد بن مُنِير ، ومحمد بن نصر القَيْسَرانىّ ، ماتا فى سنة واحدة ، وهى سنة ٥٤٨ هـ ، وقد شبَّههما العماد الأصبهانى لذلك بالفرزدق وجرير . قال أبو شامة فى الروضتين :

" ولم يبق بعد موت القَيْسَرانى وابن مُنير من الشعراء مَنْ يُحْسِنُ وصفَ مناقب نور الدين ، إلا ابن أسعد المَوْصِلِي " .

ويَحْسن بنا أن نُلِمَّ قليلا بهذين الشاعرين .

ابن منير — قال ابن خلكان : له ديوان شعر ، وكان أبوه يُنشد الأشعار ، ويُغَنِّى فى أسواق طرابُلُس ، ونشأ أبو الحسين وحفظ القرآن ، وتعلم اللغة والأدب ، وقال الشعر ، وقدِمَ دِمَشق فسكنها ، وكان رافضيا كثير الهجاء خبيثَ اللسان ، ولما كثُرَ منه ذلك سجنه بورى أتابك طغتكين صاحبُ دِمَشْق مدّة ، وعَزَم على قطع لسانه ، ثم شفعوا فيه فنفاه .

وكانَ بينه وبين القَيْسَرانى مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وكانا مُقيمَيْن بحلب ، ومتنافسين فى صناعتهما ، كما جرت عادة المتماثلين .

ومن قوله :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ زميلَه ... فى منزل فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أنْ تضاءلَ جدَّ فى ... طَلَب الكمالِ فحازَه متنقلا
سَفَهًا لحلمك إن رضيتَ بمشرَبِ ... رَنْقٍ ورزقُ الله قد ملأَ الفَلا
فارِقْ تَرُقْ كالسيفِ سُلَّ فبانَ فى ... مَتْنَيْه ما أخفَى القِرابُ وأَجملا
لا تحسبَنَّ ذهاب نفسك مَوْتَةً ... ما الموتُ إلا أن تعيشَ مُذَلَّلا
للقفرِ لا للفقرِ هَبْها إنَّما ... مَغْنَاكَ ما أغناك أنْ تتوسَّلا
لا ترضَ من دنياكَ ما أدناكَ من ... دَنَسٍ وكُن طَيْفًا جلَا ثُمَّ انجلَى
وَصِلِ الهَجيرَ بهجْرِ قوم كلَّما ... أمطرتهم شَهْدًا جنَوْا لكَ حَنْظَلا
مِنْ غادرٍ خَبُثَتْ مَغَارِسُ وُدِّهِ ... فإذا مَحَضْتَ له الوفاءَ تأوَّلا
للهِ علمى بالزمانِ وأهلِهِ ... ذَنْبُ الفضيلةِ عندهم أن تَكْمُلا
طُبِعوا على لؤم الطِباع فخيرُهم ... إن قلتَ قال وإن سكتَّ تقوَّلا
أنا مَن إذا ما الدهرُ قام بخَفْضِه ... سامته همتُه السِّماكَ الأعزلا
واعٍ خطابَ الخَطْبِ وهو مُجمجِمٌ ... راعٍ أكَلَّ العيسَ من عَدَمِ الكَلا

وكان ابن منير كثيرًا ما يبكّت ابنَ القَيْسَرانى بأنه ما صَحِبَ أحدًا إلا نُكِبَ ، فاتفق أن أتابك عمادَ الدين زنكى صاحبَ الشام غنّاه مُغَنٍّ وهو يحاصر قلعة جعبر :

ويلى من المعرضِ الغضبان إذ نقل الـ ... ـواشى إليه حديثًا كُلُّه زُورُ
سَلَّمتُ فازوَرَّ يَزْوِي قوسَ حاجبِه ... كأننى كأسُ خمرٍ وهو مخمُورُ

فاستحسنها زنكى ، وقال لمن هذه ؟ فقيل لابن منير وهو بحلب ، فكتب إلى والى حلب يُسيِّره إليه سريعا ، فَسَيَّرَه ، فليلةَ وصَلَ ابنُ منير قُتِلَ أتابك زنكى ، فلما دخل ابن منير حلب قال له ابن القيسرانى هـذه بجميع ما كنت تبكّتنى به ، وكانت ولادته بطرابُلُس سنة ٤٧٣ هـ .

ابن القيسرانى — كان من الشعراء المجيدين ، والأدباء المُفَنَّنين ، ومن معانيه البديعة :

هذا الذى سَلَبَ العُشّاقَ نَوْمَهُم ... أَمَا تَرَى عينَه مَلْأَى مِنَ الوَسَنِ ؟

وكان كثير الإعجاب بقوله من قصيدة :

وأهوَى الذى أهوَى له البدرُ ساجِدًا ... ألستَ تَرَى فى وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ ؟

وقال يهنّئ نور الدين بفتح أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ :

هذى العزائمُ لا ما تدَّعى القُضُبُ ... وذى المكارِمُ لا ما قالتِ الكُتُبُ
وهذه الهِمَمُ اللاتى متى خَطَبَتْ ... تَعَثَّرَتْ خلْفَها الأشعارُ والخُطَبُ

ومنها فى وصف المعركة :

والخيلُ من تحت قتلاها تَقرُّ لها ... قوائمٌ خانهن الرَّكْضُ والخَبَبُ
والنَّقْعُ فوقَ صِقالِ البِيض منعقد ... كما استقلَّ دخانٌ تحته لَهَبُ
والسيفُ هامَ على هامٍ بمعركةٍ ... لا البَيْضُ ذو ذِمَّةٍ فيها ولا اليَلَبُ
والنَّبْلُ كالوَبْلِ هَطّالٌ وليس له ... سِوَى القِسِىّ وأَيْدٍ فوقَها سُحُبُ

## ترجمة المتنبي

أبو الطيب أحمد بن الحسين ، ولد ونشأ بالكوفة من أسرة فقيرة، وقد سلك الطريق التي كان يسلكها شباب عصره من ذوى المواهب ؛ فذهب إلى دِمَشق وزار مدنا أخرى فى الشام ، وقضى حينا غير قصير فى بادية السَّماوة للتلقِّ من الأعراب ، وربما كان هذا سرَّ تمكنه من اللغة و إحاطته بأسرارها، و يزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية وكثر أتباعه وأشياعه .

سجن المتنبي وما قيل حول ذلك — ونَقَل فى الصُّبح المنبي عن حيثية المتنبي رواية عمن يُدْعَى مُعاذَ بن إسماعيل ، أن أبا الطيب قدِم عليه باللاذِقِيَّة سنة نَيِّف وعشرين وثلثمائة ، وصارحه بادعاء النبوة ؛ ثم قالوا إن لؤلؤا والى حِمْص قبض عليه وسجنه ، و إنه كتب إليه وهو فى السجن قصيدة منها :

فما لكَ تقبل زورَ الكلام ... وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود

وكن فارقا بين دعوَى أردتُ ... ودعوَى فعلتُ بشأوٍ بعيد

وربما كان سجنه لمحض خروجه على الدولة ، لأنها كانت فى ضعف شديد ، ولأن المتنبي كان بعيدَ الآمال كبيرَ المطامع، وقد وجد الدولة العباسية نَهْبًا مقسَّما، ورأى فى سكان البادية سذاجة فى الطباع يجذبهم إليه بسحر بيانه وقوة عارضته .

ولو كانت القصيدة التى قالها فى السجن فى شأن ادعاء النبوة لكان يكفى فى نفى هذه الدعوى ما يُقيمه المتنبي نفسُه فيها من الحجج على براءته منها ، ويدُلُّ على أن سبب حبسه هو محض الثورة قولُ اليازجىّ فى تفسير قوله :

وكن فارقا بين دعوَى أردتُ ... ودعوَى فعلتُ بشأوٍ بعيد

”وذلك لأنهم كانوا قد وَشَوْا به أنه يريد أن يأخذ البلد“ ويؤيده ماحكاه الثعالبي فى اليتيمة قال : ”وبلغ من كِبْر نفسه و بُعد همته ، أن دعا إلى بَيْعَتِه قوما

قوما من رائِشى نَبْلِه على الحَداثة من سنه ، والغَضاضة من عُوده ، وحين كان يتم له أمر دعوته ، تأدّى خبره إلى والى البلدة ، ورُفع إليه ما هَمَّ به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده".

فالحبس على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية . ثم عاد الثعالبي فقال : "ويحكى أنه تنبأ فى صِباه ، وفتن شِرْذِمَة بقوة أدبه وحسن كلامه" وحكايةُ الرواية على هذا النحو تدلّ على ضعفها .

ولعل سبب تلقيبه بالمتنبي مايقوله تلميذه المتصل به المُلِمُّ بكل أحواله أبو الفتح ابن جِنّى ، قال عند الكلام على قول المتنبي :

أنا فى أمّةٍ تدارَكَها اللّـــــه غريبٌ كصالحٍ فى ثمودِ

إنه بهذا البيت لُقِّبَ بالمتنبي .

ولو ثبتَ ادعاؤه النبوة لرأينا كثيرا من الشعراء يُعيِّره بهذه الزله القاصمة ، على شدّة حسدهم إياه ، وتجاوزه الحد فى احتقارهم والنيل منهم ، والسمو بنفسه كِبراً وزهواً فوقَ منزلتهم ، وإن شيئا من ذلك لم يثبت ثبوتا صحيحا .

خروجه من السجن واستجداؤه بالشعر — ولما خرج من السجن هام على وجهه فى البلاد يَجْتَدِى بشعره ، ويمدح من لاقاه عظُم أو حقُر ، حتى إنه مدح علىَّ بن المنصور الحاجبَ بقصيدة من غُرر قصائده فأجازه عليها بدينار وسميت القصيدة بالدينارية ، واولها :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غوارِبا اللابساتُ من الحريرِ جلاببا

ثم اتصل ببدر بن عمّار وهو أحد ولاة الشام فمدَحه بشعر رائع .

اتصاله بسيف الدولة — وما زال يتقلب فى جَنَبات البلاد حتى اتصل بأبى العشائر ، وكان سيف الدولة قدِم أنطاكية سنة ٣٣٧ هـ ، وأبو العشائر بها ، فقَدّمَ المتنبي إليه ، وأثنى عنده عليه ، وعَرَّفَه منزلتَه من الشعر والأدب . ويقال

إن المتنبي اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه لا يُنشده إلا وهو جالس ، ولا يُكَلَّف تقبيلَ الأرضِ بين يديه ، فدَخَل سيفُ الدولة تحت اشتراطه .

وانقطع المتنبي إليه لا يمدح أحدا سواه نحو تسع سنين ، وكان جملةُ ما قاله فيه يعادل ثلثَ شعره ، وهو من عيون قصائده ولُباب مدائحه .

رحيله إلى كافور — وبعد أن هَجَر سيفَ الدولة رَحَلَ إلى دمشق ثم زَيَّنَ إليه أحدُ أتباع كافور هناك أن يَرْحَل إليه فاتجه إلى مصر . والحقُّ أنه قدم إلى كافور يجذبه الطمعُ فى أن ينال من كافور ولاية ، ويصده الكِبرُ أن يَتَدَلَّى إلى مدح الأسود .

ولو تبصرنا لرأينا نازعة الكراهة والحِقد على كافور تظهر حتى فى كثيرٍ من مدائحه ، وحَسْبُكَ أن تعلم أن أولَ قصيدة لاقاه بها كان مطلعها :

كَفَى بك داءً أن تَرَى الموتَ شافيا      وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

وبذَلَ المتنبي ماءَ وجهه رخيصا فى التزلُّف إلى كافور والاحتيال على أن يقلِّده حكما ، وكانت كلُّ قصيدة من قصائده فيه تنتهى بالشكوى والإلحاح ، ولما رأى أبو الطيب أنه لم يظفَر من كافور بطائل ، كما جهَر بذلك فى قصيدته البائية ، التى امتدحه بها حين يقول :

أمولاىَ هل فى الكأسِ فضلٌ أنالُه      فإنى أُغَنِّى مُنْذُ حينٍ وتَشْرَبُ ؟

عزم على الفِرار ، فأَعَدَّ له عُدَّته ، وهجاه قبل مغادرة مصر بيوم واحد بقصيدته المشهورة :

عِيدٌ بأيةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ      بما مَضَى ، أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ ؟

وله فى هجائه قصائد أخرى من أجود الشعر العربي .

**فراره من مصر** — فرَّ أبو الطيب إلى الكوفة ، ثم رَحَل إلى بغداد ، وترفَّع بها عن مدح الوزير المهلبي ، ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك ، فشَقَّ ذلك على المهلبي ، وأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عِرْضِه ، وتبارَوْا فى هجائه ، وفيهم ابنُ حَجّاج وابنُ سُكَّره ، فلم يجبهم المتنبي ولم يفكّر فيهم .

**ذهابه إلى ابن العميد واتصاله بعضد الدولة** — ثم راسله ابن العميد من أَرَّجان ، فسار إليه ومدَحَه بقصائد عِدَّة . ثم اتصل بعَضُد الدولة بشيراز ، وقد مَرَّ فى أثناء سيره إليه بشِعب بَوَّان ، فوصفه بقصيدة من فرائد الشعر وبدائعه ، ثم ودَّعه بقصيدة كافيَّة أكثر فيها من التشاؤم على نفسه ، كأنه كان يحِسُّ دُنُوَّ أَجَله ، وكان الأمر كذلك ، فإنه قتل فى الطريق بعد ارتحاله من شيراز .

**خبر مقتله** — قال فى الصبح المنبى ، قال الخالديان : ”كتبنا إلى أبى نصر محمد الجُبُلِّى نسأله عما صدر لأبى الطيب بعد مفارقته عضد الدولة ، وكيف كان قتله فأجابنا عن كتابنا جوابا طويلا يقول فى أثنائه :

”أما ماسألتم عنه من خبر مَقْتَل أبى الطيب المتنبى ، فأنا أسوقه لكم وأشرحه شرحا بينا ، اعلموا أنّ مَسِيرَه كان من واسط يومَ السبت لثلاثَ عَشْرَةَ ليلة بقيت من رمضان سنة ثلثمائة وأربع وخمسين ، فقُتِلَ بضَيْعَة تقرب من دَيْر العاقول ، لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، والذى تَوَلَّى قتْلَه وقتَلَ ابنه وغلامه رجلٌ من بنى أسَد ، يقال له فاتك بن أبى جهل ، وكان من قول فاتكُ لما قتله :

” قبحاً لهذه اللّحية يا قَذَّاف المحصَنات ! “ وذلك أن فاتكا هذا هو خال ضَبَّة ابن يزيد العَيْنى الذى هجاه أبو الطيب فأقذَع .

وأما شرح الخبر فإن فاتكا هذا بلغه انصرافُ أبى الطيب من بلاد فارس وتوجُّهُه إلى العراق ، وعلم أن اجتيازه بجبل دير العاقول ، فلم يكن ينزل عن

فرسه ، ومعه جماعة من بنى عمه يَرَوْن فى المتنبى مثلَ رأيه ، فكانوا لا يزالون يتنَسَّمون أخبارَه من كل صادِرٍ ووارد ، وكان كثيرا ما ينزل عندى ، فقلت له يوما وقد جاءنى، وهو يسأل قوما مجتازين عن المتنبى : أراك قد أكثرت السؤال عن هذا الرجل فما تريد منه إذا لقيتَه ؟ فقال ما أريد إلا الجميلَ وعَذْلَه على هجاء ضَبَّة . فقلتُ هذا لا يليق بأخلاقك ، فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر والله لئن اكتحلتْ عينى به لأسفكَنَّ دمَه ! فقلت له كُفَّ — عافاك الله — عن هذا، وارجع إلى الله، فإن الرجل شهيرُ الاسم بعيدُ الصيت، ولا يحسن منك قتلُه على شعر قاله . فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف . وما مضَى بعد هذا إلا أيامٌ قليلة حتى وافانى المتنبى ومعه بغال مُوقَرَة من الذهب والفضة والطيب والملابس والكُتُب الثمينة ، لأنه كان إذا سافر لا يترك فى منزله درهما ولا شيئا يساويه ، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحا .

قال أبو نصر فتلَقَّيْتُه وأنزلته فى دارى ، وسألته عن أخباره ، وعمن لقِىَ فى تلك السَّفْرة . فعرّفنى من ذلك ما سُرِرْتُ به له ، وأقبل يَصِفُ ابن العميد وفضلَه وكَرَمه وعِلْمَه، وكَرَمَ عضد الدولة ورغبتَه فى الأدب وميلَه إلى الأدباء، فلما أمسينا قلت له : يا أبا الطيب علامَ أنت مُجمِع ؟ قال : على أن أتخذ الليلَ مَرْكَبًا، فإن السير فيه أخفُّ علَىّ . قلت : هذا هو الصواب ، رجاء أن يُخْفِيَه الليلُ ، ولا يُصبح إلا وهو قد قطع بلدا بعيدا . وقلت له : والرأىُ أن يكون معك من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضعَ المخيفةَ جماعة يمشُون بين يديك إلى بغداد . فقطَّبَ وجهَه وقال : فما تريد بذلك ؟ قلت : أريد أن تستأنس بهم فى الطريق قال : أنا والجُرَازُ فى عاتِقى ، فما بى حاجة إلى مؤنس غيره . قلت الأمر كما تقول ولكن الرأى فى الذى أشرتُ به عليك . فقال : تلويحُك ينبئ عن تعريض ، وتعريضُك ينبئ عن تصريح ، فعرِّفنى جَلِيَّةَ الأمر . قلت : إن هذا الجاهلَ فاتكا الأسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضَبَّة وقد تكلم بما يوجب الاحترازَ والتيقُّظَ ، ومعه جماعة نحو العشرين

من بنى عمه يقولون مثلَ قوله . فقال غلامُه : الصوابُ يامولاى ما أشار به نصر . فاغتاظ المتنبي من غلامه غيظا شديدا ، وقال : والله لا أرضَى أن يَتحدث الناس بأنى سِرتُ فى خَفارة أحدٍ غيرِ سيفى . قال أبو نصر : فقلت يا هذا أنا أُوَجِّه قوما من قِبَلِى فى حاجة لى يسيرون بمسيرك وهم فى خَفارتك . فقال : والله لا فعلْتُ شيئا من هذا ، ثم قال يا أبا نصر : أبِنَجْوِ الطير تخوفنى ؟ ومن عَبيد العصا تخافُ علىّ ؟ والله لو أن مِخْصَرَتى هذه مُلقاةٌ على شاطئ الفُرات ، وبنو أَسَدٍ مُعْطِشُون لخمس، وقد نظروا الماءَ كبُطون الحيَّات، ما جَسَر لهم خُفٌّ ولا ظِلْف أن يَرِدَه، معاذَ الله أن أشغَل فكرى بهم لحظةَ عين . فقلتُ له : قل إن شاء الله . فقال هى كلمةٌ مَقُولة لا تَدْفَعُ مَقْضِيا ، ولا تَسْتَجْلِبُ آتيا ، ثم رَكِب فكان آخرُ العهد به .

ورثاه أبو القاسم مُظَفَّرُ بن علىّ الطَبَسِى بِمَرْثِية منها :

ما رأى النـاسُ ثانىَ المتنبي   أىُّ ثانٍ يُرَى لبكرِ الزمانِ
هو فى شِــعره نبىٌّ ولكنْ   ظَهـرتْ مُعْجِزاتُه فى المعانى

ورثاه أبو الفتح عثمانُ بن جِنِّى بقصيدة أولها :

ض القرِيض واذوت نضرة الادبِ وصوحت بعـد غارى دوحة الكتب

## منزلته الشعرية

دليل نبوغه الشعرى — يقول كثير من الأدباء إن أبا الطيب كان مجدودا فى شعره، فلم يسعد قبله أو بعده شاعر بما سعِد به من اهتمام رجال الأدب بكلامه، واحتفالهم به ، وتناوُلِ شعره بالشرح والنقد والتحليل ، حتى لكأنه كان ينظر إليهم حين يقول :

أنا الذى نَظَر الأعمى إلى أدبى وأسمعتْ كلماتى مَن به صَمَم
أنامُ مِلْء جُفونى عن شوارِدِها ويَسْهرُ القـومُ جَرَّاها ويَختصِم

والحق أن المتنبى لم ينل هـذه المنزلة عَفوا ، ولم يفضُل الشعراء بِحُظْوةٍ من الجَدِّ ، والتفاتةٍ من الحظّ ، و إنما نالها لنبوغ شعرى نادر ، وعبقرية عَزَّتْ على سِواه ، ويكفيك أن تعرِفَ أنه وَصَل إلى هذه المنزلة فى عصر كان يموجُ بالمجيدين من الشعراء أمثال السَّرِى الرَّفاء ، وأبى العباس النامى وأبى الفرج الببغاء والوأواء الدمشق وغيرِهم .

هجومه على الشعراء — بَزَّ هؤلاء جميعا وقهرهم وكان لا يفتأ يتحداهم ويسخر منهم ، ويهزأ بمواهبهم ، فهو يقول لسيف الدولة :

أَرَى كُلَّ يوم تَحْتَ ضِبْنى شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقاوِينى قَصِيرٌ يُطاوِلُ(١)
لِسانِى بنُطْقِى صامتٌ عنه عاذِلٌ وقَلْبِى بصَمْتِى ضاحِكٌ منه هازِلُ
وأَتْعَبُ مَنْ ناداك مَنْ لا تُجِيبُهُ وأَغْيَظُ من عاداك مَنْ لا تُشاكِلُ
وما التِيـهُ طِبِّى فيهـم غَيْرَ أنَّنِى بَغِيضٌ إلىَّ الجاهِلُ المُتَعَاقِلُ

---

(١) الضبن ما بين الإبط والكشح .

ويقول لسيف الدولة أيضا :

أَرَى المتشاعِرِين غُرُوا بِذَمّى ... ومَنْ ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضَالا ؟
وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

ويقول له :

غَضِبْتُ له لَمّا رأَيْتُ صِفاتِه ... بلا واصِفٍ والشعرُ تَهْذِى طَماطِمُه (١)

ويقول له أيضا :

ولا تُبالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شاعِرِهِ ... قد أُفسِدَ القولُ حتّى أُحمِد الصمم

ثم هو بعد ذلك لاينتمى إلى أصل كريم ، ولا يتصل بمجد قديم ، فلولا تلك الموهبة النادرة والقوة الشعرية الجبارة ، ما استطاع أن يظفَر بتلك المنزلة السامية بين الملوك والأمراء غيرَ مُنازَع ولا مُدافَع ، على كثرة حُسّادِه الأقوياء وأعدائه الحاقدين .

حِكَمه — وقد اشتهر أبو الطيب بالحِكْمة يُرسِلُها فتستقِرُّ فى النفوس مُرتاحة إليها ضنينةً بها ، ولو أردنا أن نستوفى حِكَمَه جميعَها لطال حبلُ الكلام ولكنّا نكتفى بالقليل منها وهى :

لا افتخارٌ إلا لِمَنْ لا يُضامُ ... مُدْرِكٌ أو مُحارِبٌ لا يَنامُ
ليس عَزْمًا ما مَرَّضَ المرءُ فيه ... لَيْسَ هَمًّا ماعاقَ عنه الظّلامُ (٢)
واحتمالُ الأذَى ورؤيةُ جانيـ ... ـه غذاءٌ تَضْوَى به الأجسامُ (٣)
ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذليلَ بِعَيْشٍ ... رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمامُ
كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بغيرِ اقتدارٍ ... حُجَّةٌ لاجِىءٌ إليها اللئامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ... ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

---

(١) الطماطم : جمع طمطم بالكسر وهو الذى فى لسانه عجمة .

(٢) التمريض : التقصير .

(٣) تضوى : تهزل .

ومنها :

إِلْفُ هذا الهواءِ أوقعَ في الأنْـ ... فُسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المذاقِ
والأسى قبـل فُرْقـةِ الروحِ عجزٌ ... والأسى لا يكونُ بعْـدَ الفراقِ

ومنها :

مُشِبُّ الذى يبكى الشبابَ مُشيبُهُ ... فكيفَ توقّيـهِ وبانيـه هادِمُه

ومنها :

وإذا كانتِ النفـوسُ كِبارا ... تَعِبتْ في مُرادِها الأجسامُ

ومنها :

ولم أرَ في عُيـوبِ الناسِ شيئًا ... كنَقْصِ القـادِرين على التمامِ

ومنها :

إذا اعتـادَ الفتى خَوْضَ المنَـايا ... فأيْسَرُ ما يَمُـرُّ به الوحـولُ

ومنها :

إن السلاحَ جميعُ الناسِ تَحمِـلُهُ ... وليس كُلُّ ذَواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

ومنها :

وما الخوفُ إلا ما تَخـوَّفَهُ الفتى ... ولا الأَمْنُ إلا ما رآه الفتى أَمنـا

ومنها :

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاشَ أهْلُها ... مُنِعْنا بهـا من جَيْئَـةٍ وذُهوبِ
تَمَلَّكَهـا الآتى تَمَلُّكَ سـالِبٍ ... وفارَقَهـا المـاضى فِراقَ سَلِيبِ
ولا فَضْلَ فيها للشجاعةِ والنَّدَى ... وصبرِ الفتى لولا لِقاءُ شَعُوبِ (١)

---

(١) شعوب : الموت .

ومنها :

وفى تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ نُورَها ‏ ‏ ‏ ويَجْهَدُ أَنْ يَأتِى لها بِضَرِيبِ

ومنها :

شَرُّ البلادِ مكانٌ لا صَدِيقَ بهِ ‏ ‏ ‏ وشَرُّ ما يَكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

وشَرُّ ما قَنَصَتْهُ راحَتِى قَنَصٌ ‏ ‏ ‏ شُهْبُ البُزاةِ سَوَاءٌ فيهِ والرَّخَمُ (١)

ومنها :

إذا ما لَبِسْتَ الدهرَ مُسْتَمْتِعًا به ‏ ‏ ‏ تَخَرَّقْتَ والملبوسُ لم يَتَخَرَّقِ

ومنها :

ومَنْ يُنْفِقِ الساعاتِ فى جَمْعِ مالِهِ ‏ ‏ ‏ مَخَافَةَ فَقْرٍ فالذى فَعَلَ الفَقْرُ

ومنها :

كُلُّ غادٍ لحاجة يَتَمَنَّى ‏ ‏ ‏ أَنْ يكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالا

إجادة المديح — وقد أجاد المتنبى المديح وأكثر منه ، لأنه كان شاعرا مُجْتَدِياً بشعره ، ومن خير مدائحه قولُه فى سيف الدولة :

أَتَحْسَبُ بيضُ الهند أَصْلَكَ أَصْلَها ‏ ‏ ‏ وأَنَّكَ منها ؟ ساء ما تَتَوَهَّمُ

إذا نحنُ سَمَّيْناكَ خِلْنا سُيُوفَنا ‏ ‏ ‏ مِن التِيهِ فى أَغْمادِها تَتَبَسَّمُ

وقوله :

يا مَلِيكَ الوَرَى المُفَرِّقَ مَحْيًا ‏ ‏ ‏ ومَمَاتًا فيهم وعِزًّا وذُلّا

قَلَّدَ اللهُ دَوْلَةً سَيْفُها أَنْتَ حُساماً بالمَكْرُمات مُحَلَّى

فبِهِ أَغْنَتِ المَوَالِىَ بَذْلًا ‏ ‏ ‏ وَبِهِ أَفْنَتِ الأَعادِىَ قَتْلا

وإذا اهْتَزَّ للنَّدى كان بَحْرًا ‏ ‏ ‏ وإذا اهْتَزَّ للرَّدى كان نَصْلا

---

(١) الرخم : طائر ضعيف .

وإذا الأرضُ أظلمت كان شمسًا ... وإذا الأرضُ أمحلت كان وبلا
وهو الضاربُ الكتيبةَ والطعـ ... ـنةُ تغلو والضربُ أغلى وأغلى
أيها الباهرُ العقولَ فما تد ... ركُ وصفًا أتعبت فكرى فمهلا
من تعاطى تشبهًا بك أعيا ... هُ ومن دلَّ فى طريقك ضلا
وإذا ما اشتهى خلودكَ داعٍ ... قالَ : لازلت أو ترى لك مثلا

وصف الوقائع — أما وصف الوقائع الحربية فقد بلغ فيه الذروة ، وقد دفعته حروب سيف الدولة وانتصاراته إلى الإشادة بفتوحه والتغنى بملاحمه، استمع إليه وهو يصف الجيش :

وذى لجبٍ لا ذو الجناح أمامَهُ ... بناجٍ، ولا الوحشُ المُثار بسالمِ(١)
تمرُّ عليه الشمسُ وهى ضعيفةٌ ... تُطالعهُ من بين ريشِ القشاعمِ(٢)
إذا ضوءُها لاقى من الطير فرجةً ... تدورُ فوقَ البيضِ مثلَ الدراهمِ(٣)
ويخفى عليكَ الرعدُ والبرقُ فوقَهُ ... من اللمعِ فى حافاته والهماهمِ(٤)

ثم إلى قوله يخاطب سيف الدولة :

وقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ ... كأنكَ فى جفنِ الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ... ووجهكَ وضاحٌ وثغركَ باسمُ(٥)
تجاوزتَ مقدارَ الشجاعةِ والنهى ... إلى قولِ قومٍ : أنتَ بالغيبِ عالمُ
ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمةً ... تموت الخوافى تحتها والقوادمُ(٦)
بضربٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ ... وصارَ إلى اللباتِ والنصرُ قادمُ(٧)

(١) اللجب : اختلاط الأصوات .
(٢) القشاعم : النسور .
(٣) البيض : جمع بيضة وهى الخوذة من الحديد .
(٤) الهماهم : جمع همهمة وهى الصوت يردد فى الصدر .
(٥) كلمى : جمع كليم وهو الجريح .
(٦) القوادم : عشر ريشات فى مقدم كل جناح والخوافى ما تحتها .
(٧) الهامات : الرءوس، واللبات : أعالى الصدور .

حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّاتِ حتى طَرَحْتَها ... وحتى كأَنَّ السيفَ للرمحِ شاتمُ (١)
ومَن طَلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنما ... مفاتيحه البِيضُ الخفافُ الصَّوارِمُ
نَثَرْتَهم فَوْقَ الأُحَيْدِبِ كُلِّهِ ... كما نُثِرَتْ فوقَ العَرُوسِ الدَّراهِمُ (٢)
تَدُوسُ بك الخَيْلُ الوُكُورَ على الذُّرا ... وقد كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المَطاعِمُ
تَظُنُّ فِراخُ الفُتْخِ أَنك زُرْتَها ... بأُماتها وهى العِتاقُ الصَّلادِمُ (٣)
إذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَها بِبُطُونِها ... كما تَتَمَشَّى فى الصعيدِ الاراقِمُ (٤)
أفى كُلِّ يَوْمٍ ذا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ ... قَفاه عَلَى الإقدام للوَجْهِ لائمُ (٥)
أَيُنْكِرُ رِيحَ اللَّيْثِ حتى يذوقَهُ ... وقد عَرَفَتْ ريحَ اللُّيُوثِ البهائم

وصف الحمى — وحينما كان بمصر أصيب بالحمى الأجمية (الملاريا) فأجاد وصف أعراضها وآلامها خير إجادةٍ ، والقصيدة مؤثرة جدا منها :

أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائى ... تَخُبُّ بى الرِكابُ ولا أَمامى
ومَلَّنِيَ الفِراشُ وكانَ جَنْبِي ... يَمَلُّ لِقاءَهُ فى كُلِّ عامِ
قليلٌ عائِدِى ، سَقِمٌ فؤادِى ، ... كثيرٌ حاسِدِى ، صَعْبٌ مَرامى
عليلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيامِ ... شديدُ السكْرِ مِن غيرِ المُدامِ
وزائرتى كأَنَّ بها حَياءً ... فليس تَزُورُ إلا فى الظلامِ (٦)
بَذَلْتُ لها المَطارِفَ والحشايا ... فعافَتْها وباتَتْ فى عِظامى (٧)
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفْسِى وعنها ... فَتُوسِعُهُ بأنواعِ السَّقامِ
كأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها فتَجْرِى ... مدامِعُها بأربعةٍ سِجامِ

(١) الردينيات : الرماح . (٢) الأحيدب : جبل . (٣) الفتخ : جمع فتخاء من العقبان وهى اللينة الجناح ، العتاق : كرام الخيل ، الصلادم : الشداد . (٤) الأراقم : الحيات فيها سواد وبياض . (٥) الدمستق : القائد من قواد الروم . (٦) يريد بالزائرة الحمى . (٧) المطارف جمع مطرف : الرداء من الخز . والحشايا جمع حشية : الفراش المحشو .

أراقِبُ وَقتَها مِنْ غيرِ شوقٍ　　مُراقبةَ المَشُوقِ المُسْتَهامِ
ويَصْدُقُ وَعْدُها ، والصِّدْقُ شرٌّ　　إذا أَلقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ
أَبِنْتَ الدَّهْرِ عندى كُلُّ بِنْتٍ　　فَكَيْفَ وَصَلْتِ أنتِ منَ الزِّحامِ (١)

الرثاء — وكان أبو الطيب يجيد الرثاء ، لأنه من طبعه متبرم بالحياة ساخط عليها ؛ ولأنه حكيم عرف قيمة الحياة الدنيا وما فيها من زُخْرُف كاذب وآمال ضائعة . ومن جيد رثائه قولُه فى أخت سيف الدولة :

مَسَرَّةٌ فى قُلُوبِ الطيبِ مَفْرِقُها　　وحَسْرَةٌ فى قلوبِ البَيْضِ واليَلَبِ (٢)
إذا رأى ورآها رأسَ لابِسِه　　رأى المقانِعَ أعلَى منه فى الرتبِ (٣)
وإن تَكُن خُلِقَتْ أُنثى لقد خُلِقَتْ　　كريمةً غَيْرَ أُنثى العقلِ والحَسَبِ
وإن تكن تَغْلِبُ الغَلْباءُ عُنْصُرَها　　فإن فى الخمرِ معنًى ليس فى العِنَبِ
فليتَ طالعةَ الشمسين غائبةٌ　　وليتَ غائبةَ الشَّمْسَيْنِ لم تَغِبِ (٤)
وليتَ عينَ التى آبَ النهارُ بها　　فداءُ عَيْنِ التى زالتْ ولم تَؤُبِ
فما تَقَلَّدَ بالياقوتِ مُشْبِهُها　　ولا تَقَلَّدَ بالهِندِيةِ القُضُبِ

وله قصيدة فى رثاء جدته سارت بها الأمثال .

الفخر — وكان كثير الزهو بنفسه دائم الإعجاب بمواهبه فكثر فى شعره الفخر كقوله :

تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حتى تركْتُها　　تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ (٥)
وأقدمتُ إقدامَ الأَتِيِّ كأنَّ لى　　سِوَى مُهْجَتِى أو كانَ لى عندها وِتْرُ (٦)

(١) يريد ببنت الدهر الحمى وبنات الدهر شدائده .
(٢) البيض : جمع بيضة وهى الخوذة من حديد واليلب جمع يلبة وهى جلدة تلبس فى الرأس للوقاية .
(٣) أى إذا رأى اليلب رأس لابسه ورآها رأى أن قناع المرأة أرفع منه وأشرف .
(٤) طالعة الشمسين : الشمس الحقيقية .
(٥) تمرست : تحككت .
(٦) الأتى : السيل ، والوتر : الثأر .

الهجاء — وقد أكثر من الهجاء ، وكثيراً ما كان يُقْذِعُ فيه ، وقصائد هجائه فى كافور مشهورة منها :

إنى نزلتُ بكذابين ضَيْفُهم ... عن القِرَى وعن التَّرْحالِ محْدُود
جُودُ الرجالِ من الأيدِى وجودُهمُ ... من اللسانِ فلا كانوا ولا الجُود
ما يَقْبِضُ الموتُ نفساً من نفوسِهم ... إلا وفى يده من نَتْنها عُود

الغزل — وقد أكثر من الغزل وأجاد فى كثير منه ، مع أنه غزل صناعى .

واشتهر بغزله فى الأعرابيات ، ونالت شهرة واسعة قصيدته التى يقول فى مطلعها :

مَن الجآذِرُ فى زِىِّ الأعارِيبِ ... حُمْرُ الحُلَى والمَطايا والجلابِيب

ومن أبدع ما قال فى الغزل قوله :

لبِسْنَ الوَشْىَ لا مُتَجَمِّلاتٍ ... ولكنْ كَىْ يَصُنَّ به الجَمالا
وضَفَّرْنَ الغَدائرَ لا لِحُسْنٍ ... ولكنْ خِفْنَ فى الشَّعرِ الضلالا

الشكوى — وله شعر كثير فى الشكوى والتبرم ، وأنه لم ينل فى هذه الدنيا المنزلة التى تسمو إليها نفسه العالية ، كقوله :

فقل فى حاجةٍ لم أقضِ منها ... على شَغَفِى بها شَرْوَى نَقِير
ونفسٍ لا تجيبُ إلى خَسِيسٍ ... وعينٍ لا تُدار على نَظِير
وقلةِ ناصرٍ جوزيتَ عنى ... بشرٍ منكَ يا شَرَّ الدهور !
عَدُوِّى كُلُّ شىءٍ فيك حتى ... لخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرةَ الصُّدور
فلو أنى حُسِدْتُ على نفيسٍ ... لجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُور
ولكنى حُسِدْتُ على حياتى ... وما خَيْرُ الحياةِ بلا سُرُور ؟

خفاء معانيه — وأغلب شعر المتنبي وأكثره رائع بالغ غاية الإجادة كما رأيتَ ، ولكنه يُغْرَم أحيانا بإخفاء معانيه، ولا يكثر ذلك إلا إذا كان المعنى سخيفا حقيرا ، فليس سبب خفاء بعض معانى المتنبي ابتداعها أو بُعْدَ مَرْماها ، وإنما سَبَبُه الإبهامُ فى اللفظ ، والتعميةُ فى صُور التراكيب ، وإلباس المعنى غيرَ ثوبه وكثرة التقديم والتأخير والحذف كقوله :

أنَّى يكونُ أبا البرايا آدمٌ　　وأبوكَ والثَّقَلانِ أنتَ محمد

فانه فصل بين المبتدأ وهو ( أبوك ) والخبر وهو ( محمد ) بجملة ( الثقلان أنت ) فَسَبَّبَ هذا الفصلُ اختلاطَ المعنى على السامع وإبهامه ، وليس فى البيت معنى بديع سليم من النقد ، فإن معناه كيف يكون آدم أبا الخليقة ، وأبوك محمد وأنت الثقلان ؟ يعنى أنك جمعت ما فى الخليقة كلها من صنوف الكمال، فأنت الخليقة، وأبوك أبو الخليقة ، وفساد المعنى يظهر من أنه مع دعواه أن أباه أبو الخليقة لا بد من الرجوع إلى آدم لا مناص ، وأن يكون آدم أبا الخلائق حتما ، فكأنه لم يعمل بتعقيده وتلوية ألفاظه شيئا . وللمتنبي كثير من أشباه ذلك حتى لكأنه كان مولعا بالتعقيد .

ومما أولع به المتنبي المبالغةُ حتى يَصِلَ إلى درجة الاستحالة والسُّخْف أحيانا كقوله :

أىَّ محلٍ أرْتقِى ؟　　أىَّ عظيمٍ أتَّقِى ؟
وكُلُّ ما خَلَقَ اللـهُ　　وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَـرٌ فى هِمَّتِي　　كَشَعْرةٍ فى مَفْرِقِ

وفيه ميل إلى وصف الشيء بصفتين يظهر فيهما شيء من التضاد وليس به كقوله :

أميرٌ أميرٌ عليه النَّدَى　　جوادٌ بَخِيلٌ بألَّا يجُودا

وقوله :

أشَدُّ الغَمّ عندى فى سُرورٍ　　تَيقَّنَ عنهُ صاحِبُهُ انتقالا

وقوله :

نِيطَتْ حَمائلُه بعاتِقِ مِحْرَبِ     ما كَرَّ قطُّ ، وهَلْ يكُرُّ وما انثنَى ؟[١]

وقد يذهب فى الإغراب مذهب الصوفية فى التعبير كقوله :

أَسَفِى على أَسَفِى الذى دَلَّهْتِنى     عن عِلْمِه فبه علىَّ خَفاءُ

وشَكِيَّتِى فَقْدُ السَّقامِ لأَنَّهُ     قد كان لمّا كان لى أعضاء

والحق أن كل معنى خرج به المتنبي مخرج الغرابة فى التعبير كان حقيرا ، وكان أبو الطيب أحقَّ الناس باتباع نصيحة نفسه حين يقول :

أَبْلَغُ ما يُدْرِكُ النجاحُ به الطَّبْـ     ـعُ وعنـدَ التَّعمُّقِ الزَّلَـلُ

وللثعالبى فى يتيمة الدهر فصل مسهب فى نقد المتنبي ، ذكر فيه كثيرا من محاسنه ومساوئه ، ومن أشد ما أخذه عليه شدة التفاوت فى شعره ، وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، ثم التعسُّفُ فى اللغة والتراكيب وقُبْحُ المطالع أحيانا .

## أخلاقه

شجاعته — كان أبو الطيب يجمع كثيرا من صفات الرجولة والبطولة ، وكان شجاعا مقداما ، حضر أكثر مواقع سيف الدولة ، و واجه الموت فى أسفاره الكثيرة ثابت القلب رابط الجأش :

ومَهْمَهٍ جُبْتُهُ على قَـدَمى     تَعْجِزُ عنه العَرامِسُ الذُّلُلُ[٢]

بصـارِمى مُرْتَدٍ بمَخْـبرَتى     مُجْـتَزِئٌ بالظَّلام مُشْتَمِلُ[٣]

فى سَـعَةِ الخافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ     وفى بلادٍ من أُختِهـا بَدَلُ

وحسبك أن تعرف مقدار شجاعته مما قصصناه عليك من خبر قتله .

---

(١) المحرب : الشجاع الشديد فى الحرب .

(٢) العرامس : النوق الصلاب .

(٣) المخبرة : المعرفة .

بعده عن الدنايا — وكان بعيدا من دنايا الصفات ، عازفا عن وضيع الخلال ، مذهبه أنّ الفضيلة وحدها ، بما فيها من جمال ، كفيلةٌ بردّ المرء عن المنكرات ، وذلك كما فى قوله :

وترى الفُتوّةَ والمُروّةَ والأبوّ ة فىّ كُلُّ مليحةٍ ضَرّاتِها
هُنَّ الثلاثُ المانعاتى لذّتى فى خلوتى لا الخوفُ من تبعاتها

جده وقليل من مجونه — وقد كان رجل جِد ليس فيه جانب للمزح والمجون فلم يعهد فيه معاصروه لهوا ولا مجانة ، والذى يقرأ شعره يرى نفسا كبيرة تُطل عليه من أبياته ، وطبيعة سليمة قوية تطهرت من مفاسد عصره ، ولا نجد فى شعره من المزح إلا قليلا ؛ من ذلك قطعة قالها وهو صبىّ ، وقد مرّ برجلين قتلا جرذا ، وهما بما فعلا جِدُّ معجَبين :

لقد أصبحَ الجُرذُ المستغير أسيرَ المنايا صريعَ العَطَب
رماهُ الكِنانىُّ والعامرِىُّ وتلّاهُ للوجْهِ فِعْلَ العرَب (١)
كِلا الرجُلين اتّلى قتْلَه فأيُّكما غَلَّ حُرَّ السَّلَب (٢)
وأيُّكما كانَ من خلفِهِ فإنّ به عضّةً فى الذَّنَب

ومما يشبه المزح أن شاعرا أرسل إلى سيف الدولة أبياتا سقيمة زعم أنه لُقّنَها فى المنام ، فقال أبو الطيب :

قد سمعنا ما قُلتَ فى الأحلام وأنلناك بَدْرةً فى المنام (٣)
وانتبهنا كما انتبهتَ بلا شىْ ءٍ فكانَ النوالُ قدْرَ الكلام

(١) تلاه : صرعاه . (٢) اتلى : تولى . (٣) البدرة : عشرة آلاف درهم .

ومما يُلجئك إلى الابتسام قَولُه يفخَر بشعره :

إذا شاء أن يلهُو بِلحية أحمقٍ      أراهُ غُبارِى ثم قال له : الحق

الخالديان يحسدان المتنبي — ولهذا البيت قصّة فى كتب الأدب ؛ قيل إنّ الخالِديّيْنِ قالا لسيف الدولة : إنك لتُغالِى فى شعر المتنبي ، فاقترِح علينا ما شئتَ من قصائده حتى نعمل أجودَ منها . فدافَعَهما زمانا ، ثم كرا عليه فأعطاهما القصيدة التى أولها :

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لَقِى      وللشوقِ مالم يبقَ منى وما بَقِى

فلما أخذاها قال أحدُهما للآخر : ما هذه من قصائده الطنّانات ، فَلِمَ اختارها من دون سائر شعره ؟ ثم عادا ينظران فيها حتى انتهيا إلى هـذا البيت ففطِنا لمراد سيف الدولة ، ولم يعاوداه ولم يعملا شيئا ، ولهذه القصة نظائرُ كثيرة فى كتب الأدب .

ابو العلاء والشريف المرتضى — ومن نظائر هذه القصة فيما يختص بأبى الطيب ما حَكَوْهُ من أن الشريف المرتضى كان مولعا بالنيل من المتنبي ، فحضر مجلسه يوما أبو العلاء المعرى ؛ وأخذ الشريف على عادته يحطُّ من قـدر أبى الطيب ؛ فقال المعرى لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التى يقول فى أولها :

لكِ يامنازلُ فى القلوب منازلُ      أقفرتِ أنتِ وهن منكِ أواهلُ

لكفى ذلك فى رفع منزلته فوق كل شاعر . فغضِب الشريف أشدَّ الغضب وأمر أن يسحب برجله من مجلسه ، وكاد يفتك بأبى العلاء ، فَدَهِشَ الحاضرون لشـدة غضبه ، وسألوه فى ذلك ، فقال : ألا تعرفون ما يقصـد ؟ فإن هذه القصيدة ليست من عيون قصائد المتنبي ، ولـكنها تشتمل على هذا البيت :

وإذا أتتك مذمّتى من ناقصٍ      فهى الشهـادةُ لى بأنى كاملُ

وهذا ماقصد التعريض به .

صد المتنبي عن مجالس اللهو — وكان يَصُدُّ عن مجالس اللهو والشراب لا يحضُرها إلا قليلا مكْرَها ، فهو يقول لبدر بن عمَّار :

لم تَرَ مَنْ نادَمْتُ إلاّ كا ... لا لســوى وُدِّكَ لى ذاكا
ولا لحُبيهـــا ولــكنّنى ... أصبحتُ أرجـوكَ وأخشاكا

كان غزله صناعيا — وكان المتنبي كثير الغزل ، ولكن غزله صناعيّ على الرغم من جودته ، وبعضه يغلب عليه المنطق ، وتزاحمه الفلسفة ، كقوله :

تقولين مافى الناس مثلُكَ عاشقٌ ... جِدِي مثلَ من أحببتهُ تجدِى مثلِي

أليس فى البيت قياسٌ استثنائيٌّ منطقى ، صورته أن يقال : كلّمـا وُجِدَ مثلُك فى الحسن وُجِدَ مثلى فى شدة الحب ، لكن مثلُك غير موجود فمثلى غير موجود .

وقد صرَّح فى بعض المواطن أنه لم يقصدِ الغزل وإنمـا يَكْنِي به عن غيره كقوله :

مُحِبٌّ كَنَى بالبِيضِ عن مُرْهَفاته ... وبالحُسْنِ فى أجسامهن عن الصَّقْل

وتراه أحيانا يقول :

ضُروبُ النـاسِ عُشّاقٌ ضُروبا ... فأعْــذَرُهم أشَــفُّهُمْ حبيبا
ومـاســكَنِي سوى قتلِ الأعادِى ... فهل من زَوْرَةٍ تَشْفِي القلوبا

ثم تراه حينا يَسْخَر من العشق والعاشقين فيقول :

ممـا أضَرَّ بأهل العشق أنهمُ ... هَوُوا وما عَرَفُوا الدنيا وما فَطِنوا
تَفْنَى عيونُهم دَمعـاً وأنفسُهم ... فى إثْرِ كلِّ قبيحٍ وجهُهُ حَسَنُ

وحينا يَضِيقُ ذَرْعًا بتكلُّف الغزل فى طليعة كل قصيدة ، ويريد أن يَفُكَّ قيود هذه العادة ، فَيَنْعَى على الشعراء تمسكهم بها ويقول :

إذا كان شعرٌ فالنسيب المُقَدَّم ! أكُلُّ فَصِيحٍ قال شِعْرا مُتَيَّمُ ؟

اعجابه بنفسه — وكان شديد الإعجاب بنفسه إلى حد الغرور ، معترا بمواهبه ، واثقا بنفسه ، يكاد يرتفع بها عن طبقة بنى الإنسان :

أنا فى أمة تداركها اللـه غريبٌ كصالحٍ فى ثمودِ

* * *

ومُرْهَف سِرْتُ بين الجحفلين به حتى ضَرَبْتُ وموجُ الموتِ يَلْتطِمُ
الخيلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفُنى والسيفُ والرمح والقرطاسُ والقلمُ

جراءته على ممدوحيه — ومن العجيب أن المتنبي كان على تَكَسُّبه بالشعر عظيم الشَّمَم على ممدوحيه ، جريئا فى مخاطبتهم بشعره . وأنت تعرف ما اشترطه على سيف الدولة عند اتصاله به ، ويَرْوِى أهلُ الأدب كثيرا من أخبار تيهه وإدلاله وجُرْأته على سيف الدولة حتى ضاق به ذَرْعا ، وحسْبُك أن تقرأ قصيدته الميمية التى أنشدها سيفَ الدولة والتى أولها :

واحَرَّ قلْباهُ مِمَّنْ قلْبُه شَبِمُ ومَنْ بجسمى وحالِى عنده سَقَمُ

لتعرف مقدار تَجَنِّى المتنبي على سيف الدولة وشدَّة صَلَفِه وغروه . وقد بلغ من صَلَفِه أحيانا أن يُنْشِدَ القصيدةَ وهو جالس وممدوحه قائم بين يديه ، كما حصل عند ما مدح طاهرًا العَلَوِىَّ بالقصيدة التى أولها :

اعِيدوا صباحِى فهوعند الكَوَاعِبِ ورُدُّوا رُقادِى فهو لَحْظُ الحبائبِ

ولم يظهر شيء من الخضوع والمهانة فى شعره إلا عند اتصاله بكافور ، فقد كان صريحا فى استجدائه ، ذليلا فى مَلَقِه ، استمع إليه حين يقول فى استخذاء وضَعَة :

رَضِيتُ بما تَرْضَى به لى مَحَبَّةً وقُدْتُ إليك النفس قَوْدَ المُسَلِّمِ
ومثلُكَ مَنْ كان الوسيطَ فؤادُه فكَلَّمَهُ عنى ولم أتكلَّمِ

فخره بشعره — وقد أكثر من الفخر بشعره ، وربما كان ذلك من أسباب حقد الشعراء عليه عند سيف الدولة ، فهو يقول له :

وما الدهرُ إلا مِن رُواة قصائدى ‏ ‏ إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنْشِدا
فسار به مَن لا يسيرُ مُشَمِّرًا ‏ ‏ وغَنَّى به مَنْ لا يُغَنِّى مُغَرِّدا
أجِزْنى إذا أنشدتَ شعراً فإنما ‏ ‏ بشعرى أتاك المادِحون مُرَدَّدا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غيرَ صوتى فإننى ‏ ‏ أنا الطائر المحكىُّ والآخر الصَّدَى

ويقول له :

وعنـدى لك الشُّرَّدُ السائرا ‏ ‏ تُ لا يَختَصِصْنَ من الأرض دارا
قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلِى ‏ ‏ وَثَبْنَ الجبالَ وخُضْنَ البحارا
ولى فيك ما لم يقل قائلٌ ‏ ‏ وما لم يَسِر قمرٌ حيث سارا

ويقول له :

إنّ هـذا الشعرَ فى الشعر مَلَكْ ‏ ‏ سارَ فهو الشمسُ والدنيا فَلَكْ

فراه غالبا من الفخر بنسبه — وكان المتنبي ، على ما اشتهر به من وَضاعة نسبه ، كثيرَ التفاخر بنفسه وقد يفر أحيانا من ذكر آبائه كقوله :

أنا ابنُ مَن بَعْضُه يفوقُ أبا البا ‏ ‏ حِثِ والنَّجْلُ بَعْضُ مَن نَجَلَهْ
وإنما يذكر الجدودَ لهم ‏ ‏ من نَفَرُوه وأنفدوا حِيَلَه

وقوله فى رثاء جدته :

وإن لم تكونى بنتَ أكرمِ والدٍ ‏ ‏ لكان أباكِ الضخمَ كونُكِ لى أمّا

وقد يضطر أحيانا عند الفخر بنفسه إلى الافتخار بقومه كقوله :

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى ... وبجَـدّى سَمَوتُ لا بجدودِى
وبهم فخرُ كلِّ مَن نَطَقَ الضا ... دَ وعَوْذُ الجانِى وغَوْثُ الطَّرِيدِ

سخطه على الحياة وضعف ثقته بالناس — وكان شديدَ السُّخُطِ على الحياة ، سيئَ العقيدة فى الناس ، قليل الثقة بهم فهو يقول :

وإنما نحنُ فى جِيـلٍ سواسِيَةٍ ... شَرٍّ على الحُرِّ من سُقْمٍ على بَدَنِ
حَوْلِى بكُلِّ مكانٍ منهم خِلَقٌ ... تُخطِى إذا جئتَ فى استفهامها بمَنِ

ويقول :

ومَنْ عَرَفَ الأيامَ معرِفَتِى بها ... وبالناسِ رَوَّى رُمْحَهُ غيرَ راحِمِ

ويقول :

ودَهْرٌ ناسُـهُ ناسٌ صِغارٌ ... وإنْ كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعَيْشِ فيهم ... ولكن مَعْـدِنُ الذَّهبِ الرَّغامُ

ويقول :

ورُبَّما أشْهدُ الطعامَ معى ... مَن لا يساوى الخبزَ الذى أكَلَهْ
ويُظْهِرُ الجَهْـلَ بى وأعرِفُهُ ... والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِـلَهْ

ويقول :

وما الدهرُ أهْلٌ أنْ تُؤمَّلَ عنـده ... حياةٌ وأن يُشْتَاقَ فيه إلى النَّسْلِ

ويقول :

خليلُكَ أنتَ لا مَنْ قُلْتَ خِلى ... وإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ والكلامُ

ويقول :

أرى أناسًا ومَحْصُولِي على بَقَرٍ      وذِكْرَ جُودٍ ومَحْصُولِي على الكَلِم

ولم يكن رأيه فى الرجال بأحسن من رأيه فى النساء فهو يقول :

إذا غدرتْ حَسناءُ وفَّتْ بعهدها      فَمِنْ عَهْدِها ألَّا يدومَ لها عهدُ

المتنبي بعيد المطامع — وكان المتنبي بعيدَ المطامع واسعَ مدى الآمال ، حتى إنه كان يطمع فى الملك ، ولم يرحل إلى مصر إلا طمعا فى هذه الغاية ، ألا تراه يقول :

أهُمُّ بشيءٍ والليالى كأنها      تُطارِدُنى عن كونه وأطارِدُ

وَحِيدٌ من الخُلَّانِ فى كُلِّ بلدةٍ      إذا عظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقول :

يقولون لى ما أنتَ فى كُلِّ بلدةٍ      وما تبتغِى؟ما أبتغِى جَلَّ أَنْ يُسْمَى

وفاؤه — ونَلْمَحُ فى شعره الوفاء لمن أحسنوا صحبته ، وبذلوا إليه الإحسانَ ، ويظهر ذلك جليا فى وفائه لسيف الدولة بعد مفارقته ، وحنينه إلى الأيام التى قضاها فى كَنَفِهِ ، ومَن تأمَّلَ قصائده فى مدح كافور رأى فيها نزوعا إلى سيف الدولة مُمتزِجًا بالغيظ ممن وَشَوْا به عنده ، ثم إنه ما زال يُنْفِذُ إليه القصائد بعد فِراره من الأسود مادِحا أو مُعزِّيًا ، وفى بعضها :

وما لاقَنِي بَلَدٌ بعدَكم      ولا اعْتَضْتُ مِنْ ربِّ نُعماى ربْ

ومن دلائل وفائه رثاؤه فاتكا ، وكان والى الفيوم ، بعد رحيله عن مصر وانقطاع صلته بكل مَن فيها .

**المتنبي يصف أخلاق نفسه** — وقد وصف لنا المتنبي أخلاقه فى إحدى قصائده فقال :

أَبْدو فَيَسْجُدُ مَن بالسُّوءِ يَذْكُرُني ... فَــلا أُعاتِبُــهُ صَفْحًا وإهوانا

وهكذا كنتُ فى أَهْلِي وفى وطَني ... إنَّ النفيسَ غَرِيبٌ حيثُما كانا

مُحَسَّدُ الفَضْلِ مكذوبٌ على أَثَرِى ... أَلْقَى الكَمِىَّ ويَلْقـانى إذا حانا

لا أَشْرَئِبُّ إلى ما لم يَفُتْ طَمَعًا ... ولا أَبيتُ على ما فاتَ حَسْرَانا

ولا أُسَرُّ بمـا غيرى الحميدُ به ... ولَوْ حَمَلَتَ إلىَّ الدهرَ ملأَنا

## ابو العلاء المعرى

هو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمدُ بن عبد الله بن سليمان بن محمد التَّنُوخى ، ولد بمَعَرَّة النعمان سنة ٣٦٣ ﻫ ، من أسرة لها نصيب غير قليل من العلم والأدب ، فكان أبوه أديبا ينظم الشعر ، وتولَّى جَدُّه قضاءَ المعرة ، وتنتمى أمه إلى أُسرة كريمة المحتِد ، وكانت المعرةُ فى ذلك الحين فى ملك الدولة الحَمْدانية .

ولما بلغ الثالثةَ من عمره أصيب بالجُدَرِىّ ففقد بصره ، وأخذ أبوه فى أول نشأته يلقِّنه النحو واللغة إلى جانب الدروس التى كان يتلقاها من علماء بلدته ، ثم رحَل إلى حلبَ وكانت لا تزال مركزا للعلم والأدب ، وإن تناقصتْ منزلتُها بعد زوال أيام سيف الدولة ، فتجرَّد هناك لدراسة علوم اللغة والأدب ، والتملُّؤ من أشعار العرب وأخبارهم ، وكان نادِرةَ عصره فى جَوْدة الحفظ والذكر ، ويُرْوَى له فى ذلك حكايات شديدة الغرابة لا تخلو من مبالغة وإغراق .

وقد أخذ فى قرض الشعر فى حداثته . ولكنه لم يجعله وسيلة للكسب ، فقد صَرَّح فى مقدمة ديوانه " سَقْط الزَّنْد " بأنه لم يمدح إنسانا رغبةً فى ثوابه . وفى سنة ٣٨٣ ﻫ عاد إلى المعرة ، وكان كلُّ إيراده إذ ذاك من غَلَّة وقف تبلُغ ثلاثين دينارا فى العام يشاطره فيها خادمه ، فاشتغل بتدريس الشعر واللغة والأدب ، وهى العلوم التى تخصص بها ، وفى هذا الوقت أخذت شهرته فى الانتشار والذيوع ، فعزم على أن يطلب حظه ببغداد ، فرحل إليها سنة ٣٩٨ ﻫ ، وهى فى ذلك الحين سوقُ العلوم والآداب ، يعلو فيها شأنُ الأديب ويَشْرُف ، فكانت هناك مجالسُ ينشد فيها الشعراء أشعارَهم ، ويَعرض فيها كلُّ أديب ثمارَ أفكاره ، وكان للشريف الرضىّ فى ذلك الوقت ببغداد دارٌ كانت مُنْتَدَى الأدباء ، ومصدرًا لبدائع فنون الأدب .

قابل أبو العلاء ببغداد عددًا جمًّا من كبار العلماء الذين عرفوا قدره ، ورفعوا ذكره ، وكانت دار السلام حينئذ تموج بالراحلين إليها من أنحاء الشرق على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، بين فُرس وهنود ويهود ومَسيحيين وشيعة وسنية وصوفية ، ويظهر أن أبا العلاء أخذ نفسه بالاطلاع على هذه المذاهب والنِّحَل ، وأنه عُنِيَ عنايةً خاصّة بدراسة فلسفة اليونان والهنود ، وقد ظهرتْ آثارُ ذلك فى أخلاقه وشعرِه بعد قليل .

وفى سنة ٤٠٠ هـ عاد إلى المعرة ولَزِم بيته ، وسَمَّى نفسَه رهينَ المحبِسين ، ولزم الصوم ، وامتنع عن كل ذى رُوح رفقًا بالحيوان وأخذ ينظِم ويؤلِّف ، ونظم لزومياته فى هذه المدّة ، وضمَّنها آراءه الفلسفية فى الشرائع والمذاهب والعادات ونُظُم الحياة ، ولم يطرق شاعرٌ قبلَه ولا بعدَه تلك الأغراض التى قصد إليها أو انتقدها ، وكان متشائمًا يُبغِض الحياة ويراها مَقَرَّ الهموم والآلام ، حتى لقد امتنع عن الزواج ويقال إنه أوصَى أن يُكْتَب على قبره :

هـذا جنـاهُ أبِى عَلَـىَّ وما جنيتُ على أَحَد

وكان عصيَّ المِزاج كثيرَ الشكوك ، لذلك ظهر التناقضُ فى آرائه .

ومن قوله فى اللزوميات :

يكفيكَ أَذْمًا سَلِيطٌ ما أُرِيقَ لهُ     دَمٌ ولا مَسَّ روحًا إذْ جَرَى أَلَمُ

وقوله :

تَسْرِيح كَفِّكَ بُرْغُوثًا ظَفِرْتَ به     أَبَرُّ من دِرهَمٍ تُعطِيهِ مُحتاجا

أما ديوانه "سَقْطُ الزَّنْد" فإنه يجمعُ قصائده التى قالها قبل الرِحلة إلى بغداد وقد جَرَى فيه على سَنَن الشعراء فى موضوعاته وفنونه ، وله فيه شعر جيد ، ومن مختاره قصيدة أولها :

أعن وَخْد القِلاصِ كشفتِ حالا ؟ ومن عند الظلام طلبتِ مالا ؟
ودُرًّا خِلْتِ أنجُمَه عليه ؟ فهلّا خِلتِهِنّ به ذُبالا
وقلتِ الشمسُ بالبيداءِ تِبرٌ ومثلُكِ مَنْ تَخَيَّلَ ثم خالا
رماكِ اللهُ مِنْ نُوقٍ بِرَوْقٍ من السَّنَواتِ تُثْكِلُكِ الإفالا
فقد أكثرتِ نُقْلَتَنا وكانتْ صِغَارُ الشُّهْب أسرَعَها انتقالا

ومن مشهور شعره قصيدته التى أولها :

عَلِّلَانِى فإنّ بِيضَ الأمانِى فَنِيَتْ والظلامُ ليس بفانى
إنْ تناسَيتُما وِداد أناسٍ فاذكرانى فى بعضِ مَنْ تَذكرانِ

وأجاد أبو العلاء الرثاء إجادةً بالغةً الغاية ، ومن أشهر قصائده فى ذلك قصيدته التى يرثى بها فقيها حنفيا ، وهى التى أولها :

غيرُ مُجْدٍ فى مِلّتِى واعتقادِى نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِى

ورَثَى أباه بقصيدة رائعة أولها :

نَقَمْتُ الرِضا حتى على ضاحِكِ المُزْنِ فلا جادَنى إلا عَبُوسٌ من الدَّجْنِ

وله مؤلفات فى الأدب منها رسالة الغفران ، ومن مؤلفاته كتاب الأيك والغصون ، وهو كتاب حافل فى الأدب وأخبار العرب ؛ وقد فُقِد أصلُ هذا الكتاب ، وشرح أبو العلاء الحماسة ، وله تعليقات على ديوان البحترى سماها عَبَث الوليد . توفى بالمعرة سنة ٤٤٩ هـ .

## الشعر فى الدولة الأيوبية

كثرة الشعراء — لمّا ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين ، وهو فارسٌ مِغوار ، مجاهد فاتح ، لا ينتهى من غزوة إلا ليأخذ العُدّة لأخرى فى سبيل نصر الإسلام ، وردّ غارات الصليبيين ، التف الشعراء بمصر والشام حوله ، وأحاطوا بعرشه ، وما أسهلَ القول إن وَجَدَ الشعرُ مجالا ! وما أسلسَ قيادَه إن ثار عن نازعة ووثَب عن عقيدة ! وهل هناك أقوى لإثارة الشعر من نازعة الدين ، ولا سيما إذا أَحَسّ الضعيف قوّة بعد ضعف ، وعِزّةً بعد ذُلّ ، وقد كانت حال المسلمين كذلك ، فهتَف الشعراءُ بمخلِّصهم و بطَلِهم ، وتوَّجوه بتيجان المجد والفخار .

صفات صلاح الدين — وكان صلاح الدين يفهَم الشعر ويهتزّ له ، عَرَض عليه العماد الأصبهانىّ مرة أبياتا فى وصف المُشْمُش منها :

بدَتْ بين أوراقِ الغُصونِ كأنّها ... كُراتُ نُضارٍ فى لُجَيْنٍ مُطَرَّق

فقال تشبيهُ الوَرَق باللُّجين غير موافق ، فإن الورق أخضر فغيّر العِماد الشطر الثانى من البيت .

وكان صلاح الدين جوادا سخيا ، اجتمع عنده وفودُ القدس ولم يكن بخِزانته شىء ، فباع قرية وخصّص ثمنَها بهم ، وكان نوّاب خزانته يُخْفون عنه شيئا من المال حَذَرَ أن يَفْجَأهم مُهِمّ ، لعلمهم أنه متى عِلم به أنفقه .

القاضى الفاضل عماد الدين الأصبهانى — من ذلك نَرى أسبابَ نمو الشعر فى عَهْد صلاح الدين ، فهو مجاهد غازٍ فى سبيل الله ، جواد فيّاض اليدين ؛ يُدرِك أسرارَ بلاغة الشعر ؛ وكان وزيره القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى ؛ وهو إمام البلاغة فى فنّى المنظوم والمنثور ( توفى سنة ٥٩٦ هـ ) . وكان كاتبه ورفيقه

فى أسفاره عماد الدين الأصْبهانىّ الكاتبَ العبقرىّ والشاعر ذا النَّفَس الطويل والعقل الفياض . مات سنة ٥٩٧ هـ .

وجَرَى خلفاءُ صلاح الدين على سنته وإن لم يبلغوا مبلغَه ؛ فكان للشعر والأدب فى أيامهم سوق رائجة .

ابن قلاقس — ومن أشهر شعراء هذه الدولة نصرُ الله بن قَلاقِس الإسكندرى ؛ كان شاعرا مجيدا مدح القاضىَ الفاضل ، ودخل اليمن ومدح ياسرًا وزيرها ، فأجزل صلته ، وفارقه وقد أثْرَى ؛ فركب البحر فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه ، فعاد إليه ومدحه بقصائد منها :

يا راويًا عن ياسِرٍ ... خَبَرًا ولم يَعْرِفْهُ خُبْرا
اقْرَأْ بِغُرَّةِ وجْهِه ... صُحُفَ المُنَى إن كُنْتَ تَقْرَا
والْثُمْ بَنانَ يمينِه ... وقُلِ السلامُ عَلَيْكَ بحرا
وغَلِطْتُ فى تشبيهه ... بالبحر فاللهمَّ غَفْرا
أوَ لَسْتُ نِلْتُ بذا غِنًى ... جَمًّا ونِلْتُ بذاك فَقْرا
وعَهِدْتُ هذا لم يَزَلْ ... مَدًّا وذاكَ يَعُودُ جَزْرا

وُلد بثغر الإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ وتُوُفِّى بعَيْذاب سنة ٥٦٧ هـ .

ابن سناء الملك — ومِنْ مُبدِعيهم القاضى السعيدُ بن سناء الملك هبة الله ، كان شاعرا محظوظا فى الدنيا ، فَنّانا فى بدائعه وأخيلته ؛ وله ديوانٌ جميعُه موشحات سماه دار الطِّراز ؛ وكان للشعراء فى أيامه مجالس ومحافل يتناشدون فيها الأشعار ، وكانت له صلة وثيقة بالقاضى الفاضل ؛ وكانت بينهما رسائل ومطارحات شعرية ، ومن نثره فى وصف النيل فى سنةٍ كان فيها ناقصا :

أمّا أمرُ الماء فإنه نَضَبَتْ مَشارِعُه ، وانقَطَعَتْ أصابِعُه ، وتَيَمَّمَ العمودُ لصلاة الاستسقاء . وهَمَّ المقياسُ من الضعف بالاستلقاء . تُوُفِّى بالقاهرة سنة ٦٠٨

ومن جيد شعره القصيدة المشهورة التى منها :

سِواىَ يخافُ الدهرَ أو يَرْهَبُ الرَّدَى ... وغيْرِى يَهْوَى أن يكونَ مُخَلَّدا
ولكننى لا أرْهَبُ الدهرَ إنْ سَطا ... ولا أحْذَرُ الموتَ الزؤامَ إذا عَدا
ولو مَدَّ نَحْوِى حادِثُ الدهرِ كَفَّهُ ... لَحَدَّثْتُ نفسِى أنْ أَمُدَّ له يَدا

ومن قوله :

فلو أبْصَرَ النَّظَّامُ جَوْهَرَ ثَغْرِها ... لما شَكَّ فيه أنه الجَوْهَرُ الفَرْدُ
ومَنْ قال إنَّ الخَيْزُرَانَةَ قَدُّها ... فقُولوا له : إياكَ أن يَسْمَعَ القَدُّ

وهو أول من أجاد الموشحات من المشارقة .

ابن الساعاتى — ومن الشعراء المبرِّزين علىّ بن رستم المعروف بابن الساعاتى، له ديوان شعر أجاد فيه كُلَّ الإجادة، وديوان آخر لطيف سماه مقطَّعات النيل، ومن قوله :

لله يومٌ فى سُيُوطَ وليلةٌ ... صَرْفُ الزمان بأُختها لا يَغْلَطُ
بتنا وعُمْرُ اللَّيْلِ فى غُلَوائِهِ ... وله بنُورِ البَدْرِ فَرْعٌ أَشْمَطُ
والطَّلُّ فى تلكَ الغُصُونِ كَلُؤْلُؤ ... رَطْبٍ يُصافِحُهُ النَّسِيمُ فيَسْقُطُ
والطَّيْرُ تَقْرأُ والغَدِيرُ صَحِيفَةٌ ... والرِيحُ تَكْتُبُ والغَمامُ يُنَقِّطُ

( مات بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ )

ابن مَمَّاتى — ثم الأسعد بن مماتى، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية نَظَمَ سِيرةَ السلطان صلاح الدين، وكتابَ كَلِيلة ودِمنة. وله فى شخص ثقيل رآه بدمشق :

حكَى نَهْرَيْنِ ما فى الأرْ ... ضِ مَنْ يَحْكِيهِما أَبَدا
حكَى فى خَلْقِه ثَوْرًا ... وفى أخلاقِه بَرَدَى

قال العماد : ولقيته فى القاهرة مُتَوَلّىَ جيش الملك الناصر ، وكان هو وجماعته نصارَى فأسلموا فى ابتداء الملك الصلاحىّ ( مات سنة ٦١٦ ) .

ابن النبيه — وكان فى هـذا العصر كمال الدين بن النبيه الشاعر المصرى الرقيق ، مدح بنى أيوب ، واتصـل بالملك الأشرف موسى وكتب له ، وأقام فى نَصِيبِينَ ( تُوُفى بها سنة ٦١٩ ) .

وله القصيدة الرائعة :

باكِرْ صَبُوحَكَ أَهْنا العَيْشِ باكِرُهُ    فَقَـدْ تَرَنَّمَ فَوْقَ الغُصْنِ طائِرُهُ
والليـلُ تجرِى الدَّرارِى فى مَجَرَّتِه    كالرَّوضِ تَطْفُو على نَهْرٍ أزاهِرُهُ
وكَوْكَبُ الصُّبْحِ نَجَّابٌ على يدِهِ    مُخَلَّقٌ تَمْلأُ الدنيا بشائِرُهُ

ومنها :

خُذْ مِنْ زَمانِكَ ما أَعْطاكَ مُغْتَنِمًا    وأنتَ ناهٍ لهـذا الدهرِ آمِرُهُ
فالعُمْرُ كالكَأْسِ تُسْتَحْلَى أوائلُهُ    لكنَّـه رُبَّمـا مَرَّتْ أواخِرُهُ

ابن مطروح — ثم ابن مطروح جمال الدين أبو الحسن ، من أهـل صعيد مصر نشأ بقوص ، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبى .

ويصوّر شعرُه النقاء والصفاء والرِّقة المصرية ، كتب إلى البهاء زهير وقد سأل عنه وهو مريض :

أيا مَن راحَ عن حالى    يُسائل مُشْفِقًا حَـدِبا
ومَنْ أضحى أخًا لى فى الـوداد وفى الحُنُـوِّ أبا
وحقِّكَ لو نَظَـرْتَ إلىّ كُنْتَ تُشاهِـدُ العَجَبا
جُفُونٌ تَشْتَكِى غَرَقًا    وقَلْبٌ يَشْتَكِى لَهَبا

وجسمٌ جالَتِ الأَسْقا مُ فيهِ فَراحَ مُنْتَهَبا
تسائلُ أعينُ الواشِينَ عَنِّى أعينَ الرُّقَبا
فتَذْكُرُ أنَّها لمحَتْ خيالا فى خِلال هَبا
فواحَرَبا ، وهَلْ يَشْفِى أديباً قولُ واحَرَبا ؟
فبالوُدِّ الذى أمسَى وأصبحَ بيْنَنا نَسَبا
إذا أنا مِتُّ فاندُبنى فَرُبَّ أخٍ أخًا نَدَبا
وقُلْ : ماتَ الغريبُ فأينَ مَنْ يبكِى على الغُرَبا ؟
قَضَى أَسَفًا كما شاءَ الغَرامُ وما قَضَى أَرَبا

( توفى بالقاهرة سنة ٦٤٩ )

ومن شعراء هذه الدولة أيضا :

## ( ١ ) عمر بن الفارض

هو عمر بن علىّ بن المرشد الحموىُّ الأَصْل ، المصرىُّ المولد والدار والوفاة ، يُكْنَى أبا حفص وأبا القاسم ، ويُلَقَّبُ بشَرف الدين ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ، وله ديوان شعر جمعه حفيد له يدعى عليا ، دوّن بصدره نُبْذَةً من حياة جَدِّه ، موجزُها أنه كان رَبْعَةً فى الرجال ، وَسيماً أبيضَ الوجه مُشْرَبا بحُمرة ، وأنه كان فى أحوال نُسْكِهِ تنتابه غَشْيَةٌ يزيد وَجْهُه عندها جمالا وتَلألُؤا ، ويتَصبَّبُ العرقُ من جسمه حتى يَبُلَّ الأرضَ ، وإذا مَشَى فى المدينة تكاثر الناس حوله لتقبيل يديه ، ولكنه كان لا يرضَى منهم إلا بالمصافحة . وحكى عمر بن الفارض عن نفسه أنه فى أول عهده بالتجرُّد عن الدنيا ، كان يستأذن والده ليذهب إلى ناحية فى سَفح المقطم ، وأنه كان يقيم هناك بعيدا عن الناس ليالى وأياما ، ثم يُضْطَرّ إلى الرجوع إلى المدينة للبقاء مع أبيه حينا ، وكان أبوه فى ذلك الحين فى مَنْصِب شرعىّ جليل ، وكان من أعماله كتابةُ فروض النساء ، لذلك سُمِّىَ ابنُه بابن الفارض ، فكان الوالد يُسرُّ عند عَوْدَة ابنه إليه ، فلا يكاد يمكث حينا حتى تَحِنَّ نفسُه إلى العَوْدة

إلى الانفراد والخَلْوَة ، وهكذا استمر على ذلك مرارا ، ثم عُرِضَ مَنْصِبُ القضاء على أبيه فأبَى ، واستقال من عمله ، واعتزل الناسَ هو أيضا ، وتفرَّغَ للعبادة فى خَلْوة بالأزهر ، فلما مات أبوه رجع ابن الفارض إلى ما كان عليه من التَّجرُّد والبُعْد عن الناس والتَّحنُّث والزُّهدِ ، و بينما كان فى أحد الأيام فى المدرسة السيوفية ، قابل أحد الصوفية فنصح له أن يذهب إلى مكة فسافر إليها ، وأقام بها خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً ، ثم عاد إلى القاهرة فكان موضع إجلالِ الناس ، يُبالغون فى تعظيمه ، و يتنافَسُون فى التقرُّب إليه ، ثم حج إلى البيت الحرام ثانية ، وهناك قابل شهابَ الدين أبا حَفْصٍ عمر السَّهْرَوَرْدِى ، ثم عاد إلى مصر وتُوفى بها سنة ٦٣٢ ﻫ . ودُفن بالقرافة بسَفح المقطم .

وديوان شعره مشهور ذائع ، وهو شعر صوفى ، يكثر فيه البديع مع الإجادة والرِقة وطول النَّفَس ، وكان شعرُ ابن الفارض موضِعَ عناية الأدباء ، فتناوله كثير من الشُّرَّاح ، وأشهر شُرّاحه الشيخُ حسن البُورِينى المتوفَّى سنة ١٠٢٤ ﻫ . وتناوَلَ فى شرحه ظاهِرَ الألفاظ ، وما يؤخذ منها من المعانى ، وشرحه الشيخ عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ ﻫ شرحا صوفيا ، وقد اشتهرت تائيته الكُبْرَى التى جمع فيها كثيرا من حقائق طريقة القوم ، وعدد أبياتها واحد وستون وسبعمائة بيت ، وأولها :

سَقَتْنِي حُمَيَّا الحُبِّ راحةُ مُقْلتِي ... وكأسِى مُحَيَّا مَنْ عن الحُسْنِ جَلَّتِ

ومن تائيته الصغرى :

نَعَمْ بالصَّبا قلبِي صَبَا لأَحبَّتِى ... فياحبَّذا ذاكَ الشَّذَا حين هَبَّتِ
تُذَكِّرُنى العَهْدَ القديمَ لأَنَّها ... حَدِيثَةُ عَهْدٍ عن أُهَيلِ مودَّتى
فلِى بينَ هاتيكَ الخيامِ ضَنِينَةٌ ... علَىَّ بجمعِى سَمْحةٌ بتَشتُّتِى
مُحجَّبة بينَ الأسِنَّة والظُّبا ... إليها انْثنَتْ ألبابُنا إذْ تَثنَّتِ
تُبيح المنايا إذْ تُبيحُ لنا المُنَى ... وذاكَ رَخِيصٌ مُنْيَتِى بمَنِيَّتِى
متى أوْعَدَتْ أوْلَتْ و إنْ وعدتْ لَوَتْ ... و إنْ أقْسمتْ لا تُبْرِئُ السُّقمَ برَّتِ

ومنها :

هو الحبُّ إن لم تَقْضِ لم تَقْضِ مَأرَبا ... مِنَ الوَصْلِ فاختر ذاك أو خَلِّ خُلَّتى

ودَعْ عنك دَعْوَى الحب واختر لغيره ... فــؤادَكَ وادْفَعْ عنه غَيَّكَ بالتى

وجانبْ جَنابَ الوَصْلِ هيهات لم يكُن ... وها أنتَ حَىٌّ إن تَكُنْ صادقًا مُتِ

وقالوا : تلافَ ما بَقِى منكَ قُلْتُ : لا ... أَرَانِى إلَّا للتِلاف تَلَفُّــتِى

غرامى أَقِم صَبْرِى انْصَرِمْ دَمْعِى انْسَجِمْ ... عَدُوِّى انْتَقِمْ دَهْرِى احْتَكِمْ حاسِدِى اشْمَتِ

ومن غرامياته :

مالى سوى رُوحِى وباذِلُ نفسِه ... فى حبِّ مَنْ يَهْواه ليس بِمُسْرِف

فلئن رَضِيتَ بهــا لقد أسعفتنى ... يا خيبةَ المَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ

وكلُّ شعره من هذا الطِراز رِقَّةً وانسجاما وجُنوحا إلى البديع وانتحــاء منحى التصوف .

## ( ٢ ) بهــاء الدين زهير

هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علىّ المهلبىّ ، كان من فُضَلاء عصره وأجودهم نظما ونثرا وخطًا ، اتصل بالملك الصــالح نجم الدين أيوب فولاه ديوان الإنشاء ، وقد حافظ على وَلائه للصالح فى أثناء نكبته ، فلما عاد إلى الملك زاده منــه تقرُّبا واتصالا ، وكان بينه وبين ابن مَطْروح مودّة ومحاورات أدبية ، ويمتاز شعره بالرِقة وخفة الروح ، وهو فى هاتين نسيجُ وَحْدِه لا يشابهه فيما مشابه ، حتى أصبح شعرُه مضرِبَ المثل فى العذوبة والسهولة ، ومثالاً للشعر المصرى فى أجمل صورِه ، وقد تناول ديوانه فنون الشعر وأغراضه ، وله مجون لطيف ومزاح مقبول .

ومن قوله الرقيق فى الغَزل الذى يشبه النثر لولا وزنه وقافيته :

إن شـكا القلبُ هجْرَكم　　مَهَّـدَ الحبُّ عُذْرَكُم
لـو رأيـتم محلَّكم　　من فؤادى لَسَرَّكُم
قَصِّروا مُـدَّةَ الجَفـا　　طـوَّلَ اللهُ عمرَكم

وقال وقد تقدّمت به السنّ :

قالوا كَبِرْتَ عن الصِّبا　　وقَطَعْتَ تلكَ النـاحِيه
فَـدَعِ الصِّبا لِرجالِهِ　　واخلَـعْ ثيابَ العـارِيه
ونَعَمْ كَبِرْتُ وإنّما　　تـلكَ الشمائلُ باقيـه
وتَفُوحُ من عِطْفَىَّ أَنْـ　　ـفاسُ الشبـابِ كما هِيَـه
ويَمِيـلُ بى نَحْوَ الصِّبـا　　قلبٌ رقيـقُ الحاشِيه
فيـه مِنَ الطَّرب القديـ　　ـمِ بَقِيَّـةٌ فى الزاويه

ومن مجونه قوله :

لكَ ياصَـديق بَغْـلَةٌ　　لَيْسَتْ تُسـاوِى خَرْدَلَه
تَمْشِى فتَحْسبها العيُـو　　نُ على الطَّرِيقِ مُشَكَّلَه
وتُخـالُ مُـدْبِرَةً إذا　　ما أَقْبَلَتْ مُسْـتَعْجِلَه
مِقْـدار خَطْوَتِها الطّويـ　　ـلَة حِينَ تُسْرِعُ أَنْمُلَه
تَهْـتَزُّ وهى مكانَهـا　　فَـكَأَنّمـا هى زَلْزَلَـه
أَشْـبَهْتَهـا بل أشْبهتْـ　　ـكَ كأنَّ بينكما صِلَه
تَحْـكِى صِـفاتِكَ فى الثّقـا　　لَـةِ والمهانَةِ والبَلَه

ومن قوله فى الرثاء :

يا واحِدًا ما كانَ لى غيْرُه    بَعْــدَكَ واقِـلّةَ أنصارِى
يامنتهى سُـؤلى ويامُشْتكَى    حُزنى ويا حافِـظَ أَسرارى
الدارُ مِن بَعْدِك قد أصبحتْ    فى وَحْشَـةٍ يامُؤنِسَ الدار
إن كنتَ قد أَصْبَحْتَ فى جَنَّةٍ    إنّى مِنْ فَقْدِكَ فى نارِ
جارُكَ قَلْبى كَيْفَ أَحْرَقتَـه    واللهُ أَوْصَى الجارَ بالجارِ

ومن قوله فى قصيدة يخاطب الملك الصالح :

هذا زُهَيْرُكَ لا زُهيرُ مُزَينةٍ    وافاكَ لا هَرِماً على عِلاّته
دَعْهُ وحَولِيـاتِه ثمّ استمع    لزهيرِ عصرِكَ حُسْنَ لَيْلِيَاته

( توفى سنة ٦٥٦ هـ )

## الكتابة

انتقلت الكتابة العربية فى هذا العصر من الاقتصار على جزالة اللفظ ووضوح الدلالة والإيجاز وقلة السجع إلى التعمل والمغالاة فى الصناعة اللفظية ، باستعمال المحسنات البديعية ، من التزام السجع بأنواعه ، والجناس والطباق والتورية ، والتكلّف فى ذكر المجاز والاستعارة والتشبيه ، وكثرة التضمين ، والاقتباس للأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة . وبثّ الفُرْسُ فى الكتابة كثيراً من ألقاب التعظيم والتبجيل ، وأُدْخِلَتْ بعضُ العبارات الفلسفية فى كتابة الرسائل كما فى كتابة ابن العميد وغيره . وأصبحت الصناعة غرضا من أغراض الكتّاب يمتاز بالبراعة فيها كبارُهم ،حتى سَرَى ذلك إلى المؤلَّفات العلمية والأدبية . ثم اطَّلَع بعضُ الكُتَّاب النابهين على شىء من أساليب القِصَص الفارسية، سواء أكان ذلك بالسماع أم بالقراءة ، وأخذوا فى محاكاتها . فنشأ من ذلك الرسائل القَصَصِيَّة المعروفة بالمقامات .

وبلغت الكتابة فى هذا العصر شأواً لم تبلغه فى أى عصر من عصور اللغة ، من حيث الصناعة اللفظية . وكان فى هذا العصر أعلام الكتّاب وكبار الأدباء ، كابن العميد والبديع ، والخوارزمى والحريرى والصابى ، والعماد الأصبهانى . ولم تَعْرِف اللغةُ مثلَ هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومَن عاصرهما .

ولكنّ الكتّاب اقتصروا على كتابة الدواوين والإخوانيات والرسائل الأدبية ، ولم يُعْنَوْا بالموضوعات العامّة ، كالقِصص والتوسُّع فى أخيلة المقامات وأغراضها . ولا شكّ فى أن استيلاء الأعاجم على الدولة الإسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة إلى العناية بالزُّخرف اللفظى والانصراف عن الأسلوب العربى الصافى الذى امتاز به كتّاب العصر الأول .

## ابن العميد وطريقته فى الشرق

ابن العميد — هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد . وُلد فى سنة ٣٠٠ هـ وتُوفى سنة ٣٦٠ هـ . وهو من أصل فارسىّ ومن أسرة معروفة بمدينة ( قُم ) . كان والده مشهورا بالعلم وحسن التدبير ، فاتصل ببنى بُوَيْه وساعدهم على تأسيس دولتهم . وقد تربّى ابن العميد ونشأ على ما كان عليه أبوه فاستوزره ركن الدولة بن بُوَيْه ، واشتهر بحسن الرأى والتدبير فى دولة بنى بويه .

وكان اطّلاعُ ابن العميد الواسعُ سببا فى نمو فكره ، وسَعة معلوماته وصَقْل ذوقه فى الكتابة ، ومعرفته بفنون الكلام ، والميل إلى تهذيب العبارات ، والاشتغال بإنشاء الرسائل ، حتى بَرَع فى الكتابة دون غيرها من الفنون والعلوم ، وكان من أئمة البلاغة فى زمانه . وقد كانت العناية بالصناعة اللفظية فى عصره تَفُوق كلَّ شىء . فلما ذاعَ أمرُ ابن العميد فى الكتابة اتّبَعَ الناسُ طريقته ووَلِعُوا بها ، وانتشر أسلوبه فى العالَم العربىّ ، ولا سيما بلاد العراق وخراسان وما جاورها . وعُرِفَتْ طريقتُه بطريقة ابن العميد : فسَنَّ طريقةً رسَمها فى كتاباته ، وهى أن تكون مُسَجَّعة قصيرة الفقرات مع شىء من المحسِّنات البديعية ، وتنميق العبارة واختيار الجمل والألفاظ ، واقتباس الأشعار المشهورة ، والأحاديث المأثورة ، والأمثال السائرة ، والحوادث المعروفة ، والآيات القرآنية .

وقد أعجب الأدباءُ بذلك لوَلُوعهم بالصناعة فى تلك الأيام ، حتى قالوا بُدِئَت الكتابةُ بعبد الحميد وخُتِمَتْ بابن العميد ، فاتّبَع طريقَتَه أشهرُ الكتّاب حتى أصبح إمامَ عصرِه فى ذلك وعُنُوا بمحاكاة أسلوبه .

ولا يوصف هذا الأسلوب بالسهولة المطلقة ، ولا بالصنعة ليس غير ؛ بل هو مزيج من هذا وذاك . ولكنّ عنايةَ الكاتب كانت موجَّهةً إلى الصناعة أكثر منها إلى المعانى .

## القاضي الفاضل وأثر أسلوبه الكتابي في مصر

هو أبو عليّ عبد الرحيم اللخمي العَسْقلاني. وُلد بمدينة عَسْقلان[1] سنة ٥٢٩ هـ، وتعلّم على أشهر علماء زمانه، وأخذ عن أبيه القاضي الأشرف قاضي عَسْقلان بهاء الدين طرَفاً من علوم اللغة والأدب. ثم قَدِمَ إلى مصر في صِباه لتعلُّم الكتابة، وكان ذلك في أواخر دولة الفاطميين، ونزل بمدينة الإسكندرية، ولازَمَ قاضيها ابن حديد، وتعلّم عليه. ولما برَع في الكتابة وعُرِف فَضْلُه، انتقل إلى القاهرة، وصار من كُتّاب الظافر، وشاع فضلُه، فاتّخذه صلاحُ الدين الأيوبي وزيرا له عند ما استولَى على مصر، ثم كان وزيرا لأولاده يدبر الملك ويسوس أمور الدولة، ويتنقل بين مصر والشام يتعرف أخبار الأدباء والكتّاب في بلدان المشرق حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ.

أسلوبه في الكتابة — كان أسلوب ابن العميد قد ذاع قبل ذلك في العراق وما جاوره — كما قلنا — وفُتن به الكُتّاب. وقد وصلت الصناعةُ اللفظيةُ الذروةَ في فنّ الكتابة؛ فوقف القاضي الفاضلُ على صنعة الكتابة، لدى كبار الكتّاب في المشرق والمغرب، وعمِل على ابتكار طريقة جعل أساسَها الصناعةَ اللفظية، وأخصّها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستعارة وغيرها. وكان الناس يعشقون التلاعب بالألفاظ، ويرَوْن بلاغةَ القول في ذلك. فانتشرت طريقةُ القاضي الفاضل بمصر حتى كانت مَذهبا لكُتّابها، جَرَى عليه كبارُهم، وأصبحت الكتابة ضَربا من المبالغة في الصناعة، وتمكن ذلك من نفوس الناس وبقيت هذه الطريقةُ بمصر إلى زمن قريب جدا، بل تخطّتْ مصرَ إلى غيرها من البلدان، كما تخطّت طريقةُ ابن العميد بلادَ الجزيرة وما حولها إلى غيرها من المدن الإسلامية. وقد كان من جرّاء ذلك أن شُغِل الكُتّاب بالألفاظ والصناعة عن المعاني؛ فكانت الكتابة أشبهَ بطلاء لامع يبهرك منظرُه ولا يَرُوقك مَخبرُه.

---

(١) بلدة كانت على ساحل فلسطين وموضعها الآن خرب.

## من رسائل القاضى الفاضل

كتب القاضى الفاضل يُعَزِّى الملكَ العادلَ فى الملك العزيز :

"أدام الله سلطان مولانا العادل ، وباركَ فى عمره ، وأعلى أمرَه بأمره ، وأعزَّ نَصْرَ الإسلام بنصْره ، وفَدَتْه الأنفسُ الكريمة ، وأصْغرَ اللهُ العظائمَ فى نعمته العظيمة ، وأحياه اللهُ حياة طيبة يقف هو فيها والإسلام فى مواقف السلام الجسيمة ، وينقلب عنا بالأمور المسلمة والعواقب السليمة . ولا نقَصَ له رجالا ولا عددا ، ولا أعدَمه نفسا ولا ولدا ، ولا قصَّر له ذيلا ولا يدا ، ولا كدَّر له خاطرا ولا مَوْرِدا . ولما قدَّر الله ما قدَّر فى الملك العزيز، رحمة الله عليه وتحياته مكررة إليه، من انقضاء مَهَلِه وحُضور أَجَله ، كانت بديهة[1] المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، فرحم الله ذلك الوجه ونَضَّره ، ثم إلى الجنة يَسره .

وإذا محاسنُ أوجهٍ بَلِيَتْ    فَعَفا الثَّرَى عن وَجْهِهِ الحَسَنِ

فأَعْزِزْ على الملوك وعلى الأولياء ، بل على قلب مولانا ، لا سَلَبه اللهُ ثوبَ العَزاء ، بسرعة مَصْرَعة ، وانقلابه إلى مَرْجِعه ، ولباسه ثوبَ البِلَى قبْلَ أن يبلى ثوب الشباب وزفّه إلى التراب ، وسريرُه محفوف باللِّدات والأتراب" .

وكتب إلى العماد الأصبهانى :

"وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة ، إلا أنها بلا سكون ، وفى الزاوية المسنونة لأهل العافية ، إلا أنى على مثل حدِّ المَنُون . وكيف يعيش العاقل فى الزمان المجنون ؟ ونحن على انتظار البرق الشامى أن يمطر . وحاشا ذِمة الوعد به أن تُخْفَر . واشتغال سيدنا فى هذا الوقت بالدرس والتدريس ، والتصوير والتكييف والتصانيف ، التى تُصَرِّف فيها البلاغةُ أحسنَ التصاريف ، نعمة يتعيَّن شكرُها على العلماء ، ويختص بها سادة من الفقهاء" .

---

(١) بده الرجل بغته وفاجأه .

## العماد الاصبهانى

هو أبو عبد الله محمد بن صَفِىّ الدين ، الملقَّب بعِماد الدين الأصبهانى . نشأ فى أصبهان ،ودرس فى مدينة بغداد بالمدرسة النظامية(١) ، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هُبَيْرة ، فولّاه البصرة ثم واسط ، وانتقل إلى مدينة دمشق سنة ٥٦٢ هـ فى حكم الملك العادل نور الدين ، وكان معاصِراً القاضىَ الفاضل ، اتصل بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبىّ ، ثم ولّاه السلطان نور الدين ديوان الإنشاء ، وأحبه صلاح الدين حتى صار من المقرَّبين إليه ، وتُوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ . وكان أديبا من كبار الكتّاب ، اشتهر بالكتابة المُسَجَّعَة البليغة . وله مؤلَّفات فى التاريخ والأدب .

بعض رسائله — كتب العماد منشورا عن لسان الملك العادل نور الدين لاتخاذ الحَمام وتدريبه على الطَّيَران لنقل الكُتُب :

" ... هى بَرائد الأنباء ، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهى فُيوج(٢) الرسائل المأمونة الإبطاء . والسابقات الهُوج(٣) فى الاهتداء ، والحاملات ماطفات الأسرار فى أقرب مدة إلى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار ، فى وقتها من أقاصى الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات فى ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامى ، والنافذات بنُجح المرام إلى المرامى ، وهى تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط فى ساعة ، وتنتهى إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة ، وقد عم بها نفع المرابطين ، والغُزاة والمجاهدين فى سبيل الله فى إهداء أخبار الكفرة إليهم فى أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها ، طائرة بكتبهم إلى مَن وراءَهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ، وإنها لميمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مَهْدِيَّة فى الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار من الأقطار ... " .

(١) هى المدرسة التى بناها نظام الملك الطوسى وزير السلطان ملكشاه أواسط القرن الخامس الهجرى .

(٢) جمع فوج وهو الجماعة من الناس . والمعروف فى كتب اللغة أن الجمع فؤوج لا فيوج . (٣) المسرعة .

## رثاء العماد للقاضى الفاضل

„ ... ... ... وهو المولى القاضى الأجلّ، الفاضل الأسعد، أبوعلىّ عبدالرحيم ابن القاضى الأشرف أبى المجد علىّ بن الحسن بن البَيْسَانى، صاحب القِران، العديم الأقران ، وواحد الزمان، العظيم الشأن، ربّ القلم والبيان ، واللَّسَن واللسان ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النقّادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرّزة، والفضل الذى ماسُمِع له بمماثل فى الأوائل ، ممن لو عاش فى زمانه لتعلّق بغُباره ، أو جرى فى مضماره . فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع . يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويُطلع الأنوار، ويُبدع الأزهار. وهو ضابط المُلْك بآرائه، ورابط السُّبل بآلائه . إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة ما لو دُوِّن لكان لأهل الصناعة خيرَ بضاعة . أين قيس فى مقام حَصافته ، وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته ، وفضله بالإفضال جال ، ونجم قبوله فى أفق الإقبال عال ، لا مَنَّ فى فعله ، ولا مَيْن فى قوله ، ولا خُلْف فى وعده، ولا بُطْء فى رِفده . الصادق الشِيم ، السابق بالكرم ، ذوالوفاء والمروءة والصفاء والفتوة، والتُّقَى والصلاح ، والنَّدَى والسَماح . منشر رُفات العلم ، وناشر راياته، وجالى غيابات الفضل وتالى آياته . وهو من أولياء الله الذين خُصُّوا بكرامته ، وأخلصوا لولايته ، قد وفّقه الله للخير كله ، وفَضَّل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله . فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المتفرقة فى العاجلة ، لا يغفل عن الآجلة ولا يفترع عن المواظبة على نوافل صلواته، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبث أصفاده[1] وعوارفه ويختم كل يوم القرءان المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد ... “ .

(١) جمع صفد : وهو العطاء ، ومثلها العوارف .

## المقامات (١)

كان من أثر اتصال كُتّاب العربيـة بالفرس ، وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين كان يُتحدَّث بأوصافهم وأخلاقهم . وكان بعضُ هؤلاء الكتّاب يُجيدون اللغة الفارسية وربما كانوا يُعْجَبون بها وبأساليبها . فأخذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال ونَقْلِها إلى اللغة العربية . وقد كان أثر الحياة الفارسية قبل هذا العصر دَخَل فى لغة العرب ، بما كتبه ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرُهما . فظهر أثرُ ذلك فى الكتابة النثرية ، فلما كان هذا العصرُ ظهرَ أسلوبُ المقامات المحتوى على قِصَص قصيرة ، يَصِف فيها الكاتبُ أحد الناس وأخلاقَه ، ويذكر بها بعضَ الحوادث والأماكن بأسلوب مُسَجَّع طريف . وكان النثر إلى هذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ولم يكن الأسلوب القصصى قد تَسَرَّب بعدُ إلى الكتابة العربية فلما كتب بديعُ الزمان مقاماته ، كانت تلك المقاماتُ نوعا جديدا فى أساليب النثر العربى (٢) . وسار على أسلوب الهَمَذانى مَن جاء بعدَه من الكُتّاب أصحاب المقامات كالحريرى وغيره .

---

(١) المقامة لغة المجلس والجماعة من الناس . ثم أطلقت فى عصر بنى أمية وصدر الدولة العباسية على مايحكى فى المجالس من القصص والسير وكل مايكسب السامع علما وأدبا . ثم شاع استعمالها بعد ذلك على مايقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغة عربية فصيحة مملوءة بالتعمل والصناعة اللفظية حتى صار أسلوبها من نماذج أساليب النثر فى الأدب العربى . وقد ذاعت أساليب المقامات بين كتاب العربيـة على نحو ما كتب الهمذانى والحريرى .

(٢) المشهور أن ابن دريد المتوفى سـنة ٣٢٠ كتب أربعين حديثا ، صور فيها ما كان يجرى فى المجالس . ولعله أخذ ذلك من مخالطة الفرس ، إذ كان كاتبا لابنى ميكال وهما على عمالة فارس ، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه . وقد أبدى هذه الأحاديث فى معارض عجمية . ثم حاكى الهمذانى أحاديث ابن دريد بأسلوب آخر فى عبارات سلسة رقيقة . ولما ذاع أسلوب المقامات بعـد الهمذانى والحريرى حاكاهما كتّاب الفرس أنفسهم فى ذلك .

وتُحسَب المقاماتُ من أول بذور النثر القَصَصِىّ فى الأدب العربىّ ، لأنها ترمى إلى تصوير بعض النفوس والأشخاص بطريق قَصَصِىّ . ولولا انصرافُ الكتّاب إلى الصناعة اللفظية لخَطَت المقاماتُ خُطوات واسعة فى سبيل النثر القَصَصِىّ الذى يُصوِّر حياةَ النفوس والاجتماعَ . على أنّ أسلوب المقامات تَمشَّى فى الأدب العربى وذاع أثَرُه فى بلاد المشرق والمغرب ، لِوَلوع الناس بالصناعة اللفظية .

مقامات الهمذانى [1] — أما مقامات الهمذانى فهى حكاياتٌ أو قِصَص قصيرة ، انتزعها بديعُ الزمان من الحوادث التى وقعتْ له أو شاهَدَها فى أثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خُراسان وماجاورها . وقد كتبها فى نَيْسابُورَ بعـدَ أن عاشر كثيرا من الناس ، وخالَط العامّة والخاصّة هناك . ويظهر أنّ التَّسوُّل كان ذائعا وكانت حِيَـلُ المُتَسوِّلين معروفةً لدَيْه ، وقد عَرَفَ بَعْضَهم واتّصـل به . وكان كثيرٌ من الأدباء إذ ذاك على هذه الحال . فكتب مقاماته يصِفُ فيها حالةَ هؤلاء ، وعَزاها إلى رَجُلٍ سمّاه أبا الفتح الإسكندرى ، ونَسَب رِوايتَها إلى رَجُلٍ آخر سمّاه عيسى ابن هِشام . وقد يكون فى حياة أبى الفتح الإسكندرى شىءٌ من صِفات بديع الزمان نفسه ، وشىءٌ من أخلاقه ، لأنه كان ممن يَسْأل بأدبه ، ولأنّ حياته كانت فى جملتها على هذا النحو من الرِحلة والسُّؤال .

وموضوعُ مقاماته أنّ رَجُلا شحّاذًا أديبا ( هو أبوالفتح الإسكندرىّ ) كان يجول فى البلاد ويَتفَنَّن فى أساليب الاحتيال لحصول على المـال . وكلُّ مقاماته التى تُنيِّف على الخمسين لاتخرج عن هذا الغرض. ولكنها تمتاز برِقة أسلوبها ، وسلاسة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفاظ اللغوية ، وعدم التـكلُّف الظاهر . حتى لقد يبـدو أحيانا أنّ أسلوبهـا أقربُ إلى الكلام الفِطرىّ منـه إلى التَعمُّل والصَّنعة . وهى مسجوعة ، ولكنّ سجعها رقيق سهل ، احتوى على كثير من المحسّنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

---

(١) أبو الفضـل أحمد بن الحسين الهمذانى الملقب ببديع الزمان ولد بمدينـة همذان أواسط القرن الرابع الهجرى ، وحذق علوم اللغة العربيـة والفارسية . وتنقل فى كثير من بلاد خراسان وذاع أمره فى نيسابور وهناك كتب مقاماته وتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

# من مقامات الهمذانى

من المقامة الحُلْوانية — حدثنا عيسى بنُ هشام قال: لما قَفَلْتُ من الحج فيمن قَفَل ، ونزلت حُلوان مع مَن نزل ، قلتُ لغلامى : أجِدُ شعَرِى طويلا ، وقد اتَّسخ بدنى قليلا ، فاختر لنا حمّاما ندخله ، وحجّاما نستعمله ، وليكن الحمّام واسعَ الرُّقعة ، نظيفَ البُقْعة ، طيِّب الهواء ، مُعْتَدِل الماء . وليكن الحجّام خفيفَ اليد ، حَدِيدَ المُوسَى ، نظيفَ الثياب قليل الفُضُول . فخرج مَلِيّا ، وعاد بَطِيّا . وقال : قد اخترتُه كما رَسَمْتَ ، فأخذنا إلى الحمّام السَّمْت : وأتيناه فلم نر قوّامه ، ولكنى دخلته ودخل على أثَرِى رجلٌ وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينى ، ووضعها على رأسى ، ثم خرج ودخل آخر ، فجعل يدلكنى دلكا يَكُدّ العظام ، ويغمزنى غمزًا يهدّ الأوصال ، ويصفر صفيرا يرشّ البزاق . ثم عمد إلى رأسى يغسله ، وإلى الماء يرسله وما لبث أن دخل الأولُ فحيا أخدع الثانى بمضمومة قعقعت أنيابه . وقال : يالُكَع ما لكَ ولهذا الرأس وهو لى ، ثم عطف الثانى على الأول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدى . ثم تلاكما حتى عَيِيا ، وتحاكما لما لَقِيا . فأتيا صاحبَ الحمام . فقال الأول : أنا صاحب هذا لأنى لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه . وقال الثانى : بل أنا مالكه لأنى دلكت حامله ، وغمزت مفاصله . فقال الحمّامِيُّ : ائتونى بصاحب الرأس أسأله ألك هـذا الرأس أم له . فأتيانى . وقالا : لنا عندك شهادة فتجشم . فقمت وأتيت ، شئت أم أبيت فقال الحمّامِي : يارجل لاتقل غير الصدق ، ولا تشهد بغير الحق . وقل لى هذا الرأس لأيهما ؟ فقلت : ياعافاك الله ، هذا رأسى . قد صحبنى فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق ؛ وما شككت أنه لى . . . . الى آخر المقامة .

## مقامات الحريرى

وممّن نسجَ على مِنوال الهمذانىّ فى مقاماته القاسم بن علىّ الحريرىّ (١) . فقلّده فى أسلوبها ونظمها ، وموضوعاتها وصفات راويها . فقد جعل أبا زيد السَّروجىّ الذى عَزَى إليه مقاماته ، مثل أبى الفتح الإسكندرىّ : رجلا أديبا مُحتالا . وكأنما أخذ أوصافَه من أوصاف ذلك الرجل . وكانت موضوعاته فى مقاماته أشبه بموضوعات مقامات البديع ، لأنّ الحريرىّ وصَف أبا زيد السروجى بأنه فقير مُحتال ، يستعمل ذكاءه وقوّةَ بيانه فى عطف الناس عليه واستدرار أموالهم ، كما وصفه بأنه شاعر بليغ وخطيب مفوَّه ، وشحّاذ مُلحّ فى السؤال ، امتلأتْ نفسُه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان إلى مكان، ويرحَل من بلد إلى بلد للسؤال وقد اتّخذ ذلك حِرفةً له . وكلُّ مقاماته وصفٌ لنَفْس هذا الرجل ، أو صُوَرٌ لبعض الناسِ ، ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لما هو كامِنٌ فى نفوسهم من أطماع وحِيَل واستعمال ما وُهِبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك . وقد أطنب الحريرىّ فى ذكر صفات أبى زيد السَّروجىّ، كما أطنب الهمذانىّ فى صفات أبى الفتح الإسكندرىّ، أما أسلوب مقاماته فأظهر شىء فيه تعمّدُ السَّجع والصناعة اللفظية. ولكنّ التكلف لا يظهر فى كثير منها، حتى لقد يكون السجعُ حِلْيَةً لكلامه،وسببا لحُسْن ديباجته ولولا ذلك لكان كلامه غير مقبول لقلة معانيه أو تكرارها .

ومن مميزات أسلوب هذه المقامات أنها جَعْبَةُ ألفاظٍ لُغوِيَّة ، وجمل مختارة وأمثالٍ سائرة وأشعارٍ رقيقة . وقد ولِعَ الحريرىُّ بالصناعة اللفظية ككل كُتّاب

---

(١) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة . فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار إماما فى ذلك وألف كتبا فى اللغة منها درّة الغواص فى أوهام الخواص . فكان شاعرا وأديبا وكاتبا ومؤلفا . ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة . ويحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

زمانه ، وأكثر من أنواع البديع ، ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دلّ على مقدرة نادرة فى هذا النوع من الكتابة الفنية .

## من مقامة للحريرى يُوصِى ابنه بالكُدْية والشّحاذة

"يا بنىّ ، إنى جربتُ حقائق الأمور ، وبَلَوْتُ تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنَشَبه لا بنَسَبه ، والفَحْص عن مَكْسَبه لا عن حَسَبه . وكنتُ سمعتُ أن المعايش إمارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارَسْتُ هذه الأربع ، لأنظر أيُّها أوفق وأنفعُ . فما أخذتُ منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة . أما فرص الولايات ، وخلس الإمارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفىء المُنْتَسَخ بالظلام ، وناهيك غُصّة بمرارة الفطام . أما بضائع التجارات ، فعرضة للخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطيارات . وأما اتخاذ الضِياع ، والتَّصدّى للازدِراع ، فمَنْهكَةٌ للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلّما خلا بها عن إذلال ، أو رُزِق رَوْحَ بال ، وأما حرف أُولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة . ولم أرِ ماهو بارد المَغْنَم ، لذيذ المَطْعَم ، وافى المَكْسَب ، صافى المَشْرَب ، إلا الحِرْفَة التى وَضَعَ ساسانُ أساسَها ، ونوَّع أجناسها ، وأضرم فى الخافِقَيْن نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها . فشهدتُ وقائعها مُعْلَمًا ، واخترت سيماها لى مِيسَمًا ، إذ كانت المَتْجَر الذى لايبور ، والمنهل الذى لايغور ، والمصباح الذى يَعْشُو إليه الجمهور ، أو يستصبح به العُمْىُ والعُور . وكان أصلها أعزّ قَبيل ، وأسعد جيل ، لا يُرهِقُهم مَسُّ حَيْف ، ولا يقلقهم سَلُّ سيف ، ولا يَخْشَوْن حُمَةَ لاسِع ، ولا يَدِينون لدانٍ ولا شاسِع ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطُعَمهم معجلة ، وأوقاتهم غُرٌّ محجلة . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا . لايتخذون أوطانا ، ولايتقون سلطانا . ولا يمتازون عما تَغْدُو خماصا وتروح بطانا ... الخ " .

ومن مقامات الحريرى المقامة الإسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد مع امرأته أمام القاضى فمنها :

" . . . . . فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عَشية عَرِية، وقد أحضر مال الصدقات ، ليَفُضَّه على ذوى الفاقات ، إذ دخل شيخ عِفْرِية ، تَعتِلُه امرأة مُصْبِيَة . فقالت : أيد الله القاضِى ، وأدام به التراضِى ، إنى امرأة من أكرم جُرْثُومَة، وأطهر أُرُومَة ، وأشرف خُؤولة وعُمُومة ، مِيسَمى الصَّوْن ، وشِيمتى الهَوْن ، وخُلُقى نعم العَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن . وكان أبى إذا خَطَبنى بناةُ المجد ، وأرباب الجَد ، سَكَّتَهم وبَكَّتهم ، وعاف وَصْلَهم وصِلَتهم ، واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى ، بحَلْفة ، ألا يُصاهِر غَيْر ذى حِرْفة . فَقَيَّض القَدَر لنَصَبى ووَصَبى ، أنْ حَضَر هذا الخُدَعَة نادِىَ أبى ، فأقسم بين رَهْطِه ، أنه وَفْق شَرْطه ، وادّعى أنه طالما نَظَم دُرَّة إلى دُرَّة ، فباعها ببَدْرَة . فاغترَّ أبى بزُخْرُف مِحاله ، وزوَّجَنيه قَبْلَ اختبار حاله . فلما استخرجنى من كِناسى ، ورَحَّلَنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْره ، وحَصَّلَنى تحتَ أَسْره ، وجَدْتُه قُعَدَة جُثَمة ، وألفيتُه ضُجَعة نُوَمة . وكنتُ صَحِبته برِياش وزِىّ ، وأثاثٍ ورِئْى . فما برح يبيعه فى سُوق الهَضْم ، ويُتْلِف ثَمَنَه فى الخَضْم والقَضْم . إلى أن مَزّق مالى بأَسْره ، وأنفق مالى فى عسره . . . الخ ".

# التدوين والتأليف فى العصر العباسى الثانى

## فى العراق وخراسان ومصر والشام

منذ العصر العباسى الثانى لم تعد الدولةُ الإسلامية دولةً واحدةً يَرْجعُ وُلاةُ الأقاليم فيها إلى رئيس واحد هوالخليفةُ بل تعددت الدول واستقلتْ بشؤونها ؛ إن اعترفَ بعضُها أحيانا بالخليفة العباسىّ ببغداد فاعترافٌ اسمىّ ؛ أما الحقيقة فهى أنّ كلَّ دولة مستقلة بنفسها ، فالدولة البُوَيْهِيّة فى العراق وفارس وخراسان (٣٢٠ — ٤٤٧هـ) وخلفتها الدولة السلجوقية . والدولةَ الفاطمية بمصر ( ٣٥٧ — ٥٦٧هـ ) وخلفها الأيوبيون . والدولة الحَمْدانية فيما بين النهرين وحلب ( ٣١٧ — ٣٩٤هـ ) وخلفها الفاطميون فى الشام ، والدولة السامانية فيما وراء النهر ( ٢٦١ — ٣٨٩هـ ) إلى كثير من هذه الدول .

وانقسام الدولة هذه الأقسام — إن أضعف الدولة سياسيا فى كثيرمن الأحيان — لم يُضعفها علميا بل كان الأمرُ عكسَ ذلك ؛ فقد كانت هذه الدول المختلفة تتبارَى فى تشجيع العلم وتَعُدُّ من مَظاهرِ عِظَم الدولة أن تتزيَّن بمَشْهُورى العلماء واستدعائهم من أقاصِى البلدان وتشجيعهم بما تُغْدِق عليهم من مال .

فالدولة البويهية فى العراق وفارس وخراسان أكثر وزرائها وعمالها من الأدباء المشهورين أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد ، ومن أشهر ملوك بويه عَضُدُ الدولة ، ألَّف له أبو إسحق الصابى كتاب " التاجى " فى أخبار بنى بويه ، وألَّف له أبو علىّ الفارسىّ كتابَ " الإيضاح " فى النحو ، وقصَدَه المتنبى ومدَحه .

والدولة السامانية فى خراسان وتركستان كان من أشهر ملوكها نوح بن منصور وقد أنشأ فى بخارَى مكتبةً كبيرة قَصَدَها ابن سينا الفيلسوفُ الكبير وانتفع بكُتُبها كما حدّث هو عن نفسه .

والدولة الحمدانية فى حلب والموصل كانت مقصدا للأدباء والعلماء ، وأشهر رجالها سيفُ الدولة بنُ حَمْدان اجتمع ببابه من الشعراء والأدباء ما لم يجتمع بباب أحد بعدَ خلفاء بنى العباس الأولين ، واتصل به المتنبي وقال فيه كثيرا من شعره وصاحبه فى حَربه وسَلمه ، وكذلك أبو فراس الحَمْدانىّ ، وقَصَده كثير من العلماء والفلاسفة كابن جِنّى العالم النحوى المشهور والفارابى .

وأنشأ الفاطميون بمصر دورالكتب العامة وعقدوا فيها المناظرات وعُنُوا بالفقه الشيعىّ والدعوة إلى مذهبهم ، كما عُنُوا بعلم الفَلَك ، ومن مَظاهرهذه العناية المرصد الحاكمىّ الذى أنشأه الحاكم بأمر الله على جبل المقطم .

وخَلَف الفاطميين فى مصر والشام الأيوبيون ، وقد قَضَوْا على المذهب الشيعىّ فى مملكتهم وأَحْيَوْا مذهبَ أهلِ السنة ، ونبَغ منهم جماعة من أهل العلم والأدب ؛ وقَرَّبوا العلماء والأدباء .

من أجل هـذا سارت النهضة العلمية فى تقدمها المطَّرِد ولم تتأثر بالانقسام السياسىّ ؛ فكانت الحركةُ العلميةُ وإنتاجُ المؤلِّفين أكثرَ مما كان فى العصر العباسىّ الأول من حيث الكَمِّ ومن حيث الكَيْفُ فقد ؛ كان أكثر النتاج العلمى فى العصر العباسى الأول جمعا ونقلا من اللغات المختلفة فصار فى العصر الثانى هَضْما وابتكارا وإنتاجا جديدا فى كثير من الأحيان ، ونبغ العلماء فى كل فَنّ من فقه وحديث وتاريخ وجغرافيا ولغة وفلسفة وغيرها ، وكثرت دور الكتب وقصدها طلاب العلم وزَخَرتْ بالكُتب من كل فَنّ ؛ كمكتبة العزيز الفاطمىّ بالقاهرة ، ودار الحكمة التى أنشأها الحاكمُ بأمر الله الفاطمى ، ومكتبة سابور بن أردشير فى بغداد وهكذا ، ولنذكر الآن طَرَفا من مشهورى المؤلفين فى بعض الفنون :

علوم الدين — كانت لعلوم الدين ، على اختلافها ، المكانة الأولى بين العلماء فكثر الاشتغال بها وتدوينها ، وقد وُضِع أساسُ التدوين فيها فى العصر

العباسىّ الأول فوُضع فى التفسير أهمُّ كتاب وهو تفسير ابن جَرير الطَّبرَىّ . وجاء بعده فى العصر الثانى علماء كثيرون عُنُوا بالتفسير من ناحيتيه : ناحية المَرْوِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وناحية العناية بما فى القرءان من لغة وإعراب وبلاغة وعقائد . ومن أشهر المؤلِّفين على الطريقة الثانية فى هذا العصر الزمخشرىّ ( المتوفَّى سنة ٥٣٨ ) وهو من علماء خوارزم ، برع فى اللغة والأدب والبلاغة وألَّف فى التفسير "الكَشَّاف" تعرَّض فيه لبيان ما فى القرءان الكريم من بلاغة بعبارة ممتعة ، إلا أنه جرَى فى تفسيره على مذهبه فى الاعتزال إذ كان معتزليا .

وفى الحديث كانت الكتبُ الستةُ المشهورة قد جُمِعَتْ فعُنِىَ العلماءُ بَعْدُ بجمع ما زاد عن هذه الكُتُب ودراسة أسانيد الحديث وترتيب الأحاديث على حسب الصحة وتراجم المحدِّثين، ووضعوا لذلك مصطلحات عدَّة وألَّفوا فيها تآليف كثيرة .

وفى الفقه كانت المذاهب الأساسية — من حنفىّ ومالكىّ وشافعىّ وحنبلىّ وغيرها — قد تكوَّنتْ، فجاء بعد ذلك أتباع كلِّ مذهب يحرِّرون مذهبه ويُطَبِّقون قواعده على الفروع وعلى ما يَسْتَجِدُّ من أحداث ، ويجادل أصحابُ كلِّ مذهب أصحابَ المذاهب الأخرى ويُقيمون البراهين النقلية والعقلية على صحة مذهبهم وبطلان غيره فى مسائل الخلاف ، وقد بلغ الخلاف أشده بين الحنفية والشافعيــة . وقد اقتسمت الأمصارُ هذه المذاهب فانتشر مذهبُ أبى حنيفة فى العراق وفارس وبين مسلمى الهند والصين، وانتشر مذهبُ الشافعىّ بمصر، وانتشر مذهبُ مالك فى بلاد المغرب والأندلس، وتبِــعَ أحمدَ بنَ حنبل بعضُ أهلِ الشام والعراق، وانتشر مذهبُ الشيعة فى مصر والشام فى عهد الفاطميين ، وألَّف علمـاءُ مصر الكتبَ الكثيرة مطوَّلة ومختصرة فى مذاهبهم ، وكثرت المناظرات بين علماء المذاهب المختلفة حتى نشأ من ذلك علم خاص بالخلافيات، وكان لذلك أثر فى نموّ حركة التشريع وتمحيص الآراء القانونية .

وفى علم الكلام ، وهو علم العقائد ، كانت الفلسفة قد تسربت إلى بعض المذاهب الدينية كمذهب المعتزلة . وانقسم المسلمون إلى مذاهب كلامية : من شيعة ومعتزلة وخوارج ومرجئة وأهل السنة. ثم جاء أبو الحسن الأشعرى فاعتنق مذهب الاعتزال أولا ، ثم ناهضه وخرج عليه وناصر أهل السنة وتبعه الكثيرون . وقد تُوفى سنة ٣٢٤ هـ

وجاء بعده على مذهبه الإمام الغزالى وقد ولد بطوس سنة ٤٥٠ ورحل إلى نيسابور وتعلم بها حتى إذا أتم علمه رحل إلى بغداد وتولَّى التدريس بالمدرسة النظامية ، ثم زهد فى الدنيا وترك التدريس وانقطع للعبادة وتصوف ، ثم عاد إلى التدريس والتأليف مناصراً للتصوف العلمى حتى مات سنة ٥٠٥ بطوس .

وقد ألَّف فى فروع مختلفة من العلم : ألَّف فى الفقه والأصول والمنطق والفلسفة والتوحيد والتصوُّف، ومن أشهر كتبه "إحياءُ علوم الدين" جمع فيه بين التصوف والشريعة والأخلاق .

ويُعَدُّ الغزالى من أكبر العلماء أثراً فى الدعوة إلى الدين وترغيب الناس فى التصوف؛ فقد أوتى إلى سعة اطلاعه حرارة إيمان وقوة لسان وكثرة إنتاج فذاعتْ شهرته ، وعظُم أثره .

**التدوين فى الأدب** — من أظهر ماحدث فى هذا العصر فى كتب الأدب الميل إلى الجانب العلمى وصبغ الكتب صبغة فلسفية والعناية بتراجم الشعراء والكتاب ترجمة مفصلة على نحو ما فعل المحدِّثون فى رجال الحديث ، فأُلِّفتْ كُتب فى نقد الشعر والشعراء والطعن فيهم والانتصار لهم ، كما فعل الآمدى فى كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى المتوفى سنة ٣٧١؛ فقد نقد الشاعرين نقدا محكما وأبان ماللشاعرين من محاسن ومساوئ ، وكما فعل الصاحب بن عباد؛ فقد وضع كتابا فى بيان عيوب المتنبي ، وانتصر للمتنبى آخرون؛ فوضع القاضى عبدُ العزيز الجرجانىُّ كتابا وَقَفَ فيه موقِف الحكم بين المتعصبين له والمتعصبين عليه سمّاه الوساطة بين المتنبي وخصومه .

ومن أشهر كتب الأدب المؤلَّفة فى هذا العصر : كتابُ "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى المتوفَّى سنة ٣٥٦ وهو عربىّ من نسل بنى أمية ، ولد بأصفهان وانتقل إلى بغداد ، ويُعَدُّ كتابُهُ الأغانى أجمعَ الكُتب فى تراجم الشعراء والأدباء وأخبار العرب فى الجاهلية والإسلام ، وهو فى واحد وعشرين جزءا ؛ وسمّاه الأغانى لأن المؤلِّف بناه على مائة صوتٍ كان هرونُ الرشيدُ أمر إبراهيم الموصلىَّ مُغَنِّيَه أن يختارها له ، فهو يذكر الصوت (الدور) وتوقيعه ويذكر قائله ويترجم له ويستطرد من ذلك إلى غيره من الشعراء والأدباء والمغنِّين والمغنِّيات ، وقد زاد أبو الفرج بعضَ أصواتٍ اختارها هو .

كذلك من أهمّ الكتب التى أُلِّفت فى تراجم الشعراء : كتابُ "يتيمة الدهر" لمؤلِّفه أبى منصور الثعالبى المتوفَّى سنة ٤٢٩ وقد ترجم فيه لشعراء المائة الرابعة ، ولذلك سمّاه "يتيمة الدهر ، فى شعراء أهل العصر" وقد رتَّبه ترتيبا حسنا باعتبار الأقطار ، فترجم لشعراء الشام ، ولشعراء مصر والمغرب ، ولشعراء الموصل ، ولشعرا البصرة ، ثم العراق ، ثم بغداد ، ثم ذكر محاسن الدولة السامانية وترجم لشعرائها ، ثم لفضلاء خوارزم .

ولم يسلك مسلك الأغانى فى استقصاء أخبار الشاعر وحياته ، بل كثيرا ما كان يكتفى بنبذة يسيرة من مقامه فى الأدب يتبعها بمختار من شعره أو نثره ، وقد تأثر بلغة العصر ، فكاد يلتزم فى تعبيره السجع وقد ذيل الباخرزى كتاب اليتيمة فذكر الشعراء الذين لم يدركهم الثعالبى فى كتاب له سماه "دمية القصر" طبع حديثا وتبعه الأدباء فى الزيادة ، فألف أبو المعالى بعد ذلك تكملة سماها "زينة الدهر" وبعده عماد الدين الأصبهانى ألف "خريدة القصر" .

ويلحق بكتب الأدب كتب القصص ، ومن أشهرها "كتاب ألف ليلة وليلة" وهو قصة نقل أساسها فى القرن الثالث الهجرى ؟ ، فقد وصفها المسعودى المتوفَّى

سنة ٣٤٦ ولكن زادت قصصها وغُيِّر فيها على توالى العصور كما يدل على ذلك أخبار فيها حدثت فى أيام المماليك .

علم اللغة — بدأ علماء اللغة فى العصر العباسى الأول يجمعون اللغة مما يسمعون من العرب شفاها ؛ فكانوا يخرجون إلى البادية ليسمعوا من فصحاء الأعراب، وكان الأعراب أنفسهم يفدون إلى العراق فيأخذ عنهم العلماء، ولم يكن جمعهم خاضعا لأى ضرب من ضروب الترتيب ؛ إذ كان همهم الأول تدوين أكثر ما يستطاع من الألفاظ العربية، ثم أخذوا يجمعون الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى أوراق سموها كتابا . كما فعل الأصمعى فى كتاب الخيل والإبل والكَرْمِ الخ. وفى ذلك العصر أيضا خطر للخليل بن أحمد المتوفَّى سنة ١٨٠ أن يجمع الكلمات العربيـة التى وصلته و يكوّن منها معجما ، فرسم لذلك كتاب العين ورتبـه على حسب مخارج الحروف ؛ بدأه بحروف الحلق وختمه بحروف الشفة ، ولكن كان استخراج الكلمة منه شاقا إذ يذكر الكلمات ومقلوبها و يبين المهمل منها والمستعمل، وجاء بعده ابن دريد المتوفى سنة ١٨٨ فألف كتاب الجمهرة على هذا النمط .

حتى أتى العصر العباسى الثانى فألفت فيه معاجم كثيرة كالتهذيب للأزهرى سنة ٣٧٠ والمجمل لابن فارس سنة ٣٩٠ ثم جاء الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو تركى الأصل من فاراب فألف كتابه الصحاح وقد وضعه على منهج جديد فحذف المهمل ورتبه على حسب حروف الهجاء المعروفة وراعى آخر الكلمات بعـد تجريدها من زوائدها ، وجعل آخر الكلمة بابا وأولها فصلا ؛ فكلمة عتب قبل كلمة بيت لأن الأولى من باب الباء والثانية من باب التاء ، وكلمة سغب قبل كلمة قلب لأن الأولى — وإن اتفقت مع الثانية فى الباب — من فصل السين والثانية من فصل القاف، والسين مقدمة على القاف وهكذا،واقتصر فيه على الكلمات التى صحت عنده ولذلك سمى كتابه الصحاح . وقد جرى على هـذا النمط كثير من المعاجم التى ألفت بعده كالقاموس المحيط للفيروز ابادى ، ولسان العرب لابن منظور .

ومن أشهر كتب اللغة المؤلفة فى ذلك العصر المخصص "لابن سيده الأندلسى" المتوفى سنة ٤٥٨ وقد نحا فيه نحواً آخر إذ جمع كل الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد ، فمثلا كل الكلمات التى تتعلق بالإبل جمعها ورتبها فصولا ؛ ففصل فى أسنان الإبل، وفصل فى أمراضها وهكذا، وهو كثير الفائدة وخاصّة للذين يعرفون معنى من المعانى أو مُسَمًّى من المسميات ولا يعرفون له لفظا يدل عليه .

كذلك مما ألف فى هذا العصر من كتب اللغة كتاب "الفائق فى غريب الحديث" و "أساس البلاغة" وكلاهما للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ وقد نحا فيهما منحى خاصا إذ جعل ترتيبه أوائل الحروف فى الكلمة لا أواخرها ، فكلمة بقل قبل كلمة قلب لأن الأولى مبدوءة بالباء والثانية بالقاف، والباء قبل القاف وهكذا. وقد تبعه فى ترتيبه بعض المعاجم التى وضعت بعده ، كالمغرب للطرزى، والنهاية لابن الأثير، والمصباح المنير . ويمتاز أساس البلاغة بميزتين : (أولاهما) أنه فى كثير من المواد يفرق بين الاستعمال الحقيقى للكلمة والاستعمال المجازى ، فبعد أن يذكر المعانى الحقيقية للكلمة يقول ومن باب المجاز كذا ، (والثانية) أنه فى أغلب الأحيان لا يقتصر على ذكر معانى الكلمة مجردة بل يبين استعمالها فى جمل وكثيرا ما تكون هذه الجمل بليغة منتقاة ، وقد ساعده على ذلك أنه لم يذكر كل مواد اللغة بل اقتصر على المشهور منها .

التاريخ والمؤرخون — كان انقسام المملكة الإسلامية إلى دول كثيرة سببا فى أن ملوك كل دولة يُعْنَوْن بدولتهم ويدعون المؤلفين إلى كتابة تاريخها كما فعل العتبى فى تاريخ محمود الغزنوى أمير الدولة الغزنوية ، وكما فعل أبو إسحاق الصابى فى تاريخ الدولة البويهية، وشهاب الدين المقدسى أبو شامة فى كتابه "الروضتين" فى أخبار الدولتين ( الدولة النورية والدولة الأيوبية ) .

ومع هذا كان بجانب هؤلاء من عُنى بكتابة التاريخ العام، ومن أشهرهم فى ذلك العصر :

المسعودىّ المتوفى سنة ٣٤٦ واسمه على بن الحسين وسمى المسعودىّ لأنه من نسل عبد الله بن مسعود ، وقد نشأ فى بغداد ورحل إلى كثير من البلدان وكتب فى التاريخ كتبا كثيرة ضاع أكثرها ، وزار أرمينية والهند وسرنديب ( سيلان ) وساحل الزنج ( زنزبار ) ومدغشقر وركب بحر قزوين وزار الشام وقد تمثل فى كثرة ما عانَى من أسفار بقول الشاعر :

تَيَمَّمَ أقطارَ البلادِ فتارَةً ... لدى شَرْقها الأقْصَى وطَوْراً إلى الغَرْبِ
سُرَى الشمسِ لا تنفكُّ تَقْذِفُها النَّوَى ... إلى أُفُقٍ ناءٍ يُقَصِّرُ بالرَّكْبِ

وجاء مصر ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥ ، ومن أشهر كتبه التى وصلت إلينا كتاب "مروج الذهب" وقد ذكر فيه تاريخ الأمم القديمة ثم تاريخ الإسلام إلى أيام الخليفة العباسىّ المطيع لله ، وكتاب "التنبيه والإشراف" وقد ذكر فى قسمه الأول كلاما فى الأفلاك والنجوم وتأثيرها والأزمنة وفصول السنة والرياح والأرض وشكلها الخ . ثم ذكر بعضا من تواريخ الأمم القديمة ، ثم تاريخ الإسلام إلى ما قبل وفاته بسنة .

ومن مؤرخى هذا العصر ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ وكان فى خدمة بنى بويه وألف كتابا فى التاريخ مشهورا اسمه "تجارب الأمم" وهو تاريخ عام يقع فى ستة مجلدات طُبِعَ بَعْضُها .

كذلك من كتب التاريخ العام فى هذا العصر كتاب الكامل لابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠ أرخ فيه الخليقة من مبدئها إلى سنة ٦٢٨ يُعَنْوِنُ بالسَّنة ويذكر ما حدَث فيها فى البلدان المختلفة كما فعل الطبرى ، وقد استخلص فيه ما كتبه المؤرخون قبله .

وقد اشتهر من مؤرخى المصريين أبو عمر الكندى سنة ٣٥٥ ومن أشهر كتبه المطبوعة أخبار ولاة مصر وقضاتها، وابن زولاق سنة ٣٨٧ وله كتب فى تاريخ مصر

والقضاعى سنة ٤٥٤ وقد ألف فى خطط مصر وتاريخها وقد اعتمد عليه المقريزى فى خططه .

كما عُنِيَ كثير من المؤرخين بوضع الكتب فى تراجم الرجال ومن أشهرهم : الخطيب البغدادى سنة ٤٦٣ ألف كتابا مطولا جمع فيه تراجم مشهورى بغداد وهو فى أربعة عشر مجلدا طُبِع حديثا فى مصر .

الجغرافيا — عُنِيَ الجغرافيون فى هذا العصر بالرِحلات فساحوا فى أواسط آسيا وإفريقية وعبروا البحار واهتَدَوا إلى كثير من الجزائر وزادوا فى معارِف مَن قبلَهم مِن الأمم عن البلدان والأصقاع ورسموا المصورات (الخرائط) ووضعوا عليها الأماكن وراعَوا فى كثير من الأحيان الأبعاد بين الأماكن وألَّفوا فى ذلك المؤلَّفات الكثيرة ما بين خاصّ ببعض الأصقاع وعامّ للكرة الأرضية . وأشهر جغرافيي هذا العصر :

الاصطخرى : وهو أبو إسحاق الفارسى وقد ألف كتاب الأقاليم ، وكتاب مسالك الممالك ، وقد ذكر فيهما الممالك المعروفة فى عصره وحدودها وبحارها وأنهارها وعُنِيَ فيها بالمملكة الإسلامية ، وامتاز أولها بما وضع فيه من الصور وكلاهما مطبوع .

وجاء بعده المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ وهو شامىّ الأصل وقد رحل إلى السند والهند والأندلس ووصف مارأى ، وكتابه "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" جمع فيه خلاصة رِحلته عشرين سنة فى المملكة الإسلامية وقد ذكر فيه أنه أوضح كتابه بالصور الملونة .

ثم الشريف الإدريسى الصقلى وقد ألف لروجر الثانى ملك صقلية كتابه فى الجغرافيا المسمى "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" سنة ٥٤٨ وقد نشر فى أوربا بعض قطع منه .

ومن أشهر الرحالين فى ذلك العصر ابن جبير ؛ وقد رحل فى أواخر القرن السادس ثلاث رحلات زار فى أولاها مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية، ووصف فيها ما رأى من الآثار وحال أهلها الاجتماعية ، وقد طبعت رحلته هذه مرارا .

ومن خير المؤلفين فى الجغرافيا ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ وهو رومى الأصل،وقد أسر صغيرا واسترق و بيع لتاجر ببغداد فعلمه سيده وأرسله فى متاجره ، ولما تحرر اشتغل بحرفة الوراقة فكان يجمع الكتب و يبيعها ، ومهد له ذلك سبيل الاطلاع على كثير من الكتب فأضاف إلى معارفه العملية بالتجارة معارفه النظرية بالقراءة وألف فى الجغرافيا كتابا من أشهر الكتب وأحسنها تنسيقا هو "معجم البلدان" رتبه على حسب حروف المعجم فيذكر اسم البلدة و يضبطه و يصفها ويذكر ما عرف عنها وأشهر من نبغ منها .

وقد رحل إلى مصر فى آخر القرن السادس عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ ووضع كتابا فى وصف مصر سماه "الإفادة والاعتبار ، بما فى مصر من الآثار" ضمنه معلومات كثيرة هامة عن مصر وحالتها الاجتماعية ووصف آثارها .

الفلسفة — بعد أن عُنِي علماء العصر العباسى الأول بنقل الكتب الرياضية والطبيعية والفلسفية عن الأمم الأخرى وبخاصة اليونان . تقدم الباحثون خطوة أخرى فى العصر العباسى الثانى إذ هضموا ما تُرجم لهم ودرسوه دراسة عميقة، واستخدموه فى حياتهم العملية كالهندسة والطب وما إليهما، وزادوا على ما نقل إليهم بالشرح والتعليق أحيانا وابتكار بعض النظريات أحيانا أخرى . وكان من مظاهر الفلسفة فى هذا العصر مزج آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما بآراء الإسلام، والجد فى التوفيق بينهما .

ومن أشهر من عنى بالفلسفة فى هذا العصر جمعية إخوان الصفا، وقد تكونت بالبصرة فى أواسط القرن الرابع الهجرى . وتكتم أعضاؤها أسماءهم خوفا من الاتهام

بالزندقة ، وألّفوا خمسين رسالة فى مختلف فروع الفلسفة ، النظرية والعملية ، مزجوا فيها الفلسفة بالدين وقد وصلت إلينا هذه الرسائل وهى خير ما يمثل الفلسفة الإسلامية فى ذلك العصر .

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ وهو من أصل تركى وقد عنى بفلسفة أرسطو عناية تامة ، وألف فى فروع الفلسفة كتبا عدة وقد رحل فى بعض أيامه إلى حلب واتصل بسيف الدولة الحمدانى فعرف قدره وأجرى عليه الرزق . ويسمى الفارابى " المعلم الثانى " كما يسمى أرسطو " المعلم الأول " وقد مهد لمن أتى بعده من فلاسفة المسلمين طريق الفلسفة بتآليفه الكثيرة الجيدة الواضحة .

وأتى بعده ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وقد وُلد ببخارى وعنى من صغره بالعلوم الدينية والفلسفية وأخذ فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره وتنقل فى البلاد وانتفع بمكاتبها وعلمائها وقد فاق الفارابى فى بحثه المنظم وسَعة اطلاعه وابتكاره ؛ ومن أشهر كتبه التى خلفها لنا " الشفاء " فى الطبيعة والإلهيات وغيرها ، وكتاب " القانون " وهو دائرة معارف طبية عظيمة القيمة وعليه كانت تستند الدراسات الطبية فى الشرق وأوربا فى القرون الوسطى .

ومن أشهر الفلاسفة فى هذا العصر الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وقد عنى بالفلسفة وعلم الكلام ؛ وقد ألف تفسيره الكبير ؛ وشرح فيه كثيرا من النظريات الفلسفية ، وله مؤلفات كثيرة فى العقائد وأصول الدين ، وكان متقدما فى كثير من فروع العلم ؛ فهو فيلسوف ومفسر وفقيه وطبيب وفلكى ومؤرخ وله فى كل ذلك تآليف .

*
* *

وعلى الجملة كان هذا العصر أزهى العصور الإسلامية من الناحية العلمية لم يدرك شأوه عصر آخر من عصور المسلمين ؛ لما كان فيه من نوابغ العلماء وما أنتجوه من مؤلفات وما ابتكروه من نظريات .

## وصف بلاد الأندلس

تقع شبه جزيرة إيبريا فى الجنوب الغربى من قارة أوربا ، والجزء الجنوبى منها هو بلاد الأندلس التى يرويها نهر الوادى الكبير ، وتمتد مقاطعة الأندلس إلى الشمال من هـذا الوادى وإلى الجنوب والشرق منـه حتى بحر الروم تجاه بلاد المغرب الأقصى ، حيث يفصلها عن قارة إفريقية بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق . والعرب يسمون هذه البلاد جزيرة الأندلس ،لما شاهدوه من إحاطة الماء بأكثر جهاتها عند ما عبروا إليها من برّ العُدْوَة .

وتشمل بلاد الأندلس وغيرها مما وقع تحت حكم العرب وأطلقوا عليه اسم الأندلس قسما من الهضبة العظيمة التى يتكون منها الجزء الأكبر من بلاد أسبانيا . وأجزاء هذه الهضبة ينفصل بعضها عن بعض بحيث يعتبر كل واد مستقلا عن الآخر ، وتجرى فيها أنهار كثيرة ، يصب بعضها غربا فى المحيط الاطلنطى ، كنهر الوادى الكبير (١) وكنهر تاجه (٢) ، وبعضها يصب شرقا فى بحر الروم مثل نهر ابره (٣) .

وجو هذه البلاد معتدل فى جملته ، وفى أكثر جهاتها ، كما أن تربتها خصبة ليس بها جهات قفر ، ولا صحارى ، بل أكثرها حقول ورياض باسمة ، وأنهار جارية ، وجبال شامخة ، ومراع واسعة . فهى هضبة خضراء تتخللها الأنهار ،

---

(١) تمتد به الجبال شمالا وجنوبا وودیانه كثيرة البساتين الأنيقة والرياض النضرة وعليه تقع مدينة قرطبة التى كانت من أشهر مدن الأندلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن وبها أزهرت علوم العرب وآدابهم واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التى من أشهرها مسجد قرطبة الكبير وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلاسفة .

(٢) الواقعة عليه مدينة طليطلة التى كانت من أشهر قواعد بلاد الأندلس .

(٣) الواقعة عليه مدينة سرقسطة وكانت من البلاد الصناعية زمن العرب وكان بها المتنزهات الجميله والقصور العظيمة وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهوريهم .

وتجرى فيها المياه . فكانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها ، مما يأخذ بالألباب ، ويسبح فى روعته الخيال ، ويبعث على تذوق الجمال ومجاراة الطبيعة فى بهائها ونَضْرتها .

وقد امتازت هـذه البلاد بين الأقطار التى فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة ، وثمار يانعة ، وأنهار جارية ، وجبال خضر ، وطيور مغردة ، وأبنية شاهقة ، وقصور جميلة ، ووجوه نضرة ، ونسيمٍ عليل . فملك كل ذلك من نفس العربى ورقق من شعوره ، وهـذب من خياله ، وصقل من ذوقه ، وزاد فى جمال شعره وفنون الكتابة لديه . وميزه بذلك من أهل المشرق ، وجعل للأندلسيين صِبغة خاصة فى الأدب العربى ، وفتح أمامهم بابا واسعا من الخيال .

وقد سكن هـذه البلاد أمم مختلفة قبل دخول العرب : فنزلها أول فجر التاريخ قبائلُ من جبال البرانِس ، ونزلها من الشمال الشرقى من بلاد الغال قبائل السَّلْت والبَشْك والجلالِقة ؛ سكن بعضُهم الشواطئ واستقرَّ بعضُهم وسط البلاد ونزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية . ثم نزلها الفينيقيون وأهل قَرْطَاجَنَّة قبل الميلاد بقرون . ثم استولى الرومان عليها أوائل القرن الثالث الميلادى ( ٢٠١ م ) وسَمَّوْها هسبانيا أو إسبانيا . ثم أغار على الرومان قبائلُ القَنْدال ، وأخرجوهم من هناك ، وأَسَّسُوا على نهر الوادى الكبير مملكة سَمَّوْها باسمهم "القندال" ومنها جاءت كلمة "فندلس" التى نطق بها العرب "أندلس" ، وأطلقوها على هذه البلاد . وبعد هؤلاء ملكها القوط ، ثم دخلها العرب وملكوها فى أواخر القرن الأول الهجرىّ . فسكّان هذه البلاد خليط من أمم مختلفة وقبائل متعددة .

## الفتح الإسلامى وأثره فى تكوين شعب جديد

كان العرب يتطلعون إلى امتلاك بلاد الأندلس منذ خلافة معاوية ابن أبى سفيان إلى أن ولى عقبة بن نافع بلاد البربر ( شمالى إفريقية ) ، وأسس مدينة القيروان ، وأخذ يتوغل فى الفتح حتى وصل إلى بحر الظلمات ، وبقى العرب يقاتلون البربر بعد موت عقبة إلى ولاية موسى بن نصير على إفريقية من قِبَلِ الوليد ابن عبد الملك الأموىّ . ففى سنة ٩١ هـ أرسل موسى مولاهُ طارق بن زِياد لفتح بلاد الأندلس ، وفى سنة ٩٢ هـ سار طارق بجيش من البربر والعرب ، واخترق بحر الزقاق ونزل على صخرة هناك سميت بعد ذلك بجبل طارق . وما زال بالقوط حتى هزمهم وقتل ملكهم لزريق ( رُودْرِيك ) . ومنذ ذلك الحين دانت البلاد للعرب ، واستَوْلُوا عليها شيئا فشيئا . وما زالوا يتقدمون فى فتوحهم حتى اخترقوا جبال البرانس مْن الشرق إلى بلاد الغال ( فرنسا الجنوبية ) ، ووصلوا إلى مدينة بردو ونهر الرون .

ولما استقرتْ قدمُ المسلمين هناك ، نزح إليها العرب من كل قبيلة ، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التى فتحها العرب ، واتصل كلُّ هؤلاء بسكان البلاد الأصليين : من قوطٍ وغيرهم وتصادقوا وتحابوا وتزاوجوا ، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود ، واندمج بعضُهم فى بعض بالمصاهرة وغيرها ، وكونوا شعبا واحدا ، وتشاركوا فى إدارة البلاد ، فقد وَكَلَ العربُ إلى هؤلاء السكان كثيرا من الأعمال ، حتى شَعَروا بثقة حُكَّامهم بهم . وأحبوهم وتخلَّقوا بأخلاقهم ، واخذوا عنهم كثيرا من عاداتهم ، وانصبغوا بالصبغة العربية ، كما تخلَّقوا قبلَ ذلك بالأخلاق الرومانية ، وانصبغوا بالصبغة اللاتينية . كذلك أخذ العربُ عنهم بعضَ عاداتهم وجارَوْهم فى كثير من أحوالهم الاجتماعية ، ونَسُوا خُشونة البدو ، وفُتِنُوا بهذه البلاد

وما فيها من خيرات وجمال ، فلانت طباعهم ، ورقت عواطفهم ، فنشأ جيل جديد يجرى فى عروقه الدم العربى ، ويتصف بصفات العرب : من غَيْرة وكرامة ، وصفاء فى القريحة ، واكتسب صفات الجنس الآرى : من دقة الإدراك ، وسَعة الخيال ، وقوة الفكر والتمحيص ، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقيا صرفا ولا غربيا بحتا ، وامتاز فى كثير من صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين .

وقد تداول حُكْمَ هذه البلاد بعد الفتح نحوُ عشرين أميرا من العرب ، امتد حكمهم زُهاء أربعين عاما ( ٩٧ — ١٣٨ هـ ) توغلوا فى أثنائها فى البلاد ومدّوا سلطانهم بها ، وهم يحكمون باسم الخلفاء الأمويين . ولما تمكّن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى من دخول الأندلس والاستيلاء عليها سنة ١٣٨ هـ ، واستتب له الأمر سنة ١٤١ هـ استولى على قرطبة وأسس بها دولة بنى أمية التى بقى الأمر بيدها نحو ٢٨٤ سنة ، وكانت أعظم دول العرب هناك ، وعصرها أزهى عصور الحضارة الإسلامية بالأندلس . وقد حكم طَوال هذه المدة من بنى أمية تسعة عشر خليفة ، وبلغت الدولة ذِروة مجدها فى عصر عبد الرحمن الثالث ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ ) .

وبعد أن زالت دولة بنى أمية ، انقسمت البلاد إلى إمارات يحكمها حكام كانوا يُسَمَّوْن بملوك الطوائف ، كان كلٌّ منهم مستقلا فى جهته : كابن عبَّاد فى إشبِيلِيَة وابن الأفْطَس فى بَطَلْيَوْس ، وذى النون فى طُلَيْطِلَة وابن هود بسَرَقُسْطَة . وفى هذه المدة كانت البلاد فى اضطراب شديد . فظهرتْ دولة المرابطين من برابرة الشمال فى إفريقية ، وقبضوا على أزِمَّة الأمور هناك سنة ٤٨٤ هـ ، وكانوا غُلاة متعصبين جامدين ، غير حازمين ، فعمَّتْ البلادَ الفوضى ؛ فملكها الموحدون ،

الذين جاءوا من إفريقيـة أيضا أوائل القرن السادس (سنة ٥١٥ هـ) ، وأرادوا أن يعيدوا مجد عرب بنى أميـة ، ولكنهم ما لبثوا أن خرج عليهم بعضُ الأمراء حتى قذفوا بهم إلى بلادهم، وكان فى مقدّمة الثائرين ابن هود وابن الأحمر ، فملك ابن هود شرقى الأندلس ، وكانت قاعدة ابن الأحمر غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدّة أيضا بين بنى هود و بنى الأحمر ، حتى تغلب بنو الأحمر وامتد حكمهم ٢٥٠ سنة ، وملكوا غرناطة ، وكان عصرهم عصرا زاهرا فى الفنون والأدب ، وهم الذين بنَوْا قصر الحمراء الشهير الذى لا تزال آثارُه ماثلة إلى اليوم . وفى أواخر القرن السابع الهجرى تغلب الإسبانيون على العرب وأخرجوهم من البلاد فانتهى حكم العرب هناك فى نحو سنة ٨٩٧ هـ .

## ميل الأندلسيين إلى محاكاة المشارقة فى العلوم والآداب وتغلب الحياة العقلية العربية على الحيـاة العقلية للسكان الأصليين

عنـد ما استقر الأمر لبنى أمية فى الأندلس أواسط القرن الثـانى الهجرى سنة ١٤١ هـ كان العباسيون قد اتصلوا بالسُّريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علوم الإغريق فى بلاد الجزيرة فيما بين النهرين ، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادىّ ، فاستعان بهم الخلفاء فى نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية ، كما استعانوا بالفرس أيضـا . وكانت مدينتا البصرة والكوفة مقرًا لعلمـاء اللغة والأدب ، ومكةُ والمدينةُ مهبطَ علمـاءِ الدين ومأوى علوم الشريعة الإسلامية ، وصارت بغدادُ مركزاً للعلوم الكونية . فكان الشرق منـذ أوائل القرن الثـانى الهجرى مورد العلوم ومنبع الثقافة . فلم يرَ الأمويون بُدًّا من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عند ما أرادوا نشر العلم فى الأندلس ؛ فاقتفَوْا آثار المشرقيين ، وأخذوا عن أئمتهم كُلَّ شىء ؛ فساد مذهب الإمام مالك هناك ، وكان من زعمائه يحيى بن يحيى بن كثير الليثى الذى رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك . تُوفى بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

وكان أبو على القالى البغدادى إمام الأدب هنـاك ؛ وفد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ وأخذ عنه جُلَّة العلماء ، ومنهم أبو بكر محمد الزبيدى صاحب "مختصر العين" . وقـد وَكَلَ عبدُ الرحمن النـاصر إلى القالى تأديب ابنه وتعليمه . ورحل كثير من علمـاء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق وأعجبوا بمـا كان هناك من علم وأدب . وقد وَلِـعَ الخلفاءُ والأمراء بمجاراة أهل المشرق فى علومهم ومدنيتهم : فنقل عبدُ الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسيين ، وأفسح صدره

للعلماء والأدباء ، فكانوا يفدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم ، وكان الحكم مشغوفا بالعلوم ، وهو الذى بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه "الأغانى" قبل أن يخرجه ببغداد . وقد ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس وانتشرت لغتهم ، وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين ، والكتاب البلغاء الذين يحسبون فى مقدمة شعراء العرب وكتابهم . وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصّة من السكان أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هى لغة البلاد وثقافة الخاصّة من السكان ، حتى تسربتْ إلى الكنائس . وكانت الحياةُ الأدبيـة أكثرَ ذيوعا من الحياة الفلسفية إذ لم يُعْنَ العرب هناك بالاشتغال بالفلسفة إلا فى نحو القرن الخامس الهجرى .

## الشـــعر

مضى عصر الأمراء وشطر من عصر بنى أمية دون أن يكون للأدب أثر معروف ، لأن العصر الأول كان عصر فتح واضطراب ، لم تكن فيه حكومة منظمة تساعد على ذلك . وكانت حكومة بنى أمية تعمل بادئ الأمر على تأييد الملك . فلما أخذ خلفاؤهم يعملون على نشر العلوم والآداب ، وكان الشعر أظهر مميزات العرب العقلية ، صاروا يقربون إليهم الشعراء ويجزلون لهم العطايا ، محاكاة لخلفاء بنى العباس فى بغداد . وكان كثير منهم يميل إلى الشعر وقرضه ، فنفقت سوق الأدب وارتفعت منزلة الشعر والشعراء . وقد ظهر فى هذا العصر جماعة من كبار الشعراء ، منهم محمد بن هانئ ، وابن درَّاج القسطلى ، وأحمد بن شهيد ، وغيرهم . وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب . ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيدون ، وابن خفاجه ، وابن سهل ، وعبد الجليل بن وهبون ، والوزير ابن عمار ، ومَلِك قرطبة وإشبيلية المعتَمِد بن عباد . وظهر فى دولة بنى الأحمر لسانُ الدين بن الخطيب وغيره من كبار الشعراء . وبقى الشعر زاهيا إلى خروج العرب من هذه البلاد . وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهورا ، لأنه مظهر الثقافة العربية ، ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية ، يتغنى به العربى حيثما نزل وأينما ارتحل ، فيذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض ، ويرسم فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها ، وما يلهم من خيال . فكان لجمال بلاد الأندلس أثر فى نفسه . ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه ، وعزته القومية وذِكريات بلاده وأهله ما فتئت تلازمه : فكان عقله يمثل حياتين ، حياة البدو وحياة الحضر ، وكان شعره أثرا لذلك . فظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة وجزالة البداوة ورقة الخيال ، والافتنان فى الجد والهزل والمجون ، ووصف النفوس والأهواء . وقد امتاز الشعراء بأنهم برعوا فى الوصف

بجميع أنواعه براعة لا تُجارَى ، لتأثير الحضارة وجمال الطبيعة فى نفوسهم وانغماسهم فى الترف . فوصفوا كل شىء وقع عليه نظرهم وجال بخاطرهم ، وكان ذلك من مميزات الشعر فى الأندلس ومن أظهر خصائصه .

أما أغراض الشعر وأنواعه ، فهى الأنواع والأغراض التى عُرِفَتْ فى بلاد المشرق : من المدح والهجاء والحماسة والنسيب والحِكَم والمواعظ والوصف والرِثاء الخ . وكان من بين الشعراء كثيرٌ من العلماء والحكماء والكتّاب ، بل كان كلُّ شاعر كاتبا وكلُّ كاتب شاعرا . فنظموا قواعد العلوم والفنون ، وحوادث التاريخ ، وتكلموا فى شعرهم على الزهد والتقوى ومدحوا الرسول ، ونظم الفلاسفة بعضَ آرائهم . ولكنّ شعراء الأندلس على الرغم مما كان لهم من سَعة الخيال وقوة الابتكار فى المعانى الجزئية ، والتشبيهات البديعة ، والصناعة اللطيفة ، من تميق فى العبارة كالمجاز والاستعارة ، لم يزيدوا شيئا جديدا فى أنواع الشعر العربى وأغراضه ، ولم يخرجوا عما كان معروفا عند شعراء المشارقة . ذلك لأن ثقافتهم الأدبية كانت عربية خالصة . فلم يَطَّلِعوا على شىء من آداب الأمم الأخرى ، ولم يعرفوا من آداب اليونان والرومان شيئا يُوَجِّهُهُم إلى غير ماعرفوه من أساليب الشعر العربى القديم ، لأنهم لم يُعْنَوْا بذلك . فلم يكن لديهم شىءٌ من الشعر القَصَصِى أو التمثيلى ، بل بالغوا فى محاكاة أهل المشرق وانصرفوا عن الابتكار فى الأنواع إلى الافتنان فى الصناعة. لأن الشعر هناك كان فى معظمه من دواعى التسلى والمجون فلم يأبه للتفكير والنظر فى الحياة. لذلك لا تكاد تجد منهم شاعرا عالج الفاسفة فى شعره، أو حاول الكلام على الأخلاق والصفات النفسية ، أو النظر فى الكون نظرة مفكر ناقد، كما نرى ذلك لدى بعض شعراء أهل المشرق كالمتنبي وأبى العلاء وغيرهما. بل كان وَلوعهم بالصناعة اللفظية والافتنان فى ضروب التعبير يفوق كل شىء. أما من حيث الأخيلة، فقد أَتَوْا بالعجب العُجاب فى ذلك من تشبيهات بديعة ، وأوصاف

جميلة ، وضروب من الخيال امتلأ بها شعرهم ، ولا سيما أنواع الوصف والمجون ووصف المبانى والحدائق ومجالس الشرب كما قال بعضهم يصف العامرية التى بناها المنصورُ بن أبى عامر :

انظر إلى النهرِ فيها ينساب كالثعبانِ
والطير تخطب شُكرًا على ذُرَا الأغصانِ
والقُضْبُ تلتفُّ سُكْرًا بمائِسِ القُضْبانِ (١)
والروضُ يفترُّ زهوًا (٢) عن مبسِمِ الأُقْحوانِ
والنرجسُ الغضُّ يرنو لوجْنةِ النعمانِ (٣)

ومن تشبيهاتهم الغريبة قولُ بعضهم فى ساقٍ زنجى :

وزنجىٍّ أتى بقضيبِ نورٍ وقد زُفَّتْ لنا بنتُ الكُروم (٤)
فقال فتًى من الفتيانِ صِفْهُ فقلتُ : الليلُ أقبلَ بالنجوم

وقال ابن بُرْد فى طلوع الصباح :

وكأنَّ الليلَ حين لَوَى ذاهبًا والصُّبحَ قد لاحا
كِلَّةٌ (٥) سوداءُ أحرقَها عاملٌ أسرجَ مصباحا

ومما قالوا فى ملاقاة الأحبة :

فجاءتْ كما يمشى سَنَى (٦) الصُّبح فى الدُّجَى وطورًا كما مرَّ النسيمُ على النهر
فعطَّرتِ الآفاقَ حولِى فأشعرتْ بِمَقْدَمِها والعَرْفُ (٧) يُشْعِرُ بالزَّهرِ

(١) القضبان المتمايلة . (٢) يبسم عجبا . (٣) النعمان ، أو شقائق النعمان ، نبات أحمر الزهر .
(٤) بنت الكروم الخمر . (٥) الكلة الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى به البعوض . (٦) ضوء الصبح .
(٧) العرف الرائحة . وكثر استعماله فى الرائحة الطيبة .

أما أساليب الشعر فى الأندلس من حيث نظم القصيد ، فكانت جارية على ما هو معروف فى بلاد المشرق من بدء المدح بالغَزَل أو الوصف ، وترادف المعانى وتتابع الأخيلة واستقلال كل بيت بمعناه . وأما من جهة الألفاظ والعبارات فكانت تدل على ذوق سليم فى الاختيار ، وسلاسة فى لين الكلام ، وجزالة اللفظ ، إذ كانوا كثيرا ما يختارون أحسن الألفاظ وقعا فى السمع ، وأدعاها إلى تصوير الجمال ، وإيقاظ النفوس ، وإثارة العواطف ، مما يناسب الموضوعات التى كانوا يذكرونها فى شعرهم . وقد أمعنوا فى الصناعة اللفظية إمعانا ، فلم يكد كلامهم يخلو من تشبيه أو استعارة ، أو كناية ، وكثيرا ما يأتون بالغريب أو العجيب فى ذلك .

الموشح والزجل — كانت الحياة الاجتماعية هناك فى كثير من نواحيها حياة تَرَف ومُجُون ، فتغلبتْ على نفوس الشعراء ، وقادتهم إلى مجاراة الناس فى أذواقهم وكانت الأغانى قد انتشرت فى المجالس والمجامع ، واحتاج الناس إلى التغنى بالأشعار الرقيقة ، والأوزان القصيرة ، والقوافى المختلفة ، حتى يكون ذلك أوقع فى النفس وألذ للسمع ، وأدعَى إلى التظرف ، فابتدعوا فى أوزان الشعر وقوافيه ما لم يكن عند أهل المشرق ، وخرجوا عن الأوزان المعروفة والقوافى المألوفة ، وابتكروا أنواع الموشحات التى لا يلتزم فيها قافية واحدة ولا وزن واحد ، وانتشر هذا النوع فى بلاد الأندلس ، وخرج منها إلى بلاد المشرق ، ونظم على منواله كبراء الشعراء ووَلِعَ الناس بذلك حتى الحكماء والفقهاء فى المواعظ والحكم ، ومنهم التقى المعروف محيى الدين بن عربى . وأول من اخترع اسم الموشحات مُقَدَّم بن مُعافر الفريرى ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ونَوَّع أوزانها وأدوارها وأخذ عنه أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعانى التى تدور على ألسنة العامة ، فينظمها ليتغنى الناس بها ، حتى قربت لهجاتها من اللهجات العامية ، وأصبحت خليطا من

اللغــة الفصحى وكلام العامة ، وصار الناس ينظمونها غير متبعين قواعد اللغــة وأصولها . فتعددت لهجاتها ، وتولّد من ذلك فن الزجل : وهو نوع من الشعر العامىّ المتوغل كثيرا فى لهجات العامة وأغانيهم . وقد ذاع أمر الزجل وتعــددت لهجاته بتعدد الأماكن التى نشأ بها ، واشتمل على أنواع من الشعر، أكثرها الغزل والوصف وكثيرا ما يكون الزجل أصدق فى التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح ، لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة ، وعدم احتياجه إلى التكلف فى الصناعة ، واختيار الألفاظ ، وأول من ابتكر الزجل أبو بكر محمد بن قزمان القرطبي المتوفى سـنة ٥٥٥ هـ . ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامى سميت بأسمـاء مختلفة . هــذا ومن أشهر الموشحات موشحة ابن سهل الاشبيلى الاسرائيلى وأولها :

هل دَرَى ظَبىُ الحِمَى أن قد حَمَى ... قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عن مَكْنِسِ (١)
فهو فى حَرٍّ وخَفْــقٍ مثلما ... لعبتْ ريحُ الصَّـبا بالقَبَسِ
يا بدورا أشْرَقَتْ يومَ النَّـوَى ... غُرَرًا تَسْلُكُ بى نَهْجَ الغَرَرْ (٢)
ما لنفسِى فى الهَوَى ذنبٌ سِوَى ... منكُمُ الحُسْنُ ومن عينى النَّظَرْ
أَجْتَنِى (٣) اللذاتِ مكلومَ الجَوَى (٤) ... والتـذاذِى من حبيبى بالفِكَرْ
كلمـا أشـكوه وَجْدِى بَسَما ... كالرُّبا بالعـارِضِ المُنْبَجِسِ (٥)
إذ يُقِـيمُ القَطْرُ فيهـا مأتَمَا ... وهى من بَهْجَتِها فى عُرُسِ

إلى آخر ما قال .

---

(١) المكنس : بيت الوحش من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر .

(٢) الغرر : الخطر والتعرض للهلاك .

(٣) اجتنى الثمر وجناه بمعنى واحد .

(٤) الجوى : الحرقة وشدة الوجد .

(٥) الربا : جمع ربوة المرتفع من الأرض والعارض المنبجس السحاب المتفجر الممطر .

وقد جاراه فى ذلك لسان الدين بن الخطيب فى موشحته الشهيرة التى مطلعها :

جادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمَى[١]  يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ
لم يَكُنْ وَصْلُكَ إلا حُلُما  فى الكَرى أو خِلْسَةَ المختلِس

وللاعمى الطليطلى موشحة جميلة يقول فيها :

ضاحِكٌ عن جُمانْ[٢]  سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمان  وحَواه صَدرى

(١) سال .

(٢) اللؤلؤ . والواحدة جمانة .

## ابن خفاجة

مولده ونشأته — وُلد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ ببلدة شُقْر، وتُوفى بها سنة ٥٣٣ هـ، فعاش فى أواخر عصر بنى أمية زمنَ ملوك الطوائف وإبّان دولة المرابطين. وهذه العصور أزهَى عصور الأندلس: فيها قامت دولة الأدب والشعر، وغَصَّتْ مجالسُ الأمراء بالشعراء. فكانت بيوتهم أسواقا للعلماء، وأندية للأدباء، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء. وتبع هذا الترف الميل إلى اللهو والمجون وأنواع السرور، وتغلبتْ هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء. فكان الشعر ضَرْبا من التفكه، ومَلْهاة للأمراء، وزينة العقول، وحلية العلماء. وكان الترفُ وبَهاءُ الطبيعة يولّدان فى النفس حبَّ الجمال وسَعة الخيال، وقد كان لابن خفاجة حظٌّ وافر فى مناجاة الطبيعة وجمالها. لأن بلدته التى عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء.

شعره وأثر الطبيعة فى نفسه وصفاته العامة — انقطع ابن خفاجة للنظر فى جمال الطبيعة. فكان كثير التأمل فى المشاهدات، وكانت نظراته تقود عقله، وترسُم له طرق التفكير وأنواع الخيال. فكانت كلُّ معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل فى جمال الألوان وتناسق الأشياء فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات. وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير. وكان لايحب إلا الجمال، ولم يميز من الأشياء التى يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية. فكان دائما فرحا مسرورا، لا تكاد تجده يصف منظرا محزنا، أو شيئا قبيحا، أو يصف نفسا منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها. فشعره صورة لحياته النفسية المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال. وكانت نفسه مطمئنة هادئة، ميالة إلى اللهو والمجون، فكان شعره أيضا به هذا الاطمئنان النفسى والهدوء الفكرى، والمجانة الخلقية، فلا ترى فى كلامه

شيئا يدل على الشك أو الحَـيْرة ، أو الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقـة ، أو ما يدلّ على تفكيره فى الحياة وأهوالها ، والناس وأخلاقهم ، والوجود وما فيه من خير وشر، ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة ، أو رأى يدل على كدّ فهمه . ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدلّ على نفسه وشعوره الخفىّ ، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة . وليس ذلك لأنه لم يشعر بشىء ، أو لأن نفسه خالية مما يعلَق بالنفوس عادة، كالحب والبغض، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها . ولكنه لم يكن يُعْنَى بذلك ، لأن هـذا يدعو إلى الهموم والأكدار ، ولم يكن هو يميل إلى ذلك ، لأنه كان يريد أن يعيش فى نوع من الأحلام اللذيذة . لذلك كان أثر هذه الحيـاة عظيما فى نفسه ، فولّدتْ فيها كثيرا من المعانى الشعرية ، واندفع إلى تصويرها و إلى التعبير عنها بمـا فُطر عليه من دقة الإدراك، شأن جميع الشعراء المُفْتَنّين، الذين تتسرَّب نفوسهم فى خفايا الجمال وأسراره . فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه ، يتتبع روائعه . فإذا امتلأت به نفسه ، أخذ فى وصـفها ورسمها. وكان يتتبع مظاهر جمال الطبيعة، ويخرج إلى البساتين ليسمع خرير المـاء، ولينعم بمشاهـدة جريانه ، ويصف ذلك فى شعره ، ويجـارى الشعراء أحيانا فى أوصافهم .

أنواع شعره ومعانيه وصناعته — يشتمل شعر ابن خفاجة على المدح ، والعتاب والرثاء والشكوى والوصف والمداعبات . ولكن أجود شعره فى الوصف . فإن الخيال هو كلُّ شىء فى شعره ولكنه خيال يدعو إلى حب الجمال ورقة الشعور، ويهـذب الذوق و يملأ القلب بهجة وسرورا ، لأن ابن خفاجة مصـوِّر ماهر ، ووصّاف مبدع للمشاهدات وأكثر معانيه مأخوذة من مشاهداته . وقـد امتلأتْ نفسه بذلك حتى فى المدح والرثاء . فتجده إذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب ، وأن الصباح ضَحِكَ فكشف عن ثناياه البِيض، وأن ممدوحه وضّاح المُحَيَّا ، وأنك

تَشيم (١) بصَفْحَتَيْهِ بُرُوقَ بِشْرٍ　　تَعِـدُ بَشاشَةَ الرَّوْضِ الجديدِ

(١) شام البرق نظر إليه .

ويقول :

وقد ضَحِكَ الصباحُ بمُجتلاه    وراءَ الليل عن ثغرٍ شنيب (١)
اشيمُ به سَنا بَرْقٍ يمانٍ    يُحفِّزُنى إلى المرْعَى الخصيب

فإذا تحدَّث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملى عنها ذكرياته، ويتغنى بها وبأوصافها كما قال يذكر أيامَ شبابه . وقد نيَّفَ على الستين :

فأذكرنا ليلةً باللِّوَى    وعَهْدًا لعَصْرِ الصِّبا أطْرَبا
وماء بوادى الغضَى سَلْسَلا    ومُرْتَبعًا بالحِمى مُعْشِبا
وما كانَ أعطرَ تلكَ الصَّبا    وأندَى معاطفَ تلك الرُّبا
وأطيبَ ذاكَ الجَنَى روضةً    ورشْفَةَ ذاكَ اللَّمى (٢) مَشْرَبا

فإذا رثى لا يغيب عنه الوصف حتى فى موقف البكاء ، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل وبما فى نفسه من المعانى التى ملكت منه كل شىء ، فيقول :

فى كلِّ نادٍ منكَ روضُ ثناءِ    وبكُلِّ خدٍّ فيكَ جدْوَلُ ماء
ولكُلِّ شخصٍ هزَّةُ الغصن الندِى    غِبَّ البُكاءِ (٣) ورنَّةُ المُكَّاءِ (٤)

وهو فى ذلك يُشَبِّه الدموعَ السائلة على الخدود بجداول الماء . ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الغصن الذى غمرته السماء بالماء . ويُشَبِّه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قُبَّرة تصْفِر وتنُوح .

---

(١) ذى أسنان بيض .

(٢) اللمى : سمرة فى باطن الشفة .

(٣) غب البكاء بعد البكاء .

(٤) طائر أبيض اللون له صفير حسن .

وإذا أقسم أقسم بالتفات الروض عن زُرْقة النهر، وإشراق جِيد الغُصْن فى حِلْيَة الزهر، ويقول وهو سائر فى جَوْف الليل :

وخُضْتُ ظَلامَ الليـلِ يَسْوَدُّ فَحْمهُ ... ودُسْتُ عَرِينَ(١) اللَّيْثِ يَنْظُرُ عن جَمْرِ

أو يقول : " والصبحُ يُمَسَحُ عن جَبِينِ نهار " .

ويذكر المعانى الغريبة المستَمْلَحة ، فيشبه أوراق الشجر بالعَذَارَى والنضارة بالضَّحِك، واهتزاز الغُصُون فى مَهَبِّ الريح بمُغَازَلة النسيم لها، وأن الريح يَلْثُمُ خَدَّها الخَجِل . وهو القائل هذه الأبيات الشهيرة يصف نهرا :

لله نهـرٌ سالَ فى بطحاءِ ... أَشْهَى وُرودًا من لَمَى الحسناء

مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السِوارِ كأَنَّهُ ... والزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَـرُّ سماءِ(٢)

قد رَقَّ حتى ظُنَّ قُرصًا مُفْرَغًا ... من فِضَّـــةٍ فى بُرْدَةٍ خَضْراء

وغَدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنَّها ... هُدْبٌ يَحُفُّ بمُقْـلَةٍ زرقاء

والريحُ تَعْبَثُ بالغُصونِ وقد جَرَى ... ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ المـاء

ولقـد يصف السُّرَى فى ظُلْمة الليل الحالك المنبعثة فى كل ركن من أركان الفضاء ، وما يوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة ، وما يلاقيه السائر من حيوان مفترس، فيخيل إلى القارئ أنه فى جوف الفلاة يَلُفُّهُ الليل بمخاطره . أو كأنه أمامَ لوحٍ مصوَّرٍ يرى فيه تلك المعانى مصوَّرَة بالألوان البديعة ، إذ يقول :

ومفازةٍ(٣) لا نَجْمَ فى ظَلْمائهـا ... يَسْرِى ولا فَلَكٌ بهـا دوَّار

تَتَلَهَّبُ الشِعْرَى(٤) بها وكأنَّهـا ... فى كَفِّ زَنْجِىِّ الدُّجَى دِينـار

---

(١) العرين : بيت الأسد .

(٢) المجرة : منطقة فى السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء .

(٣) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

(٤) كوكب يظهر فى شدة الحر .

قد لَفَّنى فيها الظلامُ وطاف بى ... ذئبٌ يُلِمُّ مع الدُّجى زَوّار
والليلُ يَقْصُر خَطْوه ولربما ... طالتْ ليالى الرَّكْبِ وهى قِصار
قد شابَ من طَرَفِ المجَرَّة مَفْرِقٌ ... فيه ومِنْ خَطِّ الهلالِ عِذارُ

أو يقول :

وليلٍ كما مَدَّ الغُرابُ جَناحَهُ ... وسالَ على وَجْهِ السِّجلِّ مِداد
كأنِّى وأحشاءُ الفَلاةِ تُجِنُّنى ... سَرِيرَةُ حُبٍّ والظلامُ فؤاد

أسلوبه — يتبين مما سقناه أسلوب ابن خفاجه من حيث قوة الخيال وسعته، وحضور ذهنه فى ذلك ، وسلاسة العبارة ، وسهولتها مع ميله أحيانا إلى الألفاظ الغريبة ، وإلى المعانى الخفية ، وإلى شيء من التكلف والتعمل فى ذكر أنواع البديع . بل قد يتغلب عليه ذلك ، فتمتلئ بذلك عباراته ، وأكثر وصفه فى الليل وسواده ، والصباح وبياضه ، والرياض والبساتين ، والأزهار والأشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ، ولونها الفضى وأشعة الشمس عليها ، والنسيم وسريانه ، وغير ذلك من مثل هذه المعانى . وقد خالف أكثر الشعراء فى نظم القصيد من حيث البدء بالغزل والنسيب . إذ أكثر قصائده مبدوء بالوصف ، ولولا استسلامه إلى الصناعة لَعُدَّ من الشعراء المفطورين . ولكنه بإمعانه فى تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف فى معانيه وألفاظه ، حتى لاتكاد تجد شيئا من كلامه إلا استعارة أو مجازا أو تشبيها . وقد يدعو ذلك أحيانا إلى استغلاق المعنى على القارئ . ولكن شعره فى جملته يعتبر معجما لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، وتشبيهات بديعة ، ومعرضا يجد فيه القارئ خير أنواع المجاز ، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية المختارة ، ومعانيه تشبه أسلوبه لأنها لاتعدو أن تكون تشبيهات أو استعارات .

ولابن خفاجة قطع نثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال وسار فى أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذانى ، من حيث اتباع السجع والتعمل ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع ، وكأن نثره شعر منثور .

## ابن هانئ

حياته ونشأته — هو محمد بن هانئ الأندلسيّ الأزدِىّ . كان أبوه هانئ شاعرا أديبا من قرية المَهْدِيّة بإفريقية ، فهاجر طلبا للرزق إلى بلاد الأندلس ، ونزل بإشْبِيلِيَةَ . وهناك وُلِدَ له ابنُه محمد سنة ٣٢٦ﻫ ونشأ وتربّى بها . فورِثَ عن أبيه الميل إلى الشعر . ومازال يعالج هذه الصناعة حتى صار شاعرا ، واشتهر بين الشعراء ، فاتصل بحاكم إشبيلية ولازمه ، ثم عُرِف بأنه من أصحاب الآراء والعقائد الدينية الممقوتة وأهل الفلسفة ، واتهم فى دينه وساءت المقالة فى حق الحاكم بسببه ، فطُلِب إليه مغادرة المدينة حتى ينسَى الناس أمره . فغادر إشبيلية ، ورحل إلى بلاد المغرب وكانت سنه ٢٦ عاما ، فأكرموا هناك وِفادته ، واتصل بجوهر القائد مولى المعزّ لدين الله الفاطمىّ . ثم عرفه المعزّ فقرّبه إليه وأحبه ، وطلب إليه أن يلازمه وأن يكون شاعره . ولما سافر المعزّ إلى مصر خرج معه ابن هانئ مُشيِّعا . ثم استأذنه فى الرجوع إلى المغرب لأخذ عياله والّحاق به فرجع ثم رحل إلى مصر فنزل فى طريقه ببرقة وسكِر فى دار أحد أصحابه فعربدوا عليه وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٣٦٢ﻫ فلما بلغ المعزّ أمرُه حَزِن عليه حزنا شديدا وقال : كنّا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك .

شعره — أكثر شعر ابن هانئ فى المدح ، لأنّ ذلك كان الغرض الأول من شعره . وقد مدح المعزَّ لدين الله الفاطمىّ ، فكان شاعره وشاعر دولته . ومدح غيره من الأمراء . وله قصائد فى الرثاء والهجاء والوصف ، ولكنها أقلّ شعره شهرةً وذيوعا . غير أنّ هذه القصائد الطويلة فى مدح الأمراء اشتملت على جميع أغراض الشعر من مدح وهجاء وحماسة ونسيب ووصف . جاء كل ذلك منبثا فى أثناء كلامه

فليس هو مداحا ليس غير و إنما هو شاعر طرق جميع أنواع الشعر وأجاد فيها وأكثرُ هذه الأغراض الغَزلُ والوصفُ والمدح .

أما الغَزَل فقد جاء فيه بأرقّ المعانى وأخفّها على النفس . وهو وإن كرّر ماذُكِر فى شعر غيره من المعانى المعروفة ، كمواقف الوداع وهَوْل الجفاء والفراق والشكوى والرجاء والأَرق والبكاء ، وبؤس المحبّ فى بُعده عن حبيبه ، وذكر طيف الخيال وتشبيه مَن أحبّ بالمها والظباء والغصون ، وأثر ألحاظهم وفتكاتها ، إلى مثل هذه المعانى المعروفة ، يمتاز بحسن صوغ تلك المعانى ونظمها فى أسلوب خلاب وعبارات بليغة ، كلها أو جلها من باب الاستعارة المستملحة والتشبيه البديع ، مما جعل لهذه المعانى صِبْغَةً خاصة كأنها جديدة فى نوعها . وكان إذا وصف بحث عن المعانى التى تساعده على تصوير مايريد من الأخيلة . فكان لايعمد إلى وصف حقيقة من الحقائق حتى يلتجئ إلى الخيال . فإذا وصف الجيش سائرا إثر الأمير قال إنه سد الأفق حتى أخفى الشمس ، وملأ سوادُه الجوّ فحجب النور ، وأصبح كأنه لجة لايقدر على خوضها أحد ، أو أنه إذا سرى فكأن الجبال تسير معه أو تسجد له ، إلى نحو هذا .

وإذا مدح الأمراء مدحهم بالشجاعة ، ووصَف جيوشهم وقوةَ شكيمتهم ، وما لهم من صولة فى ميادين الحرب ، ثم وصَفهم بالكرم والسخاء مع كثير من المبالغة لأنه لم يكن يتوخى الحقائق فى كلامه ، إذ كان يقصد إلى رفع شأن ممدوحه أيا كان بجعله أفضل الناس . فكان ذلك يدفعه إلى أن يصف الرجل بما ليس فيه ، وكأنه جمع صفات الكمال وحده ، ويجعله كلَّ شىء فى الوجود . فيقول :

هو عِلّةُ الدنيا ومَنْ خُلِقَتْ له ولعِلّةٍ ما كانت الأشياء
لَيْسَتْ سماءُ اللهِ ما تَرَوْنَها لكنْ أرضاً تحتويه سماء
نزلتْ ملائكةُ السماءِ بِنَصرِه وأطاعه الإصباح والإمساء

وهذه المبالغات من عيوب شعره . على أن مدائحه مملوءة بكثير من المعانى الجميلة الممتعة . وتمتاز بطولها وسعة خيال الشاعر . وهو فى كثير من نواحى شعره موضع الإعجاب ومظهر البلاغة ، حتى عُدَّ من الشعراء المبتكرين، وعُرِف بالتصرف فى المعانى .

ومن قوله فى الغزل :

قُمْنَ فى مأتم على العُشّاق ولَبِسْنَ السوادَ فى الأحداق
وبَكَيْنَ الدماءَ بالعَنَمِ (١) الرَّطْب المُقَنَّى (٢) وبالخدود الرِّقاق
ومَنَحْنَ الفِراق رِقَّةَ شَكْوا هُنَّ حتى عَشِقتُ يومَ الفراق

ومن قوله فى مدح المعتز :

فإذا بعثتَ الجيشَ فهو منيَّةٌ وإذا رأيتَ الرأىَ فهو قضاء

ويقول :

قد طيَّب الأفواهَ طِيبُ ثنائه من أجل ذا تجد الثغورَ عِذابا
لبس الصباحُ به صَباحا مُسْفِراً وسَقَتْ شمائلُهُ السحابَ سحابا
قد بات صَوْبُ المزن يسترِقُ النّدى من كَفِّه فرأيتُ منه عُجَابا

ومن قوله فى الجد والعبرة :

إنا وفى آمال أنفسنا طول ، وفى أعمارنا قِصَرُ
لَنَرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألبابُ تعتبر
أىُّ الحياة ألَذُّ عيشتها من بعد علمى أننى بَشَر
خَرِسَتْ لعَمْرُ الله ألسنُنا لمّا تكلَّم فوقنا القَدَر

---

(١) شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب . والواحدة عنمة . (٢) المقنى شديد الحمرة .

أما أسلوبه فيُحْسَب أحيانا من الأساليب السهلة ، لأنه شاعر متفنّن . ولكنه كثيراً ما يتعمّد الصنعة ، فيأتى بالطباق أو الجناس أو الاستعارة الغريبة ، ويستعين بصناعته على إبراز معانيه وتجميلها ، إذ أكثر معانيه معروف فى أشعار غيره . فهو يميل إلى نوع من الغرابة والتكلف فى الصناعة ، حتى حَسِبه بعضُ النقاد من بين الشعراء الذين يبهرون القراء بقَعْقعة ألفاظهم .

ومن مدحه المبدوء بالغزل قوله :

قد مررنا على مغانيك (١) تلكِ ... فرأينـا فيهـا مشابه منك
عارضتنا المهَا الخرائدُ (٢) أسرا ... باً بأجراعهـا فلم نَسَلْ عنك
لا يُرَعْ لِلْهَا بذلك سِربُ ... فلقد أشْبهتْكِ إنْ لم تكُنْكِ
فحنيـنٌ مرجّـعٌ كحنينى ... وتَشَـكٍّ مردّدٌ كتشكى
فاتئد تسكب الدموع كَسَكْبى ... ثم لا تسفك الدماء كسفكى
لا أرى كابن جعفر بن علىّ ... مَلِـكاً لابساً جلالةَ مُلْك

ومن مدائحه :

وما الجود شيئا كان قبلك سابقاً ... بل الجود شىء فى زمانك حادث

إلى أن قال :

عَبِثْتُ زمانا بالليـالى وصَرْفِهـا ... فها هى بى لو تعلمون عوابِث
لئن كان عِتْقُ النفس للنفس قاتلا ... فإنى على حَتْفى وبكَفّىَ باحثُ
وإن كان عمر المرء مِثْل سمـاحه ... فإن أمـير الزاب للأرض وارث
إذا نحن جئناه اقتسمنا نواله ... كما اقتُسِمَتْ فى الأقربين الموارث
وإنّ حراما أن نُؤمّـل غيرَه ... كما حُرِّمت فى العالمين الخبائث

---

(١) المغنى : المنزل .

(٢) المها : مفردها مهاة وهى البقرة الوحشية ، والخرائد : جمع خريدة وهى الفتاة الطويلة السكوت من الحياء .

ومن رثائه قوله :

وَهَبَ الدَّهْرُ نفيسا فاسترد    ربما جادَ بخيل فحسد
كلما أعطَى فَوقَّ حاجة    بِيَدٍ شيئا تلقَّاه بِيَدْ
كاذب جاء جَهاما (١) زِبْرِجاً (٢)    بعدَ ما أومضَ برقٌ ورعَد
خاب مَن يرجو زمانا دائماً    تُعْرَفُ البأساءُ منه والنكد
فإذا ما كدَّر العيش نما    وإذا ما طيَّبَ الزاد نَفِد
فلقد أذْكَرَ من كان سَهَا    ولقد نَبَّهَ مَن كانَ رَقَد
أبداً يَعْجُم مِنى نَبْعَةً (٣)    وقَناةً ليس فيها مِن أوَد (٤)

---

(١) الجهام : السحاب لاماء فيه .

(٢) الزبرج : السحاب الرقيق .

(٣) عجم العود عضه ليعلم صلابته من رخاوته . والنبعة القوس .

(٤) الأود الاعوجاج .

## ابن سهل

ولد إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي سنة ٦٠٩ هـ ، وتُوُفِّي غريقاً مع حاكم مدينة سَبْتَة سنة ٦٤٩ هـ . وكان يهوديا ثم أسلم ، سكن آباؤه الأندلس منذ زمن بعيد ؛ ثم صاروا من ذوى الجاه والشأن . وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتبا لصاحب سَبْتَة ، وتعلم اللغة والأدب على أشهر علماء زمانه ، ومنهم أبو عليّ الشَّلَوْبين ، وُلد بإشبيلية سنة ٥٦٢ هـ وتُوفى بها سنة ٦٤٥ هـ وهو من أكبر علماء النحو واللغة ثم أخذ فى معالجة الشعر حتى برع فيه ، فسمَّوْه شاعر إشبيلية ووَشَّاحَها وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائده .

وقد عاش ابن سهل فى أواخر أيام العرب فى الأندلس ، أيام بنى هود والمرابطين والدولة آخذة فى الزوال ؛ ولكن العلوم والآداب كانت فى أزهى عصورها ؛ وكانت مدن الأندلس غاصّة بأهل العلم والأدب ، والترَف قد دَبَّ فى كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية ، وتمكنت الأهواءُ من النفوس . وهذه البيئةُ أصلَحُ ما تكون لشاعر مثل ابن سهل ؛ لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجنا امتلأت نفسه بمعانى الغزل .

شعره ومعانيه وأسلوبه — يشتمل شعر ابن سهل على الغزل والرثاء والمدح والوصف وله أبيات فى التهانى وأبيات فى الزهد ؛ ولكن أكثر شعره فى الغزل . ولقد حام حول كل ما قيل فى ذلك ؛ ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بنفسه وأملاه عليه خياله ؛ أو مما عُرف فى شعر غيره وجادتْ به أخيلة الشعراء فى ذلك

إلا ذكره فى شعره ، وكساه لفظا من عنده ، ونظمه فى كلامه حتى لقد يجد العاشق فى شعره كلَّ معنى يدِبّ فى نفسه ، أو شعور يُحسّه ، أو صورة لمن يُحبه .

أما معانيه فأكثرها مأخوذ من كلام غيره . وهى أجمع للأوصاف الظاهرة منها للمعانى النفسية ، كتشبيه حبيبه بالغزال ، أو بالغصن النضير ، وعيونه بالسيوف ، واحمرار خدوده بالجمر وقوله إن الحبّ علّمه السُّهْد ، وجعله يألَف السَّقام كما قال :

أهواهُ حتى العينُ تألَفُ سُهْدَها     فيه وتَطْرَبُ بالسَّقام جوارحى

ويقول :

وعــذَّبَ بالِى نَعَّم اللهُ بالَهُ     وأسهَدَنى لا ذاقَ طعم التَّسم

ويرِقُّ فى كلامه فيخَيِّل إليك أنه يتكلم بقلبه وأن ملاقاةَ حبيبه هى كلُّ أمنيّة له ، ويلتمس له ذنبا كى يجد وسيلة لعتابه .

فيقول :

تُدْنيــكَ زُورُ الأمانى     مِنِّى وتَنْأى طِــلابا
كأننى حين أبغى     رِضاك أبغى الشّبــابا
وأشتهى منــك ذَنْبـا     أبنى عليــه العِتابا
حتى إذا كانَ ذنبٌ     فَتَحْتُ للعُــذرِ بابا
ظَمِئْتُ منك لوعــد     فكان وِرْدِى السَّرابا
لا خاب سُــؤلُك أمّـا     ســؤلى لديك فخــابا

ولقد يُمعن فى الخيال فتغلبه الألوانُ ببهائها ، وتملأ نفسه المناظر الجميلة . كقوله فى وصف الأصيل :

انظر إلى لون الأصـيل كأنه — لا شك لونُ مودِّع لفـراق
والشـمس تنظر نحـوه مصفرةً — قد خَمَّشَتْ[1] خدا من الإشفاق
لاقَتْ بحمـرتها الخليـجَ فألقَـا — خجلَ الصبِّـا ومدامعَ العشـاق
سـقطت أوانَ غروبها محمـرةً — كالخمـر خَرَّت من أنامل ساقِ

ومن بكائه فى شعره قوله :

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من — دمعى وأنشَـق ريَّاً ذكرِك العطر
حتى أخيـلَ أنى شـارب ثَمِلُ — بينَ الرياض وبين الكأسِ والوترِ

ومن معانيه وأخيلته قوله :

بخـده لِفـؤادى نِسْـبةٌ عَجَبٌ — كلاهما أبدا يَدْمَى مِنَ النظـر

أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتنع ، ولا يؤخذ عليه إلا بعضُ عبارات ذهب فيها مذهب التكلف فى الاستعارات وصورها ، محاكيا بذلك بعض كِبار الشعراء كقوله فى الرثاء :

لئن سَوَّدَ الآفاقَ يوم حِمَامِهِ — لقد بيَّضَتْ صُحُفَ الحساب فضائلُه

---

(١) خمش الوجه : خدشه ولطمه .

وهكذا تجده يمزج السهولة بالتصنع . ولكنه بعدَ كلِّ هـذا شاعر مفطور على سلاسة الأسلوب ورقة الألفاظ ، كما تجد ذلك فى موشحته الشهيرة التى تعتبر من أجمل الموشحات . وربما أغرب فى الخيال ، كما شبه ابتسام حبيبه له وهو يبكى بالروض المنوّر تمطره السماء ، وكأنَّ القطْر بكاء فى مأتم وكأنَّ الروضَ فى جماله عرس جمع أنواع السرور إذ يقول فى موشحته :

كلما أشـكوه وَجْدى بَسَما ... كالرُّبا بالعارِض المُنْبَجِس

إذ يُقيم القَطْرُ فيها مأتَمًا ... وهى من بهجتها فى عُرُس

## ابن زيدون

كان ابن زيدون شاعرا وناثرا معا . وله خصائص فى الشعر كما له خصائص فى النثر . ولكنه شاعرا أعظم منه ناثرا ، لتصرفه فى فنون الشعر وامتيازه فى كثير من نواحيه .

وقد نشأت بينه وبين ولّادة بنت المُسْتَكْفِى مَوَدَّة كانت منبعا من منابع شعره ، ووسيلة من وسائل إلهاماته الفنية . وهى التى وَلَّدَتْ فى نفسه هـذا النوع من البؤس والاضطراب اللذين يُشاهدان فى كثير من نواحى نظمه ونـثره ، كما أن الحوادث التى نزلت به كانت سببا فيما حَلَّ به من الشقاء ، فساعدته على الكتابة والشعر فى العَتْب والذمّ والاستعطاف والهجاء . وأملتْ عليه رسالتيه الجِدِّية والهَزلية الفريدتين فى أسلوبيهما .

أما شعره فلم يكن ضربا من التقليد والمحاكاة ، بل كان ناشئا من نمو ملكة الشعر فى نفسه ، ومن رغبته فى التعبير عن كل ما يشعر به ، وعمـا له صلة بحياته الخاصّـة . ولم تلبث الحوادث التى نزلت به ، والأيام التى قضاها فى السجن أن هاجت من نفسه ، وولّدتْ فيها تلك المعانى التى ذكرها . فكان شعره صحيفة من حياته النفسية ، وصورة لمـا كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام . وكثيرا ماتقرأ شعره فترى فكره المضطرب ، ونفسه الوثابة الحائرة ، وتكاد تلمس كبره وخيلاءه وسخطه على أعدائه ، وتجلده وصبره وهو يشكو و يئن من بلواه . كما فى قصيدته التى يقول فيها :

ما عَلَى ظَنِّىَ بـاسُ ... يجرح الدهر ويأسو [1]
ربَّمـا أشرفَ بالمر ... ءِ على الامال يـاسُ

---

[1] راجع القصيدة فى كتاب المنتخب .

وكثيرا ما كان يفخرَ بفضله ، وربما بنفسه عن أن يكون أُلعُوبة فى يد الحوادث ، ويرى أن سبب تعسه حقد أعدائه عليه ، لما اتصف به من فضل وعلم. وكثير من شعره فى هذا المعنى كقوله :

لا يُهْنِئُ الشامتَ المرتاحَ خاطرُه ... أنى مُعَنًّى(١) الأمانى ضائعُ الخطرِ(٢)
هل الرياح بنجم الأرض عاصفةٌ ... أم الكسوفُ لغير الشمسِ والقمرِ
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجبٌ ... قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصارم(٣) الذَّكَرِ
قد كنتُ أحسبنى والنجمَ فى قَرَنٍ(٤) ... ففيمَ أصبحتُ منحطاً إلى العفرِ(٥)

ويمدح فيمزِجُ مدحه بالاستعطاف والعَتْب ، وكثيرٌ من قصائده فى استعطاف ابن جهور وهو فى السجن صورةٌ من صور البؤس الذى فتق من لسانه ، وأثار فى نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة ، التى هبت عليه فملأته هما وغما . إذ يقول وكأنك تسمع أنينه :

ألم يَأْنِ أن يبكى الغمامُ على مِثْلِي ... ويطلب ثأرِى البرقُ مُنْصَلِتَ النَّصل
وهَلّا أقامتْ أنجمُ الليلِ مأتما ... لتندبَ فى الآفاق ماضاع من نُبلى
ولو أنصفتْنِي وهى أشكالُ همَّتى ... لألْقَتْ بأيدى الذُّلِّ لمّا رأتْ ذُلِّى
ولو أننى أَسطيعُ أن أرْضِىَ العِدا ... شَرِبْتُ ببعضِ الحِلْمِ حظاً من الجَهْل

أما غزله فكثير ، وكله يدل على سَعَة خياله وإخلاصه فى حبه ، وبث عواطفه وما يجول فى نفسه ، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :

يا ليتَ شِعرى وعندِى ... فى الحبِّ ماليس عندَك
هل طال لَيْلُكَ بعدِى ... كَطُولِ لَيْلِيَ بعدَك

---

(١) متعب بأمانيه . (٢) الخطر قدر الرجل ومنزلته . (٣) الصارم القاطع . وسيف ذكر ذو ماء وبريق . (٤) أى فى منزلة واحدة . (٥) التراب .

سَـلنى حيـاتى أَهَبْهـا فلَسْـتُ أَمْلِك رَدَّك
الدهرُ عَبْـدِى لمـا أصبحتُ فى الحبِّ عبدَك

وقوله :

مــتى أبُثُّـكِ ما بى ياراحـتى وعـذابى
مــتى ينوبُ لسـانى فى شرحه عن عِتابى
يا فتنـةَ المتَعَـزِى وحُجّـةَ المُتَصـابى
الشمسُ أنتِ توارتْ عن ناظرى بالحجاب
ما البـدرُ شَفَّ سَناه على رقيق السحاب
إلا كوجهِـك لمـّا أضـاءَ تحتَ النقاب

وقد ذكر ما كان عليه فى مدينة الزهراء فحركت الذكرى من نفسه ، فكتب إلى وَلّاده يقول :

إنى ذكرتُك بالزّهراء مُشتاقا والأفق طَلْقٌ ووجهُالأرض قد راقا
وللنّسـيم اعتـلالٌ فى أصائله كأنمـا رقَّ لِى فاعتـلَّ إشفاقا
والروضُ عن مائه الفضىِّ مبتسمٌ كما حلَلْتَ عن اللَّباتِ(١) أطواقا
يومٌ كأيام لذاتٍ لنـا انصرمت بِتْنَـا لهـا حين نام الدهرُ سُرَّاقا
نلهو بمـا يَسْتميلُ العينَ من زَهرٍ جَالَ النَّدى فيه حتى مَالَ أعناقا
كأَنَّ أعينَه إذ عاينتْ أَرَقِى بَكَتْ لمـا بِى فجَالَ الدمعُ رَقْراقا
وَرْدٌ تألَّقَ فى ضاحى مَنَابِتـه فازداد منه الضحا فى العين إشراقا
سَرَى يِنَافحـه نِيلوفَرٌ عَبِق وَسْنانُ نَبَّهَ منه الصبحُ أحداقا (٢)
كلٌّ يَهِيج لنـا ذِكرى تَشَوّقنـا إليكِ لم يَعْدُ عنها الصَدْرُ إن ضاقا

---

(١) اللبة : بوزن الحبة المنحر .

(٢) النيلوفر : نوع من النبات ينبت فى الماء الراكد له ساق ملساء تطول بحسب عمق الماء . وله زهر ذو رائحة طيبة . والوسن النعاس .

## النـــثر

النثر فى القرن الأول الهجرى — كان النثر فى هـذا القرن مقصورا على الخطابة الدينية وغيرها ، والمراسـلات السياسـية بين الخلفاء والأمراء ، أو بين بنى أمية والخارجين عليهم . وكانت العَصَبِيّة بين العرب على أشدّ ما تكون فى إثارة الخواطر وإيقاظ الفتن القـديمة بين الأمويين والخارجين عليهم . وكانت العقول لم تتهذبْ بَعْـدُ بشىء من العـلوم ، فلم يكن للنثر الإنشائى هناك كُتَّاب معروفون بالكتابة الأدبية والفنية والتأليف فى الفنون ، كما عُرِف كثيرٌ من الشـعراء الذين ولَّدتهم الضغائنُ والمنازعاتُ السياسـية . بل اقتصرت الكتابة والخطابة على الخلفاء وعُمّالِهم ، يكتبون إليهم ويخطبون فى عمالاتهم كما كان يفعل أعداؤهم فى الجهات التى انتشر بها نفوذهم. فكانت دائرة الكتابة ضيّقة محصورة ، وموضوعاتها محدودة.

الكتابة فى الأندلس — وعلى هذه الحال دخل العرب الأندلس . فلما استَوْلَوْا عليها ، لم يكن من همّ الأمراء غير توطيد ملكهم ، ونشر دعوتهم ، وبث روح المسالمة فى جندهم . وقد شُغِلوا جميعا بالفتح والحروب ، وكانت لغتهم من أقوى عُدَدِ الدّفاع لديهـم ، ومن أشدّ وسائل بثّ الحماسـة فى النفوس . فسلُّوا ألسنتهم فى ميدان الخطابة بين الجند ، وأرهفوا أقلامهـم فى نشر دعوتهم وتأييد ملكهم و إذاعة دينهم. وثارت الفتن بينهم ، فأمعنوا فى المكاتبات والخطب السياسية على نحو ما كانوا يكتبون ويخطبون فى بلاد المشرق. و بقيت الحال على هذا زُهاء قرن ، منذ أواخر القرن الأول إلى أواخر القرن الثانى . فكانت الخطب والمراسلات فى عصر الأمراء وفى النصف الأول من عصر بنى أمية فى الأندلس هى أنواع النثر وأغراضه ولم يكن هناك مجال للكتابة الأدبية الخالصة ، كالرسائل الطويلة المنمقة ! بل كانت

الكتابة كلها مما تدعو إليه الحالة . وقد ظهر فى العصر الأول جماعة من الكتّاب منهم أمية بن يزيد ، كاتب الأمير يوسف الفِهْرِىّ ، وأبو عثمان عبد الله ، والأمير عبد الرحمن الداخل وغيره من الأمراء ، ولكنّ كل كتاباتهم كانت من الرسائل القصيرة .

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل يعتب على سيده :

" مَا كان جزائى فى قطع البحر وجَوْبِ القَفْر ، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى ، غير الهَجْر الذى أهاننى فى عيون أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهيى عند مَن يلوذ بى ، وبتر مَطَامع من كان يكرمنى ويحفو بى على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بنى العباس لو حصلتُ بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا . فإنا لله وإنا إليه راجعون " .

فلما وقف عبد الرحمن على رُقْعته اشتدّ غيظه عليه فوقّع عليها :

" وقفتُ على رُقعتك المنبئةِ عن جهلك ، وسوء خَطَلِك ، ودناءة أدبك ، ولؤم معتقدك . والعَجَبُ أنك متى أردت أن تبنى لنفسك عندنا مَتَاتاً[1] أتيتَ بما يهدم كُلَّ متات مشيد . فما تَمُنّ به مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقَدَحتْ فى النفوس إعادته ، استخرنا الله من أجله على أن أمرْنا باستئصال مالك ، وزِدْنا فى هَجْرِك وإبعادك ، وهِضْنا[2] جَناح إدلالك . فعلَّ ذلك يقمَع منك ويردَعَك ، حتى يبلغَ بك ما نريد إن شاء الله . فنحن أولَى بتأديبك من كل أحد ، إذ شَرُّكَ مكتوب فى مثالبنا ، وخَيْرُك معدود فى مناقبنا " .

ومنذ القرن الثالث الهجرى كثر الوافدون من بلاد المشرق إلى بلاد الأندلس من علماء وأدباء ، وأخذ خلفاء بنى أمية يُعنَوْنَ بنشر العلوم والمعارف ، وينافسون

---

(١) مقاما وقرابة .

(٢) هاضه : كسره وفتته . والمراد هنا أضعنا مالك من تيه وإعجاب .

أهل بغداد فى الحصول على أنفس الكتب واقتناء ما تُرجم وأُلِّف فى مختلف العلوم وعنِي أدباؤهم بمحاكاة أدباء الشرق واتباع طرقهم، ثم دَبّ الترف فى النفوس والعقول كما دبّ فى الاجتماع، وتمشّى هناك نوع جديد من التفكير، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية، وتهذّبت الأفكار، ونضجت العقول بما نُقل من علوم وفنون، وانتشرت مظاهر الحضارة فى المجالس والمجامع. فامتلأت نفوس الكتّاب بهذه الموضوعات التى وَسّعتْ من أخيلتهم وهَذّبتْ من إدراكهم، وأكسبتهم صبغة فنية بما كان من أبّهة الملك، ووصف المبانى الضخمة والقصور الفخمة، ومظاهر التّرف ومجالس الخلفاء والأمراء. فكان ذلك من العوامل الجديدة فى نموّ ملَكة الكتابة فنشأ عن ذلك النثر الإنشائى الفنى، واشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية فكتب الكتّاب رسائل فى المراسلات والأوصاف والسياسة، والمناظرات الخيالية، والمناقشات العلمية، والقِصص الاجتماعية والخيالية، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحِكَم والأمثال، والرسائل الفكاهية وكتبوا على ألسنة البلدان والحيوان وكتبوا فى الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الله، وفى شعائر الحج، كما كتبوا فى الزهد والتصوّف، وكما كتبوا فى المجون فبرعوا فى النثر كما برعوا فى أساليب النظم.

فمن كتب فى الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون وممن كتب فى القصص والفكاهات أبو عامر بن شُهَيْد. وممن كتب فى المناظرات بين السيف والقلم ابن بُرْد الأصغر كما كتب أبو بَحْر صفوانُ بنُ إدْرِيس فى المناظرة بين بُلدان الأندلس وكتب ابن طُفَيْل فى القصص الفلسفية. وممن أطال فى الرسائل واشتهر فيها لسان الدين بن الخطيب فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربى كالشعر سواء بسواء بل فاق الشعر من حيث تجددُ الموضوعات وتطورُها التى من أشهرها القصص الخيالية:

الأسلوب — أما أساليب النثر فكانت فى أول الأمر خالية من التكلف والصنعة، أشبه بما كان يُكْتب فى دولة بنى أمية فكانت حماسية بليغة، وعربية خالصة. وكان الكتّاب من أمراء ووزراء أعرابا، لم تتطرق العجمة إلى ألسنتهم،

ولم يختلطوا بعدُ بغيرهم ، ولم ينقلوا شيئا عن الأمم الأخرى ، ولم يتأثروا بلغة أهل البلاد التي نزلوا بها بل حملوهم على أن يتعلموا لغة العرب ويتثقفوا بالثقافة العربية . فكانت الكتابة فى موضوعاتها وأساليبها متينة جزلة ، بعيدة عن التعمل والمبالغة ، وعن ألفاظ التفخيم والتبجيل وعبارات الملق ، قليلة السجع إلا ما جاء عفوا .

ولما ذاع أمر الصناعة فى المشرق زمن ابن العميد والبديع ومَن على طريقتهما وانتشر السجع والتعمُّل فى الكتابة ، وكان الأندلسيون يحاكون أهل المشرق فى كل شيء ، ذاعت الصناعة فى الكتابة ، وامتلأت بأنواع البديع ، وطغى السجع على كل أنواعها ، من رسائل وقصص جدية وهزلية ، وكتب علمية وأدبية وتاريخية ، وبالغ فى ذلك أهلُ الأندلس وأمعنوا فى ضروب الخيال ، وجاءوا بكل غريب فى ذلك . فكان فى نثرهم الكلام المسجوع ، الذى يكاد يكون من السهل الممتنع ، مع دقة فى اللفظ وجزالة فى المعنى ، ومزج الحقيقة بالخيال . كما فى أسلوب الذخيرة لابن بسام حيث يقول فى ترجمة ابن شهيد :

" كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها . يَنبُوع آياتها ، ومادة حياتها ومبنَى أسمائها ومسمياتها . نادرة الفلك الدوّار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هَزَلَ فسَجْعُ الحمام ، أو جَدَّ فزئير الأَسَد الضِرغام . نَظْمٌ كما انتسق الدر على النحور ، ونَثْرٌ كما خُلِطَ المسكُ والكافور " .

وكانوا أحيانا يتكلفون فى كتاباتهم وكأنها شعر مصنوع لا تسيغه النفس ولا يتحمله الذوق ، كما فى بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب . وقد يلتزم بعضُهم السجعَ المتكلَّف ، وكأنه مفطور على ذلك ، فيمزجه بأساليبه العلمية ، وكتاباته التاريخية ، كما فى كتب الفتح بن خاقان . وبقى الأمر على هذا إلى أواخر أيام العرب هناك .

وقد امتلأت الرسائل الأدبية بالحِكَم والأمثال المقتبسة ، والأشعار والأمثال السائرة ، والخيال الشعرى ، وكثرة الوصف والتشبيهات والاستعارات وضروب الإطناب . كما فى رسائل ابن زيدون ولسان الدين وابن شهيد وغيرهم .

وجملة القول إن الكتابة النثرية فى الأندلس اشتملت على كثير من الأنواع وامتازت بسعة الخيال وضروب الافتنان ، والصناعة اللفظية ، ولا سيما السجع بجميع أنواعه ، حتى أصبح الإنسان لا يكاد يجد كتابا غير مسجوع ، ولا كاتبا لم تكن ملَكَةُ السجع راسخة فى نفسه .

الخطابة — دخل العرب الأندلس وهم أحوج الناس إلى تأييد أمرهم ، وتثبيت قدمهم والدفاع عن دينهم ، وبثّ الشجاعة فى نفوس جندهم . فدعت هذه الحالُ إلى الاشتغال بالخطابة . وكان الأمراء والخلفاء أصحاب فصاحة وبيان ، تفد عليهم الوفود يخطبون فى حضرتهم ، فيجيبونهم بمثل خطبهم ، فزاد ذلك من شأن الخطابة وذاع أمرها فى مجالس الأمراء والخلفاء الذين كانوا يرفعون من قدر الخطابة والخطباء ، ويكرمون من اشتهر منهم بالتفوق فيها . وأصبح لقب الخطيب من ألقاب التبجيل والتعظيم كلقب الفقيه والشاعر . فكان ذلك من دواعى الإقبال على الخطابة والنبوغ فيها . وبقيت الخطابة مظهرا من مظاهر الأدب وفنون الكلام المنثور إلى قُبيْل خروج العرب من الأندلس .

وكان الغرضُ منها بادئَ الأمر بثَّ الشجاعة وتأييد العصبية فى القبائل ، وأول كلام من هذا النوع خطبة طارق بن زياد فاتح بلاد الأندلس . وهى من نماذج خطب العصر الأول فى موضوعها وأسلوبها .

وقد بقيت الخطابة على هذا النحو زمن الأمراء وفى شطر من خلافة بنى أمية . فكانت عباراتها سهلة بعيدة عن الصنعة ، خالية من السجع المتكلّف .

ولما انتشر العلم فى بلاد الأندلس ، وتعلق الناس بأهـدابه ، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات فى مجالس الخلفاء وغيرها مدة بنى أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة ، وتغيرت أساليبها ، وتطرقت إليها الصناعة ، وامتلأت بالسجع على أثر انتشار ذلك فى الكتابة النثرية . وبقيت على هذه الحـال إلى أيام ملوك البربر . ثم انطفأت شعلة الحماسـة فى النفوس ، وخمدت قوة التفكير على أثر تعصب البرابرة وجهلهم . فانحطت منزلة الخطابة ، واقتِصر فيها على الوعظ فى المساجد .

وقد كان هناك جماعة من مشهورى الخطباء مثل الوليد بن عبد الرحمن بن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموى ، وعبد الله الفَخَّار زمن المرابطين ، وغيرهم من الأمراء . ومن أشهر الخطبـاء المعروفين القاضى أبو الحسن منذر بن سعيد البَلوطِى فقيه قرطبة وقاضيها ، المتوفَّى سـنة ٣٣٥ ﻫ . وقد كان فى حضرة عبد الرحمن الناصر بقصر قرطبة عند الاحتفاء بقدوم رسول ملك الروم ، فَطُلب من بعض كبار العلماء الذين كانوا حاضرين ذلك المجلس أن يخطبوا ، فأُرْتِجَ عليهم لهيبة الموقف ، فوقف منذر بن سعيد ، وألقى خطبة أُعْجِب بها الخليفة ، ودلت على براعته وحضور ذهنه وقوة عارضته وارتجاله .

ولكن شأن الخطابة لم يصـل إلى ما كان عليه فى بلاد المشرق ، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثلُ زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، أو الخليفة المنصور، ممن كان يُحسب كلامهم من الكلام الجيد والمنثور البليغ .

من خطبة منذر بن سعيد البلوطي في حضرة عبد الرحمن الناصر عند ما وصل إليه رسول ملك الروم :

" ... ... وإني أذكّركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التي لَمَّتْ شعثكم ، وأَمَّنَتْ سِرْبَكُمْ ، ورفعت قوّتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكَثّركم ، ومستضعفين فقوّاكم ، ومُسْتَذَلّين فنصركم ، ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضَرَبت الفتنةُ سُرادِقَها على الآفاق ، وأحاطتْ بكم شُعَلُ النفاق ، حتى صِرْتُم في مثل حَدَقة البعير من ضِيق الحال ونكد العيش . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء . أُنْشدكُمْ بالله معاشر الملأ ، أَلَمْ تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسُّبُلُ مَخُوفَةً فأمَّنَها ، والأموال مُنْتَهَبة فأحرزها وَحصَّنَها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافِيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشَفَى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم " .

## ابن زيدون

مولده ، نشأته — أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومى الأندلسى القرطبى الشهير بابن زيدون ، أحد شعراء الأندلس وكُتّابها المشهورين ووزرائها الأدباء المعروفين بفنون الكتابة والشعر ، الذين تربعوا فى مناصب الملك وتقلبوا فى مراتب الدراسة . ولد بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ هـ ونشأ بها ، وكان أبوه من كبار قضاتها وأدبائها وعلمائها . فنشأ ابنه ميالا إلى تحصيل العلوم ، وتفرغ للدرس والبحث ، وأخذ العلم عن علماء قرطبة وأشهر رجال الأدب بها ، وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار ، والسِيَر ، والحِكَم والأمثال ، ومسائل اللغة ومباحثها . وكانت قرطبة غاصّة بالعلماء والأدباء ، وهى فى أوج عزها ، وقد جعلها بنو جَهْوَر حاضرة العلم والفنون . فامتلأت المجامع هناك بالأدباء والشعراء ، وأنواع اللهو والطرب ومظاهر الترَف . وكان لابن زيدون أدب جم ، وفضل مشهور ، فصار علما من أعلام قرطبة ، وبزّ أدباء زمانه ، وذاع أمره .

وكان من سَدادِ الرأى وحسن التدبير ، وقوة العزيمة ومعرفة دخائل الأمور ، بحيث عُرِف عنه ذلك . فلم يكن منقطعا للأدب فحسب ، بل كان يشتغل بالمسائل العامة ، ويحسب من رجال السياسة . فقد خاض غِمار الثورة التى قلبت دولة بنى أمية ، وكان من أشياع أبى الحزم جَهْوَر بن محمد الذى آل إليه ملك قُرطبة ، فعمل على تأييد ملكه ، وخدم بعده أبا الوليد محمد بن جهور ، فقربه إليه وعلت منزلته لديه ، وجعله وزيره وسفيره بينه وبين الأمراء من ملوك الطوائف وغيرهم ، وفوض إليه أمر الملك ، فأصبح صاحب مشورته وقد أظهر ابن زيدون من الحُنْكة والدهاء ما رفع منزلته عند ابن جهور ، حتى اختص به

وكان يرجع إليه فى كل أمر من أمور الملك والسياسة . فحسده منافسوه ، ووشوا به لدى ابن جهور ، وخوفوه عاقبة أمره ، وما زالوا به حتى أمر بسجنه . فبقى سجينا زمنا طويلا استعطف فيه ابن جهور بما يلين الحديد فلم يفز بعفوه . ففر من السجن واختفى بقرطبة إلى أن شفع له الوليد بن جهور لدى ابيه محمد .

ولكن ابن زيدون لم يأمن بنى جهور على نفسه فهاجر إلى إشبيلية واتصل بالمعتمد بن عباد ، وصار وزيرا له ، وبقى هناك إلى أن مات سنة ٤٤١ هـ .

نثر ابن زيدون — كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية ؛ فقد شب على القراءة والدرس، وحفظ كثيرا من مسائل الأدب ، وكان متقد الذاكرة فامتلأت نفسه بالمعانى التى قرأها ، وأسماء الناس الذين عرفهم فى قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التى جرت مجرى الأمثال . ثم كانت زعامة الأدب فى المشرق ، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته فى الكتابة ، وكان أسلوبهم طريفا، فتسرب إلى بلاد الأندلس ، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذين بالغوا فى اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المنثور ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيرا لأنه لم يكن كغيره مدفوعا إلى الكتابة بحب التأنق ، بل دفعته إليها الحوادث . وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد ، فكان من كتاب الدواوين ، واشتهر فى الكتابة الفنية الأدبية برسالتيه الجدّية والهزلية : كتب الأولى وهو فى السجن يستعطف فيها ابن جهور . وكتب الثانية عن لسان ولادة بنت المستكفى للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صلتها به ، فاشتهر فى عالم الكتابة بهاتين الرسالتين . وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسالات النادرة فى الأدب العربى . وأظهر مميزاتهما أمران : (الأول) ما تدلان عليه من نفس كاتبهما وأخلاقه وشيمه . (والثانى) كثرة ما فيهما من مقتبسات فى الحكم والأمثال ، والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين ، من الحكماء والأدباء والعلماء . كل ذلك جاء مبثوثا فى أثناء كلامه .

رسالته الجدية ، معانيها وأسلوبها — أما رسالته الجـدية فقد جمع فيها كل ما يمكن أن يقال فى الاستعطاف والمدح ، بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم . وأول شيء يسترعى النظر فى أسلوبها أن ألفاظها وجملها تكاد تكون كلها مُقْتَبَسة من كلام غير الكاتب ، من آثار أدبيـة وأمثال سائرة وأبيات من الشعر . وهذا وإن لم يشهد له بقوة الابتكار ، دليل على قدرته فى تأليف الكلام ونظمـه ، وبراعته فى صناعة الكتابة ، واطلاعه الواسع .

وقد جمع فى هـذه الرسالة بين التناسق فى المعانى والألفاظ والتأليف والجمع . فبينما تجده يَرِقّ فى الاستعطاف إلى أن يستصغر نفسه ، ويجمع من المعانى والألفاظ ما يناسب ذلك ، تجده انسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه . فهى رسالة بديعة فى نظمها وأسلوبها ، كثيرة الفائدة لما اشتملت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال ، جامعة لكثير من المعانى كالمـدح والاعتذار ، والاستعطاف والفخر ، والامتنان وذم الزمان ، ولوم الأعداء والحقد عليهـم والصبر والتجلد . كل ذلك بعبارات أكثرها بليغ سائغ يدل على طول باع الكاتب فى الأدب واللغة والتاريخ .

ولكنها ليست على طريقة واحدة من التزام السجع أو الترسل ؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وبغير مناسبة ربما يُهَوِّش على القارئ ويصرفه عن الغرض من ثابتها ، ويحمله على التفكير فى البحث عن معانى الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التى أشار إليها الكاتب .

رسالته الهزلية — أما رسالته الهزلية التى كتبها لابن عبدوس على لسان وَلَّادة يتهكم به ويذمه ، فهى من هذا النوع أيضا من حيث الأسلوب كذكر الأمثال

السائرة وأسماء الرجال والحوادث . فكما دلّ فى رسالته الجدية على باع طويل فى الاستعطاف والمدح ، دل فى رسالته الهزلية على أنه عارف بأساليب الهجاء ، سباق فى هذا الميدان أيضا . فقد أقذع فى ذم ابن عبدوس إقذاعا شديدا ، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال فى الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس فى أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من التصرف فى أساليب الكلام . إذ على الرغم مما فى هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماءِ الرجال والأمثال والحوادث والأبيات الشعرية ، والإطناب فى كثير من المعانى ؛ لا يكاد يشعر القارئ لها بشىء من الملل والابتذال، على أنها لا تخلو من العيوب؛ فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلا ، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثرثرة ولغوا . وجاء بعبارات تدل على غلاظة طبعه وشدة حقده وحبه للانتقام ، وعلى قدرته على التهكم والافتنان فى أساليبه .

قطعة من رسالة بن زيدون الجدية — "يا مولاى وسيدى الذى ودادِى له ، واعتمادى عليه ، واعتِدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضىَ حد العزم، وارِىَ زَنْدِ الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتنى أعزك الله لِباس نَعْمَائك، وعطَّلْتَنِي من حَلْيِ إيناسك، وأظمأتنى إلى بَرود[1] إسعافك، ونفضْتَ بى كَفَّ حياطتك ، وغَضَضْتَ عنى طرفَ حِمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصم ثنائى عليك، وأحسّ الجماد باستنادى إليك ، فلا غَرْوَ قد يُغص الماءُ شارِبَه ، ويقتل الدواءُ المستَشْفِي به ، ويُؤْتَى الحذرُ من مأمنه ، وتكون مَنِيّة المتمنى فى أمنيّته ، والحَيْنُ قد يسبق جُهْدَ الحريص .

كل المصائب قد تمرّ على الفتى وتهون غيرَ شماتة الأعداء

(١) يقال ماء برود أى سائغ لذيذ . شبه إسعافه وعونه له بالماء البارد .

وإنى لأتجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع ، فأقول : هل أنا إلا يدٌ أدماها سِوارها ، وجبين عَضَّ به إكليله ، ومَشْرفى[١] ألصقه بالأرض صاقله ، وسَمْهرىٌّ[٢] عرضه على النار مُثقفه ، وعبد ذهب به سيدُه مذهبَ الذى يقول :

فَقَسا ليزدجِرُوا ومن يكُ حازِماً      فليقسُ أحياناً على مَن يرحمُ

هذا العَتْب محمود عواقبه ، وهذه النَّبوةُ[٣] غَمْرةٌ ثم تنجلى ، وهـذه النكبة سحابة صيف عن قريب تَقشَعُ . ولن يَريبنى من سيدى أن أبطأ سَيبُه[٤] ، أو تأخر غير ضنين غَنَاؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحْفَلُها وأنفع الحيا[٥] ما صادف جَدْباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا . . . . . . . .

وأعود فأقول ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذى لم يَستغرِقه تطوّلك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ . . . .

ولَعَمْرُك إنّ صريح الرأى أن أتحول إذا بلغتنى الشمس ونبا بى المنزل ، وأصفحَ عن المطامع التى تُقَطِّع أعناقَ الرجال . . . . . . . . غير أن الوطن محبوب والمنشأ مألوف ، واللبيبُ يحنّ إلى وطنه ، حنين النجيبِ[٦] إلى عطنه[٧] ، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابِلُه ، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه . هذا إلى مغالاتى بعقد جوارك ، ومنافستى بلحظة من قربك . . . . . الخ .

---

(١) السيف .
(٢) الرمح الصلب المعتدل .
(٣) النبوة : الجفوة .
(٤) المراد به هنا العطاء والمال .
(٥) المطر .
(٦) النجيب الكريم الأصل .
(٧) العطن والمعطن : مبرك الإبل .

## ابن شهيد

حياته وأخلاقه — أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك . . . الشهير بابن شُهَيد ، شاعر ظريف وكاتب مبتكر من كتّاب الأندلس وأدبائها . وُلد سنة ٣٨٢ هجرية ، ومات بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

عاش ابن شُهَيد فى دولة بنى عامر ، وتربى فى نعمهم ، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء ، أفاض ملوكها عليه المالَ الكثير لمكانته لديهم ومكانة أسرته . فقد كان أبوه متصلا بالمنصور بن أبى عامر ، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك : كريما متلافا ، وكان ظريفا خفيف الروح ، فكه المجلس ، به ميل إلى النكتة والدُّعابة ، محبا للهزل والمجون ، خليعا كأهل عصره من الأدباء ، سريع البديهة ، حاضر الذهن سديد الرأى ، عارفا بفنون الأدب ، كاتبا بارعا ، يغلب الظرف على أخلاقه ، فرحا مسرورا كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء والأمراء . لذلك كان محبا للحياة ونعيمها ، كما يظهر ذلك من نظمه ونثره .

شعره ونثره — لابن شهيد شعر رشيق فى المدح والوصف والتشبيه ، وقصائد طويلة كثيرة المعانى ، تدل على سَعَة خياله ، وأكثر شعره خال من أثر التفكير ، لا يكاد يجد القارئ فيه صِبْغة جِدّية . لأنه كان هازلا أكثر منه رجل جِدّ . وأكثر شعره فى الوصف والغزل .

أما أسلوبه ، فتغلب عليه سلاسة العبارة ، ليس به كثير من الغموض والخفاء ، يجذب القارئ بأخيلته ومعانيه المستظرفة ، ولامتزاج هذه المعانى بنفس الشاعر كان يعبر عنها بلا تكلف . هذا إلى سهولة الموضوعات ، وما تقتضيه من

رقة ودعابة ، لأنها موضوعات لهو . وأكثر لهوه ظريف مقبول ، لا تكاد تجد فيه فُحْشا أو هُجْراً .

أما نثره فهو نثر ممتاز فى موضوعاته وأساليبه ومعانيه ؛ فقد كتب موضوعات شائقة طريفة، نادرة فى النثر العربى، ككتاباته القصصية الخيالية، التى يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية ، فقالوا عنه : " إنه فى تنسيق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك" . ويظهر من هذه الموضوعات أنه وَلِع بقراءة القصص، واطلع على ما كتبه أهل الشرق فى ذلك ، وجارَى بعضَهم فى أساليبه ، كما فى رسالته المسماة "بالتوابع والزّوابع" وكرسالته فى الحلواء وغيرها مما كتبه على ألسِنَة الحيوان . وهذه الرسائل وإن لم تكن بِدْعة فى نوعها ، فريدةً فى أسلوبها ، فإنها تدل على ميل خاصّ إلى الكتابة القصصية ، وبراعة فى التصرف فى المعانى وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء الأدباء . وما كان معروفا لديهم فى النقد الأدبى ، على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيرا .

رسالة التوابع والزوابع[١] وموضوعها — رسالة التوابع والزوابع أطول رسائل ابن شهيد . وهى أشبه برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ويظهر أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبى العلاء وعمل على محاكاتها . أما موضوعها ، فقد تخيل فيه أن له شيطانا ككل الشعراء، اتصل به وعرفه وسار به إلى العالم الآخر، وأركبه فرسا وطاف به على الشعراء الأقدمين وهم فى حياتهم الآخرة، فصار يُنشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم . وقد تخيل لكل شاعر شيطانا وجهة ينزل بها ، ومنزلا يقيم به . فوصف هذه المنازل وصفا شعريا دقيقا ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى فى أثناء وصفهم ومقابلاتهم على كثير من نقد شعرهم نقدا بيانيا مبنيا على ما يعطيه

---

(١) الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن . وقد سمى رسالته التوابع والزوابع لأن فيها لكل شاعر شيطانا .

اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة ، على حسب ما هو معروف فى أساليب النقد الأدبى عند العرب . ووازن بين أشعارهم ، وذكر فى أثناء ذلك كثيرا من شعره الرقيق ، وشيئا من أشعار هؤلاء الشعراء . فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية .

أما أسلوبها فأسلوب مسجوع ، به كثير من محاكاة ماشاع من أسلوب المقامات ، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة ، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية ، مما يحتاج إلى شرح وبيان ... ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصى من الأساليب النادرة فى الكتابة العربية . وقد برع ابن شهيد فى هذا النوع .

قطعة من رسالة التوابع والزوابع — " وكان لى أوائل صَبْوتى هوًى اشتد له كَلَفى ، ثم لحقنى بعضُ مَلَل فى أثناء ذلك الميل . فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزِعت وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحِمَامُ(١) بِظبى الخُدور وفازَ الرَّدَى بالغَزال الغَرِير(٢)

إلى أن انتهيتُ إلى الاعتذار من المَلَل الذى كانَ ، فقلت :

وكنتُ مَلِلْتُك لا عن قِلًى(٣) ولا عن فَسادٍ ثَوَى(٤) فى الضمير

فأُرْتِجَ(٥) علىَّ القول . فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدْهَم(٦) كأنما بَقَل وجهه(٧) ، قد اتَّكأ على رُمحه وصاح بى : أعجزاً يافتى الإنْس ؟ فقلت لا وأبيك . للكلام أحيانٌ ، وهذا شأن الإنسان . فقال قل بعده :

كَمِثْل مَلاَلِ الفَتَى للنَّعِيم إذا دام فيه وحالِ السرور

(١) الموت . (٢) المخدوع أو الطائش . (٣) القلى البغض . (٤) أقام واستقر .
(٥) أغلق . (٦) أسود . (٧) يريد نبت عذاره .

فأثبتُّ إجازته (١) . وقلتُ بأبى مَن أنت ؟ فقال زُهَيْر بن نُمَيْر ، من أشجع الجن . تَصَوَّرْتُ رغبة فى اصطفائك . قلتُ أهلا بك أيها الوجهُ الوضَّاح ، صادفتَ قلبا إليكَ مقلوبا (٢) ، وهوى نحوكَ محبوبا . وتحادثنا ، وتذاكرتُ معه أخبارَ الخطباء والشعراء ، ومن كان يألَفُهم من التوابع والزوابع . وقلتُ له : هل حيلةٌ فى لقاء مَن اتَّفَقَ منهم ؟ قال : حتى أستأذنَ شيخَنا ، وطارَ عنّى ، ثم انصرف . وقد أُذِن له : فقال : جُلْ على مَتْن (٣) الأدهم ، فسرنا عليه ، وسار بنا كالطيرِ يجتاب (٤) الجوَّ فالجوّ ، ويقطع الدَّوّ (٥) فالدَّوّ . حتى لَمَحْتُ أرضاً لا كأرضنا . وشارفْتُ جوًّا لا بجوّنا " : إلى أن قابل صاحبَ امرئ القيس ، وجرتْ بينهما مُطارحة شعرية فقال :

" ثم قال لى زُهَيْر : مَن تريد بعده ؟ قلت صاحب أبى نُوَاس قال هو بِدَيْر حَنَّا (٦) ... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دَيْر حَنَّا ، فضرب زهير الأدهمَ . فسار بنا فى قُنَّتِه ، (٧) ففتح سمعى قرعُ النواقيس فقلتُ : فَصُحْتَ (٨) عن منزل أبى نُوَاس وربِّ الكعبة ... وسرنا نجتابُ أديارا وكنائسَ وحاناتٍ ، إلى دَيْرٍ عظيم تَعْبَقُ روائحه وتَصُوك نوافحه (٩) . فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دَيْر حَنَّا . فقلت أوَصِرْنا بذات الأُكَيْراح (١٠) ؟ قال نعم . وأرْقَلَتْ (١١) نحونا الرَّهابين ، مشدودةَ الزَّنانير (١٢) ، قد قبضَتْ على العكاكيز ، مُبْيَضَّةَ الحواجب واللِّحَى ... مُكْثِرِين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا أهلا بكَ يا زُهَيْر أبى عامر من زائر وصاحب . ما بُغْيَتُكَ ؟ قال حسنُ الدِّنان (١٣) قالوا : إنه لفى شَرَك الخمرة . منذ أيام عشرة ،

(١) كتبت ما قاله . (٢) يريد منصرفا إليك . (٣) المتن : الظهر . (٤) يقطع .
(٥) الفلاة . (٦) كان بظاهر الكوفة بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبد وللآخر دير حنا وهو موضع كثير البساتين والرياض . (٧) القنة أعلى الجبل . (٨) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبى نواس . (٩) صاك به الزعفران صوكا لصق به . والمراد هنا تفوح وتنتشر . والنوافح من نفح الطيب انتشرت رائحته . (١٠) هى بيوت تسكنها الرهبان بها دير عبد وحنا . (١١) أسرعت . (١٢) الزنانير جمع زنار بضم الزاى وهو ما يشد على الوسط .
(١٣) يريد أبا نواس .

وما نَرَاكما مُنْتَفِعَيْنِ به . فقال : وعلى ذاك ؟ ونزلنا وقاد بنا إلى بيت قد اصطَفَّتْ دنانه(١) وعكفت غِزْلانُه ، وفى دَيْرِحنا شيخٌ طويل الوجه والسبَلَة (٢) قد افترش أضغَاثَ (٣) زَهْرٍ ، واتكأ على زِقّ (٤) من خمر ... فصاح به زُهَيْر : حيّاك الله أبا الإحسان . فجاوبَ جوابا لا يُعْقَلَ لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير اقرع أذُنَيْه بإحدى خَمْرياتك ، فإنه ربما تنبّه لبعض ذلك فصحتُ أُنْشِدُ :

وَلُرُبَّ حانٍ قـد أَدَرْتُ بِدَيْره ‏ ‏ ‏ خَمْرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصَفْو خُمُوره

ومنهـا :

والَى عَلَيَّ بطَرْفه وبكَفّــه ‏ ‏ ‏ فأَمَالَ من رأسى لِعَبَّ كبيره

وترنم الناقوس عنــد صَلاتهم ‏ ‏ ‏ ففتحتُ من عينى لرَجْع هـديره

فصاح من حبَائل نَشْوته ، وقال أأشْجَعِىٌّ ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قَراحاً فشَرب منه وغسل وجهه ... الخ .

---

(١) جمع دن وهو وعاء الخمر . (٢) الشارب . (٣) جمع ضغث قبضة حشيش يختلط فيه الرطب باليابس . ومنها أضغاث أحلام ، وهى الأحلام المختلطة الملتبسة . (٤) الزق : وعاء من جلد يستعمل لحمل الماء والخمر .

## لسان الدين بن الخطيب

لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السَّلْمانى الغرناطى الأندلسى من رجال العلم والأدب فى الأندلس وأشهر من عُرِف فى أواخر عصور العرب هناك بالأدب والفقه والفلسفة والطب وعلوم اللغة ، وشب بين العلماء ، وأخذ من كل علم طَرَفا ، وبرع فى كثير منها وألف فيها ، فكان عالما وفقيها ، وشاعرا وأديبا ، ومُتطبِبا وكاتبا .

وقد اتصل بأحد ملوك بنى الأحمر ، وهو السلطان أبو الحجاج يوسف ، فجعله كاتبه ، وسلَّم إليه الوزارةَ وأمرَ الدولة . ولما قُتل أبو الحجاج ، خلَفه ابنُه محمد ، فأبقاه لديه كما كان عند أبيه . وأرسله إلى ملوك إفريقية يستنجد بهم على أعدائه ، وكان الاضطراب سائدا فى ذلك الوقت ، وكثُر الخارجون على السلطان ، فحسد لسانَ الدين كثيرٌ من معاصريه ، وسَعْوا فى الإيقاع به ، وحدثتْ حوادثُ دعته للخروج من بلاد الأندلس والالتجاء إلى بلاد المغرب على أثر حقد الناس عليه ، واتهامه بالكفر والخروج على أصول الدين ، ثم قُبض عليه فى مدينة فاس وسُجن وقُتل فى سجنه ، ثم نُبِش قبرُه وأحرقت جُثته .

نثر ابن الخطيب وموضوعاته وخصائصه وأسلوبه — لقد ساعد ابنَ الخطيب اطّلاعُه الواسعُ فى اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتبا من كبار الكتّاب ، فألّف فى كثير من أنواع العلوم والآداب ، وكتب كثيرا من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية ، وكتب فى التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها ، ورسائله طافحة بمعلوماته فى الأدب والتاريخ والعلوم .

وكانت عنايته فى كتابته الأدبيـة ، وخصائصُ أسلوبه موجهةً إلى الصناعة اللفظية إذ كان يُعْنَى باللفظ عناية عظيمة ، ويَقْصِد إلى التنميق وتَعَمُّل السجع ، وله عناية خاصّة بألفاظ المدح والثناء ، وعبارات التبجيل والتعظيم ، ولقد يُطيل فى ذلك إطالة تدعو إلى الملل وتدلّ على التكلف .

وقد كان أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيثُ تَعَمُّـلُ السَّجع ، وزاد عليه ميله إلى الإطناب ، فكثيرا ما كانت معانيه قليلة وألفاظُه وجمله كثيرة ، فكانت الإجادة فى الكتابة عندَه فى الإطالة والإطناب .

ويختلفُ أسلوبُه العلمى عن أسلوبه الأدبى : فهو فى أسلوبه العلمىّ لا يلتزم طريقةَ السجع ، بل يسرُد العباراتِ سردًا ، وأحيانا يغلِب عليه السجع والمحسِّناتُ البديعية ، وتَغْلِب عليه الصِّبغة الأدبية فى كتبه العلمية ، فهو من أكبر الكتّاب وأوسعهم علما وأكثرِهم تأليفا ، وله شعر يُحْسب فى الطبقة الثالثة بين الشعراء ، لأن أكثره أشبهُ بشعر الفقهاء منه بشعر الأدباء .

قطعة من نثر بن الخطيب — كتب ردا على خطاب : " أهلا بتُحْفة القادم ، ورَيْحانة المنادمِ ، وذكرِ الهوى المتقادم ، لا يُصْغِر الله مَسْراك ، فما أسراك ، لقد جُبْتَ إلىَّ من همومى ليلا ، وجُرْتَ رجلا وخيلا ، ووفّيْتَ عن صاع الوفاء كيلا ، وظننتَ بِىَ الأسَـفَ على ما فات ، فأعملت الالتفات ، فأُقْسِمُ لو أن الأمرَ اليومَ بيدى ، أو كانت الآلـة السوداء من عددى ، ما أفلتَّ من أشراكى المنصوبة لأمثالك ، حول المياه ، وبين المسالك ... ... وحيا الله ندبا إلى زيارتى ندبك ، وبآدابه الحكيمة أدبك .

فـكان وقد أفاد بك الأمانى    كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهى شيمة بوركت من شيمة ... ... ... الخ " .

ومما كتبه لسان الدين إلى على بن بدر الدين الطوسى :

"سيدى الذى هو فَصْلُ جِنْسه، ومَزِيَّةُ يَوْمه على أمسه. فإن افتخر الدينُ من أبيك ببدره، افتخرمنك بشمسه . رَحَلْتَ عن المنشأ والقَرارة[١] ، ومحل الصبوة[٢] والغرارة [٣] فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جِيرة خِيرة ، كتعلقها بتلك الذات التى لَطُفَتْ لطافةَ الراح . واشتملت بالمجد الصُراح . شفقة أن يصيبها مَعَرَّة . والله تعالى يقيها ، ويحفظها ويُبقيها . إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل . والضدُّ عن ضِدِّه منحرف بالطبع ومائل .

فلما تعرفتُ خلاص سيدى من ذلك الوطن. وإلقاءه وراء الفُرضة بالعطن[٤] ، لم تبق لى تَعِـلَّة [٥] ، ولا أحْرَضَتْنى [٦] له عِلَّة ، ولا أتِىَ جمعى من قلة . فكتبت أهنئُ نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطُولى [٧] . فالحمد لله الذى جمع الشمل بعد شَتاته ، وأحْيا الأنسَ بعد مَماته . سبحانه لا مُبَدِّل لكلماته . وإياه أسأل أن يجعل العصمةَ حظَّ سيدى ونصيبَه ، فلايستطيع حادث أن يصيبه . . . وأما حالى فكما علمتم : ملازمُ كِنّ[٨] ومهبطُ تجربة وسِنْ . أزْجى[٩] الأيام ، وأروم بعد التفرقة الالتئام . خالى اليد ، ملء القلب والخَلَد[١٠] بفضل الواحد الصَّمَد . عاملٌ على الرِّحلة الحجازية التى أختارُها لكم ولنفسى ، وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى" .

---

(١) يريد المكان الذى نشأ واستقر به . (٢) نشوة الشباب . (٣) يريد بالغرارة اللهو واللعب .

(٤) يريد موطنه . (٥) التعلة : مايتعلل به . (٦) أحرضه الحزن أو المرض : أفسد بدنه .

(٧) يريد بنعمته العظيمة . (٨) الكن : البيت . (٩) أزجاه وزجاه : ساقه ودفعه برفق .

(١٠) الخلد : البال والقلب .

وقال لسان الدين بن الخطيب فى ترجمة بعض مشايخه :

صَدْرُ (١) الصدورِ الجِلّة(٢) ، وعَلَمُ أعلام هذه الملة ، وشيخُ الكتابة وبانيها ، وهاصرُ أفنان(٣) البدائع وجانيها . اعْتَمَدَتْه الرِّياسة فنَاء بها (٤) على حبل ذراعه ، واستعانتْ به السياسةُ فدارتْ أفلاكُها على قُطبٍ من شَبَاة يرَاعه (٥) ، فتفيأ (٦) للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدولُ فلم ترَ به بديلا . . لاتمرمذاكرة فى فن ، إلّا وَلَهُ فيــه التبريز ، ولا تَعرِضُ جواهرُ الكلام على محَكّ الأفهام إلا وكلامُه الإبْريز(٧) . حتى أصبح الدهرُ راويا لإحسانه ، وناطقا بلسانه . وغرَّبَ ذكره وشرَّق ، وأشأَمَ وأعْرَق ، وتجاوز البحرَ الأخضر والخليجَ الأزرق(٨) .

إلى نفسٍ هَذَّبَتْ الآدابُ شمائلَها، وجادت الرياضةُ خمائلها(٩) ،ومراقبة لربّه واستنشاق لروْح الله من مَهَبّه ، ودِينٍ لايُعجَمُ عودُه(١٠) ، ولا تُخلَفُ وعوده . وكل ماظهر علينا مَعْشَر بَنِيه من شارةٍ تُجْلَى بهـا العين ، أو إشارة كما سُبِكَ اللجَيْن(١١) . فهى إليه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة ، فإنمـا هى أنفسٌ راضها(١٢) بآدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذَّب طباعَها ، كالشمس تُلْقِى على النجوم شُعاعَها ، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصَّقيلة انطباعهـا . وما عسى أن أقول فى إمام الأئمة ، ونور الدَّياجى(١٣) المُدْلَهِمّة ، والمثَل السائر فى بُعْد الصِّيت وعلوّ الهمة" .

---

(١) الصدر : مقدم كل شىء . يريد أنه أول المقدمين . (٢) يقال قوم جلة أى سادة .

(٣) هصر الغصن : عطفه وجذبه . والأفنان مفرده فنن : وهو الغصن المستقيم . (٤) نهض بها .

(٥) الشباة : حد كل شىء . والمراد باليراع القلم . (٦) استظل وتتبع ظلال الشجر .

(٧) الذهب الخالص . (٨) يريد أن ذكره طبق الآفاق .

(٩) جمع خميلة : وهى الشجر الكثيف الملتف .

(١٠) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من رخاوته . يريد أنه شديد الإيمان .

(١١) الفضة . (١٢) ذللها . (١٣) الدياجى : الظلمات .

وقال من مقامة له تُسَمَّى مَقامةَ البُلدان يصف مدينة مِكناسة :

"مكناسة مدينةٌ أصيلة، وشعَبٌ للمحاسن وفضيلة . فضّلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها . بجنابها مَرِيع (١) وخيرُها سَريع ، اعتدل فيها الزمان وانْسَدَلَ الأمان ، وفاقت الفواكهَ فواكهُهَا ولا سيما الرمان ، وحفِظَ أقواتَها الاختزان ، ولُطُفَتْ فيها الأواني والكيزان (٢) . ودنا من الحَضْرَة (٣) جِوارُها ، فكثر قُصَّادُها من الوزراء وزوارها . وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها (٤) الأبهة والمقاصير والأبْهاء" .

---

(١) مخصب .

(٢) جمع كوز وهو كالإبريق ولكنه أصغر منه .

(٣) المراد بها مدينة فاس كرسي الخلافة . وكان أهل المغرب يعبرون بالحضرة عن المدينة التي يقيم بها الخليفة .

(٤) المدينة العظيمة ويراد بها هنا مدينة مكناسة .

# عبد الملك بن أبى الخصال

عبد الملك بن أبى الخِصال الغافِقى كاتب من كتّاب الأندلس البلغاء وأدبائها الكبار. سكن قُرْطبة، ثم اتصل بوُلاة لَمتونة بمراكش وفاس وكان كاتبا لهم. وقد اشتهر برسائله التى كانت من نماذج الكتابة فى ذلك الوقت. تُوفى فى سنة ٥٣٩ هـ.

كتب إلى بعض أصدقائه :

"الحذرُ أعزّك الله يُؤتى من الثقة، والحبيبُ يُؤْذَى من المِقَة(١). وقد كنتُ أرضى من وِدك وهو الصحيحُ بلمحة، وأقْنعُ من ثنائك وهو المسكُ بنَفْحة. فما زِلتَ تُعَرِّضُنى للامتحان، وتُطالبنى بالبُرهان، وتأخذنى بالبيان، وأنا بنفسى اعلم، وعلى مقدارى أحْوط وأحْزم، والمُعَيْدِى يُسْمَع به لا أن يُرى(٢) ...".

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته :

"مثلك ثبت الله فؤادَك، وخفّف عن كاهل المكارم ما أوهى بك وآدك(٣) يَلْقَ دَهْرَهُ غيرَ مكترث، ويُنازله بصبر غير منتكث(٤). ويبسم عند قطوبه، ويَفُلّ(٥) شَباة خُطوبه. فما هى إلا غَمْرَةٌ(٦) ثم تنجلى، وخَطْرة يليها من الصُّنع الجميل ما يلى. لا جَرم أن الحُرّ حيث كان حُرّ، وأن الدُّرّ برغم مَن جَهِلَه دُر. وهل كنت إلا حُساما انْتضاه(٧) قَدَرٌ أمضاه، وساعِدٌ ارتضاه، فإن أغْمده فقد قَضَى ما عليه، وإن جرّده فذلك إليه".

---

(١) المقة : المحبة.

(٢) يشير إلى المثل المشهور : "تسمع بالمعيدى خير من أن تراه".

(٣) آده الأمر أودا وأوودا بلغ منه المجهود. والأوادى الدواهى.

(٤) منقوض.

(٥) فل السيف : ثلمه. وفل القوم : هزمهم ، يريد أنه يتغلب على الخطوب.

(٦) الغمرة : الشدة.

(٧) انتضى السيف : استله من غمده.

الثقافة العامة — أخذت بلاد الأندلس تتأهب للنهوض فى العلوم والفنون منذ مَلَكَ البلادَ بنو أمية ، وعُنىَ الخلفاءُ بنشر العلوم ونقلها . ففى زمن عبد الرحمن الناصر نَفَقَت العلوم والآداب ، ونُقِل منها ما كان عند العباسيين ، وكان الحكم المستنصر ابنه مشغوفا بالعلوم عُنى بالكتب وجمعها . فكان يبعث إلى الأقطار فى شرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يكن فى بلد آخر . كذلك كان أكثر الأمراء .

فكان لأهل الأندلس فى جميع العلوم والفنون المؤلفات العظيمة . وقد اختص بعضهم بالأدب وعلوم اللغة ، وعنى بعضهم بعلوم الدين : كالفقه والحديث والأصول والتفسير . واشتهر بعضهم بالعلوم العقلية والكونية : كالطب والرياضيات . ومنذ أواخر القرن الرابع عُنى الناس بالاشتغال بالفلسفة ، بعد أن زال ما كان هناك من التعصب الذى أذاعه بعض الفقهاء والأمراء ، كالمنصور بن أبى عامر وملوك البربر ، حتى حملوا على المشتغلين بهذه العلوم وسمّوهم بالزنادقة ، مجاراة لعامة الناس واكتسابا لعطفهم ، ولكن بعد أن هدأت هذه العاصفة ، ظهر هناك جماعة من الفلاسفة كابن ماجة وابن رشد وغيرهما .

الأدب وعلوم اللغة — أما الأدب واللغة فكان هناك كثير من اللغويين والأدباء . ومن أشهر أدبائهم إسماعيل بن القاسم الملقب بأبى علىّ القالى صاحب كتاب الأمالى[1] وهذا الكتاب من أمهات كتب الأدب فى اللغة العربية ،

---

(١) ولد ونشأ فى ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم فى بغداد . ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨ فحفل به عبد الرحمن الناصر وجعله مؤدب ابنه الحكم ومعلمه . واشتهر أمر القالى فى الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدباء زمانه . واشتغل بالتدريس فى مسجد قرطبة وهناك أملى على تلاميذه كتاب الأمالى المشهور .

لجمعه كثيرا مما يحتاج إليه الأديب من الأشعار والأخبار، والفوائد اللغوية ، وذكر كثير من الشعراء ، وهو من الكتب التى تحسب من نماذج التأليف فى الأدب العربى ، ومن صور الحياة الأدبية إذ ذاك .

ومن كبار أدباء الأندلس — أحمد بن محمد بن عبد ربّه . ولد سنة ٢٤٦ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ . وهو صاحب كتاب "العِقْد الفَرِيد" الذى يحسب من أمتع كتب الأدب وأجلّها فائدة وأوسعها مادة . جرى مؤلفه فى تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه : فقسّمه إلى عقود وجواهر ، تكلم فى كل باب منها على موضوع خاص . لجاء وافيا فى الأدب العربى وتاريخ العرب وأحوالهم ، جامعا لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة ، وكثير من المسائل الأدبية محتويا على جملة من الحكايات والنوادر والملح ، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر . وأكثر الكتاب مختار من كلام الكُتّاب والمؤلِّفين من أهل المشرق ، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب .

ومن الأدباء — الفتح محمد بن عبد الله بن خاقان الإشبيلى . وُلد سنة ٤٨٠ هـ وتوفى سنة ٥٢٩ هـ . ونشأ ببلاد الأندلس ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها . وكتب لبنى تاشفين ، وألف كتابيه "قلائد العِقْيان" و"مطمح الانفس" وهما من أشهر ما كُتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم .

ومن علماء اللغة المشهورين — الحافظ أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سِيده المتوفَّى سنة ٤٥٨ هـ فى مدينة دانية من بلاد الأندلس . ألف كتابين من أشهر كتب اللغة ومعجماتها : وهما "المُحْكَم، والمُخَصَّص" وكتاب المخصص من الكتب النادرة فى اللغة العربية : لأنه مرتب على حسب الموضوعات ، يذكر الشىء وأوصافه كلها وأجزاءه ، ويستوعب الألفاظ والمفردات الدالة على ذلك . ويقع فى سبعة عشر مجلدا . وأما المحكم فهو معجم كبير فى اللغة .

ومن علماء العربية — عمر بن محمد الملقب بأبي علي الشَّلَوْبين كان إماما في اللغة العربية ، عالما بفنونها ، ومن كبار علماء النحو ، تخرج عليه كثير من علماء زمانه . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ وتوفي بها سنة ٦٤٥ هـ .

أما عناية أهل الأندلس بالعلوم الشرعية : كالتفسير والحديث والفقه والاصول والتوحيد ، فقد كانت تفوق كل عناية ، حتى لقد كانت ثقافتهم الدينية أظهر مميزاتهم ، ولم يكن عالم أو فيلسوف إلا درس الدين وألف فيه . وكثيرا ما كانوا يرحلون إلى بلاد المشرق ليأخذوا عن علمائه ويرووا عن فطاحله . كما فعل يحيي ابن يحيي بن كثير الليثي ، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراويها ومحدثها ؛ ارتحل إلى المشرق ، وسمع من الإمام مالك الموطأ ورواه عنه . حتى كان المشارقة يرجعون إلى روايته ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ . وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك في الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخْمي ، وكان أمينا في دينه معظما لدى الأمراء لترفعه عن القضاء . تُوفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

ومن فقهاء الأندلس المعروفين — عبد الملك بن حبيب السُّلَمي القُرْطُبي ، ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ . كان فقيه عصره ، سكن قرطبة وزار مصر ، ثم عاد إلى الأندلس وتُوفي بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك عالما بالتاريخ والأدب . ألف كتبا كثيرة منها "طبقات الفقهاء ، وطبقات المُحَدِّثين ، وتفسير مُوَطّأ مالك والواضِحَة" وغيرها .

ومن المفسرين — أبو عبد الرحمن بَقِيّ بن مُخْلَد القُرْطُبِيّ ، كان من الحفاظ والمحدِّثين وُلد سنة ٢٣١ هـ وتُوفى سنة ٢٧٦ هـ وكان من أكبر أئمة الحديث فى الأندلس . رَوَى عن ألف وثلثمائة راوٍ .

ومن علماء التفسير والحديث المعروفين فى الأندلس — القاضى أبو محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطى وُلد سنة ٤٨١ هـ وتُوفى سنة ٥٤٢ هـ ، ومن أشهر كتبه " الوجيز فى تفسير الكتاب العزِيز " وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها .

ومن أشهر علماء الشريعة — القاضى عِياض ، كان إمام الحديث فى وقته ولد بمدينة سبته سنة ٤٧٦ هـ وولى القضاء بها ، وتُوفى بمراكش سنة ٥٤٤ ، ومن كتبه الشهيرة " كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى " و " طبقات الحاكمين " و " مشارق الأنوار فى غريب الحديث " وغيرها .

الفلسفة والطب — أما علماء العرب فى الفلسفة والطب والنجوم والرياضة فكثيرون . ذاع أمرهم فى جميع الأصقاع وانتشرت مذاهبهم فى أوربا وغيرها ؛ فقد اشتغل المسلمون فى الأندلس بالفلسفة كما اشتغلوا بغيرها من العلوم اللغوية والشرعية . ولكن ذلك لم يكن إلا بعد القرن الثالث الهجرى أى بعد أن هدأت ثورة الفقهاء وغيرهم من علماء الدين . على أن السخط على المشتغلين بالفلسفة بقى إلى العصور الأخيرة فكان هذا من أسباب تأخر اشتغال العلماء بهذا العلم ، ومع هذا فقد عُنى المسلمون ثَمَّةَ بالاطلاع على فلسفة اليونان عناية عظيمة .

## ابن رشد

ومن أشهر علماء الفلسفة من العرب أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ . درس ابن رشد العلوم الشرعية والطب فى قرطبة وذهب إلى مراكش واتصل بأحد ملوك الموحدين وهو أبو يعقوب يوسف، وصار من أتباعه ، كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن الطفيل ، الذى أشار عليه بشرح فلسفة أرسطاليس . ثم انتقل إلى الأندلس فولى القضاء بإشبيلية وقرطبة فى الثلث الأخير من القرن السادس الهجرى . وفى نحو سنة ٥٧٨ هـ رجع إلى مراكش وحصل أن غضب عليه يوسف المنصور على أثر ما أذاعه عنه الفقهاء من المروق عن الدين لاشتغاله بالفلسفة ثم عَفا عنه المنصور ورجع إلى الأندلس وتُوفى سنة ٥٩٥ هـ .

وقد خلّف ابن رشد عدة مؤلفات فى الفلسفة والطب والنجوم فلخص كتب أرسطاليس وشرحها وذاع أمره فى شرح الفلسفة اليونانية فكان لابن رشد الفضل الأكبر فى ذلك لما كان له من البراعة ودقة الفهم كما اعترف بفضله معاصروه ؛ ولكن ذلك أثار عليه حقد الفقهاء و بعض الأمراء .

وألّف ابن رشد فى علوم الشريعة والمنطق والنجوم . و يقولون إنه أول من تنبه للسُّفَع على وجه الشمس وتكلم عنها . وقد درس كتبَه اهلُ أوربا ومنها عرفوا كتب اليونان التى كانت مجهولة لهم .

## ابن حزم

ومن الفلاسفة المعروفين أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حزم ، أصل جده الأعلى من بلاد فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلس . وُلد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحديث والفقه ، حتى صار من كبار العلماء فى ذلك . وألف فى علم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم ، وكتب مباحث فى أصول الأديان وما كان من التبديل والتغيير فى بعضها . وألف رسائل فى الطب والأدب. فكان عالما وأديبا وفقيها وشاعرا متفننا فى العلوم جميعها، عاملا بعلمه حتى قالوا إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسِير والأخبار . وكانت بينه و بين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشنيع به ، حتى نفرت منه القلوب وأجمع فقهاء زمانه على تضليله ، فأقْصَتْه الحكام عن بلاده حتى تُوفى سنة ٤٥٦ هـ .

ومن أشهر كتبه كتاب "الفِصَل فى المِلَل والنِحَل" تكلم فيه على مذاهب الفلاسفه ومعتقداتهم وفصّل الكلام على الفِرق الإسلامية . وهذا الكتاب من أجلّ ما كُتب فى هذه الموضوعات .

## ابن باجة

ومن الفلاسفة ابن باجه السرقسطى ، المعروف بابن الصائغ تُوفى بمدينة فاس من بلاد المغرب الأقصى سنة ٥٣٣ هـ وقد كان أيضا طبيبا ، مولعا بالموسيقى ومن واضعى الألحان فيها .

## ابن الطفيل

ومنهم أبو بكر بن الطفيل . كان من أعلم أهل زمانه فى علوم الفلسفة وهو من أساتذة ابن رشد . وقد اشتهر بقصته الفلسفية الخيالية المسماة "حىّ بن يقظان" توفى سنة ٥٨١ هـ .

## الرحلة من المشرق إلى المغرب

منذ فتح العرب بلاد الأندلس وجزائر البحر المتوسط وملكوا بلاد المغرب وهم يفدون زرافات ووحدانا إلى هذه البلاد، للنجعة وطلب الرزق . لما ذاع من أمر بلاد الأندلس وما فيها من تَرف وسعَة، بجاءها من كل فج كثير من الناس فامتلأت بالوافدين إليها . ولما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الشهيرة تنافس بغداد فى العلوم والفنون ، واقتناء الكتب واستهواء العلماء للمكث بها ، جاء إليها كثير من العلماء ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية فى مجاراة خلفاء بنى العباس فى الإفاضة على العلماء والأدباء بالعطايا ، وقلدهم فى ذلك ملوك الطوائف بعدهم ، وكان يفد إليها جِلّة علماء المشرق ، كالعالم اللغوى الشهير أبى علىّ القالى صاحب كتاب الأمالى ، وقد تلقاه الحَكَم بن الناصر بأمر أبيه وأنزله منزلة رفيعة . وكان لزرْياب المغنى الذى جاء من بغداد أثر عظيم فى إصلاح صناعة الغناء وبثّ بعض العادات التى كانت شائعة فى مجتمعات بغداد . وغير هؤلاء كثير يُعَدّون بالمئات من الوافدين إلى بلاد المغرب والأندلس . فكانت الصلة العلمية لا تنقطع بين البلدين . وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة آهلا بالراحلين من العلماء والأدباء ؛ فقد كانت قرطبة مركز العلوم فى بلاد المغرب يفد إليها الطلاب من كل مكان ، ويرحل إليها الأدباء والشعراء . كما رحل إليها من جزيرة صِقلّية عبد الجبار بن حَمْديس الشاعر المعروف ، والتحق بحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف . كذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيي بن يحيي الليثى والتق بالإمام مالك بن انس وأخذ عنه مذهبه ونشره فى بلاد الأندلس ، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعى .

فكانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التى وَطّدت الصلات العلمية بين البلدين ونشرت هنا وهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم ما يعد مفخرة لجيل هذه الأيام .

أثر الأندلس فى نقل الحضارة الشرقية إلى أوربا — نقل العربُ إلى بلاد الأندلس كثيرا من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية ، وأنشئوا معاهد العلم فى قرطبة وإشبيلية وطُلَيْطِلة ومُرْسية ، وغيرها من البلدان ، فانبعث من هذه العواصم ضوء العلوم فى سماء أوربا ، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة ، ودخل كثير من ألفاظها فى اللغة الإسبانيــة ، وهجر الإسبانيون اللغة اللاتينية واشتغلوا باللغة العربيــة وآدابها ، حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها . وصار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب ، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربيــة ليقرأها تلاميذه ، كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيســة إلى لغة العرب . وقد قال بعض المؤرخين الإسبانيين : „إن من أدب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . وإنه لا شك فى أن الإسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفة اليونانية" .

وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربى فى لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا ، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا وأثرت فى الشعر الغنائى وفى المقطوعات الشعرية المقفاة التى هى أشبه بالشعر العربى ومعانيه . ومن العرب اقتبس أهل أوربا بعض أنواع الشعر ونقلوا عنهم حكم الفرس وأمثالهم .

وظهرت حضارة العرب فى العلوم والآداب حين كانت أوربا أواخر القرن الحادى عشر فى جهالة ، فلم تتنسم ريح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين ، الذين بثوا بذور الحضارة هناك . ففى نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ أحد القساوسة فى طُلَيْطِلَة معهدا لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى

اللغة اللاتينية . فكان لهذه الكتب التى ترجمت أثر عظيم فى إيجاد حياة علمية جديدة . وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة كمؤلفات الرازى وابن رُشْد وابن سينا ، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية . فترجمت كتب أرشميدس وأفلاطون وأرسططاليس وغيرهم ممن نقل العرب كتبهم إلى لغتهم . وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين فى تاريخ الطب أكثر من ثلثمائة كتاب عربى ترجم إلى اللغة اللاتينية ، وقال : "ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوربا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب . فبفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التى ضاع أصلها اليونانى ، فأوربا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر" .

وقد بقى أهل أوربا لا يعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثانى عشر فكان جِلَّة العلماء هناك تلاميذ العرب أو ناقلين كتبهم . وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رُشْد وابن سينا ، كما شهد بذلك الفيلسوف رينان . وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوربا . واتخذتها أساسا للدراسة والتعليم مدة ستة قرون . بل بقيت بعض كتب العرب الطبية تدرس إلى زمن قريب فى بعض جامعات أوربا . وكانت كتب ابن سينا تدرس فى جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر . وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس فى جامعات فرنسا لا سيما كتب ابن رُشْد إلى أوائل القرن الثالث عشر . كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة فى بلاد إيطاليا . فوجود العرب فى أوربا نشر فيها كثيرا من العلوم والآداب التى كانت مهملة فى كل بلد آخر من هذه القارة حتى

فى القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهـد علمى إلا فى بلدان الشرق الإسلامية وفى إسبانيا العربيـة من بلاد المغرب . ففى هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والآداب وإليها كان يفد طلاب العلوم من كل مكان . وفى هـذه المعاهد تعلم "جُوبرْت" الذى كان بابا للديانة المسيحية سـنة ٩٩٩ ميلادية وعُرِف باسم سلفستر الثانى وأُعْجِب بعلوم العرب حتى اتُّهِم بالمروق من الدين عند ما أراد أن ينشر فى أوربا ما أخذه عن العرب .

فبفضل العرب قامت أوربا من سُباتها وبدأت نهضتها العلمية .

## اللغــة العربية وآدابهـا

### بالمغرب وجزائر البحر

تشمل ممـالك المغرب البلاد التى بين بَرْقة والمحيط الاتلانتى من شمال إفريقية وهى : ( ١ ) المغرب الأدنى أو إفريقية ( بلاد طرابلس وتونس) ، ( ٢ ) المغرب الأوسط (بلاد الجزائر) ، ( ٣ ) المغرب الأقصى (مراكش) . وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر لعجمتهم . وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم ، ويزعم كثير من نسابيهم أنهم كلهم أو بعضهم من سـلائل عربية حميرية ومضرية وليس بصحيح .

وأمم البربر صـنوف كثيرة لهم لغات لا تحصى ، وهم أهل بدو فى معيشـتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعا تاما لشدة شجاعتهم وعصبيتهم ، ولم يلاق المسلمون فى تاريخهم للبلاد التى افتتحوها ما لاقوه فى هـذه البلاد ؛ فقد أسلموا وارتدوا اثنتى عشرة مرة وغدروا فى كل مرة منها بالعرب وفتكوا بهم إلى أن دانوا للإسلام زمن ولاية موسى بن نصير ثم أزمان الدولة الإدريسـية بالمغرب الأقصى والأغالبة بإفريقية ، ولمـا أسلموا اتخذوا الإسلام سيفا بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك باسم الشيعة مرة والأباضـية أخرى والسنية حينا ، ويؤسسون لبعض بيوتاتهم أو بيوتات الأشراف العلويين ، بينهم دولا بربرية أو عربيـة فى حمايتهم ، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن بالمغرب ، وخاصة البلاد المنيعة منـه . غير أن هذه اللغة لم تكن لغة قراءة وكتابة وعلم وأدب بل كانت اللغة العربية فى جميع أطوارهم هى اللغة الرسمية فى السياسة والعلم والأدب .

وتولاهم أولا ولاةُ العرب زمن الأموية ثم دولة الأدارسـة مستقلة بالمغرب الأقصى والأغالبة من قبل العباسيين بإفريقية ثم دولة الفواطم وولاة بنى أميـة

بالأندلس ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين فبنى مرين بالمغرب الأقصى والأوسط ، ومن الصنهاجيين بإفريقية . ونشأ من هذه الدول دول صغيرة بإفريقية والمغرب الأوسط حتى ولى الأشراف السعديون ثم السجلماسيون بالمغرب الأقصى واستولى الترك العثمانيون على المغرب الأوسط والأدنى فمن ذلك ترى أن العصر الأول ، وهو عصر الولاة لبنى أمية فى دولتهم والأغالبة من قبل بنى العباس ، كان للعرب فيه النفوذ الأعلى ؛ فارتقت اللغة وآدابها وعلومها زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم من الصنهاجيين ارتقاء لم يحظ العرب بعده بمثله . وكانت مدينة القَيْروان هى كعبة علوم الدين واللغة والأدب ، ونبغ فيها من العلماء والكتّاب والشعراء فريق كادوا يلحقون فحولَ المشرق خطابة وكتابة وشعرا وعلما .

ثم أدخل الفواطم بمصر كثيرا من العرب الضاربين بشرق مصر من بنى هلال وسليم وجشم ورياح وغيرهم بلاد المغرب تأديبا للصنهاجيين الخارجين عليهم ، فانتشروا فى المغرب كله وكانوا بداة جهلة فخربوا كثيرا من مدنه ونشروا فيه اللسان العربى البَدوىّ بلا علم ولا أدب مُدَوَّن .

وبقى العلم والأدب يخمدان تارة وينتعشان أخرى زمن دول البربر حتى استولى الترك ثم الفرنسيون على المغرب الأدنى والأوسط فاضمحلا بهما وبقى منهما ذَماء بالمغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة جديدة متأثرا بالنهضة العامة فى مصر والشرق .

وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب فى هذه الأطوار رجالًا من الأندلسيين أو المشرقيين استوطنوا المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بافريقية زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم ، ويضيق بنا المقام عن تفصيل أحوال اللغة والأدب والعلم بالمغرب . وإنما نذكر بوجه الإجمال النبذ الآتية مثالا لحالة الشعر والأدب فيه .

## الكتابة

كانت الكتابة زمن الولاة مقصورة على الأمراء والعلماء حتى تخرج فى الفصاحة الموالى من البربر فشاركوهم فيها . ولما رسخ سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة فى المغربين الأوسط والأدنى أصبحت الكتابة صناعة اقتدى الكتاب فيها بكتاب الأندلس غربا و بكتاب المشرق شرقا ففشا فيها السجع والتأنق فى المجاز والاستعارة . وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيوش وأمراء الأساطيل .

ومن أشهر كتاب عصر الصنهاجيين علىّ بن أبى الرجال . وابن رشيق . وابن شرف . وابن القزاز .

ولما قامت دولة المرابطين جدّوا فى استدعاء الكثير من أعيان كتاب الأندلس حتى اجتمع فى بلادهم من العُدْوَة الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف بالأندلس .

وأشهرهم أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال . وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون . فنشروا طريقة الأندلسيين فى الكتابة وتخرج عليهم كثيرون نبغ منهم فى دولة الموحدين ابن عياش . وابن محشوة . وابن الميمون .

ثم اضمحل أمر الكتابة بالتدريج حتى أصبحت مجرد سجع قليل البلاغة متكلّف التقفية . وهاك فصلا من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله إبراهيم أحد خلفاء الموحدين إلى بعض نوابه وقد نقض العهد على بعض المهادنين من النصارى . قال بعد الديباجة : "وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى ، ونعوذ بالله من شهوة تغلبُ عقلا

ونخوة تعقب هوانا وذلا . وقد أخطأتم فى فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد . (الثانى) عصيان الأمر العزيز وفيه التغرير بالمهج ، وترك السعة للحرج . (الثالث) انكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم، قصمه الله ، شررا يستعرض ما يعدم فيه المنتصر فليتكم إذ تحليتم بالعصيان ، ورضيتم الغدر المحرم فى سائر الأديان ، ثبتم للعدو إذ دهمكم ، ولقيتموه بالجانب القوى حين زحمكم . فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله وقوته فأدوا من أسرتم إلى مأمنه وردوا ما انتهبتم إلى مسرحه، ولا تمسكوا من الأسارى بشعرة، ولا من الماشية بوبرة ، ومَن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم، وخالف هذا الحكم ، أنفذنا عليه الواجب وحكمنا فيه المهند الغاضب . فلتسرع من نومة الغفلة إفاقتكم ، ولا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم : ونحن متعرفون ما يكون منكم من تأن أو بدار ، ومقابلون لكم بما يصدر عنكم من إقرار وإنكار . وهو يرشدكم بمنه والسلام عليكم ورحمة الله .

## الشـــعر

ينزل الشعر العربى مع العرب أينما نزلت ولكنه لا يصير صناعة عتيدة يتوافر عليها أناس يتكسبون بها إلا حيثما تكثر جمهرة العرب بتأثل ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغا أشده فى ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامى، حتى إذا توطدت للعلويين الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى وللأغالبة التميميين دولة بإفريقية من قبل العباسيين جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فيهم العلماء والأدباء والشعراء والنحاة فغرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابتة طلبت العلم من معادنه ورحلت الى المشرق فنمت تلك الغراس وأينعت ثمارها أزمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلافها من الصنهاجيين ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمتونة والموحدين من المصامدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتّاب والشعراء من مراكش وفاس وتونس فكانت منهم فى المغرب صورة أندلسية فى كل العلوم والآداب والشعر.

ولكن الشعر لم يصل فى جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التى سما إليها فى الأندلس وإن نبغ فيه فى بعض العصور من لا يقل عن الأندلسيين بلاغة قول، وبداعة تصور، وروعة وصف؛ كعلىّ الإيادى والحصرى وابن رشيق القيروانى وابن شرف القيروانى وابن حمديس الصقلى وغيرهم.

وقد حاكى شعراءُ المغرب الأندلسيين فى التوشيح والزجل وراج بينهم بُعَيْدَ اكتساح بدو المشرق من رياح وجشم وهلال وسليم لإفريقية، ضربٌ من الشعر العامى على شكل القصائد العربية الفصيحة من الأوزان والتزام قافية واحدة فى القصيدة، وربما أتوا بمربعات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب وتسمى هذه القصائد فى المغرب بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى الراوية الشهير وأكثر ماتكون من بحر الطويل ويأتى الشاعر فيها أولا على ذكر اسمه ثم يتبعه بالنسيب أو بالدخول على الغرض.

## ابن رشيق

له شعر أشبه بشعر العلماء والفقهاء منه بشعر الشعراء البلغاء المتفننين ولكنه من نوع الشعر المعروف فى زمانه ، بعضه فى المدح وبعضه فى الحِكَم ونقد أخلاق الإنسان وبعضه فى الفكاهة . وهو فى جملته سهل الأسلوب به شىء من الصناعات اللفظية التى ذاعت فى زمانه .

فمن قوله فى النصيحة :

من يصحبِ الناسَ مَطوِياً على دَخَلٍ ... لا يصحبوه ، فخَلُّوا كلَّ تدخيل
لا تستطيلوا على ضَعفى بقوتكم ... إنّ البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزحَ إن الجد يتبعه ... ورُبَّ مُوجِعةٍ فى إثر تقبيل

ومن قوله فى المداعبة والغزل :

ولما بدا لى أنها لا تحبنى ... وأنّ هواها ليس عنى بمنجلى
تمنيت أن تهوى سوایَ لعلها ... تذوق صَباباتِ الهوى فترقّ لى
فما كان إلا عن قليل وأشْغِفَتْ ... بحب غزال أدعجِ الطرف أكحل
وعذبها حتى أذاب فؤادها ... وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت ... حياءً وقالت : كل عائبٍ ابتُلى

ومن قوله فى العتاب :

وقد كنت لا آتى إليك مُخاتلا ... لديك ولا أثنى عليك تصنعا
ولكن رأيت المدح فيك فريضةً ... علىَّ إذا كان المديح تطوّعا
فقمت بما لم يخف عنك مكانه ... من القول حتى ضاق مما توسعا
ولو غيرك الموسوم عندى بريبة ... لأعطيت منها مدعى القول ما ادّعى

فلا تَتَخَالَجَنَّكَ الظنــونُ فإنها ... مآثم ، واترك فىّ للصنع موضعا
فو الله ما طوّلْتُ باللوم فيكم ... لسانا ولا عرّضت للذم مسمعا
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت ... حبـالى ولا ولّى ثنـائى مودّعا
بلى ربمـا أكرمت نفسى فلم تهن ... وأجللتها عن أن تذل وتخضعا
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن ... ثقيلا على الإخوان كُلًّا مُدَفّعا
فباينت لا أن المودّة باينت ... وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا
ألوذُ بأكناف الرجاء وأتّــقِى ... شَمات العِدَا إن لم أجد فيك مطمعا

وقال :

أحب أخى وإن أعرضتُ عنه ... ومـــلّ على مســامعه كلامى
ولى فى وجهــه تقطيب راض ... كما قَطبْتَ فى وجــه المــدام
ورب تقطُّبٍ من غير بغضٍ ... وبغض كامنٍ تحت ابتســام

## ابن حمديس الصقلى

مولده ونشأته — ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن حَمْديس الأندلسى الصِّقلىّ بجزيرة صقلية سنة ٤٤٧ هـ. وبقى هناك إلى سنة ٤٧١، ثم هاجر إلى بلاد الأندلس ونزل بمدينة إشبيلية، وعاش بها فى حاشية المعْتمِد بن عباد، وهاجر معه إلى بلاد المغرب، وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة مَيُورقَة. فكانت أيامه فى صقلية أيام شدة، استولى فيها النورمنديون على البلاد إثر اضطراب بين ولاة العرب هناك. وقد خرجت الجزيرة من يدهم سنة ٤٤٤ هـ. وكانت هناك حروب فَنىَ فيها المسلمون وعاشوا فى أشد أوقات الأهوال، ودارت عليهم الدائرة لفساد أمرهم، فأخذوا يفرون إلى بلاد المغرب و إلى الأندلس، وهم يشاهدون فى صقلية مجدهم ينهار وعزهم يزول. ففارق البلاد كثير من العلماء والأدباء، وسار جماعة إلى المعز حاكم إفريقية مستصرخين، وجماعة إلى الأندلس.

شعره وخصائصه — كانت الحياة التى شاهدها وعاش فيها ابن حمديس غير حياة غيره من الشعراء لأن هذا الاتصال الذى كان بين الأمم المختلفة من سكان صقلية لم يحصل فى بلد إسلامىّ. وكانت الحوادث الاجتماعية والسياسة والحياة العقلية التى وقف عليها ابن حمديس وشاهدها سببا فى تهذيب خياله وفكره حتى جعلت له صبغَة خاصة فى شعره. فكان بَعيدَ الغور فى تفكيره وخياله، كثير التأمل فى الحياة ومظاهرها، تملأ نفسَه ذِكْريات أيامه الماضية وحبه لبلاده والأهوال التى مرت به ومر بها. وقد ظهر ذلك فى شعره. فتجده أحيانا باكيا متألما، وحينا فرحا مسرورا، ولكن قرارة نفسه كانت مملوءة بأنواع الآلام من حوادث الأيام. فشعره مرآة لحياته النفسية ومشاهداته وآرائه. أما أسلوبه ففيه الصبغة الفنية الشخصية التى تميز الشاعر المتفنن من غيره، فهو فضلا عن رقته وسلامته اللفظية، وصناعته الخفية، يكاد يكون شعره من الشعر المطبوع الذى

يصل إلى النفس بدون حجاب ، ويجذب الأفئدة إليه . وهو على ما به من الصناعة واحتوائه كثيرا من أنواع المحسنات اللفظية ، لاتكاد تلمح فيه ذلك . فهو فى جملته أسلوب سَلِس رقيق ، ليس به تعقيد ولا خفاء فى المعنى . وأكثر استعاراته مستملح دقيق .

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل ومجون ورثاء وشكوى ودعابة وعبرة وغير ذلك . ومن المعانى التى مرت بخاطره كثيرا وأكثرَ من ذِكرها فى شعره حنينه إلى وطنه ، وذكر أيامه الأولى فى جزيرة صقلية . حيث يبكى فيها صِباه ، وتملى عليه ذِكرياته الماضية ، كثيرا من الالام ، وأحيانا تذكّره ما كان هناك من سرور يمرح فى بحبوحته ، وكثيرا ما تجده يبكى وطنه لما حلّ به من المصائب ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب . كقوله :

ذكرتُ صقلية والأسى ... يُهيّج للنفس تَذكارها
ومنزلةً للتصابى خلتْ ... وكان بنو الظَّرف عُمّارها
فإن كنتُ أخرِجتُ من جنة ... فإنى أحدّث أخبارها
ولولا مُلوحة ماء البكاء ... حسبت دُموعىَ أنهارها

وقوله :

ولو أنّ أرضى حُرّة لأتيتها ... بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكنّ أرضى كيف لى بِفكاكها ... من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب
أمثّلها فى خاطرى كلّ ساعة ... وأ رِى لها قطرَ الدموع السواكب
أَحِنّ حنين النيب للوطن الذى ... مغانى غوانيه إليه جَواذب
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل ... تمنى له بالجسم أوبة آئب

وله فى الوصف بدائع فقد وصف دارا ( بناها المنصور ) فقال :

و إذا نظرتَ إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضا في السماء نضيرا
وضعتْ به صُنَّاعهُ أقلامَها ... فأرتك كُلَّ طريدة تصويرا

ثم ذكر بها بركة عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه . وتفنن فذكر أسودا على حافتها تقذف بالماء أيضا فقال :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النُّضار جسومها ... وأذابَ فى أفواهها البلورا
أُسْد كأن سكونها متحرك ... فى النفس لو وجدتْ هناك مُثيرا
وتذكرتْ فتكاتها فكأنما ... أقْعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارا وألسُنَها اللواحس نورا

ومن قوله فى الوعظ :

غرّتك دنياك التى ... لها سراب يخدعك
يضرك الحرص بها ... والزهد فيها ينفعك
لا تأمننّ منية ... إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذى ... يكون منه مطلعك
وللحساب موقف ... أهواله تروّعك
يراك ذو العرش الذى ... ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن ... لغيره تضرعك

## الثقافة العلمية بالمغرب وجزائر البحر

العلوم الدينية — كان المسلمون فى أول أمرهم بالمغرب لا يُعْنَوْن إلا بعلوم القرءان والحديث والفقه ؛ فأخذوا فِقْهَهُم عن صاحب مالك ابن قاسم المصرى ، وأولُهم أسدُ بن الفرات مفتى الجماعة بالقيروان زمن الأغالبة ؛ وتلميذه سُحنون الذى نَقَل مُدَوَّنَةَ الفقة التى رواها ابن قاسم عن مالك ، ولخصها ابن أبى زيد القيروانى وعنهم انتشر مذهب مالك فى المغرب إلى وقتنا هذا إلا فى فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والفاطميين وفقه الخروج .

وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعاملين على إبادة فقه الشيعة وغيرهم المعزّ بنُ باديس عند ما خلع طاعة خلفاء مصر من الفاطميين .

أمّا علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل . وكان لهم فيه حفاظ ثقات ؛ إلا أن بُعْدَ الشقة عليهم جعل أكثَرهم لا يرحلون فى طلبه إلا إذا خرجوا للحج . ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التى صحّت عند المشارقة ككتب السنة الستة المشهورة . واشتهر عندهم من بينها صحيحُ مُسلِمٍ ، وفضلوه على صحيح البخارى ، وشرحه كثير منهم ، ومن أشهر شروحه شرح المازرى الصقلى .

وتعصب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أى مطاردة .

أمّا علمُ الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث فى الجداليات المستمدة من غير الكتاب والسنة ؛ إلا أن الفواطم أدخلوا معهم فى المغرب عقائدهم فى الدين ممزوجة بالفلسفة ؛ فاشتغل بها فى زمنهم بعض أهل أفريقية وبعض من دخل فى طاعتهم من دولة الادارسة. ولما نقلوا حاضرة ملكهم إلى القاهرة نُسِخَ مذهب الشيعة فى المغرب أو كاد ؛ ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلا

ريثما ظهر مهدىّ الموحدين ابن تومرت ناقلا مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالى ، وجعل علم التوحيد غايته من دعوته ؛ وألّف فيه كتبا . وجاء خلفاؤه من بنى عبد المؤمن فحفلوا به وشجعوا المؤلفين فيه والمشتغلين بعلوم الأوائل .

علوم الأدب والعربية — كانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيرا عن عنايتهم بعلوم الدين ، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين ولم يكن لهم فى النحو رواية عن الأعراب ولا مذهب خاص كما صار للأندلسيين فيه .

ولكن اهتمام المعز بن باديس بالأدب وأهله أنبت فى القيروان نابتة من أئمة النحو ، والأدب واللغة كالإمام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع فى اللغة ، ويعتبر من أمهات كتبها رتّبه على حروف المعجم وتوفى سنة ٤١٢ وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أدباء القيروان ، والعلامة فى كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاشعى القيروانى صاحب التصانيف الممتعة فى اللغة والأدب والحديث والتفسير مات ببغداد سنة ٤٧٩ ، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصقلية علىّ بن القطاع الصقلى صاحب كتاب الأسماء وكتاب الأفعال وغيرهما من المؤلَّفات الضخام تُوفى بالقاهرة سنة ٥١٤ وعثمان بن علىّ السرقوسى الصقلى المقرئ النحوى اللغوى وغيرهما .

## العلوم الفلسفية

دخلت علوم الأوائل المغرب زمنَ الفواطم، نقلوها مع عقائدهم الممزوجة بمسائلها ووافق ذلك زمن المستنصر الأموى . وهو أيضا جاب إلى قرطبة جمهرة الكتب التى عرفت فى زمنه من علوم الإسلام والأوائل؛ إلّا أن العامة والفقهاء فى زمنه وبعده اضطهدوا من يشتغل بعلوم الفلاسفة القدماء ولكنها أمنت شرَّ المضطهدين عند بعض ملوك الطوائف بالأندلس فنبغ فيها كثيرون . ولما آل ملك الأندلس والمغرب إلى المرابطين بالغوا فى اضطهاد من يشتغل بها ما عدا الرياضة والطب والميقات، إلى أن جاءت دولة الموحدين ، فأدخل إمامُهم المهدىُّ ابن تومرت مذهبَ الأشاعرة من المتكلمين؛ ولا جرم أن علمَ الكلام يمتزج بكثير من مسائل الفلسفة، بل إن المنطق ، وهو آلة النظر فيه من علوم الفلسفة فاهتمَّ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من خلفائهم بجمع كتب الفلسفة على أنواعها، واستقدم إليه كل من سمع به بالأندلس، فجاءه المتفلسفون والمتكلمون والأطباء والفلكيّون من كل صُقع، وكان مُقدَّمَهم عنده ابن الطفيل صاحب رسالة حىّ ابن يقظان .

ولخَّصَ له ابن رشد كتب أرسطو ليس بعبارة فصيحة كانت أساسا لنشر مذهب خاص له بالمغرب وعنه أخذ علماء غربى أوربا .

ثم صارت هذه العلوم فى المغرب تنتعش مرة وتجمد أخرى إلى وقتنا هذا .

ومن علماء المغاربة الذين برزوا فى هذه العلوم ، وخاصة الفلك والجغرافية، الشريف الإدريسى الذى ألف لرجار النرماندى ملك صقلية كتبا فى الفلك والجغرافية ورسم له الأرض فى مصور جغرافى اتخذه من الفضة فكان أصح من رسم بطليموس

# العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة

## ( ١ ) عصر المماليك

سقوط بغداد — كان سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهية ، وقضت على عهد مجيد كان فخر المسلمين ومرجع زهوهم .

وقصة سقوط بغداد مؤلمة جدا ، وهى مفصلة فى الجزء الأول من كتاب المنتخب فارجع إليه .

سقطتْ حاضرةُ الإسلام فى سنة ٦٥٦ ، حتى إذا كانت سنة ٦٥٩ هـ قدم مصر أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى ، وخرج السلطان بيبرس للقائه ، ومعه القاضى والوزير والعلماء والأعيان والشهود ، ودخل من باب النصر ، وبعد أيام جلس السلطان والخليفة فى حفل من القضاة والأمراء ، وأثبت القاضى نسب الخليفة فبايعه شيخ الإسلام ثم السلطان ثم غيرهما من كبار الدولة ، ولقب بالمستنصر وكتبت بيعته الى الآفاق .

وبعد أشهر طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد ، وبينما هو فى الطريق خرج عليه عسكر التتار فلا يُدْرَى أقُتِل أم هرب ، وكان ممن حضر هذه الموقعة أبو العباس ابن الخليفة المسترشد بالله ، فقدم القاهرة فتلقاه السلطان وأظهر السرور به ، ثم أثبت نسبه وبايعه وبايعه الناس ، ولقب بالحاكم بأمر الله ،

ثم أسكنه السلطان عنده فى القلعة ؛ وما زال بنو العباس يتوارثون الخلافة بمصر حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ .

التجاء الآداب العربية إلى مصر — تطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب يلتجئون إليه ؛ بعد أن تحكّم التتار فى حاضرة الإسلام ودار السلام ، وهدموا مدنيتها وعفّوا على آثار مجدها ، وقضوا على مظاهر حضارتها ، وأعملوا السيف فى أهلها أياما ، وقذفوا فى نهر دجلة بالكتب وهى خير ما أنتجته قرائح المسلمين . رأى العلماء ورجال الدين كلَّ ذلك ، ورأوا أن الديار نَبَتْ بهم فالتمسوا مكانا يطيب لهم فيه المقام . وتزدهى فيه العربية وتخفق راية الإسلام . فإلى أين يذهبون بعد أن ملك التتار ما بين صحراء المغول إلى ما وراء البحر الأسود وسواحل بحر الروم ؟ أيذهبون إلى بلاد العرب وهى وإن كانت مهد العربية تقلص ظلها عنها منذ حين ودالت فيها دولة العلم والأدب ؟ أيذهبون إلى إفريقية على بعد شقتها وقرب مصر إليهم؟ أيذهبون إلى الأندلس وقد تغلب عليها الإسبانيون ولم يبق فيها إلا رُقعة صغيرة حول غَرناطة توشك أن تسقط فى أيدى المسيحيين ؟ إلى أين يذهبون ؟

تطلّع العلماء شرقا وغربا فلم يجدوا غير مصر خصوصا بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقرَّ الإسلام ، فرحلوا إليها من جميع الأقطار . فكنت ترى القاهرة ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية تموج بهم موجا ، وكنت ترى بينهم العراقىّ والشامىّ والفارسىّ والأندلسىّ والإفريقىّ والحجازىّ ، وقد وطّأ لهم السلاطين أكنافهم ، وأنزلوهم مُنْزَلا مباركا وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان ، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم ، فوجدوا حرما آمنا ، ومكانا يُنبت العز ، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون .

**القاهرة مركز الثقافة العربية** — أصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا ، وكانت فى ذلك الحين كما وصفها القلقشندى فى شىء من الزهو فقال : " ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصا بعد خراب الفسطاط وانتقال أهله إليها ، حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا من القصور العالية ، والدور الضخمة ، والأسواق الممتدة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار " .

ولو سلمت مصر فى هذا العصر من نوبات الظلم وفداحة المكوس ، والمجاعات والطواعين والاضطرابات ، التى كانت تقع بين طوائف المماليك وبينهم وبين العرب لكتب القلم للأدب تاريخا غير هذا ، ولبلغت العلوم والآداب منزلة أعلى وأرفع .

وعلى الرغم من هذا فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة فى هذه الأيام ، وأهم أسباب هذه النهضة غَيْرة العلماء وحرصهم على إعادة مجد الإسلام ، الذى بعثرته أيدى التتار ، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلمَ وأهله .

**عطف السلاطين على رجال العلم والدين** — والحق أن سلاطين مصر كان لهم ميل إلى العلم والعلماء ، وكان فى أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله ، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الإسلامية وأن دولتهم صارت ملجأ الإسلام ومَباءة أهله ؟ ألم يروا ما أصاب الدول قبلهم بسبب الانغماس فى اللهو والصدوف عن أوامر الدين ؟ ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعملَ به وتعظيمَ أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية ، ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحيانا من أمواج الطغيان . فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخبارا تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم . قال فى حسن المحاضرة : " وكان الظاهر بيبرس منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ : " ما استقر ملكى إلا الآن " .

وحضر الظاهر فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز؛ فقام الناس سـوى القاضى؛ فإنه أشار إليه ألا يقوم، وقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا .

وترجم الحافظ بن حجر فى معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال : "أين مثله ؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معهُ اجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسـلام سراج الدين البلقينى ، فكانت لا تفارقه سفرا ولا حضرا" .

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب ، فامتلأت خزائن الكتب فى عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام ، كما سنقصه عليك بعد حين. وكان من برّ السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء ، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت فى كنفهم آمنة هانئة .

وأيادى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق و بيمارستانات . وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشيءَ الكثير.

وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة ؛ وبنى المماليك نحو خمس وأربعين ؛ ومن هذه المدارس ما كان مختصا بالصوفية ، وكانت المدارس فى هذا العهد تموج بالطلاب يفدون إليها من جميع أقطار الإسلام للارتشاف من مناهل العلم ؛ وكانت تفاض عليهم الهباتُ وضروبُ الإحسان من الأوقاف المحبوسة على العلم وأهله ؛ ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر، فكان يصرف لهم الطعام والكُسَا وتهيأ لهم المساكن ليعيشوا هانئين لا يشغلَهم شاغل عن طلب العلم والتجرد له .

موازنة بين هجرتين — لذلك هاجر العلماء والطلاب إلى القـاهرة من كل حَدَب وصوب، كما تفر الطيور أزعجها الصيادون إلى حيث الأمن والسلامة، و إلى

حيث لا تسمع إلا خرير الأنهار وحفيف الأشجار . وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإسلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه من بعض الوجوه هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا . فإن السلطان محمداً الفاتح حينما فتح القسطنطينية فى سنة ٨٥٧ هـ فرّ منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا ، وهناك أحْيوا دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ونشروا ثقافة جديدة . ويعُدّ المؤرخون هذه الهجرة مبدأ لنهضة إحياء العلوم بأوربا ؛ ويجعلونها الحدَّ الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة الأثر بلا ريب ، فإنها دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها ، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها ؛ وفتحت الأعين المغلقة إلى ما فى الكون من عجائب مكنونة ، كان يغطيها ظلام الجهل الدامس ، وجعلت كل إنسان يحسّ أن له إرادة وفيه قدرة ، وأن له الحق فى الاستقلال بفكره ، والاعتزاز برأيه ، فنشأ انقلاب عظيم فى العادات والأخلاق والأديان ونظام الدول والجماعات وقد كان هذا الانقلاب أساسا للمدنية الحديثة التى تعيش أوروبا اليوم فى ظلها .

أما هجرة العلماء والطلاب إلى مصر فلم تُحدث أثرا فى النظم الاجتماعية والسياسية لأنها أخذت اتجاها علميا محضا ، ولأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت فى الأذهان بعد ، وربما كان حكم المماليك فى ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم ، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود ، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الاجتماعى لوجدت فى آراء ابن خلدون فى مقدمته مجالا للعمل وحافزا إلى النهوض ، فإن فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الاجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغَناء ، ولكنا لا نجد فى هذا العصر أثرا لتعاليم ابن خلدون ، التى بقيت دفينة فى صفحاتها حتى أُنْشرت فى أوائل عصر نهضتنا ، فكانت ركنا شديدا من أركان الثقافة العصرية .

ولما هجر العلماء والطلاب أوطانهم وجدوا أبواب المعاهد والمدارس مفتحة للقائهم .

المدارس — وأشهر المدارس التي أسست فى هذا العهد :

( ١ ) المدرسة الظاهرية — شرع فى بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ وتمت سنة ٦٦٢ هـ وكان بها دروس للفقه الشافعى والحنفى وللقراءات .

( ٢ ) المدرسة المنصورية — أنشأها هى والبيمارستان الملك المنصور قلاوون فلما تمـا دخل عليه الشرف البوصيرى ومدحه بقصيدة أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

ورتبتْ فى هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة ، ودروس تفسير ، ودرس حديث ، ودرس طب .

( ٣ ) المدرسة الناصرية — ابتدأها العادل كتبُغا ، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ ورتب بها دروسا للمذاهب الأربعة .

( ٤ ) مدرسة السلطان حسن — شرع فى بنائها سنة ٧٥٨ هـ قال المقريزى :

" لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها وحسن هنـدامها ، وضخامة شكلها : أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا . وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة " .

( ٥ ) المدرسة الظاهرية — تم بناؤها سـنة ٧٨٨ هـ ، وكانت تحمل أعمدتهـا الضخمة على عجلات . فقال أحد الشعراء :

الظاهر الملك السلطان همته كادت لرفعتها تسمو على زحل
وبعض خدّامه طوعا لخدمته يدعو الجبال فتأتيه على عجل

عيّن السلطان بها علاء الدين السيرامى مدرسا لفقه الحنفية وشيخا للصوفية ، وقد بالغ فى تعظيمه حتى فرش سجادته بيده ، وكان بها أيضا دروس فى الفقه الشافعى والحنبلى والحديث والتفسير والقراءات .

( ٦ ) المدرسة المؤيدية — تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار . وكان الناظر على عمارتها بهاء الدين بن البرجى . واتفق بعد بنائها بسنة أن مالت المئذنة التى كانت على البرج الشمالىّ لباب زويلة ، فقال تقى الدين بن حجة :

على البرج من بابى زويلة أنشئت ... منارة بيت الله للعمل المنجى
فأخنى بها البرج اللعين أمالها ... ألا صرّحوا يا قوم باللعن للبرج (ى)

وقال الحافظ بن حجر وفيه تورية بهجاء قاضى القضاة بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ .

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول ، وقد مالت عن القصد : أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين (ى)

فقال العينى :

منارة كعروس الحسن إذ جليت ... وهدمها بقضاء الله والقدر
قالو : أصيبت بعين . قلت : ذا غلط ... ما أوجب الهدم إلا خسّة الحجر

وقد أنشأ المماليك بجانب هذه المدارس الكثيرة بيمارستانات عدة ، لعلاج المرضى ودراسة الطب .

خزائن الكتب — وكان بكثير من المدارس خزائن كتب حافلة بالكتب الثمينة النادرة النافعة فى شتى العلوم والفنون . فكان بالمدرسة الفاضلية فى صدر هذه

الدولة خزانة بها نحو مائة ألف مجلد ، وكان بالمدرسة الصاحبية البهائية خزانة كتب جليلة ، وحوت المدرسة الظاهرية التى أسسها بيبرس خزانة كتب كانت تشتمل على كثير من أمهات الكتب فى سائر العلوم ، وعمل بالمدرسة المحمودية التى أنشئت سنة ٧٩٧ هـ خزانة كتب ، قال المقريزى فى شأنها : "ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها ، وهى باقية إلى اليوم ، لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن" .

وكان بمدرسة الأمير جمال الدين التى أنشئت سنة ٨١٠ هـ ، خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة ، والكتب النفيسة .

## لمحة فى تاريخ الأزهر منذ نشأته وأثره فى اللغة والأدب

إنشاؤه — لما تم للفاطميين فتح مصر أسسوا القاهرة المعزّية سنة ٣٥٨هـ لتكون حاضرة ملكهم ، وأنشئوا بها الجامع الأزهر ليكون مدرسة يدرس فيها مذهبهم الشيعى . وقد ابتدأ قائدهم جوهر فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٠ هـ ، وأتم بناءه فى سنتين تقريبا ، وكان أول جمعة أقيمت به فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ .

تسميته — والسبب فى تسميته بالأزهر على أرجح الأقوال أن الفاطميين سمّوه بهذا الاسم إشارة إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التى بنيت دعوتهم على الانتساب إليها .

عمارته وإصلاحه — ثم إن الحاكم بأمر الله جدّده ووقف عليه وعلى سواه من معاهد الدين رباعا فى سنة ٤٠٠ هـ ، وتناوله بالتعمير والتجديد فى أيام الدولة الفاطمية أيضا المستنصر والحافظ لدين الله .

وفى أيام الظاهر بيبرس جدده عز الدين أيدمر الحلِّى فتمت عمارته فى سنة ٦٦٥ هـ .

وفى سنة ٧٠٢ هـ انهدم هذا الجامع بزلزال شديد حصل بمصر فى تلك السنة ، فتولى عمارته الأمير سلار أحد أمراء دولة المماليك ، وفى سنة ٧٦١ هـ كان للامير سعد الدين الجامدار أثر صالح فى تجديد بنائه وإصلاحه والإغداق على طلاب العلم فيه .

وفى سنة ١١٦٧ هـ زاد فى سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريبا الامير عبد الرحمن كتخدا، وما زال الملوك يتولونه بالعمارة والإصلاح والتجديد إلى يومنا هذا

وصفه — ويشتمل هذا الجامع على محل مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا ، ومقصورته تنقسم قسمين : المقصورة الأصلية الكبيرة التى هى من إنشاء القائد جوهر وبها القبلة القديمة، والمقصورة الجديدة التى أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا وأرضها مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وهذا الجامع لا يشتمل على شىء من الزخرف، وإنما عظمته فى كبره واتساعه وما اتصل به من تاريخ مجيد .

عهود الدراسة به وأثره فى اللغة والأدب — وأول ما درس بالأزهر الفقه على مذهب الشيعة ، ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية أن تلك العلوم كانت تدرس فى الأزهر فى زمانهم ، وبقى مذهب الشيعة يدرس فى الأزهر ويُقْضَى به فى مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ ﻫ وقامت بعدها الدولة الأيوبية فأبطلت مذهب الشيعة من ديار مصر ومنعت الدراسة وخطبة الجمعة من الجامع الأزهر، وقصرت الخطبة على الجامع الحاكمى لأنه كان أوسع من الأزهر وقتئذ ، وعُطِّلت الدراسةُ فى الأزهر نحو مائة سنة ولم تعد إليه إلا فى أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ﻫ .

وازدهر الأزهر فى عصر المماليك ازدهارا وحج إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها للانقطاع لطلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين ، ولما كان يفاض عليهم من الخير الوفير والرعاية وصنوف الإحسان . فقد كان لكل طائفة رواق خاص بها ، ينزل به الطلبة طاعمين كاسين. فأمّه التركىّ والمغربى واليمانى والزنجى والهندى والأفغانى وتجردوا إلى الدرس وطاب لهم المقام ، حتى إذا أقاموا ما أقاموا ، انقلبوا إلى أهلهم متمكنين فى دينهم ، راسخين فى علوم العربيـة وآدابها ، فنشروا

العلم بين أبناء بلادهم ، ورفعوا راية الدين فى أوطانهم ، ومجّدوا مصر واسم مصر التى كانت تعدّ بحق مصدر النور والعرفان فى هذه العصور .

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ خبت نار العلم وطُوِى بساطه وذوَى نبته لما أصاب مصر حينئذ من ضروب الإرهاق والخسف ، ولم يبق فى هذا العصر المظلم إلا بصيص يشع من الأزهر ، ولولاه لانقطعت صلتنا بالعلم وأهله ، واللغة وآدابها ، ولذهبت البقية الباقية من هذا المجد المؤثل والتراث الكريم .

وقد كان الأزهر فى هذه العصور القاتمة فوق رسالته التى يؤديها للدين واللغة والأدب ، ملجأ المظلومين ومثابة المنكوبين ، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام ، وفداحة الأحكام ، فأخذوا بناصرهم ، وكشفوا الضُّرّ عنهم .

ذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفى من أمراء المماليك ظلَموا أهل قرية بالشرقية فجاء أهلها صارخين مستغيثين بعلماء الأزهر ، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخ الأزهر وذهبوا إلى إبراهيم بك حاكم مصر وقتئذ ، وطلبوا منه رفع الظلم عن أهل هذه القرية ، فأسرع إلى إجابة طلبهم ، وكف أيدى الأمراء وأتباعهم عن أموال الناس ، وكتب القاضى حجة بذلك .

وحينما اعتزم المصلح الكبير محمد على باشا إنهاض مصر ورَفْع منزلتها بين الممالك ، لم ير خيرا من أن يتخير من بين طلاب الأزهر من يدرسون العلوم الحديثة فى مصر ثم فى أوربا ، فعادوا وكانوا طلائع النهضة الحديثة فى العلوم والآداب .

ومن هنا ترى أن الأزهر كان حلقة الاتصال بين القديم والحديث ، وأن له الأثر الواضح فى نهضتنا المباركة .

ولما أنشأ الخديو إسماعيل باشا مدرسة دار العلوم التى نهضت باللغة العربية نهضتها الحاضرة أمدها الأزهر بطلابه .

والحق أن عناية الأسرة العلوية بالازهر بلغت الغاية فقد تنافس أمراء هذا البيت الكريم وأميراته فى إسداء البر للعلم وأهله ، فحبسوا عليه الأوقاف الواسعة ، وكان موضع عنايتهم وإحسانهم . ولحضرة صاحب الجلالة الملك "فؤاد الأول" الفضل العميم فى إنهاض الأزهر فى العهد الحديث ، بما أفاض عليه من جميل رعايته ، وواسع بره ، حتى أعاد إليه مجده القديم ، وحتى أصبح قبلة لجميع طلاب الدين واللغة والآداب والعلوم فى جميع بلاد الإسلام .

## الشعر

سلك الشعر السبيل التى اختطها الشعراء لأنفسهم فى أخريات العصر العباسى الثانى من الميل إلى الصناعة اللفظية، وربما أفرط شعراء هذا العصر إفراطا فى تحلية الشعر بأنواع البديع ، والتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولباقة ، حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر فى هذا العصر شعر الألفاظ والزينة . ويظهر أن لنضوب القرائح فى هذا العصر من الأفكار والمعانى والقدرة على التوليد ، وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنا كبيرا فى ضيق مدى الشعر وجدبه وخلوه من الابتكار .

وإن بقاء الشعر فى هذا العصر حافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت، مما يستوقف نظر طالب الأدب، فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر ، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ ، الذى كان ينظم الشعر ويلحنه ، ثم السلطان الغورى ، وقليل منهم جدا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال فى العصر العباسى . ولم يكن هذا العهد عهد الصِلات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدّر والجوهر. فلم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقا ، فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة فى الدواوين والصناعات ، فكان منهم الجزار والحمّامىّ والكحّال

والدّهان . ألم يَهِم ابن نباته وهو إمام الشعراء فى عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتمسا الكفاف ، فلم يجده إلا مجهدا مكدودا .

ثم إن أسباب اللهو وفراغ البال التى تدفع أحيانا بلابل الشعر إلى التغريد قد سكتت فى هذا العصر ، الذى كان فى جملته عصر جدّ وصرامة واضطراب .

فإذا أجاد الشعراء فإنهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فنا رفيعا حنّت إليه نفوسهم ، ومالت قلوبهم ، فقال كثير منهم لا للمال ولا للكسب ، ولكن لأنّ الفنّ تملكهم وأخذ بزمام نفوسهم ، فلا بدّ لهم من القول ، ولا بدّ لهم من الإجادة. وإنما تزدهى الفنون إذا صدرت عن نازعة صادقة مصدرها حب الفن ، لا حب الشهرة ولا حب المال .

التنافس فى الشعر بين مصر والشام — وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجادة فى هذا العصر ما كان من التنافس الشديد بين شعراء مصر والشام . فما كان يبتدع شاعرهنا شاردة أو يجيد قصيدة حتى يتناولها الشعراء هناك بالنقد أو المعارضة أو السرقة ، حكَوا أن ابن نباتة كان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل ،وأن ابن نباتة لذلك ألّف رسالة جمع فيها ما قاله فأخذه منه الصلاح ، وسماها خبز الشعير لأنه مأكول مذموم ، واستهل خطبة الرسالة بقوله : "رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا" .

وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام .

تغلب الصناعة اللفظية — أشرنا آنفا إلى وَلوع الشعراء فى هذا العصر بأنواع البديع وافتنانهم فى الصناعة اللفظية ، فإنهم لم يتركوا نوعا إلا أبرزوه فى أشعارهم ، غير أن هذه النزعة لم تفسد الشعر إفسادها النثر ، لأن تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد فى البديع وتفاقم خطره .

البديعيات — وقد نبتت البديعيات فى هذا العصر ، وهى قصائد من بحر البسيط فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى ، وقد يشير الشاعر فى البيت إلى اسم النوع . وأول بديعية كانت لصفى الدين الحلى وجاءت بعدها بديعيات لعز الدين الموصلى ، وابن حجة الحموى ، وعائشة الباعونية.

ومنشأ هذه البديعيات بردة البوصيرى ، فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفَوْقَه بإظهار قدرتهم فى البديع ، ولكنهم فى الحق لم يوفقوا إلى الإجادة فجاءت هذه البديعيات صورا مشوهة من التكلف الممقوت والنسج السخيف .

التورية — وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعوا فيها إبداعا حتى لقد كانت وحدها دليلَ نبوغ الشاعر وعبقريته ، فتفاخروا بالإجادة فيها ، وباهَوْا باختصاص عصرهم بأحكامها ، قال ابن حجة الحموى :

" لأن هذا النوع وهو التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حُذاق الشعراء وأعيان الكُتّاب " ثم قال فى موطن آخر : " ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سَمَوْا إلى أُفق التورية وأطلعوا شموسها ، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كئوسها " .

ومن أشهر شعراء التورية بمصر فى هذا العهد سراج الدين الورّاق المتوفى سنة ٦٩٥ ﻫ وله فيمن اسمه عرفات :

أطنبوا فى عرفات وغدوا يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لى : هل وافقتنا ؟ قلت : عندى وقفة فى عرفات

ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ ﻫ قال :

جودوا لنسجع بالمديـــح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تُغَرْ رد عند ما يقع الندى

وناصر الدين بن النقيب ومن قوله :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعونى فانى آكل العيش بالجبن

وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماه فردّ عليه ابن نباتة :

فديتك من ملك يكاتب عبده بأحرفه اللاتى حكتها الكواكب
ملكتَ بها رِقّى وأغليت الأسَى فها أنذا عبد رقيق مكاتَب

والقيراطى وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدى :

يا صلاح العلا صفاء ودادى لا يرى عن أبى الصلاح بديلا
فدع العَتْب إننى لستُ ممن لا يراعون فى الأنام خليلا

ومن أشهر شعراء التورية فى الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ .

قال :

ونهر بحب الروض أصبح مغرما يروح و يغدو هائما بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره جفاها وأمسى قانعا بخيالها

وبدرِ الدين الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ ﻫ قال :

وتنبهت ذات الجناح بسُحرة بالوادبين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحنى الغرام جهالة من دون صحبى بالحمى ورفاق
أنّى تباريني جوًى وصبابةً وكآبة وأسًى وفيض مآقِ
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تملى من الأوراق

وصلاح الدين الصفدى قال :

لما زها زهر الربيع بروضه وغدا له فضل ينير لديه
قام الحمام له خطيباً بالهنا وجرى الغدير نخرّ بين يديه

وابن الوردى قال :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائرهْ
الماء فوق كتفها وهى عليه دائرهْ

التضمين — ومما أغرم به شعراء هذا العصر التضمين ، وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئا من شعر غيره ، وكانت لهم براعة فائقة فى تغيير المراد من الشعر المأخوذ ، مع حسن السبك ، ودقة الصناعة ، وقد صارحنا مجير الدين بن تميم ، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر ، بشدة نزوعه إلى التضمين فقال :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

وقد تجاوزوا الحد فى ذلك حتى وصلوا إلى شىء من السخف ، فضمن جمال الدين بن نباته أعجاز ملحة الإعراب ، وهى متن فى النحو ، ومن ذلك قوله فيها فى المديح :

ان قال قولا بين الغرائبا "وقام قس فى عكاظ خاطبا"
وإن سخا أتى على ذى العدد "والكيل والوزن ومذروع اليد"

وتبارى صلاح الدين الصفدى و جمال الدين ابن نباتة فى تضمّين أعجاز معلقة امرئ القيس ، فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتبا :

أفى كل يوم منك عَتْبٌ يسوءنى "كجلمود صخر حطه السيل من عل"

وهكذا جرى فيها إلى شَوْط بعيد ، فأجابه جمال الدين متهكما بطويلة أولها :

فطمتَ ولائى ثم أقبلتَ عاتبا " أفاطم مهلا بعض هذا التدلُّل "

كثرة المقطوعات — وقد كثر الميل إلى المقطوعات القصيرة فى هذا العصر ، لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبراز لطيفة بديعية ، أو نكتة مخترعة ، أو تورية رائعة ، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات .

وكان فى الشعراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتفون بإرسال قطع قصيرة تتناول أغراضهم . والمطلع على ديوان ابن نباتة المصرى ، وهو خير من يمثل هذا العصر يرى فيه كثيرا من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا .

الفكاهة فى الشعر المصرى — وأكبر مظهر فى الشعر المصرى ظهور الروح المصرية الخفيفة ، وجمال النكتة ، وحسن التأتى لها ، كقول أبى الحسين الجزار يصف داره المهدمة :

ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تُساوِرُها هَفَواتُ النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأتُ إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولهم كثير من هذا النوع الذى تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

الوصف فى الشعر الشامىّ — أما الشعر الشامى فقد استمر فى هذا العصر محافظا على ما اختص به من جمال الوصف ، وبخاصة وصف الطبيعة ، لما لبلاد الشام من جمال المنظر ، وكثرة الجبال ، والحدائق والمنازه ، والثلوج والأمطار ، وقد سقنا إليك طرَفا منه .

ومن اجلى صفات الشعر فى هذا العصر الرقة تراها ماثلة فى شعر الشاب الظريف ، ثم فى شعر ابن نباتة ، ثم فى كثير من قصائد صفى الدين الحلى وغير هؤلاء ، وفى كتاب المنتخب أمثلة كثيرة لذلك .

أغراض الشعر — وقد قيل الشعر فى هذا العصر كثيرا فى الغزل والوصف والمجون ، ثم فى المديح والرثاء والشكوى ، وقال الشعراء فى الطرد محاكاةً للعصر

العباسى ، وكثر نظم الألغاز والأسئلة الفقهية واللغوية ، كما كثر الشعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ونظم العلوم والفنون .

كثرة المتعرضين لقرضه — ومن كوارث الشعر فى هذا العصر أن تصدّى له كثير من غير أهله فقال الشعر وتبجّح به كل من يستطيع إقامة وزنه من غير أن يرزق الفطرة الشعرية ، ومما يؤسف له أن التاريخ حفظ لنا كثيرا من هذا الشعر الغث فيما أُلّف من الكُتب فى هذا العصر كتاريخ ابن إياس وغيره .

وربما كان هذا الشعر السقيم من الأسباب التى دفعت بعض الأدباء إلى الحكم بسقوط الشعر فى هذا العصر وتقهقره و إسفافه .

الأوزان المولَّدة — وقد شاعت الأوزان المولَّدة فى هذا العصر ، كالموشح والدو بيت والزجل ، الذى مالت إليه آذان آل قلاوون وآل برقوق ، وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم . وأشهر الزجالين الشيخ خلف الغبارى ، وكان قيّم الزجل بمصر ، وأحمد بن عثمان الأمشاطى المتوفَّى سنة ٧٢٥ ﻫ . وكان قيم الزجل بالشام . وتجد أمثلة كثيرة للأوزان المولدة بكتاب فوات الوفيات للكتبى وتاريخ ابن إياس .

## ترجمة ابن نبـاتة المصرى

طلب صلاح الدين الصفدى فى مستهل شعبان سنة ٧٢٩ هـ من جمال الدين ابن نباتة أن يجيزه برواية مصنفاته وآثاره الأدبية ، وهى عادة جرى عليها العلماء قديما واشتد بها تمسكهم فى هـذا العصر ، وقد نشأت فى أول أمرها من العناية برواية الحديث الشريف ، والاهتمام باتصال سنده ، ثم جاوزت ذلك إلى ماسواه من صنوف العلوم والفنون .

وقد كتب ابن نباتة إلى الصلاح كتابا مسجوعا مطوّلا على نمط ما كان يكتب فى ذلك العهد جاء فيه :

مولده ونسبه — " فأما مولدِى فبمصر المحروسـة فى ربيع الأول سـنة ست وثمـانين وستمائة بمنزلنا بزقاق القناديل " .

ثم جاء فيما يختص بنسبه فى نهاية الكتاب :

"قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن علىّ ابن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة".

وقد كان زقاق القناديل الذى وُلد فى أحد بيوته ابنُ نباتة مقام أشراف الناس وأعيـانهم ، كما يؤخذ من المقريزى ، فهـو إذا نشأ فى بيت نعمة وشبّ فى أسرة هانئة تتمتع بشىء من نعيم الحياة ، ولقد عاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى الأيام الأولى من حياته التى قضاها فى شباب ولهو وفراغ ، استمع لمـا يقول :

واهـا لأيامى الـتى سلفت ما بين ذاك النعيم والمرح
لا يُنْزِل الدهر من يدى قدحا كأننى صـورة على قدح

وكان أبوه من أشياخ الحديث بدمشق ، ترجم حياته صلاح الدين الصَّفَدِى فى كتابه الوافى بالوَفَيات فقال ما ملخصه :

"شمس الدين بن نُباتة والد الشاعر ابن نباتة، ساكن خَيِّر قليل الكلام، يُنفق كلَّ ما يحصل له على أحفاده أولاد ولده جمال الدين ، وُلد بمصر سنة ٦٦٦ هـ ، وله سكن بالظاهرية بدِمَشق ، أجازنى بخطه فى سنة ٧٣٠ هـ ، وتولَّى دار الحديث النورية ، وتُوفى سنة ٧٥٠ هـ" .

ويتصل نسب شاعرنا بابن نباتة عبد الرحيم الخطيب المتوَفَّى سنة ٣٧٤ هـ ، وقد كان مقدَّما فى علوم الأدب ، يقال إن خطبه لم يُعمل مثلُها فى موضوعها ، وكان خطيب حلب ، واجتمع بالمتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حمْدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحثّ عليه .

البيئة التى نشأ فيها — فأنت ترى أنه نشأ فى بيت علم وأدب، وأن أسرته تحلى بالطارف والتليد منهما ، وأنه كان صادقا حين قال :

وَرِثْتُ اللفظَ عن سلَفى وأُكرِمْ ... بآل نُباتَةَ الغُرِّ السَّراة
فلا عَجَبٌ للفظى حين يحلُو ... فهذا القَطْر من ذاك النباتِ

وحين قال :

لى حين أنْسَبُ أسرة عربيـة ... كادت تَعُدُّ الشُّهْبَ من أحلافى

وحين قال فى ختام قصيدة يمدح بها علاء الدين بن فضل الله :

خذها منظمة الأسلاكِ معجزة ... بالجوهرِ الفردِ فيها كلَّ نَظَّامِ
مصريةً من بيوتِ الفضلِ ما عُرِفَتْ ... فيها بنسبةِ جَزَّارٍ وحَمَّامِي

يريد أنه من بيت عريق، وأنه لم يكن مُحْدَثا فى الأدب كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحمامى .

وللبيئة العلمية أثرها فى النشأة الأولى ، ولا سيما إذا صحبتها الفطرة السليمة ، وصادفت نفسا قوية الاستعداد .

شبَّ ابنُ نباتة ونما فى هـذا الجو العلمى الأدبى ، ونشأ بين أترابه ولِداته غلاما مُنَعَّما ، حتى إذا أتم دراسته الأولى ، سما إلى الدراسة العالية ، فدرس الحديث وعلوم الدين واللغة والأدب ، وقد ذكر لنا فى الإجازة التى كتبها للصلاح الصَّفَدِى أسماء شيوخه فى مصر وغيرها .

حال مصر فى أيامه الأولى — ولد ابن نُباتة فى عهد الملك المنصور قلاوون ، وكان فى السابعة من عمره عند تولية السلطان الناصر محمد أول مرة ، لأنه تولى الحكم ثلاث مرات ، ومات فى عهد السلطان الأشرف شعبان . والذى يعنينا الآن أن نبين أن طفولة ابن نباتة وشبابه كانا فى عصر كثير الفتن والزعازع ، انقسم فيه الأمراء بعضُهم على بعض ، وكان لكل أمير فريق يناصره ويناضل دونه ، وتفشَّت الدسائس بين كبار المماليك ، وكثرتْ مصادرة أموال رجال الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم ، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس محرَّفة مبالغا فيها ، وكانت العامة تثب على الفريق المغلوب للنهب والسلب ، وربما اغتنمت الفرصة وجرتها الفوضى إلى الاندفاع فى سبيلها فدَهَمت الآمنين فى بيوتهم .

ولعل الفتى محمد بن نباتة فى ذلك الحين كان يسمع أخبار هـذه الأهوال فيرتعد فرقا ، ولعله كان ينصِت إلى خادمه العجوز ، وهى تصف له أحوال المسجونين بخزانة شمايل ، وما يصيبهم من ألوان العذاب .

كان العصر كثير الحوادث حقا ، فاضطراب فى داخل البلاد ، وخوف من هجوم التتار ، فمجاعة فى مصر اضطر فيها الناس إلى أكل ما يؤنَف من أكله من صنوف الحيوان ، ونحن نعلم أن ابن نباتة كان عصبىَّ المزاج قوىَّ الخيال

**أثر البيئة فى نفسه** — فليس بعجيب أن تُؤثر هذه الأحوال فى نفسه تأثيرا شديدا ، وأن تقوّى فيه غريزة الخوف وحبّ السلامة ، ويظهر أن هذه الأخلاق لازمتْ شاعرنا طول حياته ، فإننا لا نرى فى شعره ما يدل على قوة نفس ، أو اعتزاز برأى ، أو نقدا لعمل من الأعمال ، أو هجاء لعظيم أو حقير . لا يظهر فى شعر ابن نباتة شيء من هذا ، لأن فى هذا مخاطرة ، وفيه ما تُصَوره له نفسه العصبية من أوخم العواقب ، حتى إنه إذا عاتب كان عتابه هينا يسيرا لين الملمس ، هو إلى المديح الصرف أقرب منه إلى العتاب كقوله :

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى ... لعمر المعالى عند غيرك أضيع
متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد ... لديك اعتناء غير أنك تسمع
وما كان صعبا لو منذت بلفظةٍ ... تَرُدّ بها عنى الخطوب وتردع
وقلتَ امرؤ للشكر والأجر قابل ... وللبرِّ فيه والصنيعة موضع
ومغترب عن قومه ودياره ... أساعده والله يعطى ويمنع

وإذا جرؤ وقوى عزيمته وقال :

ولى خصوم ولست الآن شاكيَهم ... لكنهم فى غدٍ يدرون أين شُكُوا

يريد أنه سيشكوهم إلى الله تعالى يوم الحساب .

وقد وصف نفسه فى هذه الناحية فقال :

ما كان فى العشرين يهفو منطق ... أيكون فى الخمسين فعل هافِ
شِيم من الأَلِف الزكىّ ورثتها ... لا فى الصّباعيب علىّ ولا فِ

أى ولا فى الشيخوخة .

**شعره لا يمثل الحياة فى عصره** — فالاستكانة والاستسلام ظاهران فى شعر ابن نباتة ، وربما غلب هذان الخلقان على شعراء عصره قليلا أو كثيرا ، وربما رأينا لابن الوردى والصفدى وإبراهيم المعمار أبياتا غير قليلة تصور الحياة

وتدون الحوادث ، ولكنا لا نجد شيئا من ذلك لابن نباتة ، فهو لايعطينا صورة للحياة فى أيامه ، لأنه شاعر مقلد جرى على سَنن الأقدمين فى الغزل والمديح ، وترك الدنيا حوله تصيح وتصخب ، وعواصفَ الحوادث تثور وتزأر ، من غير أن يجود عليها بكلمة ، وكل ما كان يهتم به إنما هو نفسه وأسرته ، فهو فى هذه الحالة يمثل العطف والحنان فى أرفع منازلها ، والدنيا فى نظره فى تلك الأسرة الصغيرة التى يعولها ، فإذا مسها الضر بكى واشتكى . وسنطيل البحث فى هذا الموضوع عند الكلام على أخلاقه .

معاصروه — نشأ ابن نباتة فى أزهى أيام الأدب فى عهد المماليك ، فقد عاصر كثيرا من رجال اللغة والأدب ، مثل جمال الدين بن هشام المصرى المتوفَّى سنة ٧٦١ هـ ، وابن منظور (سنة ٧١١ هـ) ، وابن سيد الناس (سنة ٧٣٤ هـ) ، وغيرهم. وعاصر من الشعراء كثيرا ، منهم نصير الدين الحمامى (سنة ٧١٢ هـ) ، وشمس الدين محمد بن العفيف (سنة ٧١٥ هـ) ، وعلاء الدين الوداعى (سنة ٧١٦ هـ) ، وشهاب الدين ابن أبى حجلة المغربى (سنة ٧٧٦ هـ) ، وزين الدين بن الوردى (سنة ٧٥٣ هـ). وصلاح الدين الصفدى (سنة ٧٦٤ هـ). وابن اللُّبانة (سنة ٧٥٢ هـ). والقيراطى (سنة ٧٨١ هـ). وابن دانيال الموصِلى (سنة ٧١٠ هـ) . وصفى الدين الحِلّى (سنة ٧٥٠ هـ) .

وخالط كثيرا من كبار الكتّاب مثل محيى الدين بن فضل الله العمرى (سنة ٧٤١ هـ) ، وولده شهاب الدين (سنة ٧٥٥ هـ) ، وأخيه علاءِ الدين ، وشهاب الدين محمود الحلبى (سنة ٧٥٥ هـ) .

بيئته العلمية والأدبية — أما الفقهاء والمحدثون فى أول عهد ابن نباتة بالعلم والتعليم فكانوا كثيرين .

من كل ذلك نرى أن استعداده السليم فى أول نشأته وجد غذاء علميا يسد حاجته ، وأن الحياة الأدبية التى كانت تحيط به تركت فى نفسه آثارا ظهرت ثمارها

فيما بعدُ ، وأنه استطاع فى حداثته أن ينتهب قسطا وافرا من الأدب والعلم ، وأن يتملأ من كل ماتقع عليه عينه أو تسمعه أذنه ، وكأنى به وهو لا يزال طفلا يتنقل بين حلقات الأدب ، ويُنْصِت إلى مُطارحة الشعراء ، فقد أخبرنا فيما كتب به إلى الصلاح الصفدى أنه سمع سراج الدين الوراق وهو ينشد لنفسه :

واخجلتى وصحائفى مسودة وصحائف الأبرارِ فى إشراقِ
وتوقفِى لمــوبخ لى قائل أكذا تكون صحائف الوراقِ

وهذا غريب جدا ، لأننا نعلم أن الوراق مات سنة ٦٩٥ ﻫ وأن ابن نباتة ولد سنة ٦٨٦ ﻫ ، وإذا مات الوراق وابن نباتة فى التاسعة ، فمتى سمِعه ياترى يُنشد هذين البيتين ؟ إذا انتهينا إلى آخر فرض ممكن نقول إنه سمِعه وهو ابن تسع سنين وإنه فهِم البيتين ووعاها وحفِظهما ، وأدرك ما فيهما من تورية . وهذا يدل على شغفه بالأدب فى عهد طفولته ، وعلى ميله الفطرى المطبوع على حبّ الشعر والتلذذ به ، وعلى مقدار ما أودعه اللهُ من ذكاء ومواهب فنية قوية منذ نعومةِ أظفاره ، ومن هذا نستطيع أن نقول إن ابن نباتة أخذ يخالط الأدباء ويساجلهم ، وهو فى نشأة العمر وغضارة الصِّبا ، وإنه أفاد من ذلك كثيرا ، ولعل شغفه باللغة والأدب والشعر لفته عن التوسع فى العلوم الدينية وغيرها .

فأسرة ابن نباتة وشيوع العلم والتعليم فى طور شبابه ساعدا على أن ينميا ما كان فيه من نبوغ وأن يظهرا ما منحه الله من عبقرية .

## صفاته وحياته

تطامن نفسه — عرفنا أن من أظهر صفاته الاستكانةَ والاستسلامَ ، وأنه لم يُخلق جريئا ، وهذه النفس الضعيفة هى التى حرمته أن ينال نصيبَه الذى يستحق فى الدنيا ، فلم نعرف أنه زاحم سواه بالمناكب ، مع ما فيه من مواهب كانت تُسوِّغ له البروز والرياسة ، فقد كان ابنُ نباتة كما وصف نفسه :

قلَّ عونى على الزمان فأصبحـ ـتُ صبوراً على مُراد الزمان
حابسَ اللفظ واليراع عن النا سِ فلا مِن يدى ولا من لسانى

بؤسه وهجرته إلى الشام — ويظهر أنه فى أول حياته كان فى شىء من اليسر فأسرف وبذَّر ، وأسام سرحَ اللهو ، ومشى مع المُجَّان فضيَّع ما فى يديه ، وأصبح فى حاجة إلى الاستجداء بشعره .

ومن الغريب أن ابن نباتة النابغة العبقرىّ تنبو به مصر ، ويضيق به العيش فيها ، وهى تُنبت الذهب ، وتفيض بالخير ، فتراه يهجرها فى طلب الرزق سنة ٧١٥ كثيرَ العيال مضطرب الأحوال كما يقول :

مُقلقَلاً بيـد الأيام مضطربا كأنما استقسمتْ منى بأزلام

التحاقه بديوان الرسائل — فيلتحق مرة بالملك المؤيد صاحب حماة إسماعيل ابن علىّ المتوفَى سنة ٧٣٢ هـ فينال عنده شيئا من الحُظْوَة ، ويُصبح شاعره الأثير عنده ، وقد رتَّب لابن نباتة كلَّ سنة ستمائة درهم ، يرسلها إليـه بدمشق . ثم يتصل بابنـه الأفضل ، ثم بالمنصور بن الأفضل ، ثم يُعيِّنه شهاب الدين بن فضل الله بديوان الإنشاء بدمشق ، كما يخبرنا بذلك ابن نباتة فى قصيدة يمدح بها علاءَ الدين أخاه :

بلغتنى يا بن فضل الله مُطَّلَبـاً لم أرجُهُ من بنى الدنيا ولم أخَلِ
نلتُ العلا وكَبتُّ الحاسدين على يَدِ اعتنائك لاحَبْلى ولا حِيَلى

وقد سَمَوْتُ لديوان الرسائل فى　　طَيِّ ادِّكارِك لا كُتْبِي ولا رُسُلِي
مدًى أخوك إلى مَرْقاهُ أوصلنى　　ولو تَرَقَّى إليه النَّسر لم يَصِلِ

زهوه بشعره — وكان ابن نباتة على تواضعه واستسلامه مُحِسًّا جمالَ شعره فخورًا به تيّاها ، فلا تكاد تخلوله قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال بها ، خذ ما يقوله فى آخر قصيدة :

مَن مُبْلِغُ العُرْبِ عن شعرى ودولته　　أَنَّ ابنَ عبّاد باقٍ وابنَ زيدونا
حَبَّرْتُها فيهِ زهراءَ المعاطف مِن　　أعلى وأنفس ما يُهدِى المُجيدونا
إذا رأيتَ قوافيها وطلعتَهُ　　فقد رأتْ مُقْلَتاكَ البحرَ والنونا
كأن ألفاظها فى سمع حُسَّدها　　كواكبُ الرجم يُحْرِقْنَ الشياطينا

وفى قوله : " فقد رأتْ مقلتاك البحر والنون " توريةٌ تمتزج بمراعاة النظير امتزاجا رائعا بديعا .

فزعه من الشيب والهرم — ومن صفاته أنه كان كثير الشكوى من الكبر ، شديدَ التألُّم من الشيب ، فهو فى أكثر شعره يندب شبابه ، ويبكى ماضىَ قوته ، ويَفْزَع مَهُولا من الشيب والهَرَم ، وهذا من آثار المِزاج العصبى ، الذى تحكّم فيه ، وملك عليه نفسَه ، وهو مرة يعلل لاشتعال شيبه بكثرة الهموم فيقول :

مَن يحارِبْ حوادثَ الدهر يَخْفَى　　لَوْنُ فَوْدَيْهِ فى غُبارِ الحُروب
مَن يَعُمْ فى بحارِ هَمِّى يظهرْ　　زَبَدٌ فوق فَرْعِه الغِرْبِيب
أىُّ فرعٍ جَوْنٍ على عَنَتِ الأيـ　　ـامِ يَبْقَى وأىُّ غصنٍ رطيب !
لَوْ هَمَى ماءُ مُعْطِفَىَّ من اللِّيـ　　ـنِ لأفْنَتْهُ مُهْجَتِى بلهيب

وهو مرة يذكر أن الشيب كان سببا فى ارعوائه وتجافيه عن اللهو فيقول :

فقدتُ الهوَى لما فقدتُ شبيبتى ... وأوْجَعُ مفقودٍ هوًى وشبابُ
وكان يَصيدُ الظبيَ فاحِمُ لِمَّتِى ... وأغربُ ما صاد الظباءَ غرابُ
ولوكنتُ من أهل المداجاة فى الهوَى ... لكان بدَمْعِى للشيب خِضَابُ

ثم هو مرة ثالثة يؤاخِى بين الشيب وفقره فيقول :

مَشيبٌ، وإقتارٌ هو الشيبُ ثانياً ... ألا هكذا يأتى الشقاءُ المُكَرَّرُ

ونراه فى هَرَمه وبؤسه وتكاثر الهموم عليه يفزع إلى الزهد يَتَلَمَّس فيه راحة لنفسه يُطفِئ بها غليلَ صدره ويَرجع إلى الله فِرارا من ويلات الدنيا وأوجالها ، وقد يكون صريحا أحيانا فيقول :

مَنعتْنِى الدنيا جَنًى فتَزَهَّدْ ... تُ ولكنْ تَزَهُّدَ المغلوبِ
ووَهَتْ قوّتى فأعرضتُ كُرْها ... عن لقاءِ المكروهِ والمحبوبِ

وهو يتذكر فى شيخوخته أيامَ لهوه السابقة فيشعر بالندم والتفريط فيصيح :

وإنى لمن زاد فى الغَىِّ سعيُه ... وطَوّلَ حتى آنَ منه متاب
إلهىَ فى حُسن الرجا لىَ مذهبٌ ... وقد آن للراجى إليك ذهابُ

شعره فى الزهد — وله قصيدة فى الزهد يصفُ فيها ألمه من الحياة وما لاقاه من بؤس وهموم وتجاهل لقدره نحا فيها مَنْحَى المعرّى منها :

عِفْتُ الإقامة فى الدنيا لو انشرحتْ ... حالى فكيف وماحظى سوى النَّكدِ

ومنها :

لا عارَ فى أدبى إن لم ينل رُتَباً ... وإنما العارُ فى دَهْرِى وفى بلدى
هـذا كلامى وذا حظى فيا عَجَبا ... منى لثروة لفظ وافتقارِ يد

ومنها :

أمّا الهمومُ فبحرٌ خُضْتُ زاخرهُ     أما تَرَى فوقَ رأسى فائضَ الزبدِ
وعشتُ بين بنى الأيامِ منفردا     ورُبَّ منفعةٍ فى عيشِ منفردِ

ومنها :

أصبحتُ لا أجْتَوِى عيشَ الخمولِ ولا     إلى المراتب أرمى طَرْفَ مجتهدِ
جسمى إلى جَدَثى مهواهُ من كَثَبٍ     فكيفَ يُعجبنى مهوايَ من صَعَدِ

والقصيدة مؤثرة جدا ، فهى شكاية رجل خابت آماله ، ورأى نبوغَه لا ينال قسطه من الإكبار ، ومواهبَه لا تُدِرُّ عليه غيرَ الاستجداء و إراقة ماء المُحَيَّا . وهو فى هذا الباب كثيرُ الشكوى موصول الأنين .

بؤسه وكثرة عياله — ويظهر أن ابن نباتة كان شديدَ البؤس كثيرَ العيال ويظهر أن مرتبه كان ضئيلا ، وأنه كثيرا ما كان يتأخر صرفه أشهرا .

فهو يقول :

لقد أصبحتُ ذا عمرٍ عجيبٍ     أُقَضِّى فيـه بالأنْكادِ وقتى
من الأولاد خمسٌ حول أمٍّ     فوَاحرباه من خمس وستٍ !

ويقول لعلاء الدين بن فضل الله :

على أنّ عندى كأسَ شكْوَى أديرُها     على السمع ممزوجا بِمَدْمَعِيَ الغَمْرْ
يُكَسِّرُ حالى بالجفاءِ وطالما     تعوَّدْتُ من نُعماكَ عاطفةَ الجبْرِ
ويدفعنى عن قوتِ يومىَ معشرٌ     وأنتَ عليهم نافذُ النهيِ والأمرِ

ثم نراه يستجدى من علاء الدين دارا يسكنها :

لى قصةٌ والسؤال سُكْنَى     بيت ويحتاجُ للعِبَاره
سكنتُ داراً لصاحبٍ لى     وقصدُهُ يستعيدُ داره

ونراه يقول أحيانا :

تركتُ المالَ والجاهَ لأهل القَدرِ والقدره
فحسبي من حِمًى كِسْرٌ وحَسْبي من غنًى كِسْره

ويقول :

لقد أصبحتُ فى حال يرقُّ لمثلها الحجرُ
مشيبٌ وانتثارُ يدٍ فلا عينٌ ولا أثرُ

وقد انتهت به الحال إلى أن يطلب خبزا من أحد الأمراء :

لجأتُ إلى بابِ الأميرِ وظِلّه وفارقتُ ذُلِّى إذ وصلتُ إلى العِز
وأصبحتُ من جُندِ المحامدِ والغِنى ولا بُدَّ للجندىّ من طلب الخبزِ

ويقول وقد صرف له ممدوحُه معلومه بعد أن تأخر :

وعَجّلَ معلومى وما كنتُ واصلا إلى رُبْعِهِ والشهرُ للشهر رابعُ
وأصلح منى ظاهرا ثم باطنا فلا أنا عُرْيان ولا أنا جائع

ومن أظرف ما نختاره له هنا ما كتب به إلى أحد الأمراء :

يا سائلى بِدِمَشْقَ عن أحوالى قف واستمع عن سيرة البَطّالِ
ودع استماعَ تَغزُّلى وتعشُّق ماذا زمانُ العشق والأغزالِ
طولَ النهار لباب ذا من باب ذا أسعى لَعَمْرُ أبيك سعىَ ظِلالِ
وإذا تغيّر مورد وقصدتُ لى صحبا وجدتُ الصحبَ مثل الآلِ (١)
أترى الزمانَ يُعِينُنى بولاية أحمى بها وجهى من التسآل
زحلَ يقارِنُ حاجتى وقد انحنى ظهرى من الهمّ انحناء الدّال

(١) الآل : السراب وهنا تورية .

ندبه حظ الأديب — وكثيرا ما ندب ابن نباتة حظَّ الأديب فى أيامه ، وأنه لا يُؤْبَه له ، ولا يُقْدَر نبوغُه ، ولا يثاب على فنه ، وقد كان الأمر كذلك فى عهد المماليك ، فإنهم وجّهوا جُلَّ عنايتهم إلى تشجيع العلم والتأليف ، ولم يتجهوا إلى الشعر إلا قليلا ، لذلك كان الشعر وحدَه لا يقوم بحياة صاحبه . استمع لما يقوله ابن نباتة فى وصف تلك الحال :

فكفى من وضُوح حالىَ أَنّى ... فى زمانى هـذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهيرُ وفضلى ... ضَيْعَـةَ السيفِ فى يدٍ شلّاء

ولما يقوله فى مكان آخر :

أسفى على الشعراءِ إنهمُ على ... حالٍ تُشير شماتَةَ الأعداء
خاضوا بحورَ الشِعر إلا أنها ... مما تُرِيق وجوهُهم من ماء

ولما يقوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصرَ محمدا :

وقالوا فلانٌ رَمَّ بالشعر عيشَه ... فياليتَ أنى ميت لستُ أشعر
تَصَرَّمَ أقصى العمر أدعوكَ للْمُنَى ... وأرقبُ آفاقَ الرجاء وأنظر
وأصبِر والأيامُ تَقتلنى أَسًى ... فها أنا فى الدنيا قتيل مُصَبَّرٌ
أرى دون حظّى مَسْلَكًا متوعِّرا ... إذا ما جرتْ فيه المُنَى تتعثّر
ويحمَرّ دمعى حين تصفرّ وجنتى ... فألبَس ثوبَ الهمِّ وهو مُشَهَّر
ولا ذنب لى عند الزمان كما ترى ... سوى كَلِمٍ كالروضِ تَبْهَى وتبهَر

حنينه إلى مصر — وقد قاسَى ابن نباتة فى غربته شدائد وآلاما . فكان لذلك دائم الحنين إلى مصر كثيرَ الشوق إلى معاهدها ، وقد كان يترك أحيانا

أسرته بالشام أو بمصر ويعيش وحده ، فيشتدُّ هيامُه ، ويزيد عتَبُه على الأيام . وما أرقه وأوفاه حين يحنّ إلى مصر فيقول :

بأبى الخدودُ العارياتُ من البكا ... ( اللابساتُ من الحرير جلاببا )
النابتاتُ بأرضِ مصرَ أزاهرا ... والزاهراتُ بأرضِ مصرَ كواكبا
آهًا لمصرَ وأرضِ مصرَ وكيف لى ... بديار مصرَ مراتعًا وملاعبا
حيثُ الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا ... فى الأقربينَ مشاربا وأصاحبا
والدهر سلْمٌ كيفما حاولتُه ... لا مثلَ دهرى فى دِمَشق محاربا

وحين يقول :

ياسارىَ البرقِ فى آفاق مصرَ لقد ... أذكرتنى من زمانِ النيل ما عَذُبا
حَدِّثْ عن البحر أو عينى ولا حَرَجٌ ... وانقُل عن النارِ أو قلبى ولا كذبا
واندُب على الهَرَمِ الغربىّ لى عُمُرًا ... فحبذا هَرَمٌ فارقته وصبا

وحين يقول :

أمصرُ سقتكِ غوادى السرورِ ... وجادكِ من أفقها صيّبُ
ذكرتُ زمانَكِ حيثُ الوصالُ ... وحيثُ الصبا طيّبٌ طيّبُ
وبيضُ الوجوهِ به تُجتلَى ... وسودُ الشعور به تُسحَبُ

وحينما سئم العيش بالشام ، ولاقى ما لاقاه ، رحل إلى مصر وأقام بها وقال :

وربّ شائمةٍ عزمى ومُرتحلى ... إلى حِمى مِصرَ أشكو جَفوَةَ الشام
قالتْ وراءكَ أطفالٌ فقلتُ لها ... نَعَمْ ونُعمَى ابنِ فضل الله قُدّامى

العطف على أسرته — ومن أظهر صفات ابن نباتة العَطْفُ على أسرته وأهله ومن يتصل به ، فهو أب رحيم شفيق ، وزوج مخلص كريم ماتت زوجُه فرثاها بما يُثير الأشجانَ وخلَط الرثاء بالغزل . فقال :

ثوَتْ فى مهاوِى التُّرب كالتِّبر خالصا        تحَقّقْتُ أنّ التُّرب بعضُ المعادِنِ
فوالله ما أدرى لحسن خلائقٍ        تَسِحُّ دموعى أم لخَلْقٍ محاسن

ومنها :

وكنتُ أخافُ البينَ قبلَكِ والنوى        فأصبحتُ لا آسَى على إثْرِ بائنِ
كأنّكِ بادرتِ الرحيلَ تخوُّفًا        علىَّ من الحسن الذى هو فاتنى
فديتُكِ مَن لى من سَناكِ بلَمْحة        ويَنزِلُ بى من بعدها كلُّ كائن
أأنسى قَواما أثقف الحسنُ رمحَه        فما فيه من عيبٍ يُعَدُّ لطاعنِ
ووجها حَكَى عن حسنه كلُّ مُقْمِرٍ        ولحظا رَوَى عن طَرْفِهِ كلُّ شادِنِ

وماتتْ له جارية فرثاها وخلَط الحزن بالغزل أيضا فقال :

أقيما فروضَ الحزن فالوقت وقتُها        لشمس ضُحًا عند الزوال فقدتُها
ولا تبخلا عنى بإنفاقِ أدمعٍ        ملوَّنةٍ أكْوَى بها إن كنزتها
لغائبةٍ عنى وفى القلب شخصُها        كأنّىَ من عينى لقلبى نقلتها

ومات له ولد فرثاه بقصيدة طويلة تفتت القلوب وتُدْمى الأكباد ، عارض فيها التِّهامىَّ أولُها :

اللهُ جارُكَ إنّ دمعىَ جارِى        يامُوحِشَ الأوطانِ والأوطار

ولقد بلغ من شدة محبته لبنيه أن مات له ولد عقيب ولادته فلم يبخل عليه برثاء يقول فيه :

وما قلبى إذا هجرٌ فيسلو        هلالا قبلَ ما اكتملَ الطلوعا

وكان ابنُ نباتة مروَّعَ القلب دائما بموت أولاده . قال الصفدىّ : " إنه لم يعش له ولد ، فدفن فيما أظن ستة عشر ولدا ، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو ستا أو سبعا يتوفاه الله " .

عودته إلى مصر — ترك ابن نباتة الشام وأقام بمصر بعد أن شاخ وهرِم وتجاوز السبعين ، وذلك حينما دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر حوالى سنة ٧٥٧ هـ . ومن سوء حظِّ ابن نباتة أن مات السلطان حسن بعد سنة فأصبح مرتبه يُعْطَى بغير نظام .

واستمر بمصر حتى مات سنة ٧٦٨ هـ .

## شـــعره

مواهبه الشعرية فطرية وكسبية — يرى كثير أن ابن نباتة أشعرُ شعراء عصره ، وحاملُ لواء الفن الجديد بمصر والشام . والحق أنه بلغ الغـايةَ فى إجادة التورية حتى أصبح العَلَم الفرد فيهـا ، وساعده على إتقان فنه الشعرىّ استعدادَ فطرىّ سليم ، وذوق مصرىّ دقيق ، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لهـا ، وانصباب على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه ، وتمثَّـلَ فى معناه ولفظه ،وقد عرفنا كيف نشأ فى أكناف الأدب من طليعة صباه ، وكيف أفاد من شعراء عصره حتى إذا حذَق أدبهم ووعاهُ بَذّهم جميعا فيه ، وجرى مغبِّرًا إلى الغاية. ثم إنه لم يكتف بالفطرة الشعريّة كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزّار ، ونصير الدين الحمّامىّ ، وابن دانيال الكحّال وغيرهم. فان القارئ لشعره يرى فيه شاعرا مثقّفا اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيرا بكتب الأدب وأخبار العرب ، وألمَّ بجملة صالحة من العلوم . وربما كان لكثرة انتقال ابن نباتة فى بلاد الشام أثر فى اتساع مَدَى فكره الشعرىّ وربما كان

لبؤسه وفقره شأن فى تزويد فنه معانىَ وأخيلة ميّزته عن سواه ، وربما كان للوراثة يدٌ فى نبوغه وعبقريته ، فقد عرفتَ أن نسبه ينتهى إلى عبد الرحيم ابن نباتة ، وهو من أعظم أدباء عصره .

تبريزه فى الصناعة اللفظية — وقد أجمع أهل الأدب فى عصر المماليك على تقديم ابن نباتة وعدّه أميرَ الأدباء فى الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية . قال ابن حِجّة الحَمَوىّ المتوفَّى سنة ٨٣٧ هـ فى خِزانة الأدب عند الكلام فى التورية :

” فإنه (ابن نباتة) وإن تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصرا ، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحرا ، وتفقّه فى الطريقة الفاضلية لمذاهبَ ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدى من حواصلها نظما ونثرا ، وكم سأله عالم فى سلوك هذه الطريقة فقال لن تستطيع معىَ صبرا ، وكيف تصبر على مالم تُحِطْ به خُبْرا ، وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب ، فمذهبي — وأنا أستغفر الله — أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القولُ يقول به من رفع الخلافَ وتأدّب ، فإنّ هذه الطريقة ما أمّها ناظم ولا ناثر فى الأيام الأموية ، ولا ابتسمتْ ثغورها فى الخلافة العباسية ، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة ، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ماشهدوا بسبقه فأكرِم بها عادة وشهادة ، ولما اتّصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أَهَّلَ غربتها ، وشرّف بأصل شجرته النباتية نسبتها ، وأسكن فى أبياته من بديع النظم كلّ قرينة صالحة ، وأمستْ سواجعُ إنشائها على فروعه النباتية صادحة “ .

ومن لطائفه فى التورية قوله وفيه تضمين :

وضعتُ سلاحَ الصبرِ عنه فما له ... يقاتلُ بالألحاظ من لا يقاتِلُه !

وسال عِذار فوقَ خديه جائرٌ ... على مُهْجَتى فليتّقِ اللهَ سائلُه

والأمثلة من مبتدعاته فى هذا الباب كثيرة جدا .

الاستخدام — ومما برع فيه ابن نباتة الاستخدام كقوله :

إذا لم تُفضْ عيني العقيقَ فلا رأتْ منازلَه بالقُـرب تَبهى وتَبهرُ
وإن لم تواصل عادةَ السَّفحِ مُهْجتى فلا عادها عيشٌ بمغناه أخضر

فقد أستعمل العقيق استعمالا مجازيا قَصَدَ به الدمعَ ، ثم أعاد عليه الضمير بمعنى المكان المعروف ، واستعمل السفحَ بمعنى الصَّبِّ والإسالة وأعاد عليه الضمير بمعنى المكان .

وَلوعه بالتضمين — وكان ابن نباتة مُولَعا بالتضمين ، لا تكاد تخلو قصيدة له منه ، وربما أخذ البيت أو البيتين فضمنهما قصيدتَهُ ، وأبدعُ مايظهر من براعته أنه يُحَوِّلُ المعنى الأصلىَّ إلى معنى آخر ، وينقله من القصد الذى قيل فيه إلى غيره فى دقة وسبك ، وربما نقل متنا فى علم النحو إلى الغزل أو المديح . وقد استشهدنا لشىء من ذلك فى مقالة الشعر .

وهـذا النوع يدل على سَـعَة اطّلاع فى الأدب ، واتساعٍ فى مَدَى الإلمام بالشـعر ، وحسنِ الحيلة والتأنى ، ولذلك برع فيـه ابن نباتة وأ كثر منه ، فمن تضميناته :

أتانى علىٌّ البَانَيَاسِىُّ منشدا فيالَكَ مِن شِعْرٍ ثقيلٍ مطوَّلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـلٍ مُدْبِرٍ معًا بَجُلمُودِ صَخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ (ى)

ومنهـا :

يا تالىَ القولِ كُتبًا فى لواحظه "السيفُ أصدق أنباءً من الكُتبِ"

ومنهـا :

وطابَتْ بك الأرضُ التى أنتَ حِلها (وكل مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيبُ)

ويظهر أنه كان شـديد الشغف بقراءة ديوان المتنبي حتى إنه ليقتبس منـه فى كثير من شعره .

حسن التعليل — ومما حلا فيه ذوقُ ابن نباتة حسنُ التعليل ؛ وأغلبه في بيان علل خيالية لتسمية الأشياء كقوله في المدح :

وما سُمِّيَ الغيثُ الهَتُونُ سحابةً ... سوى أنه من خَجْلَةٍ يَتَسَحَّبُ

وقوله :

وإذا الفتى قطَع السنينَ عديدة ... شابَ الحياةَ فظلَّ يُدْعَى شائبا

وقوله :

شكراً لأقلامك اللاتى جرتْ لمدًى ... فى الفضل أبقَ لباغى شأوِه التعبا
حَلَتْ وأطربتِ المُصْغِى وحُزْتَ بها ... فضلَ السِّباق فسمَّاها الورَى قصَبا

وفى البيت الأخير مهارة حقا ، فهو يعلل تسميةَ الأقلام بالقصب لثلاثة أسباب ، لأنها حُلوة وقصب السكر حلو ، ولأنها مُطْرِبة والقصبُ المُثَقَّب مُطْرِب ولأنه يَسبق بها أقرانه فهى قصب السَّبق .

ومن لطائفه فى هذا الباب :
تجاسَرَ عودُ اللهوِ يُشْبه صوتَها ... فمِن أجل هذا أصبحَ العود يُضْرَبُ

مراعاة النظير — ومما شُغِف به ابن نباتة مراعاة النظير . ومن إحسانه فيه قوله :

وكنتُ أخا سُعْدَى فأصبحت عَمَّها ... فهيهات لى جَدٌّ بتقبيل خالها

وأكثرَ من استعمال هذا النوع فى مصطلحات العلوم كالنحو . والعروض والحديث ونحو ذلك كقوله :

بلواحِظ يرفعن جَفْناً كاسراً ... فيُثِرْنَ فى الأَحشاء همًّا ناصبا

وقوله :

وافرُ المكرماتِ مُنْسَرِحُ اللَّفْ ظِ طويلُ الثنا مديدُ الثواب

وقوله :

ويَرْوِى أحاديث الثناء صحيحةً عطاءٌ لنا من راحَتَيْكَ وجابر

ومن لطائفه فى هذا النوع قوله :

يا مُنْعِشى حيث شخصى فى دِمَشْقَ وفى تفليسَ مالى ودمع العين فى حَلَب

تأكيد المدح بما يشبه الذم — وأكثر جدا من تأكيد المدح بما يشبه الذَّمّ حتى لتكاد تجد ذلك فى كل قصيدة كقوله :

ليس فيه عيبٌ سوى أنّ إحسا نَ يديهِ يستعبد الأحرارا

لعبه بالحروف — ومما فُتِن به التعبير عن المعنى بحذف حرف من كلمة أو بتغييره كقوله :

آهٍ لشَرْخ شبابٍ كان لى ومضى واعتضتُ شرخا ولكن ماله خاءُ

وقوله :

وزيرَ التُّقى هل أنتَ فى العَشْرِ عاطفٌ على فاقتى بين الوَرَى وخضوعى
وما العَشْرُ إلا العُسْرُ فى كلِّ حالة ولكنني نَقَّطتُهُ بدموعى

يريد بالعَشْر عاشرَ المحرم وهو يوم يوسع الناس فيه على عيالهم .

تصرفه فى اسمه — وقد افتن كثيرا فى التصرف فى اسمه، وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتى وذلك كقوله يخاطب ممدوحه :

وحَسْبِىَ أن أُدْعَى نباتِىَّ غَرْسِه فلا طِرْسَ إلا وهو بالحمد مُعْشِب

وقوله وقد أهدى إلى صديق سُكّرا :

جدتَ وأفحمتنى بما قد　　سمعتُ من لفظك المواتِى
فاقبله ذا سكرٌ بياضٌ　　إن عجز السُّكّرُ النباتِى

ميله إلى الاكتفاء — ونراه فى شعره يميل أحيانا إلى الاكتفاء ، مرة بحذف جملة ومرة بحذف حرف كقوله :

فأقطفُ من أوراقِهِ الأدبَ الذى　　وأسمع من ألفاظه اللغةَ التى

وقوله :

غَدتْ كلَّ عام لى إليه وفادةٌ　　فياحبذا من أجل لُقياهُ كلُّ عا(م)

تخلصاته — ولابن نباتة تخلصات حسنة أكثرها مؤسس على التشبيه كقوله :

لا يقربُ الصبرُ قلبى أو يفارقَه　　كأنَّه المالُ فى كَفِّ ابن أيُّوبِ

وقوله :

جادتْ جفونى بحمّرِ الدموع له　　جودَ المؤيد للعافين بالذهب

## أسلوبه ومعانيه

اهتمامه بالألفاظ — اتجه ابن نباتة كما أسلفنا إلى الصناعة والزخرف، وهى النزعة التى تحكَّمتْ فى شعراء عصره، فانصرف بجملته إلى الألفاظ يقلِّبها على وجوهها علّه يظفرَ منها بجناس أو بتورية أو بمقابلة أو بلغز أو بأية طريفة من الطرائف

يسبق بها معاصريه ، أو يَبُزُّ بها سابقيه. وقد أسلفنا من الأمثلة والشواهد على ذلك ما فيه غَناء . والمطّلع على ديوانه يدهَش لتحكم هـذا الشغف فى نفسه ، حتى لقد أخذ من الألفاظ والحروف مادة للتشبيه كقوله :

لامُ العِذار أطالتْ فيك تسهيدى ... كأنها لغـرامى لامُ توكيد

وقوله فى خِلْعةٍ :

ورحتُ أخْطِر فى ألفافها أِلفاً ... وكنت من دَخَلٍ فى هيئة الدال

وأشبهُ أن يكون من هذا الباب قولُه :

يُغْنَى بذا دون هـذا مَعْ تماثُلِه ... وقس على ما تراه السين والشينا

قلة ابتكار المعانى وتكرارها — لهذا لم يتجه ابن نباتة لابتكار المعانى ،أو ابتداع الأخيلة الرائعة ، واكتفى بمعانى مَنْ قبله وأخيلتهم ، فكان الابتكار أو ما يشبهه قليلا فى ديوانه ، وكثيرا ما تراه يكرر معانيه ، وهذا إفلاس أدبىّ دفع إليه تعجُّله فى صوغ القصائد ، وكثرةُ ما كلّف نفسه من القول للاستجداء وطلب العطاء كقوله :

عَذَلُوه على النَّوال فاغْـرَوْا ... فنـداه نصبٌ على الإغراء

فإنه كرّر هذا المعنى مرات عدّة .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها .

التعبيرات السُّوقية — وقد يقع أحيانا فى المعانى البلدية ، والتعبيرات السوقية كقوله :

وكابدتُ فى المثّنَى من العُرب مُشْتَكًى ... كما قيـل لم تُلْبَس عليـه ثيـاب

وقوله :

وكم ذى كتاب فى الورَى وكتيبة     غدا داخلا من موته تحتَ مكتوب

وقوله لمن طلق زوجَه واسمُها دنيا :

ظَلَمْتَ دُنياك وطلّقتَها     فرُحْتَ لا دُنيا ولا آخِره

معانيه الجيدة — على أنك مع هذا تجد فى تضاعيف ديوانه كثيرا من المعانى والأخيلة السَّرِيَّة كقوله فى وصف طيف الخيال :

زَوْرٌ عفيفٌ على عين الشَّجِىّ مَشَى     فيالَهُ صالحًا يمشى على الماء
ثم انتبهتُ وذاتُ الخالِ سَاكِنةٌ     لم تَدْرِ سُهْدِى ولم تَشْعُرْ بإغفائى

وقوله :

حلفتُ إنك أذكَى مَنْ حَوَى قلمًا     يُنْشِ البديعَ وأنْحَى مَن نَحَا أدبا
أَلِيَّةً لو أتاها الفجرُ ما نَسَبَتْ     له البرِيَّةُ فى ذيل الدُّجَى كذبا

ومن الجيد قوله :

فَهِبْتُ فى الظلام إلى مُدام     كأنّ شُعاعَها قَبَسٌ يلوحُ
وحَيّتْنا بصافيةٍ شَمُولٍ     كما يترقرقُ الدَّمعُ السَّفوحُ
كأنّا قد سلبنا الديكَ عينًا     فقام من الكَرى فزِعا يصيحُ

وكقوله :

وحَمَى العواصمَ رأيُه ولطالما     قَعَدَ الحسامُ وقامت الآراءُ

تشبيهاته — ومن جيد تشبيهاته قوله :

أجاوِرُ مَن أَهْوَى ولا وَصْلَ بيننا كأنِّي ومَن أهواه ثَغْـرٌ مُفلَّجُ

ومما يُسْتَحْسَنُ منه ما نظر فيه إلى أكذوبة أبي حيَّة النُّمَيْرِيّ ، الذي ادَّعَى أنه رَمى ظبيا بِسَهْم فما زال الظبيُ يَحِيدُ والسهمُ يتبعه حتى أصابه، وذلك فى قوله :

وبديــعُ الجمال لم يَرَ طَرْفي مثلَ أعطافه ولا طَرْفُ غيري

كلَّما حِدْتُ عن هواه أتاني سهمُ ألحاظِه كسهم النُّمَيْرِي

ولابن نباتة جملة صالحة من المعانى الجيدة لا يتسع المجال لاستقصائها .

عيوب شعره — ولعناية ابن نباتة بالنكتة والتورية والبـديع عامة لم يبلغ أسلوبُه فى جمهرة شـعره منزلة الجودة ، لأن أنواع البديع تحتـاج عادة إلى ترشيح وتمهيد، وهذا التمهيد كان يُفْرِغه الشاعر فى أىِّ قالَب من الألفاظ قَبُحَ أوحَسُن ، لأنه يريد الوصول إلى البديع بأىِّ ثمن . انظر إلى قوله :

قَسَمًا بِسُـورَةِ عارِضَيْك فإنها كالنملِ عنـد بصائر الشعراء

فإنه لأجل التـلميح باسمى السورتين جاء بتعبير ضعيف جدا هو ( سورة عارضيك ) ، وهل للعارضين سورة ؟ وما هى؟ ثم زَلَّ زلةً أخرى فقال عند بصائر الشعراء ، وهو يريد أبصار الشعراء إذ لا معنى للبصائر هنا .

هذا مثال واحد أردنا أن نبين به ما يجرُّه الوَلوع بالبديع من الجنـاية على الأسلوب والإسفاف المُخْزِى، مع أنَّ ابن نباتة كان أكثر من غيره توفيقا فى صناعة البديع ، ولكنه لم يسلم فى كثير من محاولاته من الزَّلل .

الإكثار من الضرورات الشعرية — ومن عيوب ابن نباتة الإكثارُ من الانتفاع بالضرورات الشعرية كقصر الممدود وتسهيل المهموز وصرف مالا ينصرف فمن أمثلة قصر الممدود قولُه :

وندًى يُخْجِلُ السحائبَ يمشي من ورا جوده على استحياء

الحشو — ومن عيوبه الحشو وهو كثير فى شعره ويكون بالقسم كقوله :

أوحشه الغيثُ الذى قد نأى        وجاءه واللهِ فى وقتــه

أو بزيادة كلمة أو تركيب كقوله :

رئيسٌ على التحقيق قالت صِفاته        لنُقّاده ذا ما يخـالط ذا ما

ففى الشطر الأول حشوٌ (على التحقيق) ، والجناس فى الشطر الثانى سقيم .

الهفوات اللغوية — ومن عيوب شعره التهاونُ فى تعدية الأفعال كقوله :

طرَقَت على تلك النفوس طوارقٌ        وطَرَتْ على تلك الجسوم طوارِى

فإن طرق يتعدّى بنفسه ، وطرتْ أصلها طرأت سُهِّلت الهمزة وعومل الفعل معاملة المعتل بالألف ، وهذا ضعف أيضا .

وكقوله :

لقد أحيـا نَدَى كفيكَ حالى        كذاك الغيثُ يُحْيِى للنبات

فعَدّى الفعل "يحيى" باللام .

وقوله :

إليــك مديرَ الكأس عَنّى إننى        رأيتُ دموعَ الخوف تنقعُ للصَّدَى

والفعل نقَع متعد بنفسه .

ومن أخطائه اللغوية قوله :

الناصرُ اسمًـا وألقابًا وافعِـلَةً        فانظر لنصرٍ على عِطْفَيْه مُشْتَمل

يريد وأفعالا والشطر الثانى ركيك .

وقوله :

وشـائدُ المُلكِ مشغولٌ بأربعـة      من العَطا والسُّطا والعلم والعمل

وقد أكثر هو والحِلّيّ من استعمال كلمة " السُّطا " هذه ولا نعرف لها وجها.

وقوله :

يامَن له تُعرِبُ الافاق عن سـير      عُظْمَى وتنطق أرضٌ وهى خَرْساءُ

فإن اسم التفضيل لايطابق موصوفه فى التأنيث إلا إذا عُرِّف بأل أو أضيف إلى معرفة .

وقوله :

قاضِى القُضـاةِ المُـلَبَّى      تاجُ السَّراة الألِبَّـــه

وهو يقصد الألباءَ جمع لبيب . وقوله :

لهـفى لجوهرةٍ خَفَتْ فكأنمـا      حَجَبْتُهـا من أدْمُعى ببحـار

واللغةُ العاليـةُ أن يقول خَفِيَتْ . وقد أكثر من استعمال كلمـة العائلة بمعنى الأسرة . فمن ذلك قوله :

وما أبالى إذا استكثرتُ عائلةً      فقد كَفَى هَم إصباحى و إمسائى

ونرى أنّ هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى قبلَ ذلك بنحو قرنين .

## فنون شعره

أكثرُ شعره فى المديح والرثاء ، لأنه شاعر مُسْتَجْدٍ ، يعيش من سنّ قلمه . وأكثر مدائحه فى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم فى الملك المؤيد صاحب حماة وأبنائه ، وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء ، ومَدَح الملك الناصر والسلطان حسنا ، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة والمحتسبين ، وليس له فى الهجاء إلا أبيات قليلة هى إلى الدُعابة أقربُ منها إلى الهجاء ، ولكن لسانه لم يَعِفّ عن هُجْر الكلام حتى فى القصائد التى يمدح بها الكبراء ، وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدلّ على تدهور الآداب العامّة فى ذلك العصر .

غزله — وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمُه صناعىّ بَحْت يجعله طابعة لقصائده ، ويستعمل فى أكثره ضمير المذكر كما هى عادة شعراء عصره ومَن قبلهم .

وأحسنُ ما قاله فى الغزل قوله من قصيدة فى مدح الرسول :

صَحَا القلبُ لولا نَسْمَةٌ تتخطَّرُ ولَمْعَةُ برق بالغَضَا تتسعَّر
وذكْرُ جبينِ البابليّة إذ بَدَا هلالُ الدُّجى والشىء بالشىء يذكر
سقَا اللهُ أكنافَ الغضا سائلَ الحيَا وإن كنتُ أسْقَى أدْمُعًا تتحدَّرُ

خمرياته — وله كلام كثير فى الخمريات وقد كان فى هذا الباب مقلّدًا قليل الابتكار ، ومما أحسن فيه من ذلك قوله :

عَوِّض بكأسك ما أتلفتَ من نَشَبِ فالكأسُ من فضةٍ والراحُ من ذَهَبِ
واخطُبْ إلى الشَّرْب أمّ الدهر إن نُسِبَتْ أختَ المسرّةِ واللّهوِ ابنةَ العنب
غرّاءُ حاليةُ الأعطاف تخطِرُ فى ثوبٍ من النور أو عِقْدٍ من الحبب

بقية فنون شعره — وله شعر كثير فى الحنين إلى الصِّبا ووصف ويلات الهَرَم والشيب ، كما كان يكثر من وصف القلم عند ما يمدح الكُتّاب والأدباء، وفى ديوانه كثير من التهانى ، وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التى جمع فيها بين التهنئة والتعزية ، وقد سارت بها الركبان ، وترددت أصداؤها فى كل مكان . وأولها :

هنــاءٌ محا ذاكَ العــزاءَ المُقَدَّما ... فمــا عبَسَ المحــزونُ حتى تبَسَّما

وله قصيدة فى الطَّرَد سماها "مصايد الشوارد" وهى من بحر الرَّجَز، فى مائة وسبعة وستين بيتا ، حاكى فيها شعراء العصر العباسى ممن طرقوا هــذا الفن ، كأبى نواس وابن المعتز . وقد وُفِّق ابنُ نباتة فى هذه القصيدة وأظهر فيهــا براعة فى التشبيه محمودة ، ومما يُختار من هذه القصيدة قوله :

حتى نزلنــا بمكانٍ مُونِقِ ... إخوانَ صدقٍ أحْدقوا بالمملقِ
فيــالَه فى الحسن من محلِّ ... مَرادُ جِدٍّ ومَراد هَــزْلِ
للطــير فى ميــاهه مواقعُ ... كأنها من فوقه فواقعُ
حتى طوَى الأفقُ رداءَ الورْسِ ... والتقم المغربُ قُرْصَ الشمس

وله بجانب ذلك ألغــاز ، ومقطّعات كثيرة ، منهــا الثُّنائياتُ والثلاثيات والرباعيات والخماسيات ، وأغلب هذه المقطعات كان يقولها لإبراز نوعٍ بديعى ، أو يرسل بها إلى ممدوحيه فى طلب حاجة .

ولابن نباتة قليل من المُوَشّحات ومطلع أحدها :

لهفى على غادةٍ إذا سَــفَرت ... غارتْ وجوهُ الشموسِ واستترتْ
لهــا من السُّمْر قامةٌ خَطَرتْ ... كم قتلتْ عاشقا وكم أسَرَت
إذا دعتْ للنهوض مَيْلَها عِطْفا ... كأنَّ سحــرَ الجفون حمّلَها ضَعْفا

## الموازنة بينه وبين شعراء عصره

سبق أن قلنا إن ابنَ نباتة يعد بحق زعيم شعراء مصر فى عصره ، و إن معاصريه سلكوا مسلكه ، واتبعوا مذهبه ، واتخذوه قائدا و إماما ، فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله .

وأقرب مَن يشبه ابن نباتة من شعراء مصر برهانُ الدين القيراطى ، ويتشبه به من شعراء الشام صلاح الدين الصفدى ، وكان كثير الإغارة على شعره كما سبقت الإشارة إليه .

أما صفىّ الدين الحِلِّى فكانت له نزعة فى الشعر تخالف نزعة ابن نباتة ، وكان أقلَّ منه احتفالا بالبديع ، وكانت ديباجته أقربَ إلى الديباجة العربية السليمة ، وكانت بينه وبين ابن نباتة صلة وُدٍّ وثيقة تبادلا فيها القريضَ ، وتقارضا المديحَ والثناء . وجملة القول أن شعر الحلىّ أميل إلى الجزالة ، وشعر ابن نباتة أميلُ إلى الرقة والإبداع .

سرقاته — وقد أخبرنا ابن حِجّة الحموىُّ أنّ ابن نباتة كان يُغيرُ على بدائع عَلَاء الدين الوَداعِىّ المتوفَّى سنة ٧١٦ هـ ، وقد أورد فى خزانة الأدب جملةً من ذلك ، وذلك كقول الوداعىّ :

والنهرُ كالمِبرد يجلو الصَّدَا ... بِبَرْده عن قلب ظمآنه

الذى أخذه ابن نباتة فقال :

والنهرُ فيه كمِبْرَدٍ ... فلأجل ذا يجلو الصَّدَا

ويقول الوَدَاعى :

ما كنتُ أوَّلَ مُغْرَمٍ محرومٍ ... من باخلٍ بادِى النِّفار كريم

فيقول ابن نباتة :

مُبَخَّلٌ يشبه رِيم الفَلَا ياطولَ شَجْوِى من بخيل كريم

وممن استعار ابن نباتة بدائعهم أبو الحسين الجزار ، ومحي الدين بن عبد الظاهر ، وعبد العزيز الأنصارى الحموى ، ومجير الدين بن تميم .

## كتابته

كان كاتبا شاعرا ، كما يصف نفسه مخاطبا ممدوحه :

يعظُمُ مَن كان لكم شاعرا فكيف وهو الشاعرُ الكاتبُ ؟

وقد جرى فى الكتابة على أسلوب عصره ، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف عن التعقيد ، وسلك سبيلَ البديع فى رفق وهوادة ، فجاء نثره حسَنَ النسج لا يخلو من جمال فنى . وإنا نقتبس هنا طرَفا من رسالته فى المفاخرة بين السيف والقلم . قال على لسان القلم يردُّ على السيف :

" أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، أعَلَى مِثلِى يَشُقُّ القولُ ، ويُرفَعُ الصوتُ والصَّوْل ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وهو فى الخصامِ غيرُ مبين . فقد تعدَّيتَ حدَّك ، وطلبتَ ما لم تبلغْ به جهدَك ، هيهات أنا القائم بمصالح الدول وانت فى الغِمد طريح ، والمُتْعَب فى تمهيدها وأنتَ غافل مستريح ، والساعِى فى تدبير حال القوم ، والمُفْنِى لنفعهم العمرَ ، إذا كان نفعُك يوماً أو بعضَ يوم ، فاقطَع عنك أسبابَ المفاخرة ، واستر أنيابك عند المكاشرة ، فما يَحْسُنُ بالصامت محاورةُ المُفْصِح ، والله يعلم المفسد من المصلح " .

## أشهر آثاره

(١) ديوان شعر كبير مرتّب على حروف الهجاء ، طبع بالقاهرة .

(٢) مَطْلَع الفوائد ومجمع الفرائد ، وهو كتاب حافل فى الأدب .

(٣) سَرْحُ العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، وهو من أحسن مؤلّفاته ، يدل على سَعَة اطّلاع فى اللغة والأدب وتاريخ العرب .

## الشاب الظريف

هو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات فى عنفوان شبابه سنة ٦٨٨ هـ فهو طَرفَةَ هذا العصر ، وشعره يدل على نبوغ موروث ، فقد كان أبوه عفيف الدين التلمسانى شاعرا محسنا ، والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة ، فى شعره نفحات من العبقرية المصرية ، وكان مولعا بالبديع كبقية شعراء عصره ، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره ، وأكثر شعره فى الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر . وصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال :

” نسيم سَرَى ، ونعيم جَرَى ، وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى . لم يأت إلا بما خفَّ على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقّ شعره فكاد يُشرب ، ودقّ فلا غرو للقُضُب أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وَوَلَجَ القلوب ولم يقرع باب الآذان ، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وخاصة أهل دمشق فإنه بين غمائم حياضهم رَبَا ، وفى كمائم رياضهم حَبَا ، حتى تدفق نهره ، وأينع زهره . وقد أدركتُ جماعةً من خُلَطائه لا يَرَوْن عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالمشاعر ، ولا ينظرون له بيتا إلا كالبيت ، ولا يقدّمون عليه سابقا حتى ولو قلتُ ولا امرأ القيس ما باليْت ، ومرّت له ولهم بالحِمَى أوقاتٌ لم يبق من زمانها إلا تَذَكُّرُه ، ولا من إحسانها إلا تَشَكُّرُه ، وأكثر شعره لا بل كلّه رشيق الألفاظ ، سهل على الحُفَّاظ ، لا يخلو من الألفاظ العاميّة ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، ووَلِعَ به كلُّ ذاكر ، وعاجَلَه أَجَلُه فاختُرِم ، وحَرَم أحبّاءه لذة الحياة وحُرِم “ .

ومن شعره وفيه بديعٌ منسجم :

مثلُ الغــزالِ نظرةً ولفتــةً ... مَن ذا رآه مُقبـلا ولا افتتن ؟
أعذبُ خلقِ الله ثغـرا وفمًا ... إن لم يكن أحقَّ بالحسن فمن ؟
فى ثغْــره وخدِّه وشـكله ... الماءُ والخضرةُ والوجهُ الحسن

ومنه قوله :

عفَا الله عن قوم عفا الصبرُ عنهمُ ... فلو رُمْتُ ذِكرَى غيرهم خانني الفم
تجنَّوا كأنْ لا ودّ بيني و بينهم ... قديمـا وحتى ما كأنّهــمُ همُ
وبالجذْع أحبابٌ إذا ما ذكرتُهم ... شَرِقْتُ بدمع فى أواخره دمُ
ألمَّ وما فى الرَّكْبِ منـا متيَّمُ ... وعاد وما فى الرَّكْب إلاّ متيَّمُ
وليس الهـوَى إلا التفاتةَ طامحٍ ... يروقُ لعينيــه الجمـالُ المنعَّمُ
خليلىَّ ما للقلب هاجتْ شجونه ... وعاوده داءٌ من الشوق مؤلمُ
أظنُّ ديار الحىّ منا قريبـةً ... وإلا فمنهـا نَفْحَــةٌ تتنسَّمُ

## ابن الوردى

هو زين الدين عمر ، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ ، كان شاعرا أديبا نحويا فقيها مؤرخا ، وكان عفيفا لا يستجدى بشعره ، وله ديوان شعر مطبوع ، وشعره متوسط فى الجودة غاصٌ بالبديع وبخاصة التورية ، تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانا ، ومن شعره :

دهـــرنا أمسى ضنينا ... باللقا حتى ضنينا
ياليالى الوصل عودِى ... واجمعينا أجمعينا

ومن شعره :

أنتم أحبائى وقد ... فَعَلْتُم فعلَ العِدا
حتى تركتم خبرِى ... فى العالمين مبتدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجونا بقلعة دمشق :

عثا فى عِرضه قومٌ سِلاطُ ... لهم من نثرِ جوهرِهِ التقاطُ
تَقِىُّ الدين أحمـدُ خيرُ حَبْرٍ ... خيوطُ المعضلات به تُخاطُ
تُوُفِّى وهو محبوسٌ فريدٌ ... وليس له إلى الدنيا انبساط
قضى نحبًا وليس له قرينٌ ... ولا كنظيرِهِ لَفَّ القِماطُ

وله القصيدة المشهورة فى الحِكم منها :

اعتزل ذِكْرَ الأغانِى والغَـزَلْ ... وقل الفصلَ وجانبْ مَن هَزَلْ
ودع الذِكْرَ لأيام الصِّبا ... فلأيام الصِّبا نجمٌ أَفَل
إنّ أهنا عيشةٍ قَضيتها ... ذهبتْ لذاتها والإثمُ حَل
واهجر الخمرة إن كنتَ فتى ... كيف يَسْعَى فى جنونٍ مَن عَقَل
صدِّقِ الشرعَ ولا تَرْكَنْ إلى ... رَجُلٍ يرصُدُ بالليل زُحَل
حارتْ الأفكارُ فى قدرة مَن ... قد هدانا سُبْلَنا عز وجل
كُتب الموتُ على الخلق فكم ... فَلَّ من جمع وأفنى من دول

## صفى الدين الحلى

هو عبد العزيز بن سرايا بن على ، ولد بالحِلّة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ ، ونشأ بها وتأدّب وأجاد الشعر، وخدم ملوك الدولة الأرتقية ، وقد رحل إلى مصر فى سنة ٧٢٦ هـ ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

فابتداها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حباتِ القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فَوْدَ الليل منها شائبا
بِيضٌ دعاهُنَّ الغبيُّ كواعباً ولو استبان الرُّشْدَ قال كواكبا

وقد طرق معظم فنونِ الشعر، وقال من الأوزان المولَّدة ، وفى التشطير والتخميس ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات ، وكان شعره سهل اللفظ جيّد الأسلوب ، وقد يُعُدّه بعضُ الأدباء أشعر شعراء عصره .

ومن شعره وهو فى غاية الرقة :

إن غبت عن عِيانى يا غاية الأمانى
فالفكر فى ضميرى والذكر فى لسانى
ما حال عنك عهدى ولا انثنى عِنانى
شوقى إليك باقٍ والصبر عنك فانى

ومن شعره :

قد نشر الزَّنْبَقُ أعلامه وقال كلُّ الزهر فى خدمتى
لولم أكن فى الحسن سلطانه مارُفِعَت من دونه رايتى
فقهقه الورد به ساخرًا وقال ما تحذر من سَطْوَتى ؟
وقال للسَّوْسَنِ ماذا الذى يقوله الأشيبُ فى حضرتى؟
فامتعض الزنبق من قوله وقال للأزهار يا رفقتى
يكون هذا الجيش بى محدِقا ويضحك الورد على شيبتى

هذا شعر فى منتهى الرقة، ولكنّ صفى الدين قد يكون فى منتهى الجزالة والضخامة إذا قال فى الأغراض الشعرية التى تتطلب قوة وحماسة كقوله :

لمن الشوازب كالنعام الجُفَّلِ كُسِيَتْ جلالا من غبار القسطلِ
يبرزن فى حلل العجاج عوابسا يحملن كلَّ مدرع ومُسربل
شبهَ العرائسِ تُجْتَلَى فكأنها فى الخِدرمن ذيل العجاج المُسْبَل
فعلت قوائمهن عند طرادها فعل الصوالج فى كرات الجندل
فتظل ترقم فى الصخور أهلةً بِشبا حوافرها وإن لم تُنْعَل

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة النونية المشهورة التى قالها فى صِباه ، وكأنه كان يعارض بها نونية ابن زيدون ، ومن هذه القصيدة :

سل الرماح العوالى عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
وسائل العرب والأتراك ما فعلت فى أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ وقد دِنّا الأعادى كما كانوا يدينونا
بضُمَّرٍ ما ربطناها مُسَوَّمةً إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتيةٍ إن نقل أصغَوا مسامعهم لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قومٌ إذا استُخصموا كانوا فراعنةً يوماً وإن حكموا كانوا موازينا

ومن جيد معانيه قوله :

يا مَن حكتْ شمسَ النهار بحسنها وبِعادِ منزلها وبهجة نورها
هَلاَّ عدلتِ كعدلها إذ صَيَّرَتْ للناسِ غَيْبَتَها بقــدر حضورها

( تُوفى ببغداد سنة ٧٥٠ هـ . )

## بدر الدين الذهبي

كان من أرق شعراء الشام أسلوبا وألطفهم طريقة ، ويمتاز شعره بكثرة الوصف وجمال الديباجة وروعة البديع .

وقد جاء فى المنتخب أمثلة صالحة من شعره ، وسقنا إليك فى مقالة الشعر شيئا منه .

ومن قوله :

ورياض وقفتْ أشجارُها وتمشَّتْ نسمة الصبح إليها
طالعت أوراقَها شمس الضحا بعد أن وقّعت الوُرْق عليها

وقوله :

عرِّج على الروض يا نديمى ومِلْ إلى ظله الظليل
فالزهر يلقــاك بابتسام والريح تلقـاك بالقبول

( تُوفى سنة ٦٨٠ هـ . )

## صلاح الدين الصفدى

كاتب شاعر مؤرخ ، وُلد فى صَفَد سنة ٦٩٦ هـ ، وتلقَ العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر ، وتولَّى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب ، وأشهر كتبه الوافى بالوفيات ، وهو أكبر معجم للتراجم يقع فى نحو خمسين مجلدا ، ولا يوجد هـذا الكتاب كاملا فى مكان واحد ، فمنـه أجزاء بمصر وحلب وتونس وغوطة وڤينا ولندرة وأكسفورد وباريس . ومن شعره :

بسهم أجفـانه رمانى فذبت من هَجْره وبَيْنِه
إن مت مالى سواه خَصْمٌ لأنه قاتلى بعينـه

وله قصيدة طويلة فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب ابن زهير منهـا :

سـلوا الدموعَ فإن الصَّبَّ مشغولُ ولا تمـلوا فـفى إملائهـا طولُ
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى هل فى الغـرام الذى تبديه تبديل
وهل لمـا ضمت الأحشـاء بعدكمُ من الجَوَى عنـد ماتحويه تحويل
أحبتى لا وعيشٍ مرَّ لى بكمُ وربعُ لهـوى باللذات مأهول
ما كان لى مذ عرفتُ الوجد قط ولا يكون فى غيركم قصدٌ ولا سول

ومن قوله :

يا غائبين تعاللنا لغيبتـكم بطيب لهـو ولا والله لم يطبِ
ذكرت والكأسُ فى كفى لياليـكم فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

وكتب اليه ابن نباتة وكان الصلاح مريضا :

تُقَـالُ إذ نبـغى بلفظك طبَّنا — من الهمّ والجسمُ الشريفُ نحيـلُ
فها أنت فينا كالنسيم بلطفـه — طبيب يداوِى الناسَ وهـو عليـل
وحاشاك من شكوى اعتلالٍ سينقضى — قريبا كما نختاره ويزول

فكتب إليه الصلاح الصفدى :

لِحُمَاىَ نـارٌ جاءها منـك جَنَّـةٌ — غُصونُ رُباهـا بالبـديع تميـلُ
تهـدَّلت الأفنانُ منها بخاطرى — لـه بين هاتيـك الظِلال مَقِيـل
وأنتَ حبيبُ الشعر أصبحت سيدا — كما أننى مولى والاسم خليـل

( مات بدمشق فى ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤هـ . )

## ديوان الإنشاء

### منذ نشأته إلى نهاية هذا العصر

الكتابة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين — كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحو نَيِّف وثلاثين كاتبا ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وزيد بن ثابت الأنصارى وغيرهم من جلة الصحابة ، وكان المداوم له صلى الله عليه وسلم على الكتابة زيدا ومعاوية .

وكان عثمان بن عفان كاتبا لأبى بكر ، وزيد بن ثابت كاتبا لعمر ، ومروان ابن الحكم كاتبا لعثمان ، وكتب عبد الله بن أبى رافع لعلىّ بن أبى طالب .

الديوان فى عهد بنى أمية — ثم كانت دولة بنى أمية فكان أمر الكتابة فى زمن كل خليفة مفوَّضا إلى كاتب يقيمه ، وكان الخليفة يوقِّعُ فى القصص بنفسه ، والكاتب يكتب بما يُشير به هذا التوقيع ، وكان كاتب معاوية عُبَيْدَ الله بنَ أوس الغَسّانى ، ثم اتخذ كل خليفة من خلفاء بنى أمية بعده كاتبا أو أكثر إلى آخر عهد خلفائهم ، وهو مَرْوان بن محمد فكان كاتبه عبدَ الحميد بن يحيى مولى بنى عامر ، وهو أول من وضع أصول فنّ الكتابة ، وهو الذى قيل فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختِمت بابن العميد .

ديوان الإنشاء فى العهد العباسى — أما الكتابة فى عهد بنى العباس فكانت فى ضمن الوزارة ، والوزير هو المتصرف فى الديوان ، وتحت يده جماعة من الكتّاب ، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء ، وصاحب ديوان الرسائل . ومن أشهر الكتّاب فى الدولة العباسية عبد الله بن المقفَّع ، وكان كاتبا لأعمام المنصور ومترجمًا له ، والربيعُ بنُ يُونس وكتب للمهدى ، وأحمد بن يوسف

وعمرو بن مَسْعَدة وكانا كاتبين للمأمون . وكتب للمتوكل أحمد بن المدبِّر وإبراهيم ابن الصُّولى. وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابئ . وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطى المشهور بابن زيادة صاحبُ ديوان الإنشاء ببغداد ، وإليه انتهت رياسة الترسُّل . وكتب للمستعصم عزُّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبى الحديد مات سنة ٦٥٥ هـ ، وقُتِلَ الخليفةُ عَقِب موته ، فهو آخر كُتَّاب الإنشاء لخلفاء بغداد . قال السُّيوطى : "ومن الاتفاق الغريب أن آخرَ خلفاء بنى أمية كتب له عبد الحميد الكاتب ، وآخرَ خلفاء بنى العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد" .

الديوان فى العصر الفاطمى — أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون ، وحينما قَوِىَ أمرها فى تلك الأيام أنشئ بها ديوان للإنشاء ، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية ، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها . وأشهر كتّاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سُورِين النصرانى ، وكان كاتبا للعزيز بن المعز والحاكم . وأبو القاسم المعروف بابن الصَّيْرَفى ، وقد كتب للآمر والحافظ ، ويوسف بن الخلّال ، وهو أستاذ القاضى الفاضل ، وكتب للحافظ والعاضد ، وكان يُلَقَّب صاحب الديوان فى الدولة الفاطمية بكاتب الدَّسْت الشريف .

ومن أشهر كتّاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضى الفاضل ، ثم أضيفت إليه الوزارة ، وكتب لصلاح الدين وابنه العزيز . ثم بهاء الدين زهير الشاعرُ المشهور وكان كاتبا فى عهد الملك الصالح .

الديوان فى عصر المماليك — وأنبهُ أصحاب الدواوين ذكراً فى عهد المماليك محى الدين بن عبد الظاهر . وأول من سُمِّىَ كاتب السر بالديار المصرية ابنه فتح الدين بن عبد الظاهر ، ولِىَ ديوان الإنشاء فى عهد المنصور قلاوون .

ومن كتّاب السر المشهورين فى هـذا العهد تاجُ الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل . ومحيي الدين بن فضل الله العُمَرى ، وشهابُ الدين بن فضل الله ، وشرف الدين بن فضل الله ، والشهاب محمود الحلبي ، وكتبوا للناصر . وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد .

صفات صاحب الديوان وأعماله — وكان كاتبُ السِرّ فى عهد المماليك فى أرفع محلّ وأشرف قدر ، إليـه تُلْقَى أسرارُ المملكة ، و برأيه يستضاء فى حلّ مشكلاتها ، و إليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، و يقوم توقيعه فى القصص أحيانا مقام توقيع السلطان .

وقد أطال صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلّى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات الساسة ، ثم شرح أعماله فى إسهاب : "وهى أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه كُتّاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات، وأن يتلقّ المكاتباتِ الواردةَ و يقرأها على السلطان ويُجيب عنها ، وهو الذى ينظر فى البريد ، واختيارِ مَن يُرْسَل إلى الخارج فى الشؤون السلطانية ، وهو الذى يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العـدُو ، وتشمل دائرة عمله المناور ، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بُلْبَيْس أمكنةٌ عالية يقيم بهـا مستخدَمون من قِبَل السلطان ، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقِمَم المجاورة للفرات فينظرها مَنْ بَعْـدَهم فيوقدون النـار ، وهكذا حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بقرب بلبيس فى يوم أو بعض يوم ، ومن هناك تُرْسَل رسالة على أجنحة الحَمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ فى التأهب " .

ومن عمل صاحب الديوان فوق ذلك أنه ينظر فى الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة ، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته .

وبديوان كاتب السِّر كُتّاب الدَّسْت ، وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءون القصص على السلطان ، ويوقّعون عليها بأمر السلطان . وكُتّاب الدَّرْج وهم الذين يكتبون الولاياتِ والمكاتباتِ ونحوها ، وربما شاركهم كُتّاب الدَّسْت فى ذلك .

خصائص الديوان وفضله — وربما حَسُن بنا هنا أن ننبِّه على ما ابتدعه الكُتّاب فى دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها ، بحيث تختصّ كلُّ مرتبة بلقب لا تتجاوزه ، كالمَقام والمَقَر والجناب والمجلس ونحوها ، مع إتْباع كلٍّ منها بألفاظ خاصّة للتبجيل والتفخيم . وقد ابتدعوا أيضا إلحاق ياء النسب بالأوصاف ، كالأميرىّ لأرباب السيوف ، والصاحبىّ للوزراء ، والقضائىّ لأرباب الأقلام ، وقد أسرف الكُتّاب كثيرًا فى هذا العصر فى ألقاب التمجيد والتعظيم .

ولن يَجْحَد جاحد ما كان لديوان الإنشاء من الأثر البيِّن فى إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام . ولقد تنافس كبار الكتّاب والشعراء فى الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتسلُّق إلى ذلك المنصب السامى ، الذى كان يُشْتَرط لنيله أن يكون صاحبه عَلَمًا فى الأدب ، بعيد الغاية فى جمال الإنشاء وروعة الكتابة ، مُلِمًّا بكثير من العلوم العقلية والنقلية . وقد أبرز ديوان الإنشاء فى عهد المماليك بمصر والشام نوابغ من الكرام الكاتبين ، والشعراء المجيدين ، والعلماء النابهين ، وقد مرت بك أسماء طائفة منهم .

وقد كان للغة العربية أيامَ قيام ديوان الإنشاء دولة قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطالهم ديوانَ الإنشاء ، فطُوِىَ بذلك للعربية والأدب العربى عهد زاهر مجيد .

## الكتابة

تأثر طريقة القاضي الفاضل — تأثر الكتاب فى هذا العصر طريقة القاضي الفاضل التى جرت على غرار طريقة ابن العميد، وأربت عليها بالإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأن التعمل لإبراز هذه الأنواع كان يضطر الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام. وكانت مواهب القاضي الفاضل وسلامة فطرته وتمكنه من اللغة تنقذ كتابته من السقوط فى درك السخف. وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية.

أولع كتاب المماليك بهذه الطريقة، فأخذوا يحاكونها ويجهدون جهدهم فى بلوغ أوجها، وربما جال فى نفوس كثير منهم أن يبزوها بالإغراق فى البديع والإكثار من الزخرف اللفظى، بخفى عليهم اجتهادهم، وكان عليهم أن يعرفوا أن:

أبلغ ما يدرك النجاح به الطبع وعند التعمق الزلل

فجاءت كتابة كثير منهم مملوءة بالبديع، محملة بأنواع الصناعة، فاختفت المعانى تحت أردية الديباج الموشى، والإستبرق المرقش، وناءت عقود الجواهر واللآلئ ببنات الأفكار فأخمدت أنفاسها، وأصبحت تقرأ عبارات هى أشبه بالألغاز منها بصريح الكلام، وتعجب كيف أن عقلا إنسانيا يصور له الجد العاثر أن من أمارات النبوغ وإحكام الصناعة التدهور إلى هذا الحضيض. وطالب الأدب تملكه الحيرة إن أراد أن يعلل لهذه النازلة التى أصابت الأدب فقضت على فن هو أكثر فنونه استعمالا، وهو أقل فنونه قيودا، وأحوجها إلى السهولة والانسجام. وربما كان من أسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب

وتحتمها فى نفوسهم، حتى لكأنهم لا يعرفون من النثر إلا ما كان مسجوعا متكلفاً، وحتى لكأنهم لم يقرءوا تلك الكتابة الرائعة السهلة التى تأسر بلاغتها النفسَ فى جمال وإبداع ورصانة ، تلك كتابةُ الصدر الأول العباسى لأمثال ابن المُقفَّع والجاحظ وعمرو بن مَسْعَدَة وسهل بن هارون والصُّولى وغيرهم .

قوة النقاد وتأثيرهم — وقد يكون من سوء الطالع أن نشأت طائفة من النُّقّاد فى هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهُزّ أعطافها إلا هذا الإسفاف . والنُّقّاد فى كل عصر أصحابُ القُوَّة والصَّوْلة فى دولة الأدب ، وهم المسيطرون على فنونه وأساليبه وطُرُقه ، وهم المتحكِّمون فى رجاله . والأدبُ يسمو ويسقُط بسموِّ هؤلاء فى إدراك معنى الجمال أو سقوطهم ، والأدباء محكومون حتما بهذه القوة الأدبية ، يتملّقونها ويجارونها وينزلون على أحكامها . وقليل من الأدباء مَن يكون له من قوةِ نفسه والاعتدادِ بمواهبه مايدفعه إلى الثورة على حكم هذه القوةِ الغشوم . ولا نعرف من هؤلاء فى هذا العصر إلا ابنَ خلدون ، الذى نَعَى على كتّاب عصره شغفَهم بالبديع ، وأخذ عليهم إبعادَهم فى التكلُّف .

الألفاظ قبل المعانى — وقد يكون من أسباب هذا الطغيان الصناعى قلّةُ ما لديهم من الأفكار والمعانى ، لأنّ مدَى اطّلاعهم كان محدودا ، ولأنّ دراسة العلوم الكونية كانت مقصورة على طائفة قليلة ، فأرادوا أن يُغطُّوا هذا القصور بستار من الزخرف الممقوت ، وبهذا أصبحت الألفاظ عمادَ الكتابة ومظهر جمالها الفنّى ، أما المعانى فتأتى تالية فى المرتبة ، فإذا أراد الكاتب أن يكتب رسالة كان اتجاهُه إلى اختيار الألفاظ المزوّقة والأسجاع الرنّانة ، وكان على المعانى أن تخضع أولًا لسيْطَرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وفى هذا بلا شك مناهضة لأصل الفِطرة ومعاندة لطبائع الأشياء .

إنّ الكلامَ لفى الفؤاد وإنما  جُعِل اللسانُ على الفؤاد دليلا

شاهد من كتابة ابن عبد الظاهر — ولا نتركك من غير أن نسوق إليك شاهداً تستطيع أن تدرك به ما قدمنا لك من سالف البيان .

من ذلك ما كتبه القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو من أعلام الكُتّاب فى هذا العصر فى رسالة قال :

" حرَسَ اللهُ نعمةَ مولاى ، ولا زال كَلِمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلِف ، ومنادَى جودِه لا يُرخَّم ، وأحمدُ عيشه لا ينصرف ، ولا عَدِمَ مُسْتَوْصِلُ الرزق من يراعته التى لا تقف الوصلَ ، ولا عدِمتْ نُحاة الجود من نواله كلَّ موزون ومعدود ، ومن فضله وظلِّه كلَّ مقصور وممدود ، وما خاطبت الأيامُ ملتَمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عَدُوَّه إلا بلام الجحود " .

دخول الصناعة فى لغة التأليف — على أن بعض الكتّاب وقد ملكت عليه الصناعةُ زِمامَ نفسه لم يَقْصِرْ هذا النوع من الكتابة على الرسائل الفنية ، بل تعدّاه إلى التأليف ، فهذا ابن حجّة الحموىّ فى كتابه خزانة الأدب يُرينا فى مواطن كثيرة كيف أفسدت عليه الصناعةُ تأليفَه ، حتى إنك حين تقرأ عباراته لتؤثر أن تتركها إلى ما هو خير لك وأجدى عليك من التردِّى فى تورية أو التدهور فى جناس . وهذا ابن عرب شاه ألَّف كتابا كاملا سمّاه " عجائب المقدور فى أخبار تيمور " كله سجع من النوع المرتبك المحشوّ بالبديع ، حتى لقد أصبح فهمه أمرا عسيرا . وقصارى القول أن هذا الضَّرْب من النثر كان حبيبا إلى النفوس جميعا ، فإنك تراه فى رسائل الأدباء ، وفتاوى الفقهاء ، وإجازات الطلّاب وأحكام القضاة ، وكلما أراد إنسان أن يتمسّح بالأدب أو ينتسب إلى أهله . وإذا كان العصرُ كلُّه عصرَ صناعة وتزويق فلِمَ لا يكون النثر كذلك ؟ ولِمَ ينفرد الشعر بهذه الزخارف دونه ؟ ولم لا يتّسع فيه المجالُ للنفس المصرية التى فُطِرتْ على اللعب بالكلام ؟ ولكنّ لكلِّ شىء حدا إذا تجاوزه فقَدَ قوتَه وسُلِبَ جمالَه .

على أنّ بعضَ النُّثَّار مع التزامهم البديع كانت لهم روحٌ خفيفة وفِطْرة سليمة تستر آثار التكلف ، وتُصْلِح ما أفسدته الصناعة .

مقدرة الكتّاب اللغوية — ولم يكن ينُقص الكُتّابَ فى هذا الأوان قوة فى اللغة وتمكّن من مفرداتها إلا أنّ لهم هفوات فى الاستعمال وصور بعض الأساليب ، وربما كان شىء من ذلك قليلا فى رسائلهم ، ولكنه كثير فى مؤلفاتهم .

وأشهر كتّاب هذا العصر :

## محيي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبدُ الظاهر المصرىّ وُلد سنة ٦٢٠ هـ وتُوفى سنة ٦٩٢ هـ وكان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع واتباع المحسِّنات البديعية ، وبخاصة التوريةُ ، وكان رئيس ديون الإنشاء فى زمن الملك الظاهر بيبرس ، فوضع كثيرا من اصطلاحات الإنشاء ونُظُم الديوان ، وبقيَتْ نُظُمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر ، وأصبحت مصرُ ولاية عثمانية . وله مؤلَّفات ورسائل سلطانية كثيرة ، فمن مؤلفاته فى التاريخ « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » وقد استعان بها المقريزى فى تأليف خِططه . ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يردّ على صاحب اليمن عند ما عَزّاه على موت ابنه ويُظْهِر تجلُّده على فقده ، وهى طويلة منها :

” ولنا والشكرُ لله صبرٌ جميل لا نأسَفُ معه على فائت ولا نأْسَى على مفقود ، وإذا عِلم الله سبحانَه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانةِ إلى عطائه عوّض كل يوم ما يقول المبشرُ به هذا مولىً مولود ، وليست الإبل بأغلظَ أكبادا ممن له قلب لا يبالِى بالصدمات كثرت أو قلّتْ ، ولا بالتباريح حَقُرتْ أو جلّتْ ، ولا بالأزمات إن هى توالتْ أو تولّتْ “ .

وله جملة كافية من النثر فى كتاب المنتخب فارجع إليها .

## شهاب الدين الحلبي

هو محمود بن سليمان وُلد بِدَمَشْق سـنة ٦٤٤ هـ . وتُوفى بها سـنة ٧١٩ هـ . وتلَقَّ العـلم على علماء الشام وتخرج فى علوم العربية على ابن مالك النحوىّ . وكان من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرا، ورحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك، وَوَلِيَ رياسة ديوان الإنشاء فى حكم الملك الناصر بن قلاوون . وله شعر كثير منثور فى كتب الأدب .

ومن نثره فى وصف البلاغة :

" البلاغة تسحرَ الألبابَ حتى تُخَيَّل العَرَضَ جوهرا ، وتُحِيـل الهواء المدْرَك بالسمع لانسجامه وعذُوبتـه فى الذوق نهرًا ، لكنّه سحر لم يجْنِ قتلَ المسلم المُتحرِّز فيتأوَّل فى حِلّه ، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلَة للمُسْتَوفِز فهـذا أنشوطة نشاطِ البليغ وحَلُّ عِقال عقله " .

وقوله فى وصف الكتابة :

" خَطُّهُ شَرَكُ العقول ، وفتنةُ تَشْـغَلُ المطمئنَ بملاحة المرئىِّ المكتوب عن فصاحة المَقُول ، ولو لم يكن البيانُ سحرا لما تجسَّدَتْ منه فى طِرسه هذه الدُّرَر ، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالًا لما انجلى ظلام النَّقْس عما يُهتَدَى به من الأوضاح والغُرر " .

## ابن فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمدُ بنُ يحيى بن فضل الله العمرى ، من سُلالة عمر بن الخطاب ، وُلد بدمَشْق سنة ٧٠٠ هـ وتُوُفى سنة ٧٤٨ هـ ، وارتحل إلى بلاد كثيرة فى طلب العـلم فتلقاه بدمشق والاسكندرية والقاهرة والحجاز . وكان مشهورا بالذكاء النادر ، والحافظة القوية ، وصار بعلمه فريدَ عصره ، لا يساويه

أحد فى أدبه وترسُّله وتأليفه ، وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية . وقد أودَعَ ذلك كلَّه كتابه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" . وهو كتاب ضخم فى بضعة وعشرين مجلدا ، يبحث فى الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعى وغيرها . ومن تآليفه "التعريف بالمصطلح الشريف" وهو مجموع رسائلَ فى فن إنشاء الدواوين وعلى نور مِشْكاته وضع القلقشندى كتابَهُ صبحَ الأعشى . ومن تآليفه كتاب "فواضل السَّمَر فى فضائل آل عمر" وله مؤلفات كثيرة فى فنون مختلفة .

ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صَيْدٍ جوارح أرسلها إليه :

"صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادِمة بجَناح ؟ ونُعْلِمُه أن مكاتبته المتقدمة الورودِ تضمّنت التذكارَ من الجوارح بما بقى من رسمه ، وجرت عادةُ صداقتنا الشريفة أن تحْسَبَ فى قَسْمِه . وقد جهّزنا له الآنَ منها ثلاثةَ طيور لا يبعد عليها مَطَار ، ولا يُوقد للقِرَى فى غير حماليقها جذوة نار ، ولا تؤُم طيرا إلا وترُشّ الأرضَ بدمه فلا يَلْحَق لها بغبار ، وهى طيور كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه ، وسلَب ما تحلَّى به من رياش الريش ثم تزيَّا بأحسنِه" .

## القلقشندى

هو أبو العباس شهاب الدين أحمدُ بن علىّ بن أحمد القلقشندىّ المصرىّ . وُلد بقلقشندة ( قرية بجوار قليوب ) فنسب إليها . تلقَّ العلمَ بالأزهر ، واشتهر بين أقرانه بحدّة الذهن وسرعة الفهم ، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب فى عصره ، وبرع فى الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها .

تولى ديوانَ الإنشاء بمصر فى عهد المماليك سنة ٧٩١هـ . وله مؤلَّفات كثيرة أشهرها "صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء" وهو كتاب ضخم جَمُّ الفائدة ، يستفيد منه كثيرا كلُّ من يُعْنَى بدراسة تاريخ الأدب فى هذا العصر . ومن مؤلفاته "نهاية الأَرب فى معرفة قبائل العرب" وكتاب "قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان" وقد ألف هذا الكتاب لأبى المعالى محمد الجُهَنِى البارزىّ صاحب دواوين الإنشاء لفضله عليه ، وذكر فيه قبائل العرب التى كانت فى عصره .

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس فى وصف موقعة وهو :

"وتحرّكْنا من الديار المصرية فى جيوش لايأخذها حصر ، ولا يلحَقُها هَصْر ولا يُظَنُّ بها على كثرة الأعداد كسر . ولم نزل نحُثُّ السير ، ونُسْرِع الحركةَ للقاء العدو إسراعَ الطير ، حتى وافينا دِمَشْقَ المحروسةَ فنزلنا بظاهرها ، مستمطرين النصرَ فى أوائل حركتنا وآخرها ، وانضمّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها وتُرْكُمانها الزائدةِ على العدّ ما لاينقطع له مَدَد ، ولايدخل تحت حصر ولاعدد" .

ومن قوله فى خطبة كتابه صبح الأعشى :

"وكانت الديار المصرية ، والمملكة اليوسفية ، أعزّ الله حِماها وضاعَفَ عُلاها ، قد تَعَلَّقَتْ من الثريا بأقراطها ، ورجحَتْ سائرَ الأقاليم بقيراطها ، بَشَّرَ بفتحها الصادقُ الأمين فكانتْ أعظمَ بُشرى ، وأخبر سيدُ المرسلين أن لأهلها نسبا وصِهرا" .

## التأليف

كثرة المؤلَّفات — إذا كان لهذا العصر أن يزدهىَ بشىء من مظاهر الحياة الأدبية فإن التأليف أولُ مايحق له أن يفخَر به ، فقد كثُرت المؤلَّفات فيه كثرة مدهشة ، وانصبت العلماء فيه على التدوين انصبابا صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤونها ، وتوجهتْ نفوسهم إلى سدّ كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلَّف أو مؤلَّفات ، وتنافسوا فى الإجادة وتسابقوا فى كثرة الإنتاج ، ووصل كثير منهم إلى مدَى الاجتهاد أو كاد ، وتناولوا كلَّ شىء بأقلامهم حتى التافهَ الحقير من الشؤون وابتكر بعضهم مباحثَ وعلوما لم يكن للناس عهد بها ، ولا غَرْوَ فقد كانت مصر والشام فى هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم ، وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرُها من البلاد المصرية ، ثم دِمَشْق وحلب وغيرهما من البلاد الشامية تموج بالعلماء والطلاّب مَوْجًا .

أسباب نهضة التأليف — وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج فى هذا العصر ترجع إلى الأسباب الآتية :

( ١ ) عند ما سقطتْ بغداد وأحرق التتار كثيرا من الكتب ، ودمّروا كلَّ شىء تدميرا ، تملّك العلمــاءَ شعور دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذى عبِثت به كوارثُ الغزو ، وتجديدِ ذلك المجد الإسلامى الذى بُنى فى دهور ، فأخذوا يبذُلون الجهدَ فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام ، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة والدين والأدب وغيرها .

( ٢ ) كان لسلاطين المماليك ميل إلى العلم والعلماء ، وإغداقٌ دفعهم إلى التأليف وحفَزَهم إلى الإحسان فيه ، وكان للسلاطين والأمراء والوزراء وَلُوع باقتناء الكتب النادرة ، وإنشاء الخزانات الجامعة لأنواع شتى من المؤلَّفات ،

حتى إن بعض الكتب كان يُؤلَّف خاصّة لهم ، وقد كانوا يختارون لخزائنهم خيرَ ما أنتجه المؤلِّفون ، فدفع ذلك المؤلِّفين إلى الإجادة والتنافس . ولقد أظهر لنا ابنُ نباتة هـذا الشعورَ جليًا حينما أمر السلطانُ حَسَنٌ بوضع ديوان شعره فى خزانته إذ يقول :

أَمَرْتَ شِعْرِى ياخيرَ الملوك على أشعارِ قومٍ فـلى أمرٌ وديوان

(٣) كان التنافسُ بين علماء مصر والشام بالغا حدَّه ، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمرا ، وكان من العقائد الراسخة أنّ العالمَ أو الأديب الذى لا يُبْرِز أثرا لا يصحّ أن يُدْعَى عالما أو أديبا .

الابتكار والتقليد فيه — ويرى كثير ممن كتب فى هذا العصر أن التأليف فيه ليس به أثر للابتكار ، وإنما هو جمع من أشتات الكتب ، وتقليد لا أثر للاجتهاد فيه ، وهـذا قول صحيح سائغ فى كثير من الكتب ، غير أن هناك كتبا تمتاز على كثير مما أُلِّف فيما سبق من العصور ، وإلا فمَنْ يستطع أن يقول إن ابن خلدون فى مقدمته كان مقلدا ؟ ومن يجرُؤ أن يدَّعى أن المقريزى فى خِططه لم يكن إلا نسّاخا ؟ ومن يظن أن ابن خلكان فى وفياته لم يكن محققا بعيدَ المدى ؟ وهل يشكّ إنسان فى اجتهاد ابن مالك والشاطبىّ وابن هشام المصرىّ فى علوم اللغة؟ وهل لايحقّ لهذا العصر أن يفخَر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب؟ ولو أردنا أن نحصى الكتب الجليلة الشأن فى هذا العصر لوجدنا عددا غير قليل .

المتون والشروح والحواشى — هذا ، وقد جرتْ عادة كثير من المؤلفين فى هذا العصر ، وبخاصة مؤلفو العلوم العربية والدينية ، أن يضعوا موجزًا فى العلم يسمونه متنا ، ثم يفسّرون مجملَه فى شىء من الإسهاب ويسمون هذا التفسير شرحا ، وأشهر هذه المتون فى النحو الألفية لابن مالك ، وفى القراءات الشاطبيةُ للشاطبىّ ،

وفى الفقه الحنفى متن الكنز للنَّسَفى ، وقد جاء المتأخرون فوضعوا على هذه الشروح شروحا وتقييدات سميت بالحواشى .

وهـذه النَّزعةُ ربما كانت سببا فى خفاء مسائل العلم على المبتدئين فإن المتونَ كانت تُوضَع على نمَط من الإيجاز والإبعاد فى الاختصار يصعب فهمُه .

ولمـاذا لا يوضع العلم أولَ وَهلة أمام الطالب فى أسلوب واضح مفهوم سائغ ؟ أمّا الحواشى فمتشعبة المباحث ، كثيرة الاستطراد والانتقال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى .

وقد كتب ابن خلدون فى هـذا العصر فصولا فى التعليم كان أجدرَ بمعلمى الناشئين أن يتفهَّموها ويعملوا بها .

## الـكتب الجامعة

يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة . والذى مهَّد لإبرازها شـدةُ صبر العلماء وجَلَدِهم فى هذا العصر ، وتعدّدُ نواحيهم العلمية . فكثيراً ما كنت تجد بينهم مَن جمع بين الفقه والحديث والرياضيات والأدب والشعر والتاريخ . ثم إن نازعة الجمع والاختصار فى هذا الزمان كان لها شأن كبير فى إظهار هذه الكتب ، وقد يكون ظهورها أثراً للاعتداد بالنفس والثقة بهـا ، وسبيلا إلى التباهى بعلوّ الكعب والإحاطة بكثير من الفنون والعلوم ، أو إجابة لرغبة سلطان ، بعد أن علمنا ما كان لسلاطين هذه الدولة من الميل الشديد لنشر العلوم واقتناء الكتب .

أشهر مؤلفى الـكتب الجامعة — وأشهر مؤلفى هذه الكتب شهابُ الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَرى ، وكتابه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار"

سبق التعريفُ به . وشهـابُ الدين أحمـد بن على القلقشندى . وكتابه "صبح الأعشى" ، وقد ذكرنا عنه كلمة آنفا . ثم أبو العباس شهاب الدين أحمد النويرىّ أحدُ رجال الملك الناصر بن قلاوون . واشتهر بكتابه "نهاية الأرَب فى فنون الأدب" . وهو كتاب ضخم يقع فى أكثر من ثلاثين مجلدا ، وبه مباحث واسعة فى الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والطب والسياسة والتاريخ والأدب . وبدار الكتب الملكية نسخة كاملة من هذا الكتاب . تُوفى سنة ٧٣٣ ﻫ .

## كتب الدين والعربية

وأكثر مؤلّفات هذا العصر فى الدين واللغة والعلوم العربية ، وَيمتاز التأليف فى علوم العربية بقوّته وسَعَة مداه ، وبروز التفكير فيه .

وأشهر المؤلفين فى علوم الدين :

## ( ١ ) ابن تيمية

هو أحمد بن عبد الحليم ، وُلد بحَرّانَ سـنة ٦٦١ ﻫ ، وقدِم مع والده وأهله إلى دِمَشْق وهو صغير ، وقد خرجوا من حَرّان مهاجرين فِرارا من التتار ، فساروا بالليل يحملون كتبهم وأثاثهم على عجلة لعدم وجود الدواب ، فقدِموا دِمَشْق فى أثناء سنة ٦٦٧ ﻫ ، ونشأ بهـا ابن تيمية نشأة صالحة ، فى أسرة ذاتِ تمسّك بالدين ، وكان أبوه عالمـا فقيها جليل الصفات ، فورث عنـه كثيراً من المواهب الخلقية والنفسية ، ثم تلقى العـلمَ على عدد جَمّ من جِلّة العلماء ، وبرع فى علوم العربية والفقه الحنبلى ، وأقبل على التفسير إقبالا لحاز قصَب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغيرها من علوم الشريعة وهو ابن بِضْع عَشْرَةَ سنة ، فبَهر علماء وقتة بشدّة ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه .

نشأ فى تصوف وعفاف وتزهد واقتصاد فى الملبس والمأكل ، مشغوفا بالعلم والدّرس ، لا تكاد نفسُه تشبع من العلم ، أو ترْوَى من الاطلاع ، أو تكلُّ من البحث . وقلَّ أن يدخل فى مبحث من المباحث إلا استوعبه استقصاء واستنبط منه ماغاب عن حُذَّاق العلماء .

وقام بوظائف التدريس وعُمُرُه إحدى وعشرون سنة ، فطار صيته فى الآفاق وانتهت إليه الإمامة فى العلم والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم . وكان شديدا على المبتدعين ، حربا على أهل الأهواء ، لا يَخْشَى فى الحق لومةَ لائم ولا يهاب الموتَ فى سبيله . حتى لقد سُمِّيَ محيي السنة وآخرَ المجتهدين وهو لم يتجاوز بعدُ الثلاثين من عمره . وقد جَرّت عليه شِدَّتُه عداوةَ كثير من معاصريه . وكان قوامُ مباحثه التوفيق بين المعقول والمنقول ، وقد ألّف فى هذا الصدد كثيرا من الكتب ، وكان المعروف أنّ العالمَ لا يُبْرِز إلا فى علم أو علمين ،أما ابنُ تيمية فقد بلغ الغاية فى كثير من العلوم .

يقول بعض عارفيه : " كان إذا سئل فى فنّ من الفنون ظَنَّ السامعُ أنه لايعرف غيرَ هذا الفن ثم حكم أنّ أحدا لا يعرفه مثلَه " .

وقد أثار ما ناله من الشهرة كامنَ الحقد فى نفوس حُسّاده ، فأخذوا عليه كلاما قاله فى أحد دروسه عدّوه ابتداعا فى الدين ، فجادلهم وجادلوه ، واستعانوا عليه بالسلطان ، وسَعَوْا فى نقله إلى الديار المصرية ، فنُقِل وأودع السجنَ ثم أفرج عنه . وما زال أعداؤه يكيدون له حتى اعتُقِل مراتٍ ، وكان آخرُ اعتقاله بمرسوم جاء من قِبَل السلطان سنة ٧٢٦ ﻫ بجعله فى قلعة دِمَشق ، فأخليت له قاعة حسنة، وأقبل فى هذه المرة على العبادة والتلاوة والتأليف، وكتب فى المسائل التى حُبِس من أجلها مجلداتٍ عدّة . فلما اشتهر ذلك مُنِع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا ورقا ولا قلما ، فكتب

بعـد ذلك بفحم على حيطان سجنه يقول : " إنّ إخراجَ الكتب من عندى من أعظم النقم " ولم يعِشْ بعد ذلك طويلا ، فمات فى العشرين من ذى القَعْدة سنة ٧٢٨ هـ . وقد ازدحم الناس فى جنازته ازدحاما شديدا بين رجال ونساء ، وبالغ المؤرخون فى عدد من شيّعوه فأوصلوه إلى مائتى ألف ، وأخذ الناس يتنافسون فى التبرُّك بآثاره ، ويُظهرون ما خالط نفوسهم من الحزن على فقده .

وبلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد ، أكثرها فى التفسير والفقه والأصول والردّ على الفلاسفة والمبتدعة ، وأشهر هذه الكتب "مُنْتَقى الأخبار" و"فتاوى ابن تيمية" و " الايمـان " و " الجمع بين العقل والنقل " و " الواسطة بين الحق والخلق " .

## ( ٢ ) القسطلانى

هو أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القَسطَلّانىّ القاهرىّ الشافعىّ ، ويلقب بشهاب الدين ، ويُكْنَى بأبى العباس ، من أشهر المحدِّثين والمؤرخين .

وُلد فى الثـانى والعشرين من ذى القَعْدة سـنة ٨٥١ هـ بالقاهرة ، وتعـلّم بالأزهر ، وحفظ كتبا عدّة منها الشاطبية ، وتلقّى العلم على جماعة من كبار العلماء ، منهم الشيخ خالد الأزهرى والحافظ السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، فبرع فى العلوم الدينية ولا سيما الحديث والسيرة النبوية .

وألّف فى الحديث كتابَ " إرشاد السارى إلى شرح البخارى " وهو المشهور بشرح القسطَلّانى فى عشرة مجلدات . ومن مؤلفاته فى التاريخ " المواهب اللدنية فى المِنَح المحمدية " وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير فى بابه ، رتّبه على عشرة مقاصد فى نسب النبى وولادته ورضاعه ومغازيه ، وفيه فصول فى أسمـائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخَدَمه ومعجزاته وخصائصه . وقد طُبِع فى ثمانية أجزاء وتُرْجِم إلى اللغة التركية ، وله شرح على الشاطبية والبردة ، وصَنّف " مسالك الحنفا فى الصلاة على المصطفى " وكتاب " لطائف الإشارات فى القراءات " الأربع عشرة .

وكان يصحَب الشيخَ إبراهيم المتبولىّ ، ويجلس للوعظ بالجامع العتيق . تُوُفِّى يومَ الخميس مُسْتَهَلَّ المحرم سنة ٩٢٣ هـ ، وتعذَّر الخروجُ به إلى الصحراء ذلك اليوم ، لأنه اليومُ الذى دخل فيه السلطان سليم مصر . ودُفن بمدرسة الإمام العَيْنِي بقرب الجامع الأزهر .

ومن أشهر المؤلِّفين فى علوم العربية :

## ( ١ ) ابن هشام

هو جمال الدين عبدالله بن هِشام المصرى ، الإمامُ المشهور ، ولد سنة ٧٠٨ هـ كان من كبار علماء العربية ، وتخرج عليه خَلْق كثير ، واشتهر بالتحقيق وسَعَة الاطلاع ووضوح البيان ، والقدرة على تعليل الأحكام ، وكان أديبا عالما بأسرار الكلام العربى ، ملأَ صِيته العالمَ الإسلامى . قال ابن خلدون فى مقدمته :

" ما زلنا ونحن بالمغرب نسمَع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه " .

وله تصانيفُ فى النحو أشهرها "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب" و" قَطْر الندى وبلّ الصدَى " و" شُذُور الذهب " تُوفى سنة ٧٦١ هـ ، ودُفن فى خارج باب النصر ، ورثاه ابن نباته بقوله :

سقى ابنَ هشام فى الثرَى نَوْءُ رحمة ... يجُرُّ على مثواه ثوبَ غمـــام

سأروى له فى سيرة المدح مُسْنَداً ... فما زلتُ أروى سيرةَ ابن هشام

## ( ٢ ) ابن مالك

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد ، كان إمام النحاة وحافظَ اللغة فى عصره ، ولد سنة ٦٠٠ هـ ، ونشأ بجَيَّان ، وهى بلدة بالأندلس ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل فى طلب العلم إلى دِمَشْق ، فأخذ عن جماعة من علمائها ، وتصدر لتعليم العربية فى حلب ، وبلغَ الغايةَ فى علوم العربية ، وألَمَّ بأشعار العرب ، وكان إماما فى القراءات ، واسع الاطلاع فى الحديث ، وأقام بدمشق مدة يصنِّف ويدرِّس بالجامع والتربة العادليـة ، وقد حفِظ التاريخُ كتابا كتبه إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب فيه بَسْطَةَ كفٍّ يستعين بها على مطالب الحياة وهو :

" الفقيرُ إلى رحمة ربه محمدُ بن مالك يقبِّل الأرض ، ويُنْهى إلى السلطان أيَّد الله جنوده ، وأبَّد سعوده ، أنه أعْرَفُ أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب ، وأملُه أن يُعينَه نفوذٌ من سيِّد السلاطين ، ومُبيد الشياطين ، خلّد الله مُلْكه ، وجعل المشارق والمغارب مِلْكه ، على ماهو بصدده من إفادة المستفيدين ، وهداية المسترشدين ، بصدقة تكفيه همّ عياله ، وتُعينه على التسبُّب فى صلاح حاله ، فقد كان فى الدولة الناصرية عناية يتيسّر بها الكفاية ، مع أن هذه الدولةَ من الدولة الظاهرية كجدول من البحر المحيط ، والخلاصةِ من الوسيط والبسيط ، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصا وعموما ، وكشف بها عن الناس أجمعين غموما ، ولَمَّ بها من شَعَثِ الدين ما لم يكن ملموما ، فمن العجائب كونُ المملوك عن خيراتها غائبـا محروما ، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زمامها ، لا برِحَتْ أنوارُها زاهرة ، وسيوفُ أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأياديها مبذولة موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة ، بمحمد وآله " .

وله أكثرُ من ثلاثين مُصَنَّفا فى النحو والصرف والقراءات واللغة ، وأشهر مُصَنَّفاته " التسهيل " و " الكافية الشافية " و " الألفية " ، وكان كريمَ الخُلق حَسَنَ السَّمْت كاملَ الوقار ، تُوفى سنة ٦٧٢ هـ .

## (٣) السيوطى

هو جلال الدين السيوطى من أعلام أخريات هـذا العصر ، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية ، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلفات . ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ ، وينتهى نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسى ، ويمتزج أصله بالدم التركىّ من قِبَل أمه . مات والده وسنُّه خمس سنين وسبعة أشهر، وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التحريم ، وأتم حفظَه قبل أن يبلُغ الثامنةَ ، ثم أخذ فى تلق العلم على خير أعلامه بالقاهرة ، وانكبَّ على دراسة العلوم بأنواعها ، حتى نبغ فيها ، وأصبح مدرِّسا تَهرَع إليه الطُّلَّاب ، ثم عُزِل من التدريس قبل موته بأربع سنين . وأربت مؤلفاته على الخمسمائة ، وأكثرُ هذه رسائلُ صغيرة الحجم محدودة الموضوعات ، وخيرُ مؤلفاته "الإتقان فى علوم القرءان" و"المزْهِر" فى اللغة، "والأشباه والنظائر" فى النحو "وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقـاهرة" فى التاريخ . وقد كتب ترجمة لنفسه فى هـذا الكتاب تَدُلُّ على كثيرٍ من الاعتداد بالنفس والصراحة ، جاء فيها :

" ورُزِقْتُ التبحُّرَ فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبُلَغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده أن الذى وصلتُ إليه من هذه العلوم سوى الفقه ، والنُّقُولَ التى اطَّلَعْتُ عليها فيها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونَهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسعُ نظراً وأطولُ باعا .

ودونَ هذه السبعةِ فى المعرفة أصولُ الفقه والجدلُ والتصريفُ، ودونها الانشاءُ والتَّرَسُّلُ والفرائضُ ، ودونها القراءاتُ ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطبُّ ،

وأما علمُ الحساب فهو أعسرُ شيء علَيَّ ، وأبعده عن ذهنى ، و إذا نظرت فيه مسألةً تتعلق به ، فكأنما أحاول جبلا أحمله .

وقد كَمَلَتْ عندى الآن آلاتُ الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول تحدثا بنعمة الله تعالى لا لأفْخَرَ ، وأىُّ شىء فى الدنيا حتى يُطْلَبَ تحصيلُه بالفخر ، وقد أزِف الرحيل ، وبدا المشيب ، وذهب أطيبُ العمر ؟

ولو شئتُ أن أكتبَ فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها ، وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقَدَرْتُ على ذلك من فضل الله ، لا بحولى ولا قوتى " .

( توفى سنة ٩١١ هـ ) .

## ( ٤ ) ابن منظور

هو جمال الدين بن مكَرَّم الإفريقى ، ولد سنة ٦٣٠ هـ ، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها ، وخدم بديوان الإنشاء بمصر ، وألف مئات من المجلدات ، أشهرها "لسان العرب" وهو معجم واسع ، وموسوعة جامعة فى اللغة والتفسير والحديث والأدب ، جمع فيه بين تهذيب الأزهرى ، ومعجم ابن سيده ، والصحاح ، و جَمْهَرة ابن دُرَيْد ، ونهاية ابن الأثير ، طُبع فى مصر سنة ١٣٠٠ هـ فى عشرين مجلدا .
وكان ابن مكَرَّم مشغوفا باختصار الكتب ، فاختصر مفردات ابن البَيْطَار ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للسَّمْعانى . وكان إلى نواحيه العلمية شاعرا مُقِلّا . فمن قوله :

بالله إن جُزْتَ بوادِى الأَراكْ ... وَقبَّلَتْ أغصانُه الخُضْرُ فاكْ
ابعثْ إلى المملوك من بعضِه ... فإننى واللهِ مالى سِواكْ

( توفى سنة ٧١١ هـ ) .

## ( ٥ ) الفيروزابادى

هو مجد الدين محمد الفيروزابادى ، وُلد بالقرب من شيراز سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قوىّ الحفظ متمكّنا فى اللغة والحديث والتفسير ، وتبلغ مصنّفاتُه نحو الأربعين أو تزيد ، أشهرها " القاموس المحيط " وهو مختصرُ كتابٍ ألّفه سماه " اللامع المُعْلَم العُجاب ، الجامعَ بين المحْكَم والعُباب " والقاموسُ على كثرة تداوله غايةٌ فى الإيجاز إلى الغموض أحيانا ، لذا شرحه بعض علماء العربية كالقرافى والزَّبيدى ويمتاز القاموسُ بضبط الأعلام .

( تُوفى سنة ٨١٧ هـ ) .

## كتب التاريخ

كثرة كتب التاريخ والتراجم — ويمتاز هذا العصر بكثرة ماألف فيه من كتب التاريخ ، بين موجَزة ومطوّلة ، وربما كان الدافعُ إلى ذلك دينيا قوميا بعد فَقْدِ كثيرٍ من كتب التاريخ عند سقوط بغداد ، وتغلّبِ الفَرَنْجة على بعض بلاد الأندلس ، وربما كان لميل سلاطين المماليك إلى تدوين الوقائع وسِيَر الرجال شأنٌ فى كثرة ماظهر من كتب التاريخ .

وكَثُرتْ فى هذا العهد المعجمات التاريخية ، التى جُمعت فيها التراجم من أشتات الكتب ، أو اعتُمِدَ فيها على الرواية أو المعاصرة ورُتِّبتْ على حروف المعجم .

وظهر فى هذا العصر أيضا الاهتمام بكتابة سِيَر السلاطين والأمراء والوزراء ، كما شاع أن يكتبَ العلماء ترجمة حياتهم بأنفسهم ، وأولُ مَن نعلم ممن كتبوا

ترجمة حياتهم بأنفسهم في إسهاب وتفصيل وبيان للحوادث ، أسامةُ بنُ منقِذ المتوفَّى سنة ٥٨٤ هـ . قال السيوطي في حسن المحاضرة عند ما شرع في كتابة ترجمة حياته :

"وإنما ذكرتُ ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمُحْدَثين فقلَّ أن ألَّفَ واحدٌ منهم تاريخا إلا ذكر ترجمتَه فيه ، وممن وقع له ذلك الإمامُ عبد الغافر الفارسيّ في تاريخ نيسابور ، وياقوتُ الحمويّ في مُعْجَم الأدباء ، تُوفي سنة ٦٢٦ هـ . ولسانُ الدين بن الخطيب في تاريخ غرْناطة ، تُوفي سنة ٧٧٦ هـ . والحافظُ تقيّ الدين الفارسيّ في تاريخ مكة ، والحافظ بن حجر في قضاة مصر ، توفي سنة ٨٥٢ هـ . وأبو شامة في الروضتين ، توفي سنة ٦٦٥ هـ" .

وظهر في هذا العصر عِلْمُ فلسفة التاريخ بظهور ابن خلدون . وسنتكلم في ذلك عند ذكر ترجمته .

وجَرَى مؤرخو هذا العصر كما جَرَى سَلَفُهم على مَزْج التاريخ بالأدب ، وهذا وإن كان عيبا فنيّا في التأليف ، كان له فضل مذكور على مؤرخي الأدب في أيامنا هذه ، فلولا هذه النزعة في المؤرخين لفقدنا كثيرا من الحقائق الأدبية في هذه العصور .

وقد عُنِيَ أكثرُ مؤرخي هذا العصر بالدقة جُهْدَ المستطاع وتحري الصواب ، ومما يؤخذ عليهم ، وهذا عيب لم ينفردوا به ، تحكيمُ الوجدان والمبالغةُ في المديح والإطراء أو التحقير والازدراء .

وقد ترى في بعض هذه الكتب أخبارا لا يقبلها العقل السليم ، ينقلونها على عَلاتها من غير نقد أو تمحيص ، وقد أخذ ابن خلدون على المؤرخين في مقدمته مَآخذ من هذا النوع .

وأغفل أكثر المؤرخين تحليلَ الحوادث و بيانَ عللها وأسبابها ، واستنباط ما نشأ عنها من النتائج كما أهملوا جانبا عظيم الشأن فى كتب تراجمهم ، وهو نشأةُ العظماء الأولى ، ووصفُ بِيئتهم التى درجوا منها ، وما كان لها من الأثر فى تكوين بطولتهم ، كما تركوا وصف الحياة الاجتماعية والمنزلية ، ولم يتجردوا لتفصيل عادات الناس وأحوالهم المعيشية .

وأشهر المؤرخين فى هذا العصر :

## ( ١ ) ابن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمدُ بن خِلِّكَان ، ولد سنة ٦٠٨ هـ . فى إرْبِل ونشأ من أُسرة عريقة المجد تنتمى إلى البرامكة ، وكان أبوه مدرسا بالمدرسة المُظَفَّرِيَّة بإربل ، فأخذ عليه مبادئ العلم ، ثم رحل فى طلب العلم إلى حلب ودمشق ، وفى سنة ٦٣٣ هـ . ولّاه الظاهرُ بيبرس قضاءَ الشام ، ثم عزله عنها ، فرحل ابن خلكان إلى القاهرة ، وعُيِّن هناك مدرسا بالمدرسة الفخرية ، وفى أثناء إقامته بالقاهرة أتمّ القسم الأول من معجمه التاريخى ، ثم عاد إلى منصبه بالشام بعد سبع سنين من خلعه ، فوفَد عليه الشعراء يهنئونه . ومن ذلك قول سعد الدين الفارقى :

أذقتَ الشامَ سَبْعَ سنين جَدْبًا ... غداة هجرتَه هَجْرًا جميلا
فلما زرتَه من أرض مصرٍ ... مددتَ عليه من كَفَّيْكَ نِيلا

ولم يُقِمِ ابن خلكان فى منصبه هذا إلا فترة قليلة ، لأنه اتُّهم بمعاضدة نائب دِمَشْق على الخروج على السلطان فعُزِل ، وعاش بقية حياته مدرسا بالمدرسة الأمينيّة وكانت وفاته سنة ٦٨١ هـ .

واشتهر بكتابه "وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" وهو معجم تاريخى لم يذكر فيه من تراجم الصحابة والتابعين إلا طائفة قليلة ، ولم يترجم فيه للخلفاء ، وإنما قصره على تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء وكل من له شهرة بين الناس . وقد بذل عناية فائقة فى تحقيق نسب كلّ واحد ، وتحرّى سنة ولادته ووفاته وضبط الأعلام ضبطا دقيقا .

والكتاب مظهرٌ من مظاهر العناية والتدقيق العلمى . وقد امتاز بتحرى الصحة والابتعاد عن كثير من الخرافات والفحش ، وليس بين كتب التاريخ فى هذا العصر ما يضاهيه فى شرف منزلته وعظم فائدته ، وقد نال شهرة فى الشرق والغرب ، وهو سهل العبارة ، جَلِىُّ الأسلوب ، بلغ الغاية فى الدقة والتمحيص ، وبين تضاعيفه مباحثُ جليلة الشأن فى التاريخ والأدب .

والاهتمام بكتابة التراجم وُجِد قبل هذا العصر بزمن طويل ، فقد جمع الخطيبُ صاحبُ تاريخ بغداد ، وابنُ عساكر صاحب تاريخ دمشق آلافاً من التراجم لمشهورى الرجال فى كل ناحية من نواحى العلم والأدب والصناعة .

وقد تُرجم "وفيات الأعيان" إلى الفارسية سنة ٨٩٥ هـ ، وترجمه دِى سِلان إلى الإنجليزية ، ونُشِر فى لَندن فى أربعة مجلّدات سنة ١٨٤٢ — سنة ١٨٧١ م ، وأشهر ذيل له "فَوَات الوفيات" لمحمد بن شاكر الكتبى .

## ( ٢ ) ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون ، ويتصل نسبه بوائل من عرب اليمن ، رحَل خلدون جده التاسع إلى الاندلس فى القرن الثالث الهجرى ، وسكن إشبِيلية ، ولما تغلّب الإسبانيون عليها انتقل بأسرته إلى تونس ، وبها ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ ، ونشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب والمروءة ، فتعلم وتأدب على أبيه وكبار رجال المغرب ، وأتقن العلوم المعروفة فى عصره حتى صار فريدَ زمانه .

وقد رغِب من صغره فى خدمة الملوك ، فولِى الكتابة لبعض ملوك الدولة الحَفْصِيَّة بتُونس ، ثم لملوك بنى الأحمر بالأندلس ، ثم ارتقى منصِب الوزارة عند حاكم بِجَايَةَ بالمغرب الأوسط ، ولما ظهر نبوغه كثُر حساده فسَعوا به إلى الحاكم ، فتخلّى عن خدمة السلاطين ، وانقطع للتأليف أربعة أعوام أقام فيها بين قبائل العرب على حدود الصحراء . وألف فى أثنائها تاريخَه ومقدمتَه المشهورة ، ثم وفَد على مصر سنة ٧٨٤ هـ فى زمن السلطان برقوق ، ودرّس بالأزهر ، وولّاه السلطانُ قضاءَ المالكية ، فاستقدم أسرتَه من تُونُس فغرقوا جميعا فى أثناء الطريق ، فحَزِن عليهم حزنا شديدا منعه من القيام بأعباء منصِب القضاء ، فاستعفى وسافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، ثم عاد إلى القاهرة ، واعتزل فى ضَيْعة له بالفيوم ، ثم عاد ثانية إلى القضاء ثم استعفى ، وهكذا إلى أن تولّى القضاء ستَ مرات . وقد أسَرَه تيمورلنك فى بعض غزواته بالشام ، فنال ابن خلدون منزلة عنده ، ثم طلب إليه أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليُحْضِر مؤلَّفه فى التاريخ ، فذهب إليها ولم يعد .

ويُعَدّ ابن خلدون أولَ من استنبط فلسفة التاريخ ، وقد فصَّلها فى مقدمة تاريخه ، وأقام الأدلّة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة ، وتاريخُه يسمى "العِبَر وديوان المبتدأ والخبر" وهو فى سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلد واحد منها هو مقدمة هذا التاريخ ، التى تعد مَفْخَرة فى عالَم التأليف العربى ، لأنها أول بحث جامع فى علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ ، وقد بحث فيها فى أحوال العمران وأسبابه ، وفى منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها ، ثم فى آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة ، وما يعتريها من تقدم أو تدهور ، ثم فى العلوم وأنواعها ، والكتب ومعايبها ، وطرائق التعليم وكيف تكون ، كلُّ ذلك فى أسلوب سهل شائق دقيق ، واستنباط منطق صحيح .

ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمّنه من المقدمات الفلسفية فى صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة ، وهو أوسع تاريخ

للبربر ودولهم ولعرب الجاهلية ، ويدلُّنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة فى القول ، والسداد فى الرأى ، والإنصاف فى الحكم .

وقد ساد فى عصر ابن خلدون التزامُ السجع فى الكتابة والمغالاةُ فى المحسنات البديعية فخالف ذلك ، ورجَع بالإنشاء إلى عهده الأول ، فرغِب عن السجع وزهِد فى البديع ، وجعل اللفظ خادما للمعنى . وقد أشار إلى ذلك فقال :

"وكان أكثرها (الرسائل) يَصْدُرُ عنّى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة بالأسجاع ، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرَبا عند مَن هم أهل هذه الصناعة ، ثم أخذت نفسى بالشعر ، فانثالت عَلَىَّ منه بحور توسطتْ بين الإجادة والقصور" .

فأنتَ ترى أنه ترك السجع ومال إلى الكتابة المرسَلَة جريا على الفطرة والسليقة ، وترى أنه حكم على شعره بأنه وسط بين الجودة والتقصير ، ومن شعره قوله :

أَبَى الطيفُ أن يعتاد إلا توَهما ... فمَن لى بأن ألقَ الخيالَ المُسَلِّما
وإنى ليدعونى السُّلُوُّ تَعَلُّلاً ... وتنهانىَ الأشجانُ أن أتقَدَّما
وذو الشوق يعتاد الربوعَ دوارسًا ... ويعرِف آثار الديارِ تَوَهُّما

(توفى سنة ٨٠٨ هـ)

## (٣) المقريزى

هو ابو العباس تقىُّ الدين بنُ عَلَاء الدين الحسينىّ ، أصله من بعلبك ، ونسِب إلى حارة فيها تعرف بحارة المقارزة ، وكان جده من كبار المحدِّثين ببعلبك ، وانتقل أبوه إلى القاهرة فوُلد له فيها تقىُّ الدين سنة ٧٦٦ هـ ، فنشأ فى تلقى العلم ودراسة الحديث على جده لأمه شمس الدين بن الصائغ وغيره ، وسمع

الحديث فى مكة من كثيرين ، وكان حنفى المذهب فى أول أمره ، فلما بلغ العشرين تحوّل إلى مذهب الشافعى .

ولما ظهر فضلُه وعلمه وأدبه تقلّد كثيرا من المناصب الدينية والسياسية ؛ كالخطابة بجامع عمرو والسلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمؤيَّدية ، وتولى النيابة فى الحكم وكتابة التوقيع والحِسْبة ، ورَحَل إلى مكة والشام ، وتقلّد مناصب بدَمَشْق ، واتصل بالظاهر برقوق ، وصَحِب يَشْبَكَ الدَّويدار وأصاب منه ثروة وجاها ، ثم أقام بالقاهرة واشتغل بالتأليف فى التاريخ . وله فيه مؤلفات جليلة هى مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر .

ومن أشهر مؤلفاته "المواعظُ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" وهو كتاب جامع جمُّ الفائدة ، جعل فيه وصف الخطط والمبانى والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة فى تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالَى عليها من حوادث ، وله فى أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدَى ، وبالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا توجد فى سواه ، ولكثرة فوائده تُرْجِم إلى لغات عدَّة ، ونَسَج على منواله على مبارك باشا فى كتابه المعروف بالخطط التوفيقية .

ثم كتابه المسمَّى "السلوك لمعرفة دول الملوك" وهو يشتمل على تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، ومن مؤلفاته "الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية" يبتدئ من مقتَل عثمانَ رضى الله عنه ، وينتهى بالمستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكانت وفاة المقريزى سنة ٨٤٥ هـ .

## كتب تقويم البلدان والرحلات

الدمشقى وأبو الفداء — وقد نما فى هذا العصر علم تقويم البلْدان ، وألَّف فيه العددُ الجمُّ من العلماء ، وهؤلاء منهم النظريون الذين نقلوا ما كتبوه من الكتب أو تلقَّوْه من الرواة ونَقَلَة الأخبار ، كالدمشْقى المتوفَّى سنة ٧٢٧ هـ ،

وله كتاب يسمى "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" طبع بأوربا . وكأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فإن له كتابا جليل الشأن يدعَى "تقويم البلدان" اهتمّ به الفَرَنْجة كثيرا .

## ابن ماجد النجدى

ومنهم المؤلفون عن مشاهدة وخبرةٍ كابن ماجد النجدىّ ، وهو مَلّاح عربىّ له منظومات موجزة فى فنّ البحر وهداية الملاحين فى المحيط الهندى ، وقد كتب بجانب هذه المنظومات كتابا فى سنة ١٤٨٩ م يشتمل على مبادئ الملاحة بعضه منظوم وبعضُه منثور ، ولم تظهر هذه المؤلفات فى أوربا إلا من عهد قريب . وكان ابن ماجد بارعا فى علمه وقد ورث هذه البراعة عن أبيه ويقال إنّ ابن ماجد هذا هو الذى أرشد فَاسْكُو دى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول إفريقية إلى شواطئ الهند .

## ابن بطوطة

وأشهر مؤلفى الرِّحلات فى هذا العصر أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، ولد بطَنْجَة ، وخرج من بلده سنة ٧٢٥ هـ للحج ، فبدأ بالحرمين فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى بجنوب روسيا والإستانة فآسيا الصغرى فبخارَى فأفغانستان إلى دِهْلِى ، ثم رحَل إلى سيلان والصين ، وعاد إلى بلده سنة ٧٥٠ هـ . ورحل فى السنة التالية إلى غَرناطة ثم إلى السودان ، وتوفى بمَرَّاكُش سنة ٧٧٩ هـ . وقد دوّن كل هذه الأسفارِ فى رحلة سمّاها "تحفةَ النُّظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار" وقد طُبعت بمصر وأوربا .

وقد فاق ابن بطوطة كلَّ رحالة قبله ولا يغض من شأن كتابه أنه اشتمل على بعض الأغلاط خصوصا بعد أن نعلم أن مذكّراته التى دوّنها فى أثناء الرحلة فُقِدَت حينما دهَم السفينة التى كان بها لصوصُ البحر فى المحيط الهندى ، وأنه اعتمد على ذاكرته فى قصّ رحلته ، لذا بقىَ كتابه مرجعا صحيحا لوصف الحياة

الاجتماعية والسياسية والعقلية فى البلاد التى زارها ، وهفوتُه فى الحقيقة هفواتُ أهل عصره ، وأغلبها ناشئ من تأثير البيئة وسرعة الميل إلى التصديق لكل ما يقال ويشاع .

وبالكتاب ناحية أدبية جليلة الشان، فقد أضاف إليه ابن جُزَى أبياتا شعرية كثيرة استشهد بها فى مواطن عدّة ، واقتباساتٍ رائعة من ابن جُبيْر وغيره ، وإضافاتٍ من عند نفسه، ولكنّ الكتاب يبقى بعد هذا قصة سهلة مليئة بالحوادث والعجائب والفكاهات، من غير تكلُّف فى الأسلوب ، تُرسِلُ نورًا على أخلاق أهل هذا العصر وعاداتِهم .

## كتب الأدب

ضعف التأليف فى الأدب — وكان التأليف فى الأدب ضعيفا خائرا، وجمعا غير موفق من كتب الأولين ، وممن اشتهر بالكتابة فيه فى هذا العصر :

### الوطواط

جمال الدين الوَطْواط المتوفى سنة ٧١٨ هـ ، واشتهر برسائله وبكتابه "غُرر الخصائص الواضحة وعُرَر النقائص الفاضحة" .

### البهاء الدمشقى

وعلاء الدين البهاء الدمشقى وله كتاب يدعَى "مطالعَ البدور فى منازل السرور" وهو خزانة شعر وأدب ، طبع بمصر .

### الأبشيهى

والأَبْشِيهىُّ واشتهر بكتابه "المستطرَف فى كل فن مستظرَف" .

### النواجى

وشمس الدين النَّواجىُّ القاهرىّ المتوفَّى سنة ٨٥٩ هـ ، وأشهر كتبه "حَلْبَةُ الكُمَيْت" .

## ابن حبيب الحلبى

وابنُ حبيب الحلبيُّ وكان أديبا مؤرخا، وأشهر كتبه فى الأدب "نسيم الصَّبا". تُوفى سنة ٧٧٩ هـ .

## ابن حجة الحموى

وابنُ حجّة الحَمَوِىُّ ، وكان رئيس أدباء عصره ، مولَعًا بالبديع ، وخيرُ كتبه كتاب " خزانة الأدب وغاية الأَرَب " شرح فيه بديعيته ، وهو خير كتاب لطالب تاريخ الأدب فى عصر المماليك ، لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره وصوّر الحياة الأدبية تصويرا صادقا . توفى سنة ٨٣٧ هـ

## كتب العلوم العقلية

---

## ابن النفيس

وكان التأليف فى العلوم العقلية والرياضية قليلا بالإضافة إلى غيرها ،وأشهر المؤلفين فى الطبّ عَلاء الدين بن النفيس ، شيخُ الطب بالديار المصرية . توفى سنة ٦٨٧ هـ . وله كتاب " المختار من الأغذية " .

## ابن الشاطر

ولابن الشاطر المتوفَى سنة ٧٧٧ هـ مؤلفات فى الجغرافية والرياضيات بدار الكتب الملكية .

## ابن الهائم

ولشهاب الدين بن الهائم الفَرَضِىّ المتوفى سنة ٨١٥ هـ كتاب يدعى " مرشد الطالب " فى الحساب .

## الدميرى

وأشهر المؤلفين فى علم الحيوان كمالُ الدين الدَّمِيرِى المتوفَّى سنة ٨٠٨ هـ ، له معجم مرتّب على حروف الهجاء ، للبحث فى حياة الحيوان وطبائعه .

## كتب القصص

ألف ليلة وليلة — وظهر فى هذا العصر فى صورة نهائية كاملة كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية ، وفتَن كثيرا من القراء ، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأذن الأوربية ، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتّاب الأقاصيص فى الغرب المشهورين بالإغراق فى الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة ، وليس بعجيب أن يُغْرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى فى أقاصيصه على سَنن شائق جذاب ، وأكثرُ ما تظهر فيه المهارة فى حَبْك القصة ، وخَلْقِ المواقف المُعَقّدة التى تضيع وجوه الحيلة فى حلها ، ثم العمل على الخروج من هذه المآزق فى لطف وحسن تصرف فنىّ ، هذا إلى إبداع فى الوصف وإبعاد فى الخيال . وهو وإن وُضع فى أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك ، وموعظة تصل إلى قَرارة نفسك ، ودراسة عامة لأحوال الحياة .

والفرق بين حكايات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أنّ الكاتبَ فى الأولى كان كثير المبالغة والإغراق ، وأنه اهتمّ بالأحوال الظاهرة وقَصَر وصفَه على المحسوس المشاهد ، ولم يعمد إلى تحليل النفوس ، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع ، ولم يُعْنَ عناية مقصوده بدراسة الأخلاق ، بخلاف الكاتب الأوربى فإن الدراسة النفسية أساسُ قصته وعمادها فى أغلب الأحوال ، وهو يسير فى قصته على سَنَن واضح من الطبيعة من غير إسراف . ومصدرُ هذا الكتاب لا يزال محاطا بالشكوك والأقربُ إلى الحق أنه من أصل فارسىّ قديم ، وأنّ منشأه كتاب هَزَار أفسانه

( ألف حكاية ) وبه كثير من حكايات هـذا الكتاب ، وقد أضيف إلى الأصل الفارسى نوادرُ كانت منثورة فى كتب الأدب ، وحكايات جديدة كانت توضع على مر الأيام ، فالكتاب إذا لم يُوضع فى عصر واحد ، ولم يصنفه مؤلف واحد وأول مَن ترجم هذا الكتاب لأوربا جالّندا ( ١٧٠٤ — ١٧١٧ م ) .

قصص أخرى — ومن الأقاصيص التى انتشرت فى هـذا العصر ، والتى يغلب على الظن أنها نبتت مع الحروب الصليبية ، سيرة عنترة بن شداد وسيف بن ذى يَزَن ، ثم قصةُ الظاهر بيبرس ، وهى تتضمن حروبَه مع الصليبيين ، وقصة أبى زيد الهلالى وغيرها .

وهذه الأقاصيصُ لاتزال تُقرأ فى مشارب القهوة ، وقد فَقَدَت الآن مالها من روعة بسبب النهضة الفكرية العامة ، وانصراف جمهرة الناس إلى قراءة القصص الحديثة وافتنانهم بها .

خيال الظل — وفى القرن السابع الهجرى ظهر خَيَال الظل وألّف فيه ابن دَانيَال المتوفَى سنة ٧١٠ هـ كتابا فريدا سماه " طَيْف الخيال " وصف فيه لُعْبَةَ خيال الظل ، وبالخزانة التيمورية نسخة منه ، وهو كالرواية الهزلية يشتمل على مجون كثير .

وقد كان ظهور خيال الظل بداية صالحة للتدرج إلى القصص التمثيلية ، ولكنه لم ينهض ولم يَدْرُج ولم يتقدم خُطوة إلى الأمام ، وبقيت العربيةُ عاطلا من الأدب التمثيلى حتى ظهر فى العصر الحديث .

# العصر العثمانى

هذا هو العصر المظلم حقا الذى أطفأتْ فيه العواصفُ مصابيح العلم والأدب، وتركتْ مصرَ الزاهيةَ الزاهرة فى ظلام حالك ، وليـل من الأحداث دامس ، تلفتت فيه مصرُ فوجدتْ يدها صِفراً من كل شيء ، بعد أن كانت حاضرة الإسلام، وملجأ الأمم المظلومة، ومباءةَ العلماء والمتعلمين من أقطار الشرق والغرب، وبعد أن كانت مدارسُها وجوامعها حتى بعد ما أصابها من الكوارث فى أخريات عهد المماليك حافلة بحلَقات العلم والادب . وليس من شأننا أن نتعرض لحال مصر بعد الفتح العثمانى إلا بقدر ما ينفع طالبَ الأدب فى الدرس والاستنباط ، فإن من بدائه العقول أن للعلوم والفنون اتصالا وثيقا بأحوال الامم السياسية والاجتماعية ، وأنها لا تنمو إلا حيث تبسُط السكينةُ جناحَها ، وينشر السلامُ أعلامه .

الفتح العثمانى — هُزِم السلطان الغورى أمام جيش العثمانيين فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ ، وأسلمه جُنده لخاول الفرار ، وهو شيخ فانٍ فى الخامسة والسبعين، فسقط عن جواده وتخطّفته سنابك الخيل، فلم يُعثر له على أثر ، وحاول طومان باى بعده صدَّ غاراتِ العثمانيين ، وكان بطلا صادقَ العزم ، فهُزِم فى أربع وقائع ، وبعد شدة وبأس التجأ بمديرية البحيرة إلى شخص كان يثق بنجدته ، وعاهده على المصحف ألا يغدِر به، ولكنه لم يلبَث عنده طويلا حتى وَشَى به إلى السلطان ، فَحُمِلَ مُصَفَّدًا إلى القاهرة، وشُنق عند باب زَوِيلَة .

آثار الفتح — أما ما أصاب مصر من الفتح العثمانى فإنا نتركه إلى مؤرّخى ذلك العصر، وبخاصة من كتب عن مشاهدة وعِيان، كابن إياس، فإن فى تاريخه صـورة واضحة لحال مصر فى هـذا الزمان ، نصرف وجوهنا عن هذه الصورة ،

وتجه إلى ما أصاب العلوم والفنون ، فنرى أن العثمانيين نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية ، فحُرِمت مصر أغلى كنوزها ، ثم نقلوا كثيرا من العلماء والأدباء والأمراء والمهندسين والورّاقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم ، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء ، وقال إنهم قد يبلغون الثمانمائة والألف ، وغرقت بعض السفن التى كانت تحملهم فمات كثير منهم ، وكان من نتائج الفتح أيضا أن انتقلت الخلافة من مصر إلى القسطنطينية بارسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين ، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية .

وكان من نتائج الفتح أن قلّت أموالُ الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرّق الطلاب وانفضّتْ سوقُ العلم ، ولم يبق منه إلا ذماء بالأزهر الشريف .

ولم تلق العربية فى ذلك العهد مَن يأخُذ بيدها ، لأن اللغة التركية حلّت محلها ، وأصبحت لغة الكتابة والدواوين ، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التى تفشّتْ فى كتابة الأدباء فى ذلك الحين تَظَرُّفا وتَشَبُّثا بمحاكاة الغالبين وطُوِى بِساط ديوان الإنشاء الذى كان له الفضل الأكبر فى إحياء العربية وآدابها .

## النـــثر

كنا نعيب النثر فى عهـد المماليك بإبعاده فى التكلُّف ، وإغراقه فى التحلّى بصـنوف البديع ، فماذا نقول اليوم وقد عجز الكتّاب عن أن يصلوا إلى هـذه المرتبـة ؟ فحاولوا تكلُّف البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشىء له قيمة فنية ، وتردَّوْا فى الحضيض ، وأتَوا بالغَثّ السَّمج ، الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصابا من بقايا آثار مَن سبقوهم من الكاتبين . على أنّ الضعف فى اللغة وأصولها تدلّى إلى دَرْك صار فيه كثير من الكُتّاب عاجزاً عن التّحَرّز من اللحن ، والنجاة من أرزاء العجمة والعىّ والجهل ، وماذا يكتب الكاتب أو يُبدِع الفنّان والخوف

يملأ جوانبه ، والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من أمرٍ مَرِيج ؟ وإنّ من حق العربية علينا أن نُطِيل الوقوف هنا على أطلالها الدارسة ، وآثارها الطامسة وأن نذكر — وهي تمشّى إلى قبرها فى ضعف وهُزال — ما كان لها من مجد كان جمالَ العصور ، وزينة الممالك ، وفخر الأجيال ، وما كان لها فى شبابها من حُسْن بَهر الألباب ، وسحر العقول .

وكان النثر مع هــذا مُقْفِرا من المعانى السَّرِيّة خاويا من الأساليب الناصعة ، وأصبحت موضوعاته لا تخرج عن الرسائل الإخوانية إلا قليلا ، وسنُلْقى عليك مثالا من أمثلة الكتابة فى هذا العصر ثم نترك لك الحكم :

فمما كتبه عبد الوهاب الحلبيُ إلى الشهاب الخفاجىّ قوله :

مثال من النثر — لقــد طَفَحت أفئدة العلماء بِشْرا ، وارتاحت أسرارُ الكاتبين سِرّا وجَهْرا ، وأُفْعِمَتْ من المَسَرّة صدورُ الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيُمْن قدوم من اخضرّت رياضُ التحقيق بإقدامه ، وغرِقت بحارُ التدقيق من سحائب أقلامه ” .

وعلى هذا النمط كان يُصاغ الكلام ، وتتنافس فيه الأقلام .

## الشــعر

أما الشعرُ فسكتت بلابلُه وصَوَّحَت رياضُه ، وحال نظما خاليـا من روعة المعانى ، قَفْرا من بدائع الصناعة ، ولا عجب فإن الفنون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب وتهدأ النفوس ، ويكثر الخير وتسهل أسباب الحياة . أرأيتَ الطائرَ الغرِدَ يغنّى بين حفيف السِّهام ؟ أرأيتَ الزهرَ يبتَسِمُ وقد ألوتْ به العواصف ولَفَحتْه السمائم ، وقد كان الأولون يقولون إن اللُّهَا تَفْتَح اللَّهَا وقد قلّ العطاء فى ذلك العصر وانقطعت صلاتُ الشعراء .

وكان الشعر فى هذا العصر محاكاة للعصر السابق ، وأغلبه فى الغزل الصناعىّ والإخوانيات . وأشهرُ شعراء هذا العصر :

## ( ١ ) الشهاب الخفاجى

هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخَفاجى المصرى ، ولد بسَرياقُوس وتَلَقَّى دروسه بالقاهرة ثم رَحَل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الإستانة ، وعُيِّنَ قاضيا على الرومَلى ثم فى سلانيك ، وعيّنه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دِمَشقَ فحلب فالاستانة ، وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . وكان أديبَ عصره عالما باللغة وعلومها كاتبا شاعرا مؤلفا . ومن أشهر مؤلفاته "ريحانة الألباء" وهو كتاب يشتمل على تراجم لبعض أدباء عصره ، ثم "شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل" جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمُعرَّبة وضمّنه مباحثَ مفيدة.

ومن شعره قوله :

إن وَجْدِى بمصر وَجْدٌ مُقيمٌ ... وحنينى كما ترون حنينى
لم يزل فى خيالىَ النيلُ حتى ... زاد عن فكرتى ففاضتْ عيونى

وقوله :

فَدَيْتُك يا مَن بالشجاعة يَرْتَدِى ... وليس لغير السُّمْرِ فى الحرب يَغْرِس
فإنْ عَشِقَ الناسُ المَهَا وعيونُها ... من الدَّلِّ فى روضِ المحاسن تَنْعَس
فدِرْعُك قد ضَمَّتْكَ ضمةَ عاشقٍ ... وصارتْ جميعا أعيُنا لك تحرُس

وقوله مُضمنا :

ياصاحِ إن وافيتَ روضةَ نرجسٍ ... إياكَ فيها المشىَ فهو مُحَرَّمٌ
حاكتْ عيونَ معذِّبى بذبولها ... ( ولأجل عين ألفُ عين تكرَمُ )

## ( ٢ ) ابن منجك

قال شهاب الدين الخفاجى فى ريحانة الألباء :

" الأمير محمد بن مَنْجَك الجركسىُّ أصْـلاً ومَحْتِدا ، الشامىُّ مَنْشأً ومولدا ، أديب أريب ، ونجيب وابن نجيب ، أورق عوده بالشام وأثمر ، فإذا عُدَّت السجايا عَرَضاً فسجاياه جوهر ، نشأ بها والدهر أبيضُ أقمر ، ونادمَ العيش والعيشُ أخضر ، وللبقاع تأثير فى الطباع ، والعِرْقُ كما قيل ، لمغْرِسه نزّاع ، ومَن كان جار الرِياض ، لبِس طبعُه بُرْدَ نسيمها الفضفاض ، كما لبِس النهر الجارى ، دِرْعَ النسيم السارِى .

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضةً ... عليه وما غيرُ الحَبابِ لها حلَقْ

وقد صحبنى بجِلق ونسيمه سجسج ، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنسج ، ولازمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشبه الشىء منجذب إليه ".

وقد اختار له الخفاجى طائفة كبيرة من الشعر نكتفى منها بالصور الآتية التى تدلّ على علوّ كعبه فى الشعر وأنه كان فيه نادرة عصره من ذلك قوله :

سَقَى اللهُ يومَ القصرِ إذ كان بيننا ... حديثٌ كمُرفَضِّ الجُمان المُنضَّدِ

بروض يجول الماءُ تحت ظلاله ... كأيْمٍ مَروعٍ أو حُسام مُجرَّدِ

يلوحُ به قانِى الشقيق وقد حَكَى ... لواحِظَ مخمورٍ كُحِلْن بإثْمِدِ

ويَهْمِى به قطرُ النَّدَى فتَخالُه ... مُبدَّدَ عِقدٍ فى فراش زُمُرُّدِ

وريحانُه الغَضُّ الشهِىُّ كأنه ... مبادِى عذارٍ فوق خدٍّ مُورَّدِ

وقوله :

لا تَتَّهِم بالسُّوء دهرَك إنه ... جَبَلٌ يُجيبُ صَدَاكَ منه صداءُ

مرآتُكَ الدنيا وفعلُك صورةٌ ... فيها فما الشنعاء والحسناء ؟

وقوله :

قَصْرَ الأميرِ بوادِى النَّيِّرَيْنِ سَقَى ... رُباكَ عنى من الوَسْمِىِّ مِدرارُ
كم مرَّ لى فيكَ أيامٌ هواجِرُها ... أصــائلٌ ولياليهنّ أسحار
حيثُ الشبيبةُ بِكْرٌ فى غَضارتها ... وللصَّبابة أحـلافٌ وأنصار
حيثُ الرياضُ تغنينى حمائمُها ... بالدفّ والجَنْك والمنثورُ لى جار
حيثُ الخمائل أفلاكٌ بها طلعتْ ... زُهْرٌ من الزَّهرِ والنُّدمانُ أقمار

( توفى سنة ١٠٨٠ )

## ( ٣ ) عبد الله الشبراوى

هو عبد الله بن شرف الدين الشَّبراوىّ القاهرىّ ، من أكابر مشيخة الأزهر ، وهو شاعر رقيق جذّاب ، فى شعره لين وسهولة ، وأغلبُه فى المدائح النبوية ومدائح أهل البيت ، توفى سنة ١١٧٢ هـ ومن شعره :

آلَ طه وَمن يقــل آلَ طه ... مستجيرًا بجاهكم لا يردُّ
حبُّـكم مذهــبى وعَقــدُ يقيــنى ... ليس لى مذهب سواه وعَقد
منكمُ أستمدُّ بل كلُّ مَن فى الـ ... ـكَوْنِ من فيض فضلكم يستمدّ
بيتكمُ مَهْبِطُ الرســالة والوحـ ... ـىِ ومنكم نــورُ النبوةِ يبدو
ولكم فى العُلاَ مقامٌ رفيــعٌ ... ما لكم فيــه آل ياسينَ نِــدّ
يا ابنَ بنتِ الرسولِ مَن ذا يُضاهِيـ ... ـكَ افتخارا وأنت للفخر عقــدُ
يا حُسينا هــل مثــلُ أمِّكَ أمٌّ ... لشريف أو مثــلُ جَدِّك جَدُّ

ومما قاله مؤرخا فى رثاء أحمد الدلنجاوى :

سألتُ الشعرَ هل لك من صديقٍ ... وقد سكن الدلنجاوىُّ لَحْــدَهْ ؟
فصاح وخَــرَّ مغشــيا عليــه ... وأصبح ساكنا فى القبر عنــده

فقلتُ لِمن أراد الشعْرَ أقْصِرْ　　فقد أرَّخْتُ مات الشعر بعده
٤٤١　٦٠١　٨١

سنة ١١٢٣ هـ .

ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه :

إن ذنبي واللهِ ذنب كبيرُ　　غير أني بحلمكم أستجيرُ
ضاق صدري وأخجل الذنبُ وجهي　　واعتراني من الحيا تغيير
وتأسفتُ حين كان الذي كا　　ن ولكن جرى به المقدور
وتأخرت عن لقاكم حياء　　ثم إني أعياني التأخير
وتركتُ الحضورَ بين يديكم　　تخجلاً حين عمَّني التقصير
لكن العفوُ ليس يبعدُ عنكم　　فعسى أن يصحَّ قلبٌ كسير
إن ظني والله فيكم جميل　　ولساني عن اعتذاري قصير
سعةُ الصدر قد دعتني إلى ما　　كان مني والحلمُ عنكم شهير
شِيمة الأكرمين عفوٌ وصفحٌ　　كلُّ ذنبٍ لديكمُ مغفور

## التأليف

نزل التأليف عن مرتبته كثيرا ، واقتصر على أن يكون تطويلا لموجَز أو اختصارا لمطوَّل ، إلا فى القليل النادر .

## الزبيدى

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر الشهاب الخفاجى وقد مرت ترجمته ، ثم الزَّبِيدىُّ وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضَى الحسينى الزبيدى ، ولد سنة ١١٤٥ هـ ، ونشأ باليمن ، ورحل فى طلب العلم فنزل مصر سنة ١١٦٧ هـ ، واشتهر أمره وعلا ذكره بين العلماء والأمراء وألَّف رحلات لأسفاره ، ثم تجرَّد لشرح القاموس المحيط فأتمه فى سنين عدّة ، وسمّاه "تاج العروس" ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته فى جامعه ، أوعِزَ إليه أن يقتنِيَ تاج العروس فاشتراه

من مؤلفه بمائة ألف درهم ، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكُردية ، وقد عَوّل فى شرح القاموس على لسان العرب ، واستدرك على صاحب القاموس بعد كلّ مادة ما غفَل عن ذكره من المفردات اللغوية .

ومن مؤلفاته " إتحاف السادة المتقين " وهو شرح لإحياء العلوم للغزالى توفى سنة ١٢٠٥ ﻫ .

## عبد القادر البغدادى

ومن كبار المؤلفين فى هذا العصر عبد القادر بن عمر البغدادى ، درس بدمشق ، وتردد على القاهرة ، ثم رحل إلى أدرنة واتصل برجال الدولة التركية ، ثم عاد إلى القاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣ ﻫ .

وكان غزيرَ المادة فى اللغة والأدب ، محبًّا لاقتناء الكتب ، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب الثمينة النادرة ، وأشهر مؤلفاته "خزانة الأدب ولُبّ لُباب لسان العرب " ، وقد شرح فى هذا الكتاب شواهدَ شرح الكافية ، وضمّنه كثيرا من تراجم الشعراء والأدباء فى الجاهلية وصدر الإسلام ، والكتاب جليل القيمة جدا يدل على علم واسع ودقّة وتمحيص .

# عصر النهضة الحديثة

## تمهيـــد

عرفتَ أن مصرَ فى هذا العصر الذى تقدَّم غزو الفرنسيين لها كانت فى شبه انقطاعٍ تام عن بلاد الغرب ، فلم تكن تربطها بهـا صِلَة ، اللهم إلا ما كان من طوائفَ تهبِط مصر من مختلف البلاد للتجارة ؛ وإلا بعض السُّيَّاح يختلفون إليها الحينَ بعد الحين لدرس أحوالها ، ومطالعة معاهدها وآثارها ، والوقوف على خلائق أهليها ومُرسَل عاداتهم ، وغير ذلك من أسبابهم ، وكان لبعض الدول قناصل فى مصر يقومون على منافع هذه الجاليات وتيسير أسباب العيش لهم ؛ على أن هؤلاء النزالة من الإفرنج ، إنما كانوا يعيشون بمحتجَز عن جَمهَرة المصريين ، لا يخالطونهم ولا يلابسونهم إلا بالقــدر الذى تستوى به منافعهم . بل لقد كانوا فى القاهرة يعيشون وحدهم ، إذ قد اتخذوا لهم رُقعة خاصّة لسكناهم تدعى "حارة الأفرنج" (١) .

أما هجرة المصريين إلى بلاد الغرب فكانت معدومة أو هى فى شبه العدم . فإذا كان أفذاذ منهم قد فعلوا فذلك ما لم يظهــر له أىّ أثر فى عقــد الصلة بين مصر وبلاد الغرب .

على هذا لم تكن للغات الغرب ولا لعلومه ولا لآدابه وثقافاته ولا لشىء من وسائل أممه فى الحياة أىّ أثر فى هذه البلاد ، بل لقد كان سواد المصريين فى جهل تامّ بالغرب وأحواله . أضف إلى هذا أنّ مصر كانت قد تدلَّت فى ذلك الوقت إلى الحضيض الأوهد فى كل شىء : فى العلوم والفنون ، فى الأخلاق والآداب ، فى الصناعة والتجارة ، وفى غير أولئك من سائر أسباب الحياة . وليس بعجيب فى بلاد عانت ما عانت مصر من حكّامٍ أفّاقين ، غلاظ الأكباد ، رقاق الأديان ،

---

(١) حارة الفرنج بشارع الموسكى يسلك منها للدرب الجديد وبها جامع التسترى .

دقاق الأخلاق ، لا غاية لهم من الحكم إلا طلب الأبهة و إظهار السطوة و بسط الظلم والجور و إهلاك النفوس فى سبيل استخراج الأموال .

وهذا اللون من الحكم لقد كان حقيقا بأن يصرف الناشئ عن التجرد ، ولو بعض الوقت فى طلب العلم ، والتبريز فى الفن ، وتجويد الصناعات ، وتحصيل الآداب ، وإحراز الثروات . و كيف لهم بشىء من هذا وقد حاق بهم البلاء من كل جانب ، وملكت ضروبُ الظلم عليهم كلَّ سبيل .

و إذا كان تطاول هذا الحكم البالغ قصارى الظلم قد عفّى على دور العلم والحكمة ، وخزائن الكتب التى كانت قائمة فى البلاد ، فإنه لم يستطع ، والحمد لله ، أن يعفّى على الأزهر الشريف . ذلك بأن موضع الأزهر الشريف من تعليم الدين الكريم وقيامه على حراسة الشرع الحكيم ، وطلب شباب المسلمين له من قواصى الأرض وأدانيها تفقها فى العلم والدين ، إلى ثباته الدهر الأطول ، حتى حَلَّ من عقائد الناس فى موطن التقديس ؛ كلُّ ذلك قد قبض أيدى الطغيان عنه فلم تنله بكل ما عندها من المكروه . وسيأتى الكلام فى الجامع الأزهر بشىء من التفصيل .

## الحملة الفرنسية

لما بلغ الضعف بمصر ذلك المبلغ ، وزادها وهنا على وهن ، تنازعُ المماليك على الحكم ، واستقلالُ كل منهم برقعة من البلاد ، وتربُّص بعضهم الدوائر ببعض ، طلبا للاستئثار بالحكم و بسطة السلطان ، وقيامُ الحروب بينهم فى هذا وشنّ الغارات وضعفُ شأن الوالى ، ممثل الخليفة العثمانى فى هذه البلاد ، واكتفاؤه بما يُحمل إلى الدولة العلية كلَّ عام من الخراج ، وما يستخرج لنفسه من كرائم الأموال ؛ لم يُصبح عسيرا على بونابرت أو على غيره من الغُزاة أن يطمع فى فتحها وتملكها بلا كبير عناء .

ففى مستهلّ سنة ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) وفدت على مياه الإسكندرية عمارة إنجليزية ثم لحقتها عمارة أخرى . وأوفد قائد الأسطول رُسُلًا إلى المدينة ينبئون المتحدثين على شأنها بأنهم إنما جاءوا فى طلب الأسطول الفرنسى ، وقد علموا بإقلاعه إلى الشرق ، وأكبر الظنّ أنه إنما جاء يطلب مصر . فأغلظ لهم هؤلاء الجوابَ ، وقالوا لهم : إنّ مصر من بلاد الخليفة ، ولا شأن للفرنسيين ولا لغيرهم بها . فراجعهم رسلُ الإنجليز وأخبروهم بأنهم مترصدون بسفنهم للفرنسيين بعيدًا عن المدينة ، حتى إذا وصلوا صدّوهم عن غزو البلاد ، وسألوا أن يبيعهم أهلها مايحتاجون إليه من الأقوات ، فأبَوْا هذا عليهم أيضا . فاضْطُرّ الأسطول الإنجليزى إلى الإقلاع خوفاً من نفاد ماعنده من الزاد . أما الأمراء ( المماليك ) فلم يكترثوا للأمر اعتزازًا بقوتهم ، واغترارًا بشدة بأسهم . على أنه لم تمض ثلاثة أيام حتى أقبل بونابرت فى أسطول ضَخْم ومالبث أن أنزل جنده إلى البر فاحتلّ المدينة من غير عناء كبير . وسارت الجيوشُ الفرنسية غازية فى صميم البلاد حتى دخلت القاهرة فاتحة ، لم يُعوِّقها كثيرا ما تمكّن المماليكُ من تجهيزه من الجيوش ، ولا ثورة مَن كان يثور بها من الأهلين .

لبث حكم الفرنسيين لمصر ثلاث سنين ، على أنّ المصريين ظَلُّوا طولَ هذه المدة يقاومونهم ويثورون بهم الحِينَ بعد الحِين ، مع أنهم عُزْلٌ من السلاح مستهدفون لألوان من القسوة والفتك يشيب لهولها الوِلْدان ، وعلى أنّ بعض المماليك قد اعتصموا ببعض بلاد الصعيد واستقلوا بحكمها ، ولم يستطع الفرنسيون أن ينالوا منهم منالا . ودامت الحال كذلك إلى أن وُجِّهَتْ إلى مصر حملةٌ من الإنجليز والعثمانيين فأَجْلَتْ عنها الفرنسيين سنة ١٢١٦ هـ ( ١٨٠١ م ) فعادت مصر إلى حكم الدولة العثمانية اسما ، وإلى استبداد المماليك واستئثارهم بالأمر فعلا .

## إنشاء المجمع العلمى المصرى

لما قدِم بونابرت إلى مصر جاء معه بطائفة كبيرة من العلماء فى مختلف العلوم، ومن الأساتذة المبرزين فى شتى الفنون . كما جاء بكثير من حذاق الصناع . وذلك لدراسة القطر المصرىّ فى مختلف أسبابه ، وتحقيق تاريخه ، والكشف عن آثاره وعادياته ، وإقامة مايرى إقامته من المعامل والمصانع . وغير ذلك من الوسائل التى لا يطلبها ولا يجتمع لها إلا مَنْ ينوى استلحاق هذه البلاد إلى غاية الزمان .

وقد اتخذ الفرنسيون لهذه المرافق طائفة من دور الأمراء ( المماليك ) الواقعة فى الدرب الجديد بحىّ الناصرية ، وأقاموا مكتبة جامعة يطلبها للمراجعة والنظر مَن يشاء منهم ومن غيرهم . كما أنشئوا مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين فى مصر .

ولقد كان أهم المعاهد التى أقاموها فى هذه البلاد ( المجمع العلمى المصرى ) فى نفس السنة التى فتحوا فيها مصر . وذلك لتحقيق أول الأغراض التى تقدّمت فى صدر هذا الفصل ، واتخذوا لمثواه منزل حسن شركس فى الدرب الجديد أيضا . وقد أُلِّف من ثمانية وأربعين عضواً تحرر ربعهم للرياضيات ، والربع الثانى للطبيعيات، والثالث للاقتصاد السياسى،والرابع للآداب . وقد عهد برياسته للعالم الكبير المسيو منج . وبوكالته إلى بونابرت نفسه .

ولقد جدّ هذا المجمع فى مهمته وأكَبّ على موالاة بحوثه ، وجعل يصدر كل ثلاثة أشهر نشرة يضمنها ماينتهى إليه من تلك البحوث . ثم نشروا بعد صُفْوَتها كلّها فى أربعة مجلدات . كما نشروا فى وصف مصر كتابا جليل القيمة دعَوْه (Description d'Egypte) وقع فى مجلدات كثيرة .

وقد أغلق هـذا المجمع بخروج الفرنسيين من مصر . على أنه فى سنة ١٨٥٩ م رأى جماعة من الفضلاء أن يبعثوه ثانيا، فأقاموه أولاً فى الإسكندرية، ثم نُقل إلى القاهرة ولا يزال يوالى عمله بها ، وداره قائمة الآن بحىّ المنيرة بإزاء كلية التجارة .

ولقد دعا الفرنسيون فى أثناء قيامهم فى مصر طائفة من كبار المصريين وعلمائهم للتفرج فى هذا المعهد وشهود وسائلهم فى الحياة على مقتضى العلم الحديث . ولم يكد هؤلاء يرون آثار صنع أولئك ، وخاصة ما كانوا يستحدثونه أمامهم من التفاعلات الكيميائية حتى شُدِهُوا وأخذ العجب منهم كلَّ مأخذ ، وحتى ظنّ بعضهم أنّ ما يصنعون إنما هو ضَرْب من السحر؟ وعذرهم فى هذا واضح بطول انقطاع البلاد عن علوم الدنيا ، وعدم متابعتها القرون الطوال لما تنضج به العقول وتجود به التجاريب فى مختلف أسباب الحياة[1] .

وإذا كان المصريون قد انبهروا مما رأَوْا باديَ الرأى ، شأن من سطَع النور على عينيه فجأة بعد طول المقام فى حالك الظلام ، فإنهم ما لبثوا أن عرفوا أن هناك علما غير ما عهدوا من العلم ، وأن هناك حياة غير ما أدركوا من الحياة .

---

(١) كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور بين من دعوا لذلك ، فوصف ما رأى هناك . ومما جاء فى وصفه قوله : ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فعلا الماءان وصعد منهما دخان ملون حتى انقطع وجفّ ما فى الكاس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتيا وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ، ضيقة الفم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأدخلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى إحداهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا .

وعلى كل حال فقد قامت تلك البعثة العلمية بأعمال عظيمة الخطر ما برحت إلى اليوم شاهدا على جلالة فضلها، وشدة ما عانت فى البحث والاستقراء، والكشف والاستقصاء فى جميع الأسباب العامة فى هذه البلاد .

ومما تقدم تعلم أن الصلة بين مصر والغرب قد بدأت فى الواقع من عهد الحملة الفرنسية ، وإن لم يظهر لها أثر فعلىّ إلا بعد ذلك بعدة سنين . فإنه ما جلا الفرنسيون عن مصر حتى عادت إلى سابق عهدها بحكم المماليك . فخرجت من ظلم يتخلله بصيص من نور ، إلى ظلم يتخبط فى حَلَك الديجور .

## محمد على

قدم محمد على إلى مصر سنة ١٢١٦ هـ ( ١٨٠١ م ) ضابطا مع الحملة التى وجهتها تركيا إليها لإخراج الفرنسيين منها ، وكان بعدُ فى شباب السنّ . على أنه كان شديد العقل ، وثيق الحلم ، متسعر الذكاء ، واسع الحيلة . وقد اجتمع له إلى هذا كله شجاعة القلب ، ومضاء العزم ، وبعد الهمة فما برحت كفاياته تيك تتقدم به وتوالى عليه الرقىّ دراكا فى الدرجات العلاَ ، فلم تدخل سنة ١٢٢٠ هـ ( ١٨٠٥ م ) حتى نودى به واليا على مصر . وذلك بما أظهر من البراعة وحسن السياسة من جهة ، ومن جهة أخرى بما تألف من قلوب المصريين كبارِ أعيانهم وعلمائهم بلطف معاملتهم ، وجميل مداخلتهم ، وما توسَّموا فيه من الجد والعدل والنزاهة وشرف الغاية فأجمعوا أمرهم على أن يسألوا الباب العالى أن يوليه على مصر ، فتم لهم ما أرادوا .

ولم يكن شأن محمد على كشأن مَن تقدمه من الولاة من التوفر على حمل الخراج المقسوم للدولة ، وبذل الجهد فى استخراج جلائل الأموال لشخصه . بل لقد كان أبعد من ذلك مطمعا وأنبل غرضا . كان يريد أن يحكم لينتشل البلاد من الوَهْد الذى تَردَّتْ فيه بسوء الحكم ، وطول الظلم . ويهيىء لها أسباب القوة ، ويدفعها دفعا إلى مراقى العلاء . وقد عرَف أن شيئا من ذلك لا يتهيأ له مادام هؤلاء المماليك مستأثرين بالسلطان متكئين فى حكمهم على وسائل البطش والجبروت . فما زال يصابرهم ويصانعهم حتى فَتقَت له الحيلةُ أن يُولِمَ لهم فى القلعة ، مثوى الوالى يومئذ ، فإذا اجتمعوا أوقع بهم ، واستخلص البلاد من شرورهم وآثامهم . وقد تم له هذا فى سنة ١٢٢٦ هـ ( ١٨١١ م ) .

لم يكن لمحمد علىّ ، بعد هذا ، بدٌّ من أن يُجَيِّش جيشا قويا مدرَّبا منظما يستطيع أن يُقِرَّ به الأمن ويصون هَيْبَة الحكم فى الداخل ، ويدفع به غارة المُغير من الخارج .

فدعا أولا بطائفة من أساتذة الفنون العسكرية فى أوربا ، وأشخصهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدرِّبوهم هناك ويعلموهم. فلقد خشى إن هو صنع هذا فى القاهرة بعين جند المماليك أن يثوروا به ، إذ كانوا يعرفون أنهم مدينون لما هم فيه من بسطة جاه ووفرة أرزاق لنشوزهم على الطاعة ، وتمردهم على كل نظام .

ثم لما استمكن له الأمر أقام فى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصرَ ابن العينى (مثْوَى كلية الطب الآن) . فاجتمع فيها الطلبة من الأصناف المختلفة ، اللهم إلا المصريين ، فقد ضَعُفَ الرأى فيهم من هذه الناحية ، لأنهم قد عاشوا قرونا لا يباشرون حربا ولا ينفرون لقتال . على أن هؤلاء الطلبة الذين حُشروا فى تلك المدرسة لم يحققوا الظنَّ بهم . فكان هذا مدعاة لأن ينحرف نظر محمد على إلى المصريين ، فأصبحت كثرة تلاميذها بعد ذلك منهم .

وكانت لغة التعليم إلى ذلك الوقت هى التركية ، وإن كانت تدرس بجانبها العربية .

ثم بدا لمحمد على أن يرقى بالتعليم العسكرى . فأنشأ فى تلك السنة نفسها فى جهة أبى زعبل مدرسة أركان الحرب ، ودعا لها بأساتذة من الإخصائيين أكثرهم من الفرنسيين .

على أنه تعجُّلا للفائدة فى هذه السبيل كان قد سبق فأوفد إلى بعض مدن إيطاليا فى سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) طائفةً من شبان المماليك لدراسة الفنون العسكرية وما إليها . وبعد خمس سنين أتبع هؤلاء ببعثة أخرى من شبان المماليك إلى إنجلترا لدراسة (الميكانيكا) وغيرها من الفنون .

## تنظيم العلاقات العلمية بين مصر وأوربا

لقد سلف عليك أنّ مصر بعد أن ظلّت الأزمان الطويلة فى تمام الانقطاع عن بلاد الغرب ، وأنها قد بدأت تتصل به من عهد الحملة الفرنسية ، وإن كان هذا الاتصال لم يُجْدِ عليها شيئا أو لم يُجْدِ عليها لوقته . إلا أنه لما استقرّ الأمرُ فى مصر لمحمد علىّ رأى الحاجة شديدة إلى إنشاء جيش منظم مدرب على الأساليب العسكرية الحديثة . ولم يكن له بد فى تحقيق هذا الغرض من أن يستقدم رجالا من أساتذة الفن العسكرى ليدرِّبوا الجند فى البلاد ، وأن يبعث فى الوقت نفسه إلى أوربا طائفة من الشبان لتلق هذه الفنون وما إليها هناك . ومن هذا الحين بدأت العلاقة ، ذات الأثر الفعلى ، تنعقد بين مصر وبلاد الغرب ، وإن كان أثرا عسكريا محضا .

على أنه لم يمض كبير من الزمن حتى جعلت تنتظم العلاقات العلمية بينهما وتقوَى وتستوثق على مرّ الأيام ، وكان هذا أيضا باستقدام العلماء وإرسال البعوث .

وهذه النهضة ، وإن كانتْ علمية خالصة ، إلا أنها انبعثت أول الأمر لخدمة العسكرية كما ترى .

## مدرسة الطب

عرفتَ أن همة محمد علىّ اتجهت أول ما اتجهت لعظائم الأمور إلى إنشاء جيش مدرّب منظم ، ولا بدّ لهذا الجيش من أطباء يعللون المرضَى ، ويأسون جراحات الجرحَى ، ويدافعون الأوباء إذا هبّتْ ريحها . وليس للطبّ الحديث ولا لفنونه أثر فى هذه البلاد . اللهم خلا عددا قليلا من أطباء الإفرنج كانوا يقومون بمعالجة النزلاء الغربيين . أما المصريون فكان خاصتهم يعتمدون فى هذا على المأثور من نسخ الأدوية فى الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجاريب ، ومنها الكىّ

والحجامة ونحو ذلك . وأما الدهماء فكانوا فى عامة شأنهم يعوذون بالمتطببين من الدجالين والمشعوذين من مدّعى السحر والاتصال بعالم الأرواح ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة أضرحة الصالحين .

من هذا رأى محمد علىّ أن ينشئ مدرسة طبية تقوم بتعليم الطبّ الحديث على أحدث الوسائل التى انتهت إليها بلادُ الغرب فى تلك الأيام . فأنشأ فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) فى جهة أبى زعبل هذه المدرسة ، وأقام بإزائها مستشفى كبيرا لمعالجة المرضَى من جهة ، ولتمرين التلاميذ فى التطبيب من جهة أخرى . وجاء لها بأساتذة من الغرب ، وجعل رياستها إلى الدكتور (كلوت بك الفرنسى) ، وكان محمد علىّ قد استقدمه فى السنة السابقة طبيبا للجيش . وكان الطلاب فى هذه المدرسة مَزْجا من المصريين وغيرهم . وكثير من أولئك اختيروا من متقدمى الطلاب فى الأزهر . ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العينى فى سنة ١٨٣٨م .

ولا يذهب عن مؤرخ الأدب فى العصر الحديث أن يضيف أكبر الفضل فى انبعاث اللغة العربية وتحرك آدابها ، وإنهاضِ مظاهر بلاغاتها ، واتصالها بالعلم والفن الحديثين إلى هذه المدرسة . ذلك بأنك تعرف أن فصيح العربية فوق أنه غُمّ على الناس ، وعلى المصريين خاصّة ، من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهر بلاغتها قد دب إليهما الضعف والانحلال إلى حدّ كبير ، قد تخلفت عن متابعة العلم ومدارجته العصرَ الأطولَ ، حتى استوى العلم الحديث وأدرك ، فإذا هو فى وادٍ ، وإذا حظ الناس من لغة العرب فى وادٍ آخر ، لايكاد يجمع بينهما سبب ، أو يرتبطهما أى نسب ، أما وقد فاجأَ محمد على مصر بهذه العلوم التى انتضجت بها القرائح فى الغرب عدة قرون ، تشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصِّيغ ، وتُطْبَع لها المصطلحات ، فتمد بان العسر أشد العسر فى تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب لايحذقون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو قد عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرّسوا بها ، لعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما يتهيأ لها أن تؤديه ليس فى متناول اليد ، بل

إنه لمما يحتاج إلى كثرة مراجعة وشدة تنقيب . لهذا اضطر محمد على أول الأمر إلى أن يقيم بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس من أولئك فى اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية . وهؤلاء المترجمون كانوا مَزْجا من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانى هؤلاء المترجمون كثيرا فى الاضطلاع بمهمتهم العسيرة . ومهما يكن من شىء فإن هذه الحركة كانت أول ما دعا ، فى صدر هذه النهضة الحديثة، إلى مراجعة معجمات اللغة، والكتب الفنية القديمة، كمفردات ابن البيطار لاستخراج المصطلحات العلمية، أو لصوغ ما يؤدى مطالب العلم الحديث، إذ لم يُوَفَّ بأدائه القديم . وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية فى كثير من الأحيان ، فإن لهم الفضل على كل حال فى البدء بعقد الصلة بين لغة العرب القديمة وبين علم الغرب الحديث . على أن هذه الحركة قد نمت بعد ذلك وازدهرت وآتت خير الثمار . وسيجىء فى هذا الكلام .

## البعوث العلمية

لم تقف همة محمد علىّ عند ذلك القدر . بل لقد امتدّ به العزم إلى أن يأخذ هذه البلاد فى جميع أسباب الحياة بمظاهر الحضارة الغربية . فرأى أن يتعجل الفائدة بإيفاد البعوث العلمية إلى أوربا .

## البعثة العلمية الأولى

ففى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) بعث إلى باريس أربعة وأربعين من متقدمى الطلاب ليتقسموا طلب الفنون والعلوم المختلفة من إدارة ملكية، وإدارة عسكرية، وأخرى بحرية ، وللعلوم السياسية ، والطب ، والتاريخ الطبيعى ، والكيمياء والفِلِزّات (المعادن) ، والزراعة ، والطباعة والحفر ، وغير ذلك . وكان هؤلاء

مزيجا من المصريين وغير المصريين . وقد جدّوا فى طلب العلم حتى حذَقوا ما تخرّوا له من الفنون ، وحتى فاق بعضُهم لداتهم من الطلبة الفرنسيين أنفسهم . فلما عادوا إلى مصر كانوا عدّة قوية لمحمد على فيما اضطلع به من وجوه الإصلاح فى مختلف المرافق فى البلاد . ولقد أعظم التاريخ شأن كثيرين منهم بما أظهروا من الفضل والبراعة ، وما انتهضوا به من جلائل الأعمال ، فى سعة كفاية وعظيم إحسان .

وما برح ، رحمه الله ، يوالى إيفاد البعوث العلمية إلى بلاد الغرب ، أفرادا وجماعات ، لتلقى العلوم العالية فى أجلّ مدارسها شأنا ، حتى زادت عِدّتهم فى أثناء ولايته على ثلثمائة طالب .

على أنه لم يقنع بكل هذا ، فلقد أقام فى باريس نفسها مدرسة خاصة نظم فيها نحو أربعين طالبا مصريا ، كان فيهم اثنان من أولاده ، واثنان من أحفاده .

## المــدارس

قد مر بك أنه لما أفضت الولاية إلى محمد على كان التعليم العالى فى مصر محصورًا فى الجامع الأزهر ، يتوفر طلابه على دراسة العلوم الدينية واللغوية ، وبعض العلوم العقلية ، وأمشاج من علوم أخرى ، وإن كانت تتصل بمطالب الدنيا ، إلا أنها أصبحت لا غَناء لها فى علوم الحياة التى قامت عليها حضارة الغرب الحديثة . لذلك عمد ، رحمه الله ، إلى تأسيس المدارس العلمية فى مصر توسّلا إلى تحقيق هذه الغاية . وقسمها إلى طبقات ثلاث : ابتدائية ، وتجهيزية ، وخاصة . ومن هذه المدارس الخاصة مدرسة الطب ، وهى أقدمها كما مر بك ، وإن كان الغرض الأول من إنشائها خدمة العسكرية . ومنها مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ، والطب البيطرى ، والفنون والصناعات ، والزراعة ، والألسن ، وغيرها للإحاطة بمرافق الحياة المختلفة . وكانت عدة المدارس الابتدائية التى بثها فى أرجاء البلاد خمسين مدرسة .

## ديوان المدارس

كانت المدارس فى مبتدأ أمرها تابعة للإدارة العسكرية ، لما علمتَ من أن التعليم إنما بدأ فى مصر للأغراض العسكرية ، فلما اتسعت رقعته ، وتنوعتْ فنونه ، وتجرَّدتْ أكثر مدارسه للأغراض العلميـة ، أنشأ له إدارة ملكية خاصـة فى سنة ١٨٣٩ م ، سميت ديوان المدارس واتُّخذ للتحدث على شأن هـذا الديوان طائفة من العلماء المصريين والأجانب ، وجعلت رياسته إلى مصطفى مختار بك من أعضاء البعثة العلمية الأولى .

## الترجمة والتأليف

الترجمة — تعلم أن مصر ، فى صدر هـذا العهد ، كانت خلوا من العلوم الحديثة التى شاعت فى الغرب وازدهرت وآتته بأسباب القوة والعظمة فى نواحى الحياة ، كما أن اللغة العربية قد بَعُدَ عهدها بتناول هذه العلوم . ومن جهة أخرى فإن انقباض أهلها عنها قد أعجزهم عن تناول ما عسى أن يكون مخبوءا فى مجفواتها مما يتصل بهذا الباب . فأصبح وصل أبنائها بهذه العلوم فى لغتهم مما يكاد يتصل بالمستحيل . على أن الهمم إذا صـدقت ، والعزائم إذا صحت ، ذللت أصعب الصعب ، ويسرت أعسر العسير .

ولقد عرفت أن أول عهد مصر بالترجمة العلمية فى هذه النهضة ما كان يقوم به المترجمون فى مدرسة الطب بين الأساتذة وتلاميذهم . ولم يقتصر هؤلاء على ذلك ، بل قاموا بترجمة طائفة من الكتب الطبية التى وضعها بعض أولئك الأساتذة الأجانب فى لغاتهم فى الطب ، والتشريح ، والأقراباذين ، و ( الفسيولوجيا ) ، والطب البيطرى ، والصباغة ، وغير ذلك .

ولما عاد المرحوم رفاعة بك الطحطاوى من باريس سنة ١٨٣١ م ، وكان قد حذق الفرنسية ، ودرس صدرا من العلوم الحديثة ، من بينها التاريخ وتقويم البلدان ، عهد محمد على إليه أولا بالترجمة فى مدرسة الطب ، ثم أحال إليه ترجمة كتب الهندسة والفنون العسكرية .

وبعد هذا أنشأ محمد على ، رحمه الله ، مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ، وولّى رفاعة بك إدارتها ، فظل قائما على شأنها إلى أن خرجت طائفة من المترجمين الأكفاء . حتى إذا كانت سنة ١٢٥٨ ﻫ ( ١٨٤٢ ) م ألّف من هؤلاء قلم للترجمة تولّى رفاعة بك رياسته . ولقد انتهض هـذا القلم كما انتهض رفاعة نفسه بترجمة كثير من الكتب العلميـة فى مختلف أسباب الحياة ، استطاعوا بها أن يعقـدوا الصلة بين العربية وبين العلوم الحديثة . ولقد كان سعيهم فى هذا شاقا مضنيا ، على أنهم قد استطاعوا بسَـعة العلم ، وقوة الصبر ، والإخلاص لوجه النهضة ، مايكاد يضاف إلى جملة المستحيل. وآثارهم فى هذا الباب مابرحت قائمة إلى الآن، وما زالت تبعث الفخر بهم على كل لسان .

ولقد فترت هذه الحركة العظيمة بعد موت محمد على ، كما فترت سائر وسائل النهوض والإصلاح . حتى إذا كان عصر إسماعيل ، وانبعثت من جديد نهضـة العلوم والآداب ، انبعثت معها الترجمة ، وجعلت تطرد فى تقدمها طوعا لكثرة المدارس ، وازدياد عدد المتعلمين ، واستيثاق الصلة بين المصريين وعلوم الغرب وآدابه . كما جعـل أداء كتب الافرنج بالعربية يدق وترتفع اللغة فيه . وبعد أن كانت الترجمة مقصورة ، على جهة التقريب ، على الكتب العلمية ، فقد جعلت تتناول أيضا كتب الآداب فى مختلف صورها . وما زالت هذه الحركة تطرد وتتسع وتقوى على الزمان ، حتى أدركت اليوم حظا جليلا لقـد كان له فى بناء النهضة القائمة أثره العظيم .

وإذا كنا اليوم نحمد للغتنا تقدمها ووفاءها بكثير من مطالب الحياة فى أسبابها الحديثة ، وإذا كنا بهـذا قد جلونا منها ما لا يكاد يبلغه الحصر من كتب الغرب فى العلوم والآداب ، فإنما نحن مدينون لأولئك الأسلاف بالقسط الأعظم من هذا الفضل العظيم .

التأليف — أما التأليف فى العلوم الحديثة ، فقد استأثر به ، بادئ الامر ، جماعة الأطباء من الغـربيين ، حتى إذا أتم المصريون علومهـم سواء فى أوربا أو فى مصر ، جعلوا هم أيضا يعالجونه فى الطب وما إليه أولا ، ثم فى مختلف العلوم الأخرى فأخرجوا مؤلفات نفيسة .

وعلى الجملة ، فإن بُناة هـذه النهضة من المصريين الذين استصنعهم محمد على لم يقف مطمعهم عند التفقه فى العلوم الحديثة ، والقناعة بالتبريز فيها ، بل حاولوا موفقين ، وخاصة فى السنين المتأخرة ، أن يكون لهم أثر ذاتى فيها ، فبلغوا من ذلك حظا محمودا .

على أن هذه الحركة قد فترت بعد وفاة محمد على فيما فتر من أسـباب النهضة ، حتى إذا عادت الحياة العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل ، أقبل علمـاء المصريين على التأليف ، وما برحت هذه النهضة فى اطراد واتساع حتى بلغت اليوم قدرا إذا جل شأنه فإن البلاد لا تزال تتطلع إلى ما هو أجلّ منه ، طوعا لنهضتنا الكريمة ، ومشايعة لآمالها الجسام فى الحياة .

ومما ينبغى أن يذكر فى هذا الباب أن التأليف جعل يصطبغ بالصبغة الغربية من حيث التحقيق العلمى والجرى على مذاهب النقد الحـديثة . ولم يقتصر على ما ترويناه من العلوم عن الغرب ؛ بل لقد امتدّ إلى التأليف فى علوم العربية وآدابهـا .

## الثقافة ومصادرها فى العصر الحديث

لقد كانت مصادر الثقافة العامة فى مصر لأول هـذا العصر الذى نتحدث عنه لا تتجاوز ، فى الجملة ، ثلاثة : الكتاتيب ، ومعاهد التعليم الدينى ، والمكتبات:

الكتاتيب — أما الكتاتيب فلا يخلو منها بلد ولا قرية ، ولا يكاد يخلو منها فى المدن حىٌّ ولا دَرْب . فلقد كانت وحدها الينبوع الأول الذى يطلبه الناس لتعليم أبنائهم . وفيها يتعلم الصبيان القراءة والكتابة . ويحفظ مَن شاء القرءان كله ، ومَن شاء قنع بحفظ صَدْر من سُوَره الكريمة ، ثم انكفأ به أهله إلى المهنة التى أرادوها له . ويقوم على التعليم والتأديب فى هذه الكتاتيب رجل يُعْرَف ( بالفقى ) فإذا كان الكُتَّاب كبيرا ساعده آخر يُدْعَى ( العريف ) ومما أُدِّب به صبيان المصريين أنهم لا يدْعون هـذا ولا هذا إلا ( بسيدنا ) . والكثرة الغامرة جدا من هؤلاء المعلمين لا تُحسن شيئا غير حفظ القرءان الكريم ، وأحكام تجويده فى الغالب ، ومعرفة قراءاته فى النادر . أما شىء آخر من العلم فلا حظ لأكثرهم فيه ، وخاصة تفسير القرءان الكريم الذى يَطْوون الأعمار فى تلقينه للنشء وتحفيظه . ولعل معرفة أكثرهم لأوليات أحكام الدين ترجع إلى المحاكاة والتقليد بطول تردد المشاهدة والاستماع .

خزائن الكتب — وأما خزائن الكتب فالعامة منها قائمة فى المعاهد الدينية وفى بعض المساجد الكبيرة ، على أنها لم تكن من التنظيم والتبويب بحيث يَسْلَس للمستعير تناول ما شاء منها ، وخاصة فى نوادر الكتب ، وفى غير الدائر من العلوم . وهناك الخزائن الخاصة فى قصور الأمراء ومن إليهم ، وفى دور متقدمى العلماء .

كما كان هناك جماعات الوراقين يبيعون صنوف الكتب فى حواضر البلاد . ولا يذهب عنك ، فى الغاية ، أن هذه الكتب مخطوطة كلها ، فهى فى الجملة ، نادرة . وتناولها ليس بالسهل اليسير على كل إنسان .

المعاهد الدينية — وأما المعاهد الدينيـة فعلى رأسها الجامع الأزهر . وبجلالة محله نحرر له فصلا خاصـا . ولقد كان يدرس العلم فى غيره من المساجد الشهيرة فى القاهرة وفى أمهات المدن الأخرى . على أنها كلّها إنمـا كانت تستمدّ منـه . فالمدرس فيها إن لم يكن متعلما فى الأزهر . فهو متخرج على متعلم فيه ، وهكذا .

# الأزهر

موجز من تاريخ الأزهر — لما فتح مصر جوهر الصقلىّ باسم الفاطميين فى ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بنى فى ٩ رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٠ م ) الجامع الأزهر على أن يكون مسجدًا للعبادة وإقامة شعائر الدين كشأن سائر المساجد . ثم ما لبث هذا المسجد أن اتُّخِذ مدرسة جامعة تُدرس فيها العلوم الدينية ، على مذهب الشيعة ، كما تُلْقَى فيها العلوم اللغوية والعقلية ، وطائفة أخرى من علوم الحياة الدنيا .

وقد جدّ الخلفاء الفاطميون فى استقدام أعيان العلماء من كثير من أقطار العالم الإسلامى وعهدوا إليهم بالتدريس فى الأزهر ، وأَجْرَوْا عليهم الأرزاق ، وأجزلوا لهم الصِلات ، وبَنَوا بجانبه الدور لسكناهم تخفيفا عنهم وترفيها . وكلما زاد عدد الطلاب وكثرتْ حَلق الدروس وسَّعوا فى بناء الجامع . حتى إذا أدال الله من الفاطميين لصلاح الدين الأيوبى هدم دورهم ، وحَرَّق كتبهم ، وأبطل مذهبهم ، فقام التعليم فى الأزهر على المذهب السُّنِّى ، وهو القائم فى عامة البلاد إلى الآن .

وما بِرح التعليم فى الأزهر ينمو ويزدهر بتدريس علوم الدين والدنيا معا ، يطلبه الطلاب من جميع مدن القُطر وقُراه ، كما يطلبونه من جميع أقطار العالم الإسلامى . وما زال هذا شأنه إلى اليوم .

ولقد تقدم صلاح الدين وخلفاؤه من سلاطين الدولة الأيوبية بإنشاء المدارس المختلفة لتعليم الفتيان فى أرجاء القطر المصرى . حتى إذا كانت دولة المماليك شاعت الفنون ، وراجت سوق العلوم ، وعمت المدارس أرجاء القاهرة . حتى إذا ضاقت بها أقيمت خلف سورها ، بل لقد برزوا بها إلى الصحراء .

على أن شيئا من هذا لم يَغُضَّ من قدر الأزهر ، ولم يَحَيَّف من حظ التعليم فيه ، وتهافُت الطلاب عليه من كل مكان .

فلما كان الفتح التركى وساء حكم البلاد ، وشاعت فيها الفوضى بافتتان المماليك وتقاتلهم على السلطة ، ودأبهم على اعتصار دم البلاد بكثرة جباية الأموال . وبسط الظلم لوجه الأبهة والتكاثر بالسلطان ، دَرَسَت الفنونُ، وعُفِّيَت دورُ العلم . إلا أن الأزهر وحده ثبت خلال هذه العواصف العاصفة . ولعل انقباض أيدى الظَّلَمَة عنه يرجع أولا إلى أنه مَثابة التعليم الدينى فلا يسهل مدّ الأيدى إليه بالأذى ، ثم إلى قدمه الذى حلَّ به فى العقائد موضع التقديس ، فضلا عن جليل مكانه فى جميع العالم الإسلامى . وفوق هذا كله فإن عامة طلابه إنما كانوا يفدون عليه احتسابا لله بالتفقة فى علوم الدين وأسبابها . وعامةُ شيوخه من الزَّهَدَة فى الدنيا القانعين بالتافة من وسائل العيش. هذا إلى أنّ ما كان يجرى عليهم من رقيق الأرزاق إنما تفيض به الحبوس والإرصادات التى وقفها عليه الخالون من السلاطين والأمراء ونحوهم .

وبعد فلا يذهب عنك أن للبيئة حكمها ، وأن جمود الفنون وتقلُّص العلوم عن البلاد عامة لابد أن يكون له أثر ما فى التعليم فى الجامع الأزهر. ولقد كان له ذلك بطول الزمن ، فزالت منه علوم الحياة ، على جهة التقريب ، إلا ضَرْبا من الحساب ( المناسخات ) ، للحاجة إليها فى مسائل المواريث ، وأمشاجا من علم الهيئة لضبط المواقيت وتحرير مواعيد الصلاة ، وبعض قضايا الهندسة والفلك ونحو ذلك .

أما العلوم الأخرى ، دينية ولغوية وعقلية ، فقد ظلت تدرس فى الأزهر بكلِّ جِدّ وتشمير ، إلا أنَّ جُلَّ العناية فيها كلها جعل يتجه إلى المناقشات اللفظية ، واستنباط فنون الاعتراضات ، وبثّ ألوان الإشكالات التى لا يزال الطالب يتعثر فيها ، ويعتصر ذهنه فى تفهمها وإلانتها بشدة الجهد والمطاولة . حتى إذا تخلّص إلى لُبّ المادة — إذا تهيأ له أن يخلُص — وصَل منهوكَ النفس ، مستهلَكَ قُوى التفكير .

وإن علوم البلاغة نفسها لم تسلَم من هذا الأسلوب ؛ بل لقد كانت من أشد العلوم إمعانا فيــه . فكانت بهذا أبعد ما تكون عن تعليم البيان وتذوقه وطبع الملكات عليه .

ومهما يكن من شيء فإن لهذا الأسلوب من أساليب التعليم خطره الجليل بمـا يَفْسَح فى الملكات ، ويُرْهِف الأذهان ، ويَطْبع أفكار طلاب العلم على التفطُّن لكلِّ دقيق وجليل ممـا يَعْرِض لهم ، فلا يتقبلون قولًا إلا بعد إجالة الفكر وتقليب الذهن ، والارتصاد لكلِّ ما عسَى أن يقوم فى سبيله من وجوه الاعتراض وألوان الإشكال ، إلى تعويد النفس الصبر على الجدّ فى الإكباب على الدرس ، والتحمّـل عليها بشدة المطاولة فى تفهم حقائق الأشياء .

وهــذا يفسِّر لك سبب النجاح البـارع الذى أحرزه طلاب البعثات الذين اصطفاهم محمد على من بين طلبة الأزهر ، وتبريزهم على سواهم فى علوم ليس لهم بها قديم عهد ولا وثيق اتصال .

وعلى كل حال فإن للأزهر وحده الفضل فى صيانة العلم فى هذه البلاد على طول ما حلَّ بها من المحن ، وما عصف بهـا من ألوان الفتن . وهو لقد كان الينبوع الذى نهِلَت منه النهضة العتيدة ، واستمدّ منه العلم الحديث .

## أشهر رجال الأزهر فى هذا العصر

لم يخل الأزهر فى أىّ عهد من عهوده من جمهرة من فطاحل العلماء الذين دوّى صيتُهم فى الآفاق بما علّموا وحقّقوا ، وما ألّفوا وعلّقوا ، وما بسطوا من كتب السالفين وما أدمجوا ، وما استظهروا من قضايا العلم وما استخرجوا . لم يتعلّق أكثرهم فى هذا بدنيا . ولا عدل به عنه عرض . بل إن منهم لمن كانت تعتريه الدنيا فيولّى منها فرارا ، وتطالعه النعم فيأبَى إلا عيشا قَفارا ، ونوما غِرارا .

وليس يتّسِع مثلُ هذا المقام فى مثل هذا الكتاب لعرض من زَخَر بهم الأزهر من أئمة العلماء فى هذا العصر . ولكنا نجتزئ بالإلمام بأربعة نفر : اثنين ممن جمعوا إلى سَعة العلم وجلالة الفضلِ ، المشاركةَ فى الأسباب العامة ، وملابسة الأمراء ومَن إليهم ، فَعَرُض جاهُهم ، وجَلّ مالهُم ، واستمكن سلطانهُم . واثنين ممن نثروا أيديهم من أسباب الدنيا جملة ، وتجرّدُوا فى تحرير مسائل العلم وتعليم حكام الدين .

### ( ١ ) الشيخ عبد الله الشرقاوى

المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ ( ١٨١٢ م )

هو العلامة الفقيه الأصولى النحوى المؤرخ الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشهير بالشرقاوى . ولد ببلدة الطويلة ، وتربّى فى القرين ، وكلتاهما من أعمال مديرية الشرقية . وبعد أن حفظ القرءان الكريم هبط مصر واتصل بالجامع

الأزهر ، فأخذ عن طائفة من كبار أشياخه . فلما استوى له ما شاء الله من العلم ، قام بالتدريس فى الأزهر . وسرعان ما طارت شهرته بحسن الإلقاء وعظيم التحقيق ، والبراعة فى التأليف فى كثير من علوم الدين واللغة وغيرهما .

وكان الشرقاوى رجلا دائب التطلع لمجد الدنيا فما برح يعالجه ، ويطلب أسبابه ، جاهدا فى ذلك كُلَّ الجهد حتى انتهت إليه مشيخة الجامع الأزهر ، وحتى تهيأ له من الجاه والسلطان وبسطة الغنى ما تتقطع دونه علائق الآمال . ولما قدم الفرنسيون إلى مصر أنشأوا ديوانًا للأحكام ، كما تقدم ، وولَّوا الشرقاوى رياسته [1] .

## ( ٢ ) الشيخ محمد الحفنى المهدى

### المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ( ١٨١٥ م )

هو العلامة الفقيه النحوى الأصولى المنطق الشيخ محمد الحفنى المهدى . والده من القِبْط . وقد أسلم وهو صغير على يد الشيخ الحفنى من أكبر جهابذة العلماء فى عصره . وتولّاه الشيخ الحفنىّ وربّاه فى منزله وضمه إلى أولاده ، فحفظ القرءان وطلب العلم فى الأزهر وأخذ عن أئمة شيوخه جاهدًا مُجِدًا حتى أدركتْ كفايته وبانتْ براعته ، فجلس للتدريس فيه . وما زال يعظم قدره ، وينبه ذكره . على

(١) ومن وصف الشيخ الشرقاوى لرجال الحملة الفرنسية قوله : ”وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قاثوليقية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ، ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل ، ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ، ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يديرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر فانهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع “ .

أنه كان إلى سَعة علمه ، ودقة فهمه ، طَلْق اللسان ، حاضر البديهة ، لطيف المحاضرة ، كيِّسا واسعَ الحيلة ، يَلْقَ كلَّ امرئ بما يُرضيه ، ويقع من كل إنسان عند ما يحبُّ ، فيسَّر له ذلك مجالسة الأمراء ، وملابسة الأعيان من أهل السَّطْوة والثراء . فأحبوه وآثروه وأَجْرَوْا مختلف الأرزاق عليه . وكان إلى جانب حبه للجاه والسلطان ، شديد الشغف بجمع المال ، فدخل فى الالتزامات ، وساهم فى التجارات ، واستنبط ألوان الحيل فى استخراج الأموال ، حتى أصبح مثَلًا سائرا فى سَعة الغنى واليسار .

وما زال يسعى ويجِدّ ويبذُلُ فنون الحيل فى طلب مشيخة الأزهر حتى أدركَها بعد وفاة الشرقاوى ، ولكنه لم يكد يستقرّ فيها حتى ثار به العلماءُ وانتقضوا عليه ، فأزالوه عنها وأُديل منه بالشيخ الشَّنَوانى الذى سيأتى ذكره .

ولما قدم الفرنسيون مصر وأنشأوا ديوان الأحكام جعلوه فى جملة أعضائه ، واختصوه بعنايتهم وإيثارهم ، وتقبلوا شفاعاته فى الناس عندهم ، حتى لقد كان له من سَعة الجاه ، ونفاذ الكلمة ما لم يكن لغيره من سائر أعضاء ذلك الديوان .

## (٣) الشيخ الأمير

### المتوفَّى سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م)

هو العلامة الذى لا يُتَعلَّق بغباره فى علمه وتحقيقه ، ولا فى دِقة فهمه وشدّة تدقيقه ، الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الشهير بالأمير . انحدر من أصل مغربى ، وقد هبط أهله مصر ، وسكنوا بلدة سنبو من أعمال مديرية أسيوط ، وفيها وُلد المترجَم ، رحمه الله . وقد قدم به والداه مصر وهو ابن تسع سنين ، وكان قد حفظ القرآن الكريم فلما جوّده طلب العلم فى الأزهر وأخذ عن أئمة الأشياخ فيه حتى جوّد المعقول والمنقول ، وحَذَق ما تهيَّأ لعصره من الحساب ، والهندسة ،

والفلك . ثم تصدّر لإلقاء الدروس بأعين أشياخه ومجيزيه ، فذاع أمره ، واشتهر فضله ، وقصد إليه الطلاب من كل مكان . و بعثته بعضُ البواعث إلى القسطنطينية ، مَثْوَى الخلافة يومئذ . فألْقَى دروسا حضرها أعيانُ العلماء هنالك ، فأقَرُّوا بفضله ؛ وشهدوا بسَعة علمه ، واستجازوه فأجازهم .

وقد صَنَّفَ فى كثير من العلوم فكانت تصانيفه موضعَ الإجلال والثقة لما امتازت به من براعة التحرير ، وقوة التحقيق . حتى لقد كان بعض أشياخه إذا غُمَّ عليهم الأمر فى إحدى مسائل العلم راجعوا بأعين طلابهم ما كتب فيها الأمير . وكلها حواش وشروح فى الفقه المالكى وعلم العربية .

وكان رحمه الله رقيق القلب ، مرهف الحس ، حلو الحديث ، زاهدا فى متاع الدنيا ، شديد الرغبة عنها . ولقد عاش ما عاش ، ماتهافت على صحبة الحكام ، ولا داور طَغامَة الظُّلام ، ولا جَهَد فى إحراز الجاه ولا جمع الحُطام . وكان يعالج نَظْم القريض أحيانا . ومن قوله فى التشبيه :

يا حسن لون الشمس عند غروبها ... فى روض أنس نزهة للأنفس
فكأنه وكأنها فى ناظرى ... ذهب يجول على بساطِ سندس

## ( ٤ ) الشيخ الشنوانى

### المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ ( ١٨١٧ م )

هو العلامة الثقة الحجة فى المعقول والمنقول ، الوَرِع الناسك شيخ الإسلام الشيخ محمد بن علىّ الشنوانى الشافعىّ . طلب العلم فى الأزهر ، وتروّاه عن أعيان شيوخه حتى بَذَّ لداته و بَرَعَ قرناءه . ثم جلس للتدريس فى جامع الفاكهانىّ ، الواقع

فى منتصف شارع الغورية ، فأقبل عليه الطلاب من كل حَدَب ، وكان رحمه الله على جزالة فضله وجلالة محلّه ، شديد التواضع والانكسار ، وخفض الجناح لأهون الناس ، وإذا فرغ من نُسُكِه ودَرْسه شمّر ثوبه وراح يكنُس الجامع بيده ويُسْرِج قناديله احتساباً لله تعالى .

ولما قُبِضَ الشيخُ الشرقاوىّ أرادوه على مشيخة الأزهر فأباها وتعذَّر عليها ، وهرب إلى مصر العتيقة ، وكان قد وثب إليها المهدىّ ، فجاءوا بالشنوانى وولّوه المشيخة قهرا بعد أن أزالوا المهدىّ عنها كما تقدم .

## أثر الثقافة فى ذلك العصر

قد عرفتَ مصادر الثقافة العامة فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه ، وأنت خبير بأن ذلك التعليم الأولى أى تعليم الكتاتيب ، لم يكن له أىّ غَناء فى تنوير الناشئ وإعداد ذهنه للتفطن فى جواهر الأشياء ، وصِدْق الحكم على ما يعرِض له من الحقائق فى أسباب الحياة . وأما قراءة الكتب وتقليب الأذهان فيها فقد كان ذلك مقصورا على طبقة ضئيلة جدا من الناس ، على حين كان سواد المصريين غارقا فى الجهالة العمياء ،وأما الأزهر وما يلحقه من المعاهد الدينية،فلم يكن كذلك فيه كبير غَناء فى تعليم جمهرة الشعب ، وخاصّة من هذه الناحية التى سُقنا إليها الكلام ، ذلك بأن عدد طلابه ضئيل جدا بالقياس إلى مجموع الأمة ، على أنه قلَّ مَن كان يواصل التعلم فيه إلى النهاية ، بل إن أكثرَ من كانوا يطلبونه لَيتخلّفون فى بعض الطريق ، وعلى أنَّ مَن يواصل الطلب حتى يستوى له القدر الصالح من العلم ، يؤثر البقاء فى جوفه ليدرّس كما دَرَس ، وليعلِّمَ كما تعلَّم ، فلم يكن الاتصال وثيقا بين العلم الذى يُلْقَى فى الأزهر وما إليه و بين سواد الناس .

كذلك لا يذهب عنك أنّ الأزهر فى ذلك العهد ، فوق أنه كان خِلْوا من علوم الدنيا ، على جهة التقريب ، كانت العناية بالتعليم فيه مقصوراً أجلّها على تحقيقات لفظية لا يمكن أنْ تتعلق بها أذهان العامة ، ولا هى مما يُجْدى عليهم فى كثير ولا قليل .

بَقِى أنّ هناك شيئا لا يُجْهَل خَطَرُه ، ولا يُنْكَر فى هذا الباب أثَرُه ، وهو أنَّ كثيرا من علماء الدين كانوا ، وما زالوا ، يجلسون للعامة فى المساجد فى القاهرة وفى

كثير من المدن وبعض القرى لتعليمهم أوليات فرائض الدين ، وطَرَفا من تفسير الكتاب العزيز ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصّة ما اتصل منه بالحضّ على فضائل الأعمال . فإذا كانت المعاهد الدينية قد أجدت على سواد المصريين فى باب الثقافة ، فأبْلَغُ الجَدْوَى إنما كان من هذه الناحية .

## الثقافة الحديثة

لا شكّ فى أنّ النهضة التى بعثها محمد علىّ فى هذه البلاد بإنشاء المدارس للتعليم العام ، ولتعليم الفنون المختلفة ، وباستقدام طوائف العلماء من بلاد الغرب ، وبإيفاد البعوث من شباب المصريين إليها للتكمّل بالعلوم العالية — لا شكّ فى أنّ كلَّ هذا وما استتبعه من الإقبال على قراءة الكتب وترجمتها وتأليفها ، ومعالجة الأسباب الفنية فى الوجوه المختلفة — كل هذا لقد كان له أبلغ الأثر فى بثّ الثقافة الحديثة فى هذه البلاد ، ورفع المستوى الذهنى فيها إلى درجة محمودة .

نعم ، إن هذه الثقافة لم تَتسِع فى سواد الأمة ؛ بل لقد كانت مقصورة على طبقة صغيرة خاصة ، هى طبقة المتعلمين على النظام الحديث ؛ على أنهم وإن قلّ عددهم بالإضافة إلى مجموع الأمة ، فلقد كان انتاجهم كثيرا جليلا ، بحيث كانوا فى جملتهم قادرين بالتعليم والتهذيب والتأليف والمحاضرة فى المجالس الخاصة على رفع المستوى الذهنى العام إلى حظ صالح .

وقد اصطبغت الثقافة الحديثة فى صدر هذا العصر بالصبغة العلمية . وذلك لأنّ هذه النهضة إنما أثارها القائم بالأمر ، بادئ الرأى ، تحقيقا للاغراض القومية المادية . فبدأ بالتعليم العسكرى ، وثنى بتعليم الطب وما إليه لحاجة الجيش أولا .

ثم جعل يتدرج فى تعليم الفنون المختلفة ليقيم صدور الإصلاح والتعمير والتثمير فى مختلف النواحى ، وليسدّ بصنع البلاد ما تحتاج إليه فى مرافقها ، مستغنية به ، بقدر الإمكان ، عمّا من شأنها استيراده من البلاد الأجنبية . فكان من الطبيعى أن تخرج الثقافة العامة فى الصبغة العلمية . على أنّ الآداب إذا كانت قد تحركت هى الأخرى فى هذا العهد، فلقد كان تحرُّكُها طوعاً للنهضة العلمية ، وتحقيقا لمطالبها ، ومواتاتها بحاجاتها فى الترجمة والتأليف .

فلما كان عصر المرحوم إسماعيل باشا، وقطعت البلاد شوطا بعيدا فى تحصيل العلوم والفنون المادية، جعلت تلتفت إلى الآداب على صورة أقوى وأدقّ وأوضح، وما برحت تطّرد فى هذا وتستزيد منه ببعث كتب الآداب القديمة ، والإقبال على دراستها ، والتأليف فيها ، وإرسال الأقلام فى الصحف السيارة بمعالجة البحوث المختلفة فيها . وظلّ يجلّ شأنها حتى أقيمت للآداب كُلّيتان إحداهما فى الجامعة المصرية، والأخرى فى الجامعة الأزهرية، حتى لقد أصبح العنصر الأدبى فى الثقافة المصرية إن لم يزد على العنصر العلمى فيها ، فهو لا يقلّ عنه بحال .

ومهما يكن من شىء فإن نشر الثقافة العامة فى مصر كما يرجع إلى الأسباب المتقدمة ، فإنه يرجع كذلك إلى سببين مهمين : وهما إنشاء المطابع ، وإصدار الصحف .

## المطابع والصحف

من أهمّ ماعُنِيَتْ به هذه النهضةُ الحديثةُ ، وكان له الأثر البليغ فى إشاعة العلم ببعث الكتب القديمة ، ونشر المؤلفات الحديثة ، كما كان له الأثر البعيد فى نشر الثقافة العامة بين سواد الأهلين، هو إقامة المطابع وإصدار الصحف .

وأنت خبير بأن الكتب إذا كان المعتمد فى إخراجها على النسخ باليد قَلَّتْ وندرتْ، لما فى ذلك من الجهد والمشقَّة، إلى ضَنّ مالكيها بها خوفاً عليها من جهة، ومطاوعة للأَثَرة والاعتزاز من جهة أخرى . أمّا وسائل النشر الأخرى فكانت معدومة إلا ما كان يَعْتَمِد عليه الحكامُ فى تبليغ أوامرهم للأهلين على ألسن عُمَد البلاد ومشايخها فى القُرى، وشيوخ الأقسام والحوارى فى المدن، فلما قامت المطابع وجعلت تطبع الكتب بالمئات والآلاف يسَّرتها للناس بالشراء، وللعاجزين والضانِّين بالاستعارة من المكتبات ومن الأفراد . وبهذا شاع العلم وتيسَّر طلبه لطالبيه . كما أنّ إصدار الصحف قد يَسَّر للأهلين الوقوفَ على أوامر الحكومة، وما تفرضه من الأحكام العامة عليهم . ثم امتدّ عملُ الصحف، على توالى الأيام، فتناولتْ إفشاءَ الأخبار العامة، محليّة فعالميّة، ثم ارتقتْ إلى نقد الأعمال الحكومية، والإفضاء بآمال الأهلين ورغباتهم فى المرافق المختلفة .

## المطابع

مهما قيل من أنّ الطباعة كانت معروفة منذ العصور القديمة عند الصينيين، وعند الكلدانيين بطريق النقش على الخشب أو الآجُرّ، فإن الطباعة الحديثة القائمة على جمع الكلمات من الأحرف الرصاصية المتفرِّقة لم تُعْرَف إلّا فى أواسط القرن الخامس عشر للميلاد . والمعروف أنّ مخترع هذه الطريقة هو حنا جوتنبرج الألمانى سنة ١٤٤٠ ثم شاع استعمالها فى سائر أوربا . ثم دخلت إلى الآستانة فى منتصف القرن السادس عشر .

ولقد كان لشيوع الطباعة أثرها البالغ فى الحضارة القائمة، بما أشاعت من الكتب فى العلوم والفنون، ويَسَّرَتْ من تبادل الأفكار بين أهل العلم والرأى

فى أقطار الأرض ، واستثارتْ من الهمم للتأليف وإرسال البيان فى جميع أسباب الحياة، وبعثتْ على إخراج الصحف الدورية، وغير ذلك من وسائل النشر وإشاعة العرفان فى أرجاء العالم .

أما مصر فلم يكن لها أىّ عهد بالطباعة قبل مقدم الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ ( ١٧٩٨ م ) . حتى إذا جاء بونابرت على رأس تلك الحملة جاء معه بمطبعة مزوَّدة بحروف لاتينيــة ويونانية وعربية ، لطبع حاجات الفاتحين ، ومنها إبلاغُ أوامرهم للمصريين ، وولّى إدارتَها أحدَ المستشرقين الفرنسـيين ، وأرفده بطائفة من المصححين والعمال ، كما استقدم من روما اثنين من السـوريين ليقوما بالترجمة إلى العربية .

وانتهضتْ هذه المطبعة بأداء تلك الأغراض، كما تولّتْ طبع صحيفتين فرنسيتين كان يُصْدرهما الفاتحون ، وصحيفة عربية كانت تدعى ( التنبيه ) . وسيأتى ذكرها عنـد الكلام على الصحافة . وقامت فوق ذلك بطبع كُتَيِّب فى الهجاء العربىّ والتركىّ والفارسىّ ، وتمرينات فى القراءة العربيـة الفُصْحَى مقتطفة من القرءان الكريم ، وكتاب ( وصف الرَّمَـد فى مصر وطرق معالجته ) للطبيب سافارنرى وغير ذلك .

فلمّا جلا الفرنسيون عن مصر بطلتْ الطباعة فيها . حتى إذا كانت سنة ١٨٢١م بدا لمحمد علىّ الكبير أن ينشئ مطبعة يُواتى بهـا الحاجات الحكومية من جهة ، ويُواتى بها شطراً من رغباته فى نشر العلم وإشاعة العرفان . فأنشأ "المطبعة الأهلية" أو "مطبعة بولاق" ، وكان يقال لها مطبعة الباشا ، وأقامها فى موضع "الترسانة الأميرية" الآن على نحو نصف كيلو متر من موضعها الحالى من الجهة الشمالية .

وقد جدّت هـذه المطبعة فى طبع الأسباب الحكومية ، عسكرية وملكية . وقامتْ على طبع ( الوقائع المصرية ) وهى الجريدة الرسميـة للحكومة إلى الآن . وسيأتى الكلام عليها بعد . كما انتهضتْ بطبع ما لا يُحْصَى كثرةً من الكتب التى ألِّفَتْ من ذلك الحِين فى اللغات المتعددة ، وبعثتْ كثيرا جدًّا من الكتب القديمة فى مختلف العلوم والفنون . وكان فى مطبعة بولاق قسم يُدْعَى ( القسم الأدبىّ ) يختص بطبع الكتب التى يراد طبعها فى العلوم والفنون والآداب . ثم فُصِلَ عنها وأُلحِقَ بدار الكتب المصرية .

ومن ذلك الحين اقتصرت مطبعة بولاق على طبع الحاجات الحكومية ، ومنها (الوقائع المصرية) وكثير من الكتب الدراسية ، وقليل جدا من الكتب الأخرى.

وعلى كل حال فإن مطبعـة بولاق كما تُعَـدُّ أقدم المطابع المصرية فى هـذه البلاد ، فإنها أفخر مطابعها وأغناها وأوسعها وأعظمها استعدادا وأكثرها إنتاجا ، كما أنها تُعَدُّ من هذه النواحى ، فى مقدمة المطابع فى الشرق إن لم تكن أهمها جميعا .

وقد أنشأ محمد علىّ مطابع أخرى لطبع الأوامر والأحكام العسكرية ونحوها، ولكن شيئا منها لم يبلغ بعضَ شأو هذه المطبعة .

أما الأهلون فظلوا بعد ذلك ، منقبضين عن إنشاء المطابع عشرات السنين إلى أن أنشأت الدار البطريركية القبطية ، فى غاية حكم المرحوم سعيد باشا ، مطبعة سميت ( المطبعة الأهلية ) . وما زال إنشاء المطـابع يتوالى بعد ذلك على مرور الأيام . وما برحتْ تتبارى فى تجويد الطبع وتحسينه ، كما جعلتْ تَفْتَنُّ فى طبع الصور ملونة وغير ملونة ، محاكية فى ذلك أفخر مطابع الغرب حتى بلغتْ من ذلك الآن موضعا تُحمد عليه ، وإن كانتْ ما تزال تستشرف من هذا إلى مزيد من الإحسان والإبداع .

أما البلاد السُّورية فقد سبقتْ مصرَ إلى اتّخاذ الطِباعة . فقد أنشأ الرهبان اللبنانيون مطبعة فى أوائل القرن السابع عشر ، وكان أكثر ما يُطْبَع فيها الكتبُ الدينية ، على أنها وإن كانتْ تقوم بطبع المصنَّفات العربية إلا أنها تُخْرِجها فى حروف سريانية . وظلَّتْ الحال على هذا إلى أن صُنِعَت الحروفُ العربية فى حلب فى أوائل القرن الثامن عشر ، ومهما يكن من شىء فقد ظَلَّت المطابعُ فى سورية مقصورة ، على جهة التقريب ، على طبع الكتب الدينية إلى ضُحَى القرن التاسع عشر .

وتوالَى بعد ذلك إنشاءُ المطابع ، وقامتْ إلى جانب طبع الكتب الدينية بطبع الكتب العلمية والأدبية . وأهمّ المطابع فى سورية وأنخرها وأعظمها استعدادا مطبعة الآباء اليسوعيين ، أُنشئت فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولا زالت قائمة إلى الآن . وقد أخرجتْ ما لا يُحْصَى كثرةً من الكتب والرسائل فى العلوم والفنون والآداب ، بين مصنَّفات حديثة ، وأخرى قديمة .

## الصحف

الصحف جمع صحيفة ، وهى القِرْطاس المكتوب . وهى من الكتاب الورقة بوجْهَيها . وقد أُطلِقتْ فى العُرْف الحديث على صحيفة مطبوعة تَنْشُر الأنباء والآراء وآثارَ الفكر فى أسباب الحياة المختلفة . وتُدْعَى بإطلاق العُرْف أيضا ( الجريدة ) . وقد خصصوا هذه اللفظة للصحف التى تخرج كلَّ يوم أو يومين أو أكثر ، فى ورقات طويلة عريضة ، فى العادة ، لمعالجة المسائل السياسية ، وإذاعة الأخبار الهامة ، وإرسال الأفكار والآراء فى الأسباب الدائرة بين الناس . وهناك ضَرْبٌ آخر من الصُّحُف يخرج فى كل أسبوع أو أكثر فى شكل الكراسة ، متحريا للعلوم أو الآداب أو الفنون ، أو جامعا بينها جميعا . وهذا يُدْعَى فى العرف الحديث أيضا ( المَجَلّة ) . والمَجَلّة فى أصل اللغة : صحيفة فيها الحكمة .

وقد عُرِفَت الصحافةُ عند الصينيين من قبلِ الميلاد بنحو ألف عام . ولعلها كانتْ فى أضيق الحدود ، واتَّخذها الرومانُ قبل الميلاد أيضا بنحو سبعة قرون . وعلى كلٍّ حال فالصحافة بمعناها الحديث ، وبقوّتها وذيوعها ، لم تظهر إلا فى أواسط القرن السادس عشر بعد الميلاد ، أى بعد اختراع المطبعة ، فهى التى يَسَّرَتْ لها السبيل . ومن ذلك التاريخ جعلتْ تتعاقب الصحفُ فى بلاد أوربا حتى عَمَّتها ، وجعل شأنُها يعلو، وكلمتها تنفذ ، وسلطانها يتبسط ، ومزاياها تجزُل ؛ حتى أصبحتْ عنصرا من أهم عناصر الحضارة التى نعيش فيها وأبعدها أثرا ، وأمكنها سلطانا . وحسبها أن عَدَّها جمهورُ أهل الرأى فى العالَم المتحضِّر رابعةَ السُلطات ، يريدون سلطات التشريع ، والتنفيذ ، والقضاء . وذلك لما لها من جلالة المحلّ بالتحدُّث على آمال الأهلين ونفض جملة رغباتهم ، ونقد أعمال الحكومات ولفتها إلى وجوه النفع العام ، والترجمة عن نزعات الأحزاب والهيئات المختلفة ، وبثّ الدعوة إليها ، والتلويح بنيات الحكومات فى الأسباب الهامة سواء لمجموع الشعب أو للحكومات الأخرى فيما يتعلق بالمسائل الخارجية . وهذا كُلُّه فوقَ إذاعة الأخبار من جميع أقطار العالَم وما يجدّ فيه من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما ينجلى عنه السعى من اختراع جديد ، أو كشف طريف .

ولم تقف الصحف القيِّمة عند هذا الحد ، فلقد حررت فى مطاويها صفحات لنشر البحوث العلمية ، والأدبية ، والفنية . وعلى الجملة فإن الصحف على ما لها من الفضل العظيم فى ربط أجزاء العالَم بعضه ببعض ، حتى أصبح بها وكأنه يعيش كلُّه فى رُقعة من الأرض واحدة ، وما لها من الفضل فى الوجوه التى أسلفناها عليك ، فإن لها كذلك أبلغ الأثر فى تهذيب الشعوب وأخذها بأنور الثقافات .

## الصحافة فى مصر

لم يكن لمصر أىّ عهد بالصحف من أىّ نوع كان حتى مهبط الفرنسيين مصر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) إذ أصدروا فيها صحيفتين فرنسيتين . وأخرجوا نشرة بالعربية دُعيت (التنبيه) لإذاعة المهمّ ممـا يجرِى فى ديوان القضايا كما تقدم لك ، فإذا صدق على هــذه النشرة اسم (الصحيفة) فهى أول صحيفة عربية صدرت فى مصر على الإطلاق .

## الوقائع المصرية

أما أول صحيفة فى حدود المعنى المعروف فهى (الوقائع المصرية). تقدم بإنشائها المرحوم محمد علىّ باشا فى سنة ١٨٢٨ م . وكانت تصدر أولا بالتركية ؛ ثم بالتركية والعربيـة . ثم أصبحت عربية خالصـة . وكانت فوق نشرها أوامر الحكومة وأحكامها العامة تورد الحوادث والأخبار الهـامة ، وتعالج طَرَفا من الموضوعات الأدبية والاجتماعية وغيرها ، بقـدر ما كان يسمح به التفكير ، ويأذن به نظام الحكم فى ذلك الزمان . وقد تولّى تحريرها نفر من أفاضل الكتّاب فى ذلك العصر من أمثال المرحومين الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين . ولم تصدر أية صحيفة أخرى بعد ذلك إلى أن كان عصر إسماعيل .

فلما كان ذلك العصر واتّسعت رقعةُ الحضارة ، وجَعَلَتْ مصرُ تدارج فى هذا الباب أمم الغرب ، أخذ الأهلون أنفسُهم يُنشئون المجلّات العلمية ، والصحف السياسية . ففى سنة ١٨٦٥ م أصدر المرحوم محمد علىّ باشا البقلى (اليعسوب) وهى مجلة طبية شهرية . وعاونه فى تحريرها المرحوم الشيخ محمد الدسوقى . وممـا ينبغى أن يذكر أن (اليعسوب) كانت أول مجلة ظهرت فى العربية فى العـالَم . وفى سنة ١٨٦٦ م أصدر المرحوم أبو السعود أفندى جريدة سياسية أدبية علمية دعاها

( وادى النيل ) تخرج مرتين فى كل أسبوع . وظلت قائمة إلى وفاة صاحبها سنة ١٨٧٨ م . وفى سنة ١٨٦٩ م أصدر المرحومان إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال جريدة أسبوعية دعَوَاها ( نزهة الأفكار ) وكانت شديدة اللهجة ، فلم يلبثها إسماعيل باشا حتى ألغاها .

وفى سنة ١٨٧٠ م أصدرتْ مجلّة للطلبة دُعيت ( روضة المدارس ) كانت تفيض بسابغ الفصول فيها أقلام أئمة العلم والأدب من أمثال رفاعة بك ، وعلى مبارك باشا ، وإسماعيل باشا الفلكى ، والشيخ حسين المرصفى ، وعبد الله باشا فكرى . وكانت إلى جانب هذا تنشر آثارا مختلفة لبعض متقدمى الطلاب . والواقع الذى لا مِرْية فيه أنّ هذه المجلة كانت مما نفخ فى روح النهضة اللغوية والأدبية فى هذه البلاد حتى شَبّتْ وأضحى لها أعظم شأن .

وفى سنة ١٨٧٧ م صدرت جريدة (الوطن) . وهى أقدم الصحف القبطية . وفى سنة ١٨٩٥ م صدرت جريدة قبطية أخرى هى ( مصر) ولا تزال قائمة إلى الآن . وبين هذين التاريخين صدرت صحف قبطية أخرى إلا أنها لم تعش طويلا .

ولقد كانت البلاد السورية ترزح تحت نير الحكم التركى ، فلم يكن لحريّة الأقلام ولا لغيرها من صور الحرّيات حظ كبير ، فنزح كثير من أدباء تلك البلاد إلى مصر ، وأنشأوا فيها الصحف ، لاتّساع مجال الأقلام ، ولِمَا عَرَفُوا من هَوَى إسماعيل لمظاهر الحضارة الحديثة ، وتشجيعه للأدب وعطفه على رجال البيان . وأقدم تلك الصحف جريدة ( الكوكب الشرق ) التى أصدرها سليم حموى باشا فى الإسكندرية سنة ١٨٧٣ م . ثم صدرت فى الإسكندرية أيضا ( الأهرام) للأخوين سليم وبشارة تقلا فى سنة ١٨٧٦ م . ثم نُقِلَتْ إلى القاهرة، وما بَرِحَتْ تصدر بها إلى الآن . ثم صدرت (المحروسة) لصاحبيها أديب إسحاق ، وسليم نقاش سنة ١٨٨٠م .

وما زالتْ تتعاورها الأيدى بعدَها حتى أبطلت من بضع سنين . ثم ظهرتْ جريدة ( المقطم ) سنة ١٨٨٨ م . ولا تزال قائمة إلى الآن .

ولقد راع أهلَ الرأى وأعيانَ أصحاب الفضل أن ليس هناك صحيفة واحدة تتحدث عن الأمة وتترجم عن الأمانى القومية . والاحتلال الإنجليزى قائم فى البلاد ، وسلطان المعتمد البريطانى يتبسط فى جميع مرافقها يوما بعد يوم ، إذ الصحف القائمة ما بين مؤيِّد للنفوذ البريطانى . جادّ فى الدعوة إليه . وبين مَن كان ظاهر الهوَى إلى فرنسا . أما الصحف المصرية الطائفية ، فكانت نزعتها ، على الجملة ، احتلالية . راع المصريين هذا وسرعان ماصدرت فى السنة التالية ١٨٨٩ جريدة المؤيَّد ويقوم على شأنها المرحومان الشيخ على يوسف والشيخ أحمد ماضى. ثم خَلَصَتْ لأولهما بعونٍ من أصحاب الفضل واليسار . وأقبل أئمة العلماء وكبار الكاتبين من الساسة والأدباء على المؤيد فأجالوا أقلامهم فيه بكل كريم من القول جليل . وكذلك أصبح المؤيد لسان مصر الناطق ، وترجمانها الصادق . كما أصبح ترجمان العالَم الإسلامى كلِّه ، بما شاد بفضائل الإسلام وذاد عنه ، وما نافح عن حقوق المسلمين فى كلِّ مكان . وكان يكتب فيه عصارةُ رجال العلم والقلم من أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، وقاسم بك أمين وإبراهيم بك المويلحى ومصطفى كامل باشا ، فى أول نشأته ، وأضرابهم .

وعلى كل حال ، فلقد كانت جريدة المؤيد هى المدرسة التى تخرج عليها أشهر كُتّاب العصر الماضى . وسيأتى ذكر صاحبها فى موضع آخر .

وفى سنة ١٩٠٠ أصدر المرحوم مصطفى كامل جريدة اللواء ، وكان شعلة ملتهبة من الوطنية الخالصة ، جَيّاش القلم بحقّ الوطن فى الخلاص من الاحتلال الأجنبيّ . وسرعان ماالتفّ حولهَ شبابُ البلاد وكثير من شيوخها ، وأحبوه وظاهروه وناصروه . وبهذا استطاع أن يؤلِّف أولَ حزب فى البلاد بعد الاحتلال الإنجليزى وهو ( الحزب الوطنى ) . وأنشأ رحمه الله صحيفتين أخريين إحداهما فرنسية ،

والأخرى إنجليزية ، وأرصدهما للغرض الذى أصدر له اللواء . على أنهما لم يعيشا طويلا . وسيأتى ذكر المرحوم مصطفى كامل باشا فى موضع آخر .

ثم توالَى ظهور الصحف اليومية من ذلك التاريخ إلى الآن . وما برحت الصحف المصرية تتبارى فى التجويد والإحسان بسَعة الحجم ، وإتقان الطبع ، وصحة العبارة ، والإسراع إلى نشر الأنباء الهامة ، فى مصر بطريق مخبريها ، وفى سائر أرجاء العالم عن طريق مراسليها فى أهمّ مدن الغرب والشرق . وقد تحررت بعض الصحف فى أكثرها لأبواب العلوم والفنون والآداب ، يتبارى فى القول فيها كلُّ نابه حسان ، من عالم وأديب وفنّان . وعُنى أكثرها كذلك بتجلية ما يهم الجمهور من صور الأناسىّ والأمكنة وغيرهما . وعلى الجملة فقد جَعَلَتْ الصحفُ فى بلادنا تحاكى مثيلاتها فى الغرب . وأصبح أكثرها ألسنةً للأحزاب القائمة فى البلاد . وقد زاد عدد المطبوع منها زيادة هائلة بكثرة المتعلمين ، وإقبال الجمهور على تفهُّم الشئون العامة .

وبعد ، فقد أضحت الصحافة فى مصر قوية ؛ وأضحى نفوذها عظيما فى توجيه الجماهير فى المنازع السياسية . وتنبيهها على وجوه المنافع القومية فى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية . والارتصاد لنَقْد أعمال الحكومات . ولفتها إلى ما يجدر بها من القيام على المصالح العامة . هذا فضلا عن أثرها البعيد فى التعليم والتثقيف .

ولم يكن شأن المجلاّت العلمية والأدبية والفنية فى بابها بأقلّ من شأن الصحف السياسية . فقد جَعَلَتْ هى الأخرى تتبارَى فى الإجادة والإحسان حتى أدرك بعضُها حظا جليلا من شأو مثيلاتها فى بلاد الغرب .

## النهضة السورية

لم يكن حظُّ البلاد السورية فى صدر هـذا العصر الذى نتحدّث عنـه خيراً من حظِّ مصر . و إذا كان التعليم هنالك تقوم به طائفة من المدارس منتشرة هنا وهناك ، وقِوامها التعليم الدينىّ فى الغالب ، فإن مصر تمتاز بالأزهر الشريف . فلقد كان ، على كل حال ، وحدة تعليمية جامعة إذ كان ، وما زال ، يقصد إليه الطُّلّاب من جميع مدن القطر وقراه ، كما ينتجعه الطُّلّاب من جميع بلاد العـالَم الإسلامى . و إذا كان الجامع الأموىّ قائما فى دمشق تدرس فيه علوم الدين واللغة كما تدرس فى الأزهر ، فإن شأنه ، فى أية ناحية من النواحى ، لم يرتفع إلى شأن الأزهر .

على أنّ دخول الفرنسيين مصر كما كان له أثره فى لفتهم إلى أسباب الحياة الحديثة ، فقد كان له كذلك أثر فى تنبيه جيراننا السوريين إلى هـــذا العيش الحديث . ولكنّ معالجةَ العلوم الحديثة ، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية يختلف سببه المباشر فى مصر عنه فى سورية . فقد علمتَ أنّ رغبة محمد على الكبير فى إنشاء جيش منظَّم مدرَّب أولا ، وأخذه البلاد بمظاهر هذه الحضارة ثانيا ، هما اللذان دفعا مصر إلى هذه النهضة . أما فى سورية حيث تكثر نسبة السكان المسيحيين ، على اختلاف نحلهم ، وحيث الحكم والسلطان إلى دولة على غير دينهم . فلقد تَسَرَّب إليهم العلم الحديث ، بادئ الأمر ، عن طريق التبشير . ذلك بأن البعوث الغربية من أوربية وأمريكية ، قد توالتْ على ربُوع سوريا وشَـيَّدَت المدارس ، وأقامت المكتبات ، وأدارت المطابع ، وقامت إلى جانب تعليم الدين المسيحى والدعوة إليه بتعليم العلوم الحديثة . فأقبل الطلاب عليها من كل مكان .

حتى إذا برع فى أبواب العلوم والفنون من شباب السوريين مَن برع ، جعلوا هم أنفسُهم يشيدون المدارس العالية وغيرها ليُباروُا بها مدارسَ تلك البعوث .

وفوق أنّ وحدة الدين قد يَسَّرَتْ للبعوث الغربية تبسُّطَها فى البلاد السورية وتهافُتَ الطلاب عليها ، فإنها كذلك ذَلَّلَتْ للكثيرين من السوريين الاختلافَ إلى ديار الغرب لترِوى العلم من مناهله .

ومهما يكن من شىء فإن هذه النهضة لم تقتصر جَدْواها على نشر العلم وحده . بل لقد حَرّكت الرغبة فى إحياء اللغة أيضا . لأنه لا حياة للعلم بدون اللغة ، ولأن دخول العلوم الحديثة قد أثار العزائم لمراجعة قديم اللغة طلبا لاستخراج ما عسى أن يمكن استخراجه من مفرداتها وصيغها للوفاء بمطالب العلم الحديث ، على نحو ما صنعت طليعة المصلحين فى مصر . ومما ينبغى أن يذكر أيضا أنّ هؤلاء المبعوثين الغربيين قد لفتوا أبناء العربية من أهل سورية إلى وجوب مراجعة لغتهم وبعثها علماً منهم بما فيها من السَّعَة ، وما تملك من نواصِى الكلام فى مختلف الأغراض .

وليس معنى هذا كله أن السوريين لم يعْنَوْا بدراسة العربية والتفقُّه فيها إلا بعد مهبِط تلك البعوث إلى ديارهم ، فلقد توَفَّر على درسها وتقييد شواردها ، والاستشراف إلى مجالى بلاغتها من قَبْلِ ذلك كثيرون ، سواء أكان ذلك فى أثناء طلب العلم فى المدارس التى سُلِكوا فيها ، أم فى تحرُّرهم الشخصىّ لهذا المطلب ، إلا أن مسعاهم بادئَ الرأى إلى التفقه فى اللغة وإصابة بدائعها لم يكن يُطْلَب به إلا ترسُّم خُطا السابقين ومحاكاتهم فى أشعارهم ومقاماتهم ، ومجاراتهم فى أخيلتهم ومنازع بلاغاتهم . ولكنّ الهمة لم تُشْحَذ فى طلب اللغة مدارَجة لحاجات الحياة إلا بعد وفود تلك البعوث إلى هذه البلاد . وخاصّة عند ما دُعِىَ بعضُ هؤلاء اللغويين للتدريس فى المعاهد الحديثة ، وأريدوا على وَضْع الكُتب فى اللغة وآدابها على مُقْتَضَى مناهج التعليم الحديثة .

وعلى كل حال فقد جعلتْ تلك النهضة في البلاد السورية تشبّ وتتسع، فزادت المدارس الوطنية، وأنشئت المجامع العلمية، وكثرت المطابع، وجَلّ شأنُ الصُّحُف، وعلى الجملة فإن السوريين قد خَطَوْا خطاً واسعة في أسباب الحضارة، والتوسّل بوسائل العصر الحديث. وما برحوا يطلبون من ذلك المزيد.

ومما يذكر في هذا المقام أن الثقافة العامة كما اصطبغت في مصر لأول عصر النهضة الحديثة بالصبغة العلمية، كما تقدّم، فقد اصطبغت الثقافة السورية أول الأمر بالثقافة الأدبية. ذلك بأن نهضة سورية الحديثة إنما أثارتها البعثات الغربية، كما سلف عليك، وإنما كانت مهمتها أولا نشر المذاهب الدينية، وكان من أهم مساعيها في هذا الباب ترجمة التوراة إلى العربية ترجمة دقيقة وافية. فلا بدع أن تصطبغ الثقافة هناك أوّلَ الأمر بالصبغة الأدبية، حتى لقد ظلّت الصحف في سورية دهرا مقصورا كلُّ هَمِّها أو أجَلُّه على البحوث الدينية والمذهبية.

وإذا كانت هذه البعثات قد حملت معها إلى تلك البلاد صدرا صالحا من العلوم والفنون المادية، فإن ذلك لم يكن الغرض الأول من مَسْعاتها على كل حال.

## إسماعيل وإتمامه أعمال جده

قُبِضَ المرحومُ محمد علىّ باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٩ م ) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة كانت كلُّها فى فنون الإصلاح والتعمير والتثمير نهضات متداركةً متلاحقةً ، ووثباتٍ متباريةً متسابقةً . فمن جيش قوىّ مدرّب منظّم ، إلى تعليم ناضج مثمر فى كلِّ أسباب الحياة ، وإلى مصانع ومعامل تُخْرِج على أيدى العمال المصريين ما يكاد يَسُدُّ حاجات البلاد ، إلى فنون الصناعات المختلفة ، إلى استصلاح الأَرَضين بشَقِّ التُّرَع ، وغير ذلك من وسائل إقبال الزرع وتوفير الغَلّات .

وقد استتبع ذلك كلُّه انبعاثا فى الأدب ، كان فى مبتدأ الأمر ضرورة دعت إليها حاجة العلم ، ثم ما لبث أن جعل يُطْلَب لذاته كما تقدم .

ولما صارت الولاية إلى حفيده عباس الأول سرعان ما أغلقت المدارسُ العليا خلا المدرسة الحربية ، وانقطعت البعوث العلمية ، وعُفِّيَتْ أكثرُ المصانع والمعامل ، وشَلَّتْ حركةُ الإصلاح ، وأبطلت أكثر مشروعات التعمير والتثمير . ولم يبق لولىّ الأمر ما يستهلك أجلَّ همه سوى الجيش . على أنه ، فى غالب الظن ، كان يُحْرَص عليه للزِينة والتكاثُر أكثر مما يُعَدُّ لمطالب الجسام .

وكان من أثَر ذلك أن انقبضتْ كثرةُ العلماء والمُصْلِحين فى أكسار دورهم حتى يَقْضِىَ الله أمرًا كان مفعولا .

ثم صار الأمرُ إلى سعيد بن محمد علىّ ، فكان شأنُه ، فى الجملة ، شأنَ سلفه عباس ، لولا أنه أقدم على أمرين كان لهما شديدُ الخطَرَ ، وبعيدُ الأثَر . أثمر أوَّلُهما أكبر النفع والخير ، وجاء ثانيهما بأبلغ الشر والضر . وهما مَدُّ سِكَّة الحديد بين مصر والإسكندرية . والإذن بشَقِّ قناة السويس .

ومهما يكن من شيء فليس بدعا أن تصير الحال إلى ما ذكرنا فى عهد هـذين القائمين، ما دامت الحكومة هى وحدها المضطلعةَ بوجوه الإصلاح فى جميع المرافق العامة إذ أمرُها كلُّه إلى مَنْ لا يُخَالَفُ رَأيُه ، ولا يُراجَعُ فى إشارته . إذ الأمة من وراء ذلك لا كلمة لها ، ولا كثير ولا قليل من سلطان . فإذا كان الحاكم ، على ذلك مُصلِحا ، وإلا فالفقر والجهل والدمار ، والعياذ بالله !

وما كاد الحُكْمُ يُفْضِى إلى إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على فى سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) حتى جَرَّدَ للإصلاح هِمَّةً لا يعرفها الكلال ، وشَمَّر للنهوض بمصر عن عَزْمَة لا تنوء برواسِى الجبال .

ولقد مضى ، رحمه الله ، لِطِيَّتِه فى هـذا السبيل مترسما خُطَى جَدِّه العظيم . ويَسَّرَ الأمرَ له أنْ وَجَدَ الذخيرةَ الصالحة من أولئك العلماء الأفضلين الذين خَرَّجَهم محمد على الكبير . فدعا بهم وقَرَّبهم وأَجْرَى واسِعَ الأرزاق عليهم ، وولّاهم مختلف الأعمـال توسُّلا إلى ما يبغى من وجوه الإصلاح . فَشَقَّ التُّرَع ، وبَنَى القناطر ، وأقام المصانع والمعامل ، وغير ذلك مما كان يرمى به إلى إيتـاء مصر من أسباب الحضارة والعَظَمة ما يَتَّسِق لتاريخها القديم .

## المدارس والبعوث العلمية

ولقد كان من أول هَمّ إسماعيل فى ولاية الحكم إعادة فتح المـدارس على اختلاف طبقاتها ، والزيادة عليها فى فنون التعليم العالى . فأنشأ ، فضلا عن إعادة المدارس القديمة، مدرسة الإدارة (صارتْ بعْدُ مدرسةَ الحقوق) ومدرسة المعلمين، ومدرسة الفنون والصناعات ( الصنايع ) .

## دار العلوم

ومن أولى المدارس العالية التى أنشأها وأحقها بالذكر لاتصالها الوثيق بموضوع هذا الكتاب ، مدرسة دار العلوم . فلقد عهد ، رحمه الله ، إلى المرحوم على مبارك باشا بتأسيس مدرسة يتجرد طلابها فى دراسة علوم العربية ، مع الأخذ بحظ من العلوم الدينية والعقلية ، وصدر من العلوم الحديثة ليعلموا العربية فى المدارس على أسلوب يدرج مع حاجة العصر ووسائله فى التربية والتعليم . ولقد تم له ما أراد ، وفتحت مدرسة دار العلوم فى ١٥ صفر سنة ١٢٨٨ ﻫ ( ١٨٧١ م ) . واختير لها التلاميذ من متقدمى طلبة الأزهر ، كما اصطفى لها الأساتيذ من كبار شيوخه ومن غيرهم ممن عرفت لهم البراعة فى العلوم الحديثة .

ولقد آتت هـذه المدرسة خير الثمار بما يسر أفاضل خريجيها من وسائل تعليم العربية ، وإشاعة صحيحها ، وبعث قديم أدبها ، وإطلاق الألسن والأقلام بناصع القول ورائع البيان .

ولم يقنع إسماعيل فى نشر العلم بفتح المدارس وتشييدها ؛ بل لقد أحيا أيضا سنة جده فى إرسال البعوث من متقدمى طلاب المدارس إلى بلاد الغرب المختلفة لتروى العلم العالى من أصفى مناهله . كما استقدم من بلاد الغرب كثيرا من فطاحل العلماء يستعين بهم على ماهو بسبيله من وجوه الإصلاح فى مرافق الحياة .

وفوق هذا وهذا فلقد كان من أثر التعمير والتثمير فى عهده ، وتوثيق أسباب الرفاهية فى البلاد استدراج العديد الأكبر من الغربيين إلى استيطان مصر ، أو الاختلاف إليها للسياحة . كما بعث تقدم الحضارة كثيرا من موسرى المصريين على السياحة فى بلاد الغرب . ولقـد كان من أثر ذلك كله استيثاق الصلات بين مصر وبلاد الغرب ، وما زالت هذه الصلات تطرد فى توثقها إلى اليوم .

## دار الكتب المصرية

ومن مفاخر إسماعيل الخالدة على وجه الزمان قيام "دار الكتب المصرية". فلقد كانت الكتب المحبوسة على النفع العام مبعثرة فى المساجد ونحوها ، داخلة فى عُهْدَة خدمها . ولقد طالما تظاهر عليها من أولئك الشرهُ والجهل جميعا ، حتى تَسَرَّب من نفائسها إلى بلاد الإفرنج وغيرهم مالا يحصى عددا ولا يحصى قيمة لقاء ما يُرْضَخ لهؤلاء من الدراهم ؛ بل كثيرا ما كانوا يحملون بأيديهم هذه الكتب فيبيعونها للبقالين ونحوهم بأبخس الأثمان ليلفّ هؤلاء بياعاتِهم فى أوراقها .

ولما صارت الولاية إلى المرحوم إسماعيل باشا كان من أعظم همه فى وجوه الإصلاح إقامة مكتبة عامة جامعة . فتقدم فى سنة ١٨٧٠ م إلى المرحوم على مبارك باشا بجمع هذه الكتب ونظمها فى مكتبة واحدة . فصدع بالأمر ، وما زال يجدّ فى ذلك حتى تمّ له ما أراد . وأضاف إلى ما اجتمع له من هذه الكتب ما كان فاضلا عند الحكومة مما طَبعت مطبعةُ بولاق . وكذلك ما يقرب من ألفى كتاب اشتريت من تركة المرحوم حسن باشا المنسترلى . وفى سنة ١٨٧٦ م توفى الأمير مصطفى فاضل باشا أخو الخديو إسماعيل ، وكان من أعظم هواة الكتب فى الشرق ، فابتاع الخديو من مكتبته أكثر من ثلاثة آلاف وثلثمائة مجلد أكثرها من نفائس الكتب . وأهداها إلى (الكتبخانة الخديوية) وكان ذلك اسمها القديم ، فارتفع بهذه المجموعة أمرها ، وعظم وَفرها .

وما زالتْ هذه المكتبة تنمو وتزداد وَفْرا بما يضاف إليها بالشراء والهبات والاستنساخ والنقل بالتصوير الشمسى ، حتى أربت عدة مجلداتها الآن على مائتين وعشرين ألفا ، فى جميع العلوم والفنون ، وأكثرها الكثير بالعربية ، وفيها كتب كثيرة فى اللغات الشرقية والإفرنجية .

وهى قائمة الآن فى ميدان ( باب الخلق ) يطلبها مَن يشاء للمطالعة والاستعارة والنسخ .

وقد تقدم لك أنه قد ألحق بدار الكتب ( القسم الأدبى ) من مطبعة بولاق وذلك أنّ وزارة المعارف قررت من نحو عشرين عاما مشروعا ( لإحياء الآداب العربية ) فرأت تحقيقا لذلك أن تُلْحق القسم الأدبى بدار الكتب . وقد بعثت هذه المطبعة من ذلك العهد كثيرا من أمهات الكتب القديمة فى العلوم والآداب، كما طبعت كثيرا من الكتب الحديثة التى تقدم إليها أصحابها بطبعها .

ولقد كان إنشاء هذه المكتبة من أبلغ العوامل ، فى العصر الحديث ، على نشر العلم وبث العِرْفان ، بما يَسَّرَتْ للجمهور من مراجعة الكتب فى العلوم والفنون والآداب ، وبما سَهَّلَتْ على الطابعين من استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها فى العالَمين .

## تقدّم العلوم والآداب

من عهد إسماعيل، رحمه الله، جعلت العلوم والفنون والاداب تطرد فى سبيل تقدمها ورقيها إلى اليوم . على أن قوة اطرادها فى هـذه المدة لم تكن على درجة سواء ، بل لقـد كانت تُغِذُّ السَّيْرَ حينا وتتئد فى مشيها حينا ، إلا أنه فى السـنين الأخيرة، وخاصة فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم "فؤادالأول" ، قد قويتْ حركة التعليم فى العلوم والفنون والآداب ، وعظمت نهضتهـا إلى الحدّ الذى لم تبلغه فى أىّ دور من أدوار العصر الحديث ، سواء فى كثرة عدد المتعلمين ، أو فى أنواع التعليم ، أو فى التجرُّد لطلب العلوم العالية فى مصر وفى بلاد الغرب .

أما التعليم الأولىّ فقد فرضه الدستور على كل مصرى ومصرية متى بلغا الخامسة من العمر ، وجعله بالمجّان . وقد أنشأت وزارة المعـارف تحقيقا لهذه الغاية قدرا

كبيرا جدا من المدارس الأولية بثتها فى جميع مدن القطر المصرى وكثير من قراه ، حيث يتعلم الأطفال فيها القراءة والكتابة ويحفظون القرءان كله أو بعضه ، والحساب وصورا من المعلومات العامة (الجغرافيا والتاريخ والأشياء وتدبير الصحة) ، والتربية الوطنية ، والرسم .

وأما التعليمان الابتدائىّ والثانوىّ فقد زادت مدارسهما زيادة هائلة بما أنشأته وزارة المعارف وما ينشئه الأهلون أنفسُهم .

وأما التعليم الفنىّ فى مصر فقد بلغت العناية به مَدًى بعيدا بقيام المدارس المتوسطة والعالية لكلٍّ من فنَّى الزراعة والتجارة . ورُفِعَ شأنُ مدرسة الفنون والصناعات . وأنشئت المدارسُ الصناعية فى أمهات المديريات . كما أنشئت المدارسُ لتعليم الفنون الجميلة من النحت والتصوير والزخرفة ونحو ذلك .

وأما التعليم العالى فقد وُسِّع فى مناهجه ورُفِعَتْ علومه . وزيد فى مدارسه بإنشاء معهد التربية .

## الجامعة المصرية

فى سنة ١٩٠٦ م هزَّت النُعرةُ القوميةُ طائفةً من كبار المصريين ، فتنادَوْا فيما بينهم ، ثم أهابوا بأبناء مصر أن يعاونوهم على إنشاء جامعة أهلية تُواتِى مطامع البلاد فى التعليم العالى . وقد تمَّ لهم ما أرادوا وتبارَى المحسنون فى الاكتتاب لهذا الغرض . ومن أجلّ ما رُفِدَتْ به الجامعة ما وهبتْه سموُّ الأميرة البارّة فاطمة هانم إسماعيل من نَقْد وحُلِيّ وحبوس ، وأجرتْ عليها نظارةُ (وزارة) الأوقاف بضعة آلاف جنيه كلَّ عام ، وأسندتْ رياسةُ الشرف فيها إلى حضرة صاحب السمو العالم الجليل الأمير أحمد فؤاد (حضرة صاحب الجلالة الملك) . وقد فُتِحَتْ هذه الجامعةُ فعلاً فى سنة ١٩٠٨ م . ودَعَتْ بكبار العلماء من المصريين والأجانب للتدريس فيها . وبعد قليل أجرتْ عليها الحكومةُ كذلك إعانة سنوية .

وفى سنة ١٩٢٥ م تَوَلَّتْ وزارةُ المعارف هذه الجامعة مضطلعة بما يزيد من مصرفها على مواردها . وأقامتْ لها الأبنية الفاخرة ، وزودتها بما يُزوَّد به أمثالُها فى بلاد الغرب ، وأتت إليها بكبار الأساتذة المصريين والأجانب ، وأصبحتْ تقوم بكليات عدة منها : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، وقد أُلحق بهذه أخيرًا مدرسةٌ لطبّ الأسنان . وهذه الجامعة لقد أغنت الكثيرين من الطلاب عن ارتياد بلاد الغرب لطلب العلم العالى فى جامعاته . وحَطَّتْ عن أهليهم ما يقتضيه ذلك من وجوه النَّفقات .

ومما يُذْكَر فى هذا المقام أن قد فُرِض للبنات من حق التعلُّم فى الجامعة المصرية ما فُرِضَ للبنين ، وقد أحرز بَعْضُهُنَّ فعلًا إجازاتها العالية .

## الجامعة الأزهرية

ومن بضع وثلاثين سنة فكَّر بعضُ المصلحين فى إضافة طائفة من العلوم الحديثة إلى العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ، كالحساب والتاريخ وتقويم البلدان . وعاونهم أولو الأمر على ما أرادوا ، كما أُجريتْ إدارةُ الأزهر على نظام جديد . وما برحت الحكومةُ تتعاهد الازهر من ذلك التاريخ بفنون الإصلاح ، متهدِّية فى ذلك برأى كبار علمائه وبآراء أصحاب الخبرة والدراية من غيرهم . حتى استقرَّ التعليم فيه الان على ثلاث درجات : ابتدائى ، وثانوى ، وعالى . وأنشئت فوق ذلك كليات ثلاث : إحداها لأصول الدين ، والثانية للشريعة ، والثالثة للغة العربية . أما سائر المعاهد الدينية فقد اقتصر التعليم فيها على المرحلتين الابتدائية والثانوية .

## البعوث العلمية

ومع هذا كله فما برح سيل البعثات العلميـة يتَدَفَّق إلى بلاد الغرب تَدَفُّقا . فوزارة المعارف تبعث فى كل عام عددا كبيرا من محرزى الشهادات العالية ليتحرروا

فى العلوم والفنون المختلفة التى لايستطيعون تناولها أو التبريز فيها فى بلادهم. كما يرسل الأهلون أبناءهم لهذا فى رعاية وزارة المعارف وتحت إشرافها .

وعلى كل حال ، فإن مصر الآن جادّة كلّ الجد ، جاهدة كلّ الجهد ، فى تحصيل العلوم والفنون العالية ، ملاحظة بهذا مجدَها القديم ، ومواتية مطمَحها الحديث .

## المجمع الملكىّ للغة العربية

ومما يُذكر بالخير لهذه النهضة الجليلة صدور المرسوم الملكىّ فى سنة ١٩٣٢م بإنشاء (المجمع الملكىّ للغة العربية) . وقد نُصّ فى المرسوم على الأغراض المطلوب إليه تحقيقها وهى :

( ا ) أن يُحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدُّمها . ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدِّد فى معاجم أو تفاسير خاصة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغى استعماله أو تجنبه من التراكيب .

(ب) أن يقوم بوضع معجَم تاريخىّ للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثا دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

(ج) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

( د ) أن يبحث كلّ ما له شأن فى تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف .

## الأدب وخصائصه فى هذا العصر

لقد انحدر الأدب فى هذا العصر ، بالضرورة ، من أدب العصر الذى تقدمه . وقد مَرَّتْ بك صفتُه . ولم يدخل عليه فى هذه الفترة ما يرفع من شأنه ، أو يعدل به عن وجهه ، أو يَفْسَح فى أَغراضه . وعلى الجملة لم يدخل عليه جديد من أىّ قطر من أقطاره . بل لقد ظلّ الأدباء يتأثرون مَنْ قَبْلَهم فى فنون الآداب ، منظومِها ومنثورها ، ويقصُّونهم فى جملة أغراضهم ، ويترسَّمون خُطاهم فى منازع بلاغاتهم . ما اجتمعوا للتوسُّع فى أغراض الكلام ، ولا تحرَّكُوا للابتكار فى فنون البيان .

وأنت بعدُ خبير بأنّ المقلِّد ، فى العادة ، دونَ المقلَّد رتبةً وأقلّ محلاً . وكذلك تَدَلَّى حظُّ الأدب ، فى الجملة ، فى هذا العصر عن حظِّه فى العصر الذى تقدّمه اطّراداً مع سنة الضعف بطول لزوم القديم ، وعدم الانبعاث لطلب الجديد الطريف .

### الشـــعر

لقـد ظَلَّتْ أغراضُ الشعر يدور أكثرها فى أبواب الغَزَل والمديح والهِجاء ، والوصف والرِثاء ، ونحو ذلك . على أنه لا يكاد يظهر فى ذلك الغَزَل طبع ، لأن الصنعة تصيح فى جميع نواحيه . ناهيك بشدّة الغلوّ فى جميع أبواب الشعر إلى الحدّ الذى لا يطمئن إليه الطبع ، ولا يستريح إليه الذوق . وكان أجلُّ العناية فى قرض الشعر مصروفا إلى التماس المحسِّنات من جناس وتورية واستخدام ، ونحو ذلك من نكات البديع تُصْطاد ، فى الغالب ، اصطيادا ، وتُسْتَكْرَه للقريض استكراهاً .

ومهما يكن من شيء فقد بقى الشعر فى هـذا العصر جاريا على السهولة والرقة التى قد تبلغ أحيانا حدّ الابتذال والتزايل . والسهولة والرقة مما يمتاز به الشعر المصرى على العموم ، ولأنّ طَلَبَ النكتة لا يستقيم مع الإغراب ، فضـلا عن أنّ البيئة ضئيلة المحصول من فقه اللغه . هذا فضلا عن أنّ الشعر فى ذلك الحين إنما كانت تُطْلَب به الأغراضُ الرقيقة من الغَزَل ونحوه ، ولم يكن له فى العـادة من المطالب ما يستدعى فحولة اللفظ وسَطْوة الكلام .

ومن أشهر الشعراء فى هذا العصر :

## (١) السيد إسماعيل الخشاب

المتوفَّى سنة ١٢٣٠ هـ ( ١٨١٥ م )

هو السيد إسمـاعيل بن سعد الشهير بالخشّاب . كان أبوه نجارا ثم جعل يتجر فى الخشب ، ودفع ولده صغيراً إلى الكُتّاب ، فأقبل على حفظ القرءان الكريم حتى أتمه . ثم طلب العلم فى الأزهر حتى أصبحتْ له مشاركة فى كثير من علومه . وتجرّد فى قراءة كتب الأدب والتـاريخ والتصوّف ، واستظهر كثيراً من الشعر ومحاضرات الأدباء ومراسلاتهم حتى برع فى هـذا جميعَ لِداته . وكان خفيف الروح ، طَلْقَ اللسان ، حَسَن المحاضرة ، حُلْوَ المفاكهة ، حاضر البديهة . فكانت هـذه الخلال مَدْعاة لأنْ يتجاذبه أعيانُ عصره ، ويتنافسوا فى صحبته طلبًا لحسن حديثه ولطف منادرته . وقـد بعثته رقة الحال إلى التكسُّب بالشهادة فى المحكمة الكبرى بالقاهرة .

ولمـا أقام الفرنسيون ديواناً للقضايا ليرفع إليه ما يقع من الأقضية بين المسلمين اتخذوه لتدوين ما يجرى فيه من الحوادث وتلخيصها ونَظْمها ، ونشرها فى صحيفة ( التنبيه ) التى سلفت الإشارة إليها ، وأَجْرَوْا عليه وظيفة شهرية حسنة . على أنّ ذلك لم يصرفه عن مهنة التكسب بالشهادة فى المحكمة .

والخشاب بالاضافة إلى عصره ، يُعَـدُّ من أفحل الأدباء ، وأبلغ الشـعراء ، وأبرع الكُتّاب . وشـعره ، فى الجملة ، يمتاز بالسهولة والرصانة وقلّة التكلُّف ، وخاصّة ما يتعلّق منه بألوان البديع .

وقد امتدّ به الزمن حتى أدركَ عهد محمد علىّ الكبير ، ولكنه لم يلِ له عملا . وإذا كان محمد على لم يستصنعه فذلك لأنّ السنة التى مات فيها (١٢٣٠ هـ) لم تكن الحاجةُ قد دَعَتْ بعدُ إلى استخدام أصحاب البيان .

ولما تُوُفِّىَ جمع صديقه الشيخ حسن العطار أشعاره فى ديوان خاصّ طبع بعدُ فى الآستانة .

## (٢) الشيخ حسن العطـار

المتوفَّى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م)

هو العالم الكاتب الشاعر الشيخ حسن العطار . انحدر من أسرة مغربية ، لكنه وُلد فى القاهرة . وكان أبوه عَطّارا . فلما رأى هواه إلى العلم أدخله الأزهر فأخذ عن أئمّـة شيوخه حتى برع . وتعلّم مبادئ الهيئة وغيرها ، وأكبّ على كتب الأدب فأصاب منها حظّا عظيما . وأجاد الشعر والنثر كليهما ، ولما دخل الفرنسيون مصر اتّصل برجالٍ منهم فأصاب منهم طَرَفاً من العلوم العصرية وعَلّمَهم العربية . ثم ساح فى كثير من الاقاليم الإسلامية ، وعاد إلى مصر فتولّىَ تحرير (الوقائع المصرية) ثم انتهت إليه مشيخة الجامع الأزهر .

ولم يُجْمع شعرُه فى ديوان خاصّ . ولكنّ نثره جمـع فى كتاب دُعِى (إنشاء العطار) . وله منظومة فى النحو ، وبعض حواش فى النحو والبلاغة .

## (٣) الدرويش

### المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م)

هو السيد على افندى الدرويش بن حسن بن إبراهيم ، نشأ بالقاهرة ؛ وأولع بالآداب ، فأقبل على ما تهيأ له من كتبها مطالعة وحفظا واستظهارا ، وقرض الشعر ، وأجال اليراعَ فى فنون النثر ، ونظم كثيرا من الأصوات ( أدوار الغنـاء ) ، وقد بلغ بأدبه المنزلة فى أمراء عصره و وجوهه ، وعرف بشاعر عباس الأول ، ولم يكن يتكسب بالشعر مكتفيا بمـاله وعقاره .

وكان رحمه الله ، سواء فى شعره أو فى نثره ، شديد الوَلَع باصطياد المحسِّنات البديعية ، يَحْشُرها فى الكلام حشرا ، ويَقْسِرها على النظم قسرا ، وكان من أمهر نُظَّام التواريخ الشعرية الحسابية [١] ، وله ديوان طُبع فى مصر جمـع بين شعره وأغانيه ونثره .

---

(١) تجد نموذجا من شعره فى الجزء الثانى من المنتخب .

## الشعر من عصر إسماعيل

لقد كانت النهضة من أول عصر إسماعيل مشبوبة فى مرافق الحياة من جميع أقطارها : نهضة فى العلم والفن ، ونهضة فى الأدب ، ونهضات فى سائر وسائل الحضارة الحديثة . على أنّ الشعر ظلّ فى أكثر هـذا العصر حيث هو : عناية باللفظ ، واحتفالٌ للبديع ، وضيق فى الأغراض ، وتثاقلٌ عن التحليق إلى جُلَّى المعانى ، فإذا كان قد أفاد بادئ الأمر شيئا ففى شىء من سَعة اللغة بما انبعث فى ذلك العهد من المعجمات والكتب فى الأدب القديم، وفى شىء من سَعة الأغراض فى الوصف والمنادرات ونحوها ، وتناوله جديدًا من القصص . على أن هذا وهذا لم يكد يُزحزحه عن أفقه أو يلوِّنه بغير لونه .

وإليك طائفة من متقدمى الشعراء فى هذا العصر :

### ( ١ ) صفوت الساعاتى

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨٠ م )

هو محمود صفوت افندى المعروف بالساعاتى بن مصطفى أغا . وُلد بالقاهرة وتعلَّم فيها ، ثم خرج إلى الحجّ فاتّصل بشريف مكة ، فآثره الشريف واستبقاه مدة، وشاهد هو معه بعضَ ملاحم وصفها فى شعره. ثم عاد فاستُخدم فى معية الخديو ثم فى مجلس أحكام الجيزة والقليوبية . واشتهر بالساعاتى لِحذْقه فى فنّ الساعات ، وإن كان لم يحترفه . وكان رحمه الله ، بالقياس إلى عصره ، أديبا شاعرًا ناثرا ، حُلْو الحديث ، حَسَن المحاضرة ، وله ديوان مطبوع [١] .

---

(١) تجد نماذج من شعره فى جزأى المنتخب .

## ( ٢ ) السيد على أبو النصر

### المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨٠ م )

هو الشريف السيد على أبو النصر . أصله من منفلوط من أعمال مديرية أسيوط . وقد انحدر إلى القاهرة يافعا ، وطَلَب العلمَ فى الأزهر . وكان له وَلَع بالأدب واستعداد كبير له ، فقرض الشعر غلاما ونظم الأزجال . ولم يتراخَ به الزمن حتى طارت فيهما شهرته . واتصل ببيت الإمارة من عهد محمد على باشا ودام اتصاله إلى عهد توفيق باشا . وأزجى لأمرائه سوابغ المدائح فأجزلوا له الصِلات ، وخاصّة أيام المرحوم إسماعيل باشا .

وقد أوفده محمد علىّ الكبير إلى الآستانة لبعض الشأن فى خلافة السلطان عبد المجيد ، ثم استصحبه إليها إسماعيل باشا فى خلافة السلطان عبد العزيز . وله ديوان مطبوع . وشعره فى الجملة ، لا يرتق إلى حظ كبير من الجودة ، ولا يتدلّى إلى غاية الإسفاف . وكان ، رحمه الله ، وَلُوعا بالتاريخ الشعرى[1] .

## ( ٣ ) الشيخ على الليثى

### المتوفى سنة ١٣١٣ هـ ( ١٨٩٦ م )

هو العالم الأديب الكاتب الشاعر الشيخ على بن حسن بن علىّ . وُلد فى بولاق مصر . ومات أبوه وهو صغير فتحوّلَتْ به امّه إلى جهة الإمام الليث . وطلب العلم فى الأزهر بضع سنين ، ثم شخص إلى طرابلس الغرب ، وهناك أخذ على الشيخ السنوسىّ والشيخ القوصىّ الكبير . ولما عاد اتّصل بالبيت الخديوىّ . واشتهر فى

---

(١) تجد نماذج من شعره فى جزأى المنتخب .

أيام إسماعيل وتوفيق ، فكان شاعرَهما ونديمَهما . ورافقَ الخديو إسماعيل فى بعض أسفاره .

وكان ، رحمه الله ، جميل المحاضرة ، بديع المفاكهة والمنادرة ، وله فى هذا الباب من روائع الآثار ، ما لا يزال يتردد فى مجالس الأسمار . وقد قرَّبه المرحوم إسماعيل باشا وأكرم مَثْواه ، وأَسْنَى له الجوائز وأجْزَل له العطايا ، وأضْفَى عليه لقب (شاعر الخديو). ولما خلفه المرحوم توفيق باشا أبقَى عليه وأَسْبَغَ عليه عَطْفه ، فأخلص له الشيخ أيَّما إخلاص ، وخاصّة فى إبان الثورة العرابية .

وله ديوان شعر لم يُطْبع ، وعند صهره حضرة الأستاذ محمد سعودى افندى الخبير نسخة كاملة منه ، وقيل إن السبب فى عدم طبعه يرجع إلى علم أهله وخاصّته بأنه لَعَن من يُقْدِم على ذلك . ولعله فعل تحرُّجًا من نشر ما عَسَى أن يكون تورَّط فيه كشأن أكثر الشعراء من دُعابة أو غلوّ فى مديح أو ذمّ أو نحو ذلك . فلقد كان فى الرجل دين وفيه تقيّة . وشعره فى المنزلة الوسطى من منازل الشعر[1] .

## نهضة الشعر

تقدم لك أنَّ دخولَ العلوم والفنون الحديثة فى هذه البلاد ، والحاجةَ إلى ترجمتها إلى العربية ، دلَّت المضطلعين بهذا الشأن على أنَّ العربية الدائرة فى ذلك الوقت لا يمكن أن تفى بمطالب الحضارة القائمة ، بجدُّوا فى التنقيب على كتب الأقدمين ليستخرجوا منها ما يتهيأ لهم استخراجه من الألفاظ الفنيّة ، والمصطلحات العلمية . فإذا استصعب عليهم شىء من ذلك مَضَوْا هم فى إطلاق الألفاظ ووضع المصطلحات .

---

(١) تجد نموذجا من شعره فى الجزء الأول من المنتخب وآخر من شعره ونثره فى الجزء الثانى منه .

على أن التفاتهم إلى كتب الأقدمين لحاجتهم إليها فى الأغراض العلمية والفنية قد دعا إلى انتباههم إلى آثار السابقين عامة ، وخاصّة ما خرج منها فى أبواب اللغة والأدب . فتعاظمهم شأنُها . وراعتهم منازع بلاغاتها . وهفَتْ أنفسهم لمراجعتها وإشاعتها ، فطبعوا طائفة من كتب أئمة اللغة وأعيان البيان فى العصور المتقدمة . وكان فى أوائل ما عُنُوا بطبعه كتاب ( كليلة ودمنة ) لابن المقفع .

وجعلت هـذه الحركة تطّرد ، والإقبال على مراجعة الأدب القديم يزداد ، فبُعِثَ الكثير من شعر الجاهليين ودواوين فحول الشعراء فى أزهى عصور العربية . على أن ذلك لم يكفِ فى تحويل ملكات الشعراء القائمين ، وطبعهم على قوّة النظام . حتى كان البارودى ، فطفر بالشعر طفرة عظيمة ردّت عليه ديباجته التى نصلَت من مئات السنين .

ولقد قرض البارودى الشعر فتى فَبـذّ و برَع ، وأطلَق الشعر جزلا فخما يَحْكِى أفخر ما قال المتقدِّمون .

ولقد كان لهـذا من البارودى أثره البليغُ فى نهضة الشعر العربى واتصالها إلى هذه الغاية فجعل الناشئون من الشعراء يترسّمونه ، ويتكلّفون محاكاته . وراحوا ، توسُّلا إلى هذا ، يستظهرون أشعار الفحول من الجاهليين والإسلاميين فى أزكى عصور البـلاغة ، فأدركت الملكات ، واشتدت الطبائع . وجرى الشعر جزلا فخما ، شريف اللفظ ، مشرق الديباجة ، متلاحم النسج ، رصين القافية ، وجعل الشعراء يتخففون من الإمعان فى طلب المحسّنات البديعية ، والجهد فى اصطيادها ، فضلا عن سَوْق البيت لمجرد شكّها و إصابتها ، على ما كان يصنع السابقون عليهم . بل لقد جرتْ البلاغةُ ، على قدر ما واتَى الجهد ، عباسيّة ، إذا سنحت لها النكتة البديعية أصابتها فى غير مطاولة ولا استكراه .

ولكن شـعر البارودى ، على جلالة محـلّه ، لم يكد يتجـاوز أغراض المتقدمين أو يعدو مطالبهم من الغزَل ، والمديح ، والرِثاء ، والفخر ،

والوصف ، إلى حدٍّ محدود ، وفى التشبيب بالديار ، والوقوف بالدِّمَن والآثار .

فإذا كان الشعر قد تَطَوَّر بعد ذلك ، فلقد كان ، وما برح ، تَطَوُّرُه بطيئا ، على خلاف النثر ، فإنه أسبق تطورا ، وأسرع فى سبيل الكمال عَدْوا .

والوجه فى هذا أن الشعر ، كما تعلم ، من الكماليات التى لا تدعو إليها ضرورة فى الأسباب الدائرة بين الناس ، والمتأدبون إذ يتكلفونه إنما يطلبون به تصوير ما يعتلج فى النفس من ألوان العواطف ، وما يترقرق لأذهانهم من فنون الأخيلة فى غَزَل أو تشبيب ، أو حُرقة جوى أو فرقة حبيب ، أو فى تغير الأيام أو لحوق مشيب وقد تستعار العواطف له استعارة فى مدح أو هَناء ، أو ذَمّ أو رثاء ، أو غير ذلك . نعم إن الشعر قد يسلك فى بعض الأحايين غير هذا مما تدعو إليه حاجات الحياة ، بل إلى ما تدعو إليه عظائم الأمور ، كتحميس الناس واستنفارهم لحرب ، وكتثبيت دعوة دولة قائمة ، وإظهار حجتها فى الملك والسلطان ، أو حربها والدعوة إلى الانتقاض عليها ، أو حفز الجمهرة للاشتراك فى نفع عام أو غير عام . إلا أن هذا القدر اليسير لا يُخرج الشعر عن أفقه ، ولا يعدل به عن وجهه . فهو ما يزال ، فى الجملة ، زُخرفا لا تدعو إليه ضرورة الحياة . وعلى هذا كان مثله الأعلى فيما جادت به قرائح السابقين من أئمة البيان .

ولا يذهب عنك أن الثقافة العلمية قد سبقتْ فى مصر الثقافة الأدبية ، لما جَلَّوْنا عليك من الأسباب ، وكانت نهضة النثر طوعا لهذا أسبقَ وأسرعَ من نهضة الشعر . حتى إذا شاعت الثقافة الغربية فى هذه البلاد ، وطالع كثير من الشعراء أدبَ القوم ، راحوا يتوسّعون فى أغراض الشعر ، ويلوّنون فى مطالبه . وما برحوا يتدرَّجون فى هذا السبيل ، ويخوضون بالقريض فى فنون من المعانى لم يخضها مَن تقدَّمهم . وهم إلى الآن جادّون فى طلب المزيد .

وإليك طائفة من أشهر الشعراء من ذلك العهد :

## ( ١ ) البارودى

### المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٤ م )

هو الوزير القائد الشاعر محمود سامى باشا البارودى بن حسن بك حسنى مدير دنقلة و بربر فى عهد المرحوم محمد علىّ باشا . وهو ينحدر من أصل شركسىّ . ولكنه وُلد بمصر ونشأ فيها . ولم يكد يبلغ السابعة من سنيه حتى رزأه الموتُ فى أبيه ، فتولّاه بعضُ أهله . ونظَموه فى المدرسة الحربية ، فتعلّم فنونها ، ثم خرج منها ضابطا . فجعل يترقّى فى رُتَب الجيش بكفايته ونزاهته وعفته وشجاعة نفسه . وخاض المعامع فى حرب الروس ، وثورة أقريطش ( كريد ) . ثم تحول إلى الإدارة فنُصِب مديرًا للشرقية . ثم رئيسا للضبطية . ثم صارت إليه نظارة الأوقاف ، فنظارة الجهادية . ثم صارت إليه رياسة مجلس النظار قبيل الثورة العُرابية . فلما كان الاحتلال الإنجليزى وقُبض على زعماء الفتنة كان البارودى منهم ، فحوكم ونُفى إلى جزيرة سرنديب ( سيلان ) ولبث فى منفاهُ إلى أن عُفِى عنه وأُبيح له التمتع بالحقوق المدنية فعاد إلى الوطن . ولكن الموت لم يلبثه طويلا فقد قَضَى إلى رحمة الله سنة ١٣٢٢ هـ .

ولقد كان للبارودى من عهد الحداثة ولَعٌ بالشعر فنظمه فى التركية ، كما نظمه فى الفارسية ، وكان ضليعا فى آدابهما . ونظم فى العربية وهو دون العشرين فأوْفَى على الغاية من الإبداع والإحسان . ولقد ظلّ يقرض الشعر إلى ما قبل وفاته بقليل . وشعر البارودى يمتاز بسَطْوة القول ، وجزالة اللفظ ، وفحولة النظم ، ورصانة القافية وإشراق الديباجة . حتى ليمكن أن يقال ، فى غير تتعتع ، إنه لم يجئ من بعدِ العصر العباسى الثانى مَنْ يَبْرَعُ البارودى فى هذا الباب ، أو مَن يُدانيه . ولقد عارضَ فحولَ الشعراء من المتقدمين وجال مجالهم ، فلم ينقطع دونهم ولا تخلّف عنهم .

والعجب أن هذا الرجل ، على كثرة شعره ، لا يكاد يلحقه الإسفاف فى بيت واحد من قصيده . ولقد تصرف فى أكثر فنون الشعر فراع وأصاب .

ولقد كان البارودى ، رحمه الله ، رجلا شريف النفس ، نبيل الخلق ، عالى الهمة ، شجاع القلب . فإذا هو قال الشعر عصمته هذه الخلال عما يتورط فيه أكثر الشعراء : فهو لا يمدح إلا من يؤثر . ولا يَرْثِى إلا من يُعِزّ ، ولا يفاخر إلا لأنه كفء للفخار ، وإذا وصف الحرب فقد خاض غمارها ، وصلى نارها . وإذا تغزل فعن هوى وصدق صبابة . وإذا كان الغزل لم يكثر فى شعره فلعل مردّ ذلك إلى أن الصبابة لم تتمادَ به طويلا .

ومهما يكن من شىء فلسامى باشا البارودى الفضل الأول فى رد الشعر فى هذا العصر الحديث إلى فتوّته وقوّته ونضارته فى الأعصر المتقادمة . ولا تنس فى هذا الباب فضل زميله عبد الله باشا فكرى ، فلقد أوتى كذلك من قوة النظم وتلاحم النسج ما تجاوز أفق عصره .

ولسامى باشا ، رحمه الله ، ديوان مطبوع . وله مختارات من شعر أعيان الشعراء السابقين تقع فى أربعة أجزاء ضخام ، وهى مطبوعة كذلك [1] .

## ( ٢ ) حفنى بك ناصف

### المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ ( ١٩١٩ م )

هو العالم اللغوى الأديب الشاعر الناثر محمد حفنى بن الشيخ إسماعيل ناصف وُلد بقرية بركة الحج من أعمال مديرية القليوبية . وقد نشأ يتيما فقيرا فتولاّه خالُه وجَدّته لأبيه . ودخل كُتّاب القرية فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ صدرا من القرآن الكريم . ثم طلب العلم فى الأزهر وجَدّ فى الطلب حتى أشرف على غايته ،

---

(١) تجد نماذج من شعره فى جزأى المنتخب .

فعدل إلى مدرسة دار العلوم . وكان فى ذلك الوقت لا يدخلها إلا من قارب نهاية الطَّلَب فى الأزهر . فلما جاز مدَى التعلُّم فيها نُصِب مدرِّسا فى مدارس الحكومة وكان من أولئك الصدور الأوالى الذين خرَّجتهم دارُ العلوم فى أوّل نشأتها إن لم يكن أبْرَعَهم جميعا . وقد شارَكَ فى تأليف مجموعة الكتب التى يَسَّرت تعليم العربية لتلاميذ المدارس . ثم صار مدرِّسا فى مدرسة الحقوق فرأى الفرصة متهيِّأة لدراسة علوم القانون . ثم وَلِيَ مَنْصب القضاء الأهلى ، فلبِث فيه سنين حتى قُلِّد وكالةَ محكمة طنطا . وفى أثناء ذلك اختير لتدريس الآداب العربية فى الجامعة المصرية القديمة . ولما خلا منصِب رئيس مفتشى اللغة العربية فى وزارة المعارف بخروج المرحوم الشيخ حمزة فتح الله منه ببلوغ الستين ، خلفه فيه حفنى بك إلى أن أُقيل هو أيضا بحكم الستين .

وحفنى بك ناصف ، رحمه الله ، كان عظيم الحظِّ من فقه العربية ، ومطالعة دقائقها ، ومعرفة نكاتها وفرائدها ، واسع العلم بفنونها وقواعدها ، إلى مشاركة محمودة فى سائر العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ودار العلوم فى ذلك الحين .

وكان إلى هذا حادّ الذكاء ، حاضر البديهة ، خفيف الروح ، بارعَ النكتة ، جَمَّ التواضع . وكان شعره رصينا سهلا ، ونثره محكما جزلا . إذا تعمَّد السجع فيه أحكم فواصله ، وأصاب منه كُلاه ومفاصله ، وإذا أرسل القول جاء بالسَّلِس العذب من الكلام . وشعره ونثره كلاهما لا يكادان يخلوان من نكتة بارعة ، أو إشارة إلى نادرة رائعة . يجىء بهذا فى غير تكلُّف ولا استكراه ، حتى لكأنك ، إذ تقرؤه ، فى حديث نديم لبق نَضّاح الذهن ، يفاكهك بالرائع مما تبعث إليه مناسباتُ الكلام (1) .

وبعد فحفنى بك ناصف يُعَدُّ فى صدر مَن بعثوا نهضة العربية فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وفى أوائل مَن عملوا على ردّ بيانها القديم بما علَّم وما ألَّف وما حاضَر ، وما نظَم ونثَر ، وما اجتمعتْ الخاصَّة فى هذه البلاد لحدَث يتعلق باللغة والأدب إلا شارَكَ فى الأمر بأوفَى نصيب .

---

(1) تجد نماذج من شعره ونثره فى كلا جزأى المنتخب .

## ( ٣ ) اسمـاعيل باشا صبرى

### المتوفى سنة ١٩٢٣ م

ولد فى مصر ونشأ بها فلمّا ترعرع أدخل المدارسَ الابتدائية فأتم علومها وجازها إلى المـــدارس ( التجهيزية ) ثم ارتقَى إلى مدرسة الإدارة ( التى صارت مدرسة الحقوق فيما بعدُ ) . ثم سافر فى إحدى البعثات إلى فرنسا ، وانتظم فى جامعة (إكس) . ونال إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م . وعاد فتولّى منصب القضاء الأهلىّ وما برح يتدرج فيه حتى قُلِّد منصِب النائب العام . ثم تحوّل إلى الإدارة فتولّى محافظة الإسكندرية . ثم قُلِّد وكالة الحقانية ، حتى إذا بلغ الستين أُقيل ، بحكمها ، من المنِصب .

ولقد كان إسماعيل صبرى ، رحمه الله ، رجلا رضىّ الخُلق ، هادئ السَّعْى ، وضىء النفس ، حلو الحديث ، وقد عالج الشعر من فَتاء السنّ ، فكان وهو لما ينيف على السادسة عشرة يرسل القصائد فى مجلّة ( روضة المدارس ) مديحا فى ولىّ الأمر . على أنّ شعره يومئذ كان مطبوعا على غِرار الشعر فى الزمن الذى تقدّم عصره وفى بعض عصره . على أن الرجل كان له طبع ، وكانت نفسه تنطوى على موهبة الشعر ، فما إن عاش فى فرنسا وطالع مافيها من فتنة وجمال . وقرأ أدب القوم فى لغتهم ، حتى جعلتْ نفسه تتفطن إلى مواطن الجمال حيث وقع ، وبهذا جعلتْ موهبته الكامنةُ تتحرك ، وملكته الشعريةُ تنضج وتزكو ، حتى أوْفَى قريضُه على الغاية من اللطف والإحسان والجمال .

ولقد انتهى إسماعيل صبرى إلى أن أصبح شاعرا بأدق معانى الكلمة ، فهو لايحتفل لقرض الشعر إلا إذا جاشتْ فى نفسه العاطفة القويّة ، وسنح لذهنه الخاطر البديع . فلا يزال يتخيّر له الألفاظ الشريفة يرصّعها فى الصِّيغ ترصيعا ، وما يزال بها يصقلها ويجلوها حتى يُخرجها وكأنها من نظم جوهرىّ لا من نظم شاعر .

كان ، رحمه الله ، مُرْهَف الحسّ ، تامّ الذوق ، صادق الوجدان ، يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتزّ لها . لا تقرأ شعره إلا أشعرك الحاجة إلى الاستماع للغناء ، لأنّ الموسيقى تستشرف له من جميع أقطاره . ولقد تغنّى حُذّاق المغنين بشعره ، فزادوا بحسن الكلام إطرابا على إطراب .

ومما أغلى شعر صبرى وزاد فى بهائه وإشراقه أنه أضحى لاينظم إلا لنفسه ، فإذا أصاب من هذا غايته وإلا فلاأمّ الشعر الهبَل . فكان شأنه فى هذا شأن الكَروان يُغرّد إذا تألق القَمَر ، والهزار يشدو إذا تفتّح الزهر .

وشعره كلّه ، فى طوره الثانى ، يجرى فى سهولة ، وحلاوة لفظ ، ورقّة أسلوب وتلاحم نسج ، ورصانة قافية . ولقد كان من أثر اقتصاره فى الشعر على الترجمة عما يعتلج فى نفسه أن أصبح مُقِلاً يقتصر على البيتين أو الأربعة أو العشرة . اللهم إلا أن تبعثه بعضُ الأحداث إلى القصيد فيُطيل ماشاء أن يُطيل . على أنه وإن كان لايَضْعُف فى الإطالة ولا يُسِفُّ . ولكنك لاترى فى أكثر أبياته تلك الموسيقى ؛ ولا الارتفاع إلى تلك المعانى التى لم يُصِبْها أَحَدٌ قبله .

ولقد كان متقدمو الشعراء من أمثال شوقى ، فى أول نشأته ، وحافظ وأضرابهما يعرِضون عليه أشعارهم لما عرفوا من رهافة حسّه ،ودقّة ذوقه ، ورقة طبعه . فيلفتهم إلى ماينشز على الأذن الموسيقية . ولعلّه يساهمهم نسج مايحلو فى مثل هذا المقام [1] .

---

(١) تجد نماذج كثيرة من شعره فى جزأى المنتخب .

## ( ٤ ) الشيخ عبد المطلب

### المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ ( ١٩٣١ م )

هو العالم الشاعر الأديب الشيخ محمد بن عبد المطّلِب بن واصل . وُلد ببلدة ياصونةَ من أعمال مديرية جرجا من أبوين عربيين . وبعد أن أتم حفظ القرءان الكريم جيء به إلى الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين ، ثم عدل إلى دار العلوم ، فكان فيها طالبا متقدِّما معروفاً بين لِداته بالجِدّ والاستقامة والحِفاظ للدين الحنيف. وبعد أن نال إجازتها قام بالتدريس فى مدارس الحكومة ، ومنها مدرسة القضاء الشرعىّ ، ثم مدارس الأوقاف الملكية ، ثم دار العلوم . وظلّ يدرِّس فيها إلى أن خرج إلى التقاعد بحكم السنين .

والشيخ عبد المطلب كما كان صالحا وافر الصلاح ، فلقد كان كذلك محافظا شديد المحافظة ، ولم يكن مَرَدّ هذا إلى أصله العربىّ ، ثم إلى نشأته الدينية فحسب ؛ بل لقد كانت فى فطرته شدّةٌ ، وفيه ، على مافيه من أدب وتواضع وكرم نفس ، شىء يشبه العُنْجُهية . فهو بهذا كله ، وبتوفّره على شعر الأقدمين ، كان متعصّبا شديد التعصُّب للقديم ، يؤثره ، ويحافظ عليه ، ويدعو ما استطاع إليه. فإذا هو استوى لقرض الشعر ترسَّم آثار الجاهليين ومَن نحا من الشعراء نحوهم ، ونهج مناهجهم ، وتكلَّف مثل صنعتهم ، وباراهم فى منازعهم ، وربما أكثر فى هذه السبيل من الغريب ، فخرج شعره فخلا ، ولفظه جزلا ، ومعانيه بدوية لم يكد يُطَرِّيها لينُ الحضَر .

وله ، رحمه الله ، ديوان شعر تمّ طبعه الآن[1] .

---

(١) تجد نماذج من شعره فى الجزء الثانى من المنتخب ( الطبعة الأخيرة ) .

## (٥) حافظ إبراهيم

### المتوفى سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)

هو الشاعر الكاتب الأديب المحاضر محمد حافظ بك إبراهيم . وُلد فى ديروط من أعمال مديرية أسيوط إذ كان أبوه من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها . ونشأ بالقاهرة ورزئ فى أبيه فكفله خالاه . وأُدخل صغيرا فى مدرسة تُدْعَى (المدرسة الخيرية) وكان مقامها فى القلعة . فلما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا الحكم أُلغيتْ هذه المدرسةُ وحُوِّل كثير من طُلَّابها، وفيهم المترجَم إلى مدرسة (المبتديان)، ثم صار إلى المدرسة الخديوية . على أنّ مقامه لم يَطُلْ فيها . وبعد أن عالج بعض الأعمال الحُرَّة بضعَ سنين دخل المدرسة الحربية، وظلَّ فيها حتى خرج منها ضابطا، فأُشخص إلى السودان ، وأُلحق بسلاح المدفعية (الطبجية) أولا ، ثم أُقيم على أقوات الجيش (التعيينات) ثم تحول إلى بوليس مصر، ثم أُعيد إلى الجيش . ثم أُحيل إلى (الاستيداع) . ثم إلى التقاعد (المعاش) . وفى سنة ١٩١٠ عُيِّن رئيساً للقسم الأدبىّ بدار الكتب المصرية ثم وكيلا لها . وظَلَّ فى هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد فى صدر سنة ١٩٣٢ م بحكم السّنين . ومات فى أواسط السنة نفسِها .

وحافظ إبراهيم يُعَـدُّ بحق شاعراً من الطراز الأوّل فى عصره : ناصع القول ، جزل اللفظ ، فخم العبارة ، متين النسج ، نيِّر الديباجة ، رصين القافية . إذا اجتمع للشعر جعل يجسُّ ماخرج له منه ، فإذا أصاب فى بعض اللفظ قلقا أو نبوًّا أقبل عليه بالعلاج والصَّقْل حتى يطمئن ويستوى فى موضعه المقسوم له من الكلام . وحافظ ، رحمه الله ، كان مرهَفَ الأذن ، عظيم التذوق لبارع الكلام ، يهتزّ لما يقع له منه ، ويشتدّ طربه عليه . وكان إلى هذا سريع الحفظ قوىّ الحافظة . يلقط ما يَسْتَجيد ويبق عليه ، حتى لم يكن يدانيه كثير فى حفظ مصطفى الشعر

ومتخيّره من جميع أعصار العربية إلى غاية عصره. وهو ممن يدينون أولًا بالديباجة، ويصرفون أجَلّ هَمّهم لها. أما المعانى فعنده فى المرتبة الثانية، وإنه ليرتفع فى طلبها على ألّا تُقلق لفظه أو تُخِلّ بنظمه. ولقد تصرّف بالشعر كثيرا فى المسائل الاجتماعية وغيرها من الأسباب الدائرة بين الناس، وكان فى هذا من السابقين إلى تلوين فنون الشعر، وعدم توفُّره على تلك الأغراض الهزيلة التى كان يدور فيها الزمن الذى تقدم عصره.

وقد أجْدَى كثيرا على الأدب والعلم جميعا بما استظهر من الصِّيغ الرائعة من مجفُوِّ العربية، فشاعتْ على أقلام الأدباء بقدر كبير، وانتفع بها أصحابُ العلم بقدر غير يسير.

وله ديوان مطبوع فى ثلاثة أجزاء، وكتاب (ليالى سطيح) نحى فيه منحى المويلحى فى (حديث عيسى بن هشام)، وترجم صدراً كبيراً من كتاب (البؤساء) لفكتور هيجو، وشارَكَ فى ترجمة كتاب (الموجز فى الاقتصاد السياسى) لروابوليه [1].

---

(١) تجد نماذج من شعره فى الجزء الثانى من المنتخب (الطبعة الأخيرة).

## ( ٦ ) شـــوقى

### المتوفى سنة ١٣٥١ هـ ( ١٩٣٢ م )

هو أحمد شوقى بك بن أحمد شوقى بك . وُلد بالقاهرة ونشأ فيها . وقد حدَّث عن نفسه فى مقدمة الطبعة الأولى لديوانه ( الشوقيات ) قال : "سمعتُ أبى يردّ أصلنَا إلى الأكراد فالعرَب ، و يقول إن والده قَدِم هذه الديارَ يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد علىّ باشا ...... فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلَّد المراتب العالية ، ويتقلَّب فى المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا لجمارك المصرية" . ثم ذكر طَرَفا عن سِيرة جَدَّه لوالدته إلى أن قال عن نفسه : "أنا إذن عربىّ ، تركىّ ، يونانىّ ، جركسىّ" .

وقد كفَلَتْه من المَهْد جَدَّتُه لأُمّه ، وكانتْ فى يُسْرٍ ونعْمَة ، على حين أتلف أبوه ما ورثه عن أبيه . ولقد كانتْ جدته تيك من وصائف قصر الإمارة فى عهد إسماعيل قال : "حدثتنى ( يريد جدته ) أنها دخلتْ بى على الخديو إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى ، وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بِدرة من الذهب ، ثم نثَرها على البساط عند قدميه ، فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتى اصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لايخرج إلا من صيدليتك يامولاى. قال جيئى إلىّ به متى شئتِ .

فلما بلغ الرابعة أُدخل فى مكتب الشيخ صالح، وكانت نشأته فى خُطّ الحنفى ، وقد جاز بعد ذلك متفوّقا بارعا مرحلتى التعليمين الابتدائى والثانوى. فلما تقدَّم إلى

مدرسة الحقوق اعتل ناظرها عليه لصغر سنه . على أنه دخلها ودرس بها عامين . وكان قد أنشئ فيها قسم الترجمة فعدل إليه ولبث فيه سنتين أخريين ، وأحرز الإجازة النهائية . وألحقه المرحوم الخديو توفيق بمعيته . ثم أشخصه على نفقته إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، على أن يقضى عامين فى مدينة "منبلييه"، وعامين فى باريس . حتى إذا أحرز الشهادة النهائية رأى ولىّ الأمر أن يَظَلَّ فى فرنسا ستة أشهر أخرى ففعل ، وعاد بعدها إلى مصر ، وتولَّى منصبه فى مَعِيَّة الأمير . وفى سنة ١٨٩٦ م ناب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى چنيف من أعمال سويسرا .

وما برح شوقى يتدرَّج فى المناصب حتى تولَّى رياسة القلم الإفرنجى فى المعية الخديوية . ولما نشبت الحرب الكبرى أزيل عن منصبه . ثم رُؤى له أن يغادر البلاد فاختار برشلونه من أعمال أسبانيا مثوًى له ولأسرته . ولم يُؤْذَن له فى العودة إلى مصر إلا بعد أن استقرّ السلام العالمىّ .

ولقد رأيتَ أنّ أكبر منصِب سما إليه شوقى فى معية الخديو هو رياسة القلم الإفرنجى ، على أنّ نفوذه وسلطانه لقد تجاوزا شأنَ هذا المنصب إلى حدّ بعيد ، فلقد نال من الحُظْوة عند ولىّ الأمر ما لم ينله من قبلُ أحدٌ . فكانت داره ( كرمة ابن هانئ ) مَثابةَ طُلّاب الحاجات ، ومورِدَ المستشفعين من كلّ ناحية ، صغار الناس وكبارهم فى هذا بمنزلة سواء . فلقد كانت إشارته حُكْمًا ، وطاعته عند أكثر الحكام من بعض المغانم .

ولقد كانتْ مصرُ إلى ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية ، فكان شوقى كثير الاختلاف إلى الآستانة ، فلا يكاد يدخل الصيفُ من العام إلا وهو على جناح السفر إليها ، فلا يَلْقَ من أولياء الأمر هناك إلا الإجلال والنزول فى منزل الكرامة ولقد انتهى إلى الخليفة فى إحدى السنين خبرُ مقدمه فأمر بأن يُقيم ، ما أقام هناك ضيفًا ، على مقام الخلافة . وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصِنف الثانى ، وهو يتقدَّم

بها على بعض من يحملون لقب الباشوية . كما أنعم عليه بكبار الأوسمة من الدولة العليّة ، ومن ألمانيا ( قبل الحرب ) ومن الدولة السورية .

وكان ، رحمه الله ، شَغِفا بالسياحة فى الغرب وفى بلاد الشرق القريب ، ولكنه فى مُؤخرات عمره قصر سياحاته على البلاد السورية واللبنانية فيَلْقَ من أعيانها وأدبائها أبلغ العطف وأعظم الإكرام .

وفى سنة ١٩٢٧ عُقِدَ فى مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه عُنُق من رجالات مصر وعلمائها وأدبائها ، وحضر إليه عدد غير قليل من أعيان الأدباء فى الأقطار العربية . وتُوِّجَتْ حفلةُ التكريم برعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فؤاد الأول حفظه الله .

ولقد عاش شوقى مُبَجَّلا عالىَ الاسم ، رفيعَ المنزلة . فلما قُبِض إلى رحمة الله تعالى أقامت له وزارة المعارف بالاشتراك مع طائفة من أعيان أهل الفضل والأدب حفلة تأبين دعتْ إليها كبار العلماء والأدباء فى الأقطار العربية . وشرَّفها جلالة الملك المعظَّم بنائب عن ذاته الكريمة . وقد أقيمت هذه الحفلة فى دار الأوبرا الملكية فى شهر ديسمبر من السنة التى قُبِض فيها .

وبعدُ ، فقد تقلَّبَ شوقى من أول نشأته فى النعمة ، وأصاب ما شاء من مُتَعِ الحياة ، ولو قُدِّر لِخَلْق من الناس أن يُدْرِكوا كلَّ مُناهم ، وأن يَبلُغوا الحياة مَدَى أَشَرِها ، لكان شوقى من أحد هؤلاء .

وإذ قد عرفت هذا فلا يتعاظمَنَّك ما ترى من شيوع الترف فى شعره ، فلا تقع من تشبيهاته ، فى غير المآسِى ، إلا على كلِّ فاخر ثمين .

صفاته وأخلاقه — كان شوقى ذكيا وافر الذكاء ، حَيِيًّا جَمَّ الحياء ، لا يتبسَّط فى الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين . ولعلَّ بعضَ ما حمله على هذا أن طلاقة لسانه لا تكافئ فصاحة قلمه ، ولا توآتى مطالب عقله .

(١) قال رحمه الله :

وخميلة فوق الجزيرة مسها ذهب الأصيل حواشيا ومتونا
كالتبر أفقا والزبرجد ربوة والمسك تربا واللجين معينا
وقف الحيا من دونها مستأذنا ومشى النسيم بظلها مأذونا
وجرى عليها النيل يقذف فضة ثترا ويكسر مرمرا مسنونا
يغرى جواريه بها فيجئنها ويخيرهن بها فيستعلينا
راع الظلام بها أوانس ترتمى مثل الظباء من الربى يهوينا
يخطرن فى ساح القلوب عواليا ويملن فى مرأى العيون غصونا
عفن الذيول من الحرير وغيره ويجبن ثم الآس والنسرينا

وقال من قصيدة له فى وصف دمشق :

آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور فى (دمر) أو حول (هامتها) حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد فى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفا أفوافه فهو أصباغ وألوان
وقد صفا (بردى) للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذيال وأردان

و (الحور) فى صدر البيت شجر عظيم يشبه السرو ، و (الحور) فى عجزه بنات الجنة .

يكره الدخول فى زحمة النـاس ، وينفِر من شهود الحفل الجامع ؛ إلا أن ينقبض فى ركن من ملهى أو ملعب، وادع النفس ، هادئ السعى . لا تراه يعنُف، وقلَّ أن يستفزّه الغَضَب . عطوف شـديد العطف، رحيم كثير الرحمة . ينفِر من ذكر المآسِى و يفرّ من رؤيتها فرارا . على أنه مع هـذا قد راضَ نفســه على الصبر على المكروه ودرّبهـا على الرضا بالقضاء واقعا حيث وقع . فإذا لحقه المكروه راح بذهنه يستخرج من بعض نواحيه خيرا . فإن تعذّر عليه استراح، فى النهاية ، إلى أنّ الله تعالى إنما دفع به ما هو أكره .

وهو دائم الاعتداد بمـا يعتريه من النعماء ، فاذا دقت وصغرت جعل يُجِلُّها ويُعْظِم ، ولو بالتخييل ، من شأنها . وعلى الجملة فإن هذا الرجل لو انحدرت عنه كلُّ نعمة لعاش من رضاه فى أوسع نعمة . وعلى هذا لقد كان من أقلّ النـاس شكوى من زمانه . ولعل أوجعَ ما شَكَا فيه قوله :

أحرامٌ على بلابِـلِهِ الدَّو ... حُ حلالٌ للطَّيرِ من كلِّ جِنسِ؟!

وهذا قاله وهو مَنْفِيٌّ من وطنه . ولقد جعَل اللهُ النفيَ من الوطن عديلا للقتل والصَّلْب وتقطيع الأطراف . قال جلَّ مَجْدُه : " إِلَّا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ " . وأىّ رجلٍ هـذا المنفىّ من وطنِه ؟ هو الذى يقول فى هذا الوطن من القصيدة نفسها :

وَطَنِي لو شُغِلْتُ بالخُـلْدِ عنهُ ... نازَعَتْنِي إليهِ فى الخُـلْدِ نفسِى !

ولقد كان شوقى شـديد الإيمـان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر والقَدَر . ولم تُحْصَ عليه فى هذا الباب زَلّةُ لسان أو عثرة قلم . وكان شديد الحنين إلى السيد المسيح صلوات الله عليه ، دائم الذكر له فى شعره ما واتته المنـاسبة يذكره فى عطف وشوق ولهفة . وإذا ذكرتَ ما رُكِّب فى طبع هذا الشاعر من الرِّقة والرحمة والحُنُوّ ودَعَة النفس أدركتَ الوجه فى إيثاره لاسم هـذا النبى الكريم بكثرة الإشادة والترديد .

على أنّ شوقى، على شدّة ايمانه هذا، كان فى شباب السنّ مستهترا بلذائذ الدنيا، مُسْرِفاً فى الإصابة مما يطيب له منها ، لا يتأثم فى هذا ولا يتكلّف مداراة الناس فبلغ فيه حدًّا يشبه الإباحية . ولكنه حين لحقته السِنُّ قَصَرَ متعته على شهود (السينما) وحضور مجلس الغناء . وله من بلائه فى النَّضح عن دولة الإسلام، وفى مِدَحِهِ لسيد الأنام [1] ، أعظم رجاء فى كرم العاقبة وحسن الختام . ولقد قال فى (نهج البردة) :

إنْ جَلَّ ذَنْبِي عن الغُفْرانِ لِي أَمَلٌ      فى اللهِ يجعلنِي فِي خير مُعْتَصَم

وهو بعــدَ هذا مفتنٌّ بأجمع معانى الكلمة ، يَكْلَف بفنِّــه إلى حد الافتتان ، بل إنه لايكاد يرى الرجل كل الرجل يتمثــل إلا فى الشاعر ، ولا يرى للحيــاة فى جميع صورها غاية إلا قرض الشعر . انظر كيف يقول على لسان إحدى من يَنْسِب بهنّ :

جاذَبَتْنِي ثَوْبِي العَصِيَّ وقالتْ :      أنتم الناسُ أيُّها الشعراءُ !

ولقد كان إلى هذا شديدَ التمكُّن من نفسه حتى ما يرى فى الدنيا شاعراً يباريه أو يتعلق بغباره .

شاعريته — لم يُطاوِل شوقى فى قرض الشعر ولم يَجْهَد فيــه ، بل لقد جاء به فتى ، وأطلقته قريحته الغضّة عالى المعنى، فخم اللفظ ، متلاحم النســج . ومدح الخديو توفيقا وهو لمــا يزَل طالبا حَدَثا. ونُشِرَتْ مدائحُه يومئذ فى(الوقائع المصرية) وارتفعتْ من فورها إلى ولىّ الأمر . فدَلّ هــذا على أنّ فيــه طبيعة ، وأنه أوتى الموهبة . ثم لقــد كشف الزمن عن أنّ تلك الموهبة من الضَّرْب الرفيع الغالى الذى يَضِنّ بنفسه على الأجيال .

---

[1] لشوقى فى هذا الباب قصيدتان سابغتان عارض بإحداهما البردة، وبالأخرى الهمزية للبوصيرى عليه رحمة الله ، وله مدائح أخرى فى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولا شكّ فى أنّ المواهب الفنّية لا تُعلّل . فإن حاولتَ أن تَرُدَّ هذا إلى أنه قد دخل فى أصله العنصر العربىّ ، فهذه ملايين الخلق من خُلّص العرب لم يقولوا الشعر ولم تنتضح به ألسنتهم ، وأكثر من عالجوه منهم لم يرتفعوا إلى شىء من حظّ شوق . وإن أنت رددته إلى أنه جرى فى أعراقه الدم اليونانى ، فهذه الملايين من اليونان الخُلّص لقد تعذّرت عليهم ملكة الشعر فلم يجيئوا منه بجيد ولا بردىء .

نعم ، لقد يكون للعنصر وللدم دخل فى توجيه شاعرية الشاعر ، وتكوين عقليته . وفى تصوير منطقه ، وتلوين عاطفته ، والذهاب بنزعته مذهبا خاصا . ونحو ذلك . أما أنّ ذلك مما يخلق الموهبة خَلْقا فهذا ما لا يكون .

## شـــعره

تقدم لك فى أثناء هذا الكتاب صِفة الشعر فى العصر الحديث ( من الحملة الفرنسية ) . وكيف كان يغلب عليه الضعف والإسفاف والدوران فى فنون من الأغراض لا غَناء فيها لمطالب العاطفة ولا لحاجات المجتمع . ولقد نجم شوقى أول ما نجم والكثرة الغامرة من جمهرة الشعراء على هذا ؛ على أنه من يُمْن طالعه أن تقدمه إلى قرض الشعر أفذاذ ثلاثة : عبد الله فكرى ، ومحمود سامى البارودى ، وإسماعيل صبرى . فدلته الموهبة عليهم ، وعدل من فوره إلى احتذائهم ، وانتهاج طريقهم فى تجويد الشعر باصطفاء اللفظ ، وإحكام الصياغة ، والاحتفال للمعانى ، وعدم استهلاكها فى سبيل البديع ، صنع أكثر من يقوم فى العصر من الشعراء .

ولقد كان فى صدر شبابه كلما قرض قصيدة أو نظم مقطوعة من الشعر عرضها على إسماعيل باشا صبرى ، وقد عرفتَ أنه شاعر بلغ الغاية من دقة الذهن ، وكمال الذوق ، ورهافة الحِسّ . فلا يزال يعالج معه ما عسى أن يقع من قلق فى اللفظ ، أو انحراف فى المعنى ، أو نشوز على مواقع الجمال . وتلك كانت سنة كثيرٍ من الشعراء من قديم الزمان .

وشوق ، فوق هـذا ، كان شديد الإكباب على قراءة الكتب بوجه عام ، وكُتُب الأدب على وجه خاصّ، ودواوين الشعراء على وجه أخصّ. ومن أعظم مَن عُنِي بقراءة دواوينهم ، واستظهار أشعارهم ، وانتهاج طرائقهم ، ومباراتهم فى منازعهم : أبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، والمتنبى . وقد نَضَحَ أربعتُهم على شعره ، فكان أثَرُ كلٍّ منهم فيه بَيّنا . وإنك لتلمح فيه حلاوة أبى نواس ودقة وصفه، وتصرفه فى فنون الغزَل، وإشادته بمجالس اللهو، وافتنانه فى الخمريات[1] .

---

(١) قال فى الربيع :

آذار أقبل قم بنا ياصاح ... حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها ... فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا ... لتجاوب الأوتار والأقداح
واستأنس من السقاة برفقة ... غرّ كأمثال النجوم صباح
رقّت ، كندمان الملوك ، خلالهم ... وتجمّلوا بمروءة وسماح
واجعل صبوحك فى البكور سليلة ... للنجبين : الكرم والتفاح
مهما فضضت دنانها فاستضحكت ... ملء المكان سنى وطيب تفاح
تطغى فإن ذكرت كريم أصولها ... خلعت على النشوان حلية صاح
فرعون خبأها ليوم فتوحه ... وأعدّ منها قربة ( لفتاح )
ما بين شاد فى المجالس أيكه ... ومحجبات الأيك فى الأدواح
غرد على أوتاره يوحى إلى ... غرد على أغصانه صداح

كما تلمح فيه احتفال أبى تمام للمعانى الرفيعة والارتصاد لإصابتها مهما جشّمه ذلك من إعنات اللفظ وجلجلة الصياغة . ولقد تلمح فيه هلهلة البحترى ، وإحكام

---

وقال فى الخمر :

حفّ كأسها الحبب ... فهى فضة ذهب
أو دوائر درر ... مائج بها لبب
أو فم الحبيب جلا ... عن جمانه الشنب
أو يداه باطنها ... عاطل ومختضب
أو شقيق وجنته ... حين لى به لعب
راحة النفوس وهل ... عند راحة تعب ؟
يا نديم خفّ بها ... لا كبا بك الطرب
لا تقل عواقبها ... فالعواقب الأدب

وقال يتغزل :

الله فى الخلق من صبّ ومن عانى ... تفنى القلوب ويبق قلبك الجانى
صونى جمالك عنا إننا بشر ... من التراب وهذا الحسن روحانى
أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا ... لم يتخذ شركا فى العالم الفانى
ينساب فى النور مشغوفا بصورته ... منعما فى بديعات الحلى هانى
إذا تبسّم أبدى الكون زينته ... وإن تنفس أبدى طيب ريحان
وأشرق من سماء العزّ مشرقة ... بمنظر ضاحك اللألاء فتان
عسى تكفّ دموع فيك هامية ... لا تطلع الشمس والأنداء فى آن
يامن هجرت إلى الأوطان رؤيتها ... فرحت أشوق مشتاق لأوطان
أتذكرين حنينى فى الزمان لها ... وسكبى الدمع من تذكارها قانى
وغبطى الطير ألقاه أصيح به ... ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى

نسجه، و براعة نظمه . أما أثر المتنبي في شعره ففيما ترى من شيوع الحكمة والإكثار من ضَرْب المثل .

---

وقال من تسع عشرة سنة يصف الطيارة . وهذا من أبرع الكلام :

نصـــفه طير، ونصف بشر || يا لها إحدى أعاجيب القضاء !
حمـــل الفولاذ ريشا وجرى || في عنانين له : نار وماء
وجناح غـــير ذى قادمـــة || بجناح النحل مصقول ســواء
وذنابي (١) ، كل ريح مسها || مســـه صاعقة من كهرباء
يـــتراءى كوكبا ذا ذنب || فإذا جدّ فسهما ذا مضاء
فإذا جاز الـــثريا للـــثرى || جرّ كالطاووس ذيل الخيـــلاء

ومن روائع حكمه ، وما جرى من شعره مجرى الأمثال قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت || فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

***

إذا أصيب القوم في أخلاقهم || فأقم عليهم مأتما وعويلا

***

وما السلاح لقوم كل عدتهم || حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

***

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا || فليس وراءها للعزّ ركن

***

وليس بعامر بنيان قوم || إذا أخلاقهم كانت خرابا

***

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها || بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

***

أعلمتَ أشرف أو أجلّ من الذى || يبنى وينشئ أنفسا وعقولا

---

(١) الذنابى ذنب الطائر .

ولا يذهب عنك أن هذا الكلام ليس معناه أن شوقى إنما هو مستعير منهم ومقلد لهم . بل الغرض أنه استظهر أشعارهم فاتصلت بذوقه، وجرت فى عرقه، وخالطت طبعه فنضحت على قلمه . والواقع أنه إذا كانت أشعار هؤلاء الشعراء وغيرهم من العناصر التى دخلت على شاعرية شوقى وجلته فى هذه الصورة، فإنه مما لا شكّ فيه أن للرجل شخصيته القوية الخاصّة به والتى ينفرد بها عن سائر من عداه من الشعراء ، حتى إنك لو عرضت شعره على أهل البصيرة من نقدة الكلام لما ترددوا فى نسبته له وإضافته إليه ، شأن غيره من فحول البيان . واعلم أن احتفال الشاعر للمعانى حتى ليقلق الألفاظ فى سبيلها لا ينافى اجتماعه فى بعض الأحايين لإحكام النسج وتجويد الصياغة . والشاهد على هذا ما نرى فى شعر أبى تمام والبحترى كليهما .

---

وليس بالفاضل فى نفسه　　من ينكر الفضل على ربه

***

ما أصعب الفضل لمن رامه　　وأسهل القول على من أراد

***

ربّ إن شئت فالفضاء مضيق　　وإذا شئت فالمضيق فضاء

***

واستقيموا يفتح الله لكم　　بابا فبابا

***

والجهل موت فإن أوتيت معجزة　　فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

***

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه　　فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير عافية　　والنفس من شرها فى مرتع وخم

***

( الموت بالزهر مثل الموت بالفحم )

ولا شك أيضا فى أن من العناصر التى دخلت على شعر شوقى فذهبت به هذا المذهب حذقه اللغة الفرنسية ، وسعة اطلاعه فيها على أدب الغرب ، وترويه عيون بلاغاته . ومن الحق أن يذكر له فى هذا المقام ، أنه كثيرا ما مَسَّ من معانى القوم أو لمحها فى شعره ، ومع هذا لقد جلاها عربية خالصة لا تنشز على الذوق العربى ، ولا يجد هو فيها ريح الاستعجام . وإذا ذكرنا أن شوقى من أوائل من ارتصدوا لهذا وعالجوه فى العصر الحديث . فجاء به عربيا خالصا فى مثل هذا اليسر ، قدرنا مبلغ كفايته وتبريزه فى فنون البيان .

كذلك من العوامل التى لها أثر واضح فى شعر شوقى نشأته فى بيت الملك ، ومقامه فى بِطانة الأمراء وظهارتهم ، ودخوله فى أدق الأسباب السياسية فى مصر ، سواء ما اتصل منها بالدولة المحتلة ( انجلترا ) أو بالدولة المتبوعة يومئذ ( تركيا ) .

وفى الغاية ، لا تنس أثر سياحاته الكثيرة فى بلاد الغرب ، وفى بلاد الشرق القريب ، ومخالطته لأصناف الخلق ، ووقوفه على طباعهم وأخلاقهم ومأثور عاداتهم ، وما تجلى من صور الطبيعة فى بلادهم ، وغير ذلك مما لا يتهيأ لكثير من الشعراء .

وبعد ، فمما لا يعتريه الريب أن شوقى يُعَدُّ ، بحقّ ، من أعظم أقطاب الشعراء فى العالم العربى كله ؛ بل إن بعض النقدة ليتخطى به القرون فيصله بأعلام الشعراء فى أزكى عصور العربية وأنضرها بيانا .

ولقد تصرف شوقى فى كل فن ، وجال فى كل غرض ، وأصاب من كل مطلب ، فبذ وبرع . وعارض متقدمى الشعراء ومتأخريهم فما قصر ولا تخلف . ولقد ظل جيلا ونصف جيل يرسل غالى الشعر ، ما وقع فى البلد من حدث إلا جلجل بالقريض ، ولا كانت الحُلَى فى رجا من أرجاء العالم إلا نظم ما تتقطع من دونه علائق الأقلام .

وهنا ينبغى أن يُذْكَر له ولصاحبه حافظ إبراهيم ، عليهما رحمة الله ، أنهما من أوائل مَن بعثوا الشعر فى الأغراض العامة ، وخاضوا به فى المسائل الاجتماعية ، فأغْنَوْا وأجْدَوا ، وأصبح أثرهم فى هذا الباب ثابتا على وجه الزمان .

ومن خصائص شوقى فى شعره أنك قد تراه يمدح أو يرثى أو يتصرف فى غير هذين الفنين من فنون القريض ، ولكنه لا يفتأ يحرف عما هو بسبيله إلى ضرب مثل أو إجراء حكمة فيها كلُّ النفع لو قد أخذ بها الناس .

وهو طويل النفس جدا حتى لقد يبلغ بالقصيد المائة ، وقد ينيف عليها فى غير قلق ولا إسفاف . ولقد بلغت قصيدته ( كبار الحوادث فى وادى النيل ) مائتين وتسعين بيتا أكثرها من مصطفى الشعر ومتخير الكلام .

وله مقطوعات شعرية يرجِّعها بعضُ حُذّاق المغنين اليوم [1] ومن شعره الذى

---

(١) راجع الجزء الثانى من المنتخب ( الطبعة الأخيرة ) ، ومما يتغنى فيه اليوم من شعره كذلك قوله من قصيد ( زحلة ) :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ... ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى ... والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة ... غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلى وجوهها وعيونها ... ووجدت فى أنفاسها ريّاك

***

لم أدر ما طيب العناق على الهوى ... حتى ترفق ساعدى فطواك
وتأودت أعطاف بانك فى يدى ... واحمرّ من خفريهما خدّاك
ودخلت فى ليلين فرعك والدجى ... ولثمت كالصبح المنوّر فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوة ... من طيب فيك ومن سلاف لماك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت ... عينىّ فى لغة الهوى عيناك
ومحوت كلَّ لبانة من خاطرى ... ونسيت كلّ تعاتب وتشاكى
لا أمس من عمر الزمان ولا غد ... جمع الزمان فكان يوم رضاك

لو تقدم به الزمان لكان حقيقا بأن يتغنّى به أمثال إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق

قوله من قصيدة ( لبنان ) :

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل ... فأتيت دون طريقه فزحمته

فازورّ غضبانا وأعرض نافراً ... حال من الغيد الملاح عرفته

فصرفت تلعابى إلى أترابه ... وزعمتهن لباتى فأغرته

فمشى إلىّ وليس أول جؤذر ... وقعت عليه حبائلى فقنصته

قد جاء من سحر الجفون فصادنى ... وأتيتُ من سحر البيان فصدته

لما ظفرتُ به على حرم الهدى ... لابن البتول وللصلاة وهبته [1]

وديوان شوقى رحمه الله يقع فى أربعة أجزاء ، طبع منها اثنان . وله غيره فى الشعر كتاب ( عظماء الإسلام ) ، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر ، وقصائد سهلة للأطفال والأغانى ، وربما استغرق هذا الكشكول ثلاثة أجزاء . وله فى النثر كتاب (أسواق الذهب ) جارى فيه الزمخشرى رحمه الله فى كتابه (أطواق الذهب) . وله روايات شعرية وهى : على بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة . وله روايات أخرى نثرية منها : لادياس ، وورقة الآس ، ومذكرات بنتاؤر ، وأميرة الأندلس . ومن هذا تدرك مبلغ إنتاج الرجل وسخاء ذهنه من يوم نجم إلى أن أدركته الوفاة .

---

(١) ابن البتول هو السيد المسيح عليه السلام .

## النثر

لم يكن النثر الأدبي فى صدر النهضة الحديثة يجرى فى جِدّ من الأمر ، أو يطلب جليلا من المعنى ولا ساميا من الأغراض . بل لقد كان كذلك يدور فى أبواب ضيقة من نحو كتب المودّات ، والاستعطاف ، والشكوى والهناء ، والعزاء ، وضئيل من الوصف ، وما إلى ذلك . كما كان يُعْنَى به فى مقدّمات الكتب وفى تقريظها .

وأما من حيث صياغتُه ونسجُه ، وترقرقُ الأخيلة فيه ، وشدةُ الارتصاد لطلب المحسنات ، واصطيادُ النكات البديعية واستكراهُها على الكلام ، إن لم تكن صدورُ الكلام نفسِه مهيأة من قبلُ لمجرّد إصابة النكتة لا لأصابة شىء آخر ، فشأنه فى كل هذا شأن الشعر إلا أنه محلول والشعر معقود .

وأما لغة التأليف فى ذلك العهد فقد بلغتْ أقصَى حدود الضعف والركاكة ، فوق الافتنان فى تعقيد العبارات بالمبالغة فى الإيجاز مما يُحتاج فى تفهّمه وتبيّن قصد المؤلِّف إلى شدة الجهد والمطاولة وقدح الأذهان . ولم يقف منهم هذا عند كتب التوحيد والنظر ، ولا عند كتب الشريعة أصولِها وفروعِها . بل يتعداه إلى كتب اللسان ومنها المصنَّفات فى البلاغة نفسِها ! . فإذا وقع لك فى أثناء هذه المؤلفات تعبير جيد أو فِقرة فصيحة نيِّرة ، فإنما سقطتْ إلى الكُتّاب من اصطلاح مأثور ، أو كانتْ من نَسْج الأقدمين .

وبعد فإنما نتحدَّث عن موضع الشعر والنثر ، فى الجملة ، وليس هذا بناف أن كانت ، فى بعض الأحايين ، تخرج الأبيات بل المقطوعات الشعرية على حظ من الإصابة ، وكرم المطلب ، وشرف اللفظ ، وإشراق الديباجة ، وتلاحم النسج . وقُلْ مثلَ هذا فيما انتضحت به الأقلام فى منثور الكلام . على أنّ هذا القدر لا يدلّ على أدب العصر ، ولا على حظّ المتأدبين من البلاغة فيه .

ومما يدلك على أن البيان لم يتصل بطبع كثير من المتأدبين ولم يرسخ فى ملكاتهم أن ما يظهر من بلاغاتهم إنما كان من ثمرة الاجتماع والتشمير وشدة الجهد. حتى إذا أرسلوا أقلامهم على السجية جاءت بالدون المِسِفّ . ولا تنس الشيخ الجَبَرتىّ فى هذا المقام . فلقد كان مسلوكا فى أعيان الكتّاب والشعراء ، وله فى كلا البابين آثار تضاف إلى البدائع بالنسبة لعصره . ومع هذا فقد كان دأبه فى سائر ما يكتب الإسفاف إلى أشنع العامية : سخف لفظ ، وركاكة تأليف ، وقبح أداء .

ومن أشهر الكتّاب فى هذا العصر :

( ١ ) السيد إسماعيل الخشاب ، ( ٢ ) الشيخ محمد الحفنى المهدى ، ( ٣ ) الشيخ حسن العطار . وقد تقدم ذكرهم . ومنهم :

## (٤) الجبرتى

المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م)

هو الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن الجبرتى ، نسبة إلى جَبَرْت من أعمال الحبشة . نشأ فى مصر ، وتعلم فى الأزهر . وأخذ العلم عن أبيه وعن طائفة من كبار الشيوخ . وعالج الأدب ، وشعر ونثر . ولما دخل الفرنسيون مصر اصطفوه للكتابة فى ديوان القضايا الذى سبقت الإشارة إليه. ثم انقطع للتدوين والتصنيف.

وأهم مؤلفاته التاريخ المسمى (عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار) أرّخ فيه من القرن الثانى عشر الهجرى إلى سنة ٣٦ من القرن الثالث عشر ، وقد التزم فيه تدوين الحوادث يوما بيوم[١] . ولقد وقعت أجلّ الأحداث فى عصره من قُبَيْل دخول الفرنسيين مصر إلى صدْر كبير من ولاية محمد على ، فدون فى تاريخه كل

---

(١) تجد نموذجا من أحسن ما تأنق الجبرتى فى كتابته فى الجزء الثانى من المنتخب .

ما جدّ منها فى تلك الفترة ، على ما وقع بعينه أو بسمعه . وقفّى على أثر كلّ سنة بتراجم مَن مات فيها من الأمراء وكبار العلماء وصدور الأعيان .

وله فى التاريخ كذلك كتاب دعاه (مظهر التقديس، بذهاب دولة الفرنسيس) وقد تُرجم الكتابان كلاهما إلى الفرنسية ، وتُرجم هذا إلى التركية أيضا .

## تطوّر النثر

لقد مضت الإشارة إلى أن النثر كان أسبق من الشعر تطورا وأسرع إلى الكمال عَدْوًا . وقد كشفنا لك عن الوجه فى ثقل حركة الشعر فى هذا الباب . أما النثر فلقد تعلَم أن البلاد من أول منجم هذه النهضة قد أخذت بعلوم الغرب وفنونه ، إذ لا عهد لها من قبل بكثير منها . ومنها ما طال العهد به حتى تقطع ما بينه وبين العربية أو كاد . فكان لا بدّ لأداء هذه العلوم والفنون بالعربية من مراجعة معجمات اللغة وتقليب مجفوّاتها فى الأسباب المختلفة توسّلا إلى تلك الغاية. وكان من أثر ذلك أن استُخرجت صيغ قديمة ، وطُبعت صيغ جديدة ، وجعلت اللغة تتطور تطورا يشتد ويعنُف باشتداد حركة الترجمة والتأليف ، ويلين ويفتُر طوعا للينها وفتورها . إلا أنّ تفتّح العيون على أسباب الحضارة الجديدة أمال صدرا من تفكير الكاتبين إلى المعانى ، وعدم استهلاكه كله فى نظم الألفاظ ، وإلى أن المكاتبات الحكومية بعد استحالتها من التركية إلى العربية ، قد استدرجت هى الأخرى إلى تقليب الأذهان فى وجوه الصّيغ لأداء المعانى التى تتطلبها وسائل الحكم المختلفة .

على ان هذا وهذا وهذا لم يحرِف النثر الأدبى عن طبعه ، ولا عدل به عن مذهبه . بل لقد ظل دهرا طويلا على شأنه الذى عَرَفْتَ ، حتى لقد كان كثير من المراسلات الديوانية والتوقيعات الخديوية فى طويل من عهد إسماعيل يُلتزم فيها السجعُ وتُتصيّد لها ألوانُ البديع . والسبب فى هذا يعود إلى أن النهضة إلى ذلك العهد كانت نهضة علوم لا نهضة آداب .

## نهضة النثر الأدبى

ما كادت البلاد تبلغ حَظًّا محمودا من مطالب العلم فى عهد إسماعيل حتى اشتد تهافتها على طلب الآداب . فأكثر باعثو النهضة من بعث كتب السابقين من أعيان البيان بالطبع والاستنساخ . وأقبل المتأدبون على قراءتها وترويها ، وتقليب اللسان فى صِيَغها ، وإجالة الفكر فى منازع بلاغتها ، وراعهم ما أصابوا من المأثور عن أعلام العربيــة فى أشعارهم وكلامهم فى خطبهم ، وأمثالهم ، ومحاضراتهم ، ومناقلاتهم ، وغير ذلك فى مختلف مقاماتهم ، وجعلوا يترسّمون خُطاهم ، ويتكلّفون محاكاتهم إذاهم كتبوا فى الوسائل الأدبية . وتخفّفوا ، جهدهم ، من الإمعان فى طلب المحسنات البـديعية ، والارتصاد لاصطيادها . فضلا عن سوق الكلام لمجرد شكّها وإصابتها .

ولا تنس ، مع هذا ، عاملا خطيرا كان له أثره البعيد فى تطور الأدب العربى عامة ، وفى النثر خاصة . وذلك أن ظهور المتعلمين على الأدب الغربى فى لغاته ، أومترجما إلى العربية ، وإمعانَهم فى قراءته وتقليب الذهن فيه ، كان له فى أقلام الكاتبين أثر بعيد ظهر واضحا فى صرف أجلّ العناية إلى المعانى لا إلى تحسين اللفظ وتبهيجه ، وفى القصد فى الألفاظ فلا يُطلق منها إلا بقدر المعانى القائمة فى النفس ، والتجرّد من المبالغات الممجوجة ، والتحليق بالأخيلة السخيفة ، والانصراف عن التمهيد بالمقدمات الطويلة التى كثيرا ما تستهلك جهد الكاتب والقارئ جميعا دون بلوغ الغرض الذى سيق له الكلام .

وكان من أثر هذا أيضا تغير طريقة الكتابة طوعا لتغير طريقة التفكير ، وتقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد . واعتماد لون طريف فى ترتيب الكلام وتبويبه وسوق المقال فى الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجوز بكثير من المفردات لإصابة

مالا تطوله بأصل الوضع اللغوى. كما أن النقد قد اتخذ مذهبا حديثا ، ودقّ تحليل الأناسيّ واتسعت رقعته ، وتجاوز النقد غالبا تناول الكلام جملة بجملة إلى تناول الموضوع كله باعتباره صورة واحدة إلا ما كان له من الجمل خطر خاص . وإهمال الاتكاء فى تأييد المسائل العلمية ، وخاصــة فى أبواب الأخلاق والآداب ، على إيراد المأثور من الحكم . وغير ذلك مما لا يسهل استقصاؤه .

وقد استحدث قيامُ الحرب العالمية وما وليها من الرجّات ، وخاصة فى مصر ، صِيغا كثيرة جدا لا عهد للعربيــة بها من قبل . وأكثرها مما استساغه المتأدبون ، وأجْرَوْا به أقلامَهم فى الأسباب السياسية بنوع خاص . على أن الكتّاب ، مع هذا، ما برحوا جاهدين فى مشاكلة أساليب العربية القديمة ، واستخراج روائعها، وتحرّى فَصْحها .

وفى الواقع ، لقد جلّ شأن النثر فى مصر ، على الزمن ، وخاض كلَّ مخاض ، وخاصة فى أبواب السياسة والاجتماع والآداب ، وتجلّى فيها يُسر العربية ووَفْرها ، وقدرتها على الوفاء ، بما كان يظن بها دونه القصور والإعياء .

بقى أنّ من أشدّ ما يتعثر فيه العلماء وأصحاب الفنون ، ويجدون العُسْرَ أبلغ العسرِ فى أدائه بالعربية ، القدر العظيم من المفردات والمصطلحات العلمية والفنية ، وإصابة الأسماء للعدد الضخم من مسميات المخترعات الحديثة وأجزائها . ولقد يبدو هذا عجيبا إذا ذكرنا أن ثقافتنا قد اصطبغت من أول منجمها بالصبغة العلمية ،على ما تقدم ! . ولكن الواقع أن الحركة العلمية قد أصابها الفتور فى بعض هذه الأثناء ، فتحول كثير من الهمّ إلى الآداب ، وأن العلوم الحديثة ظلت تدرس كلها دهرا فى المدارس باللغات الأجنبية . فهذا وهــذا لقد كانا السبب فيما ترى . ولو قد اطّردت نهضةُ رفاعة وتلاميذه لكُفينا المؤونات فى هذا الباب .

على أن إنشاء المجمع الملكى للغة العربية كفيل ، إن شاء الله ، بازدهار العربية فى العلوم والفنون كما ازدهرت فى ألوان الآداب .

## أنواع النثر

يتقلب النثر الفنى فى أنواع ثلاثة ، لكلّ منها صورته ومميزاته ، وهى :

(١) النثر الاجتماعى ، (٢) نثر الصحافة ، (٣) النثر الأدبى . ونحن محدثوك عن كل منها بالاختصار :

### (١) النثر الاجتماعى

وهو الذى يُطلب به تقرير حالة اجتماعية ، أو محاولة إصلاح ناحية من نواحى الحياة العامة .

وهذا النوع من النثر ينبغى له إلى صحة العبارة ، بالضرورة ، البعدُ عن الزخرف ، ووضوحُ العبارة ، وتركُ المبالغات ، وسلامةُ الحجج ، وإجراؤها على حُكْم المنطق الصحيح . لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، كما سلف عليك ؛ فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية فيه ، اللهم إلا فى المقامات التى تستدعى استفزاز الجمهرة وتحميسها للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام . على أن يكون ذلك بقدْر ، فإن الأغراضَ الاجتماعية إنما تجرى فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

ومما يتصل بالنثر الاجتماعى الكتابةُ الدينيةُ فى الإصلاح العام .

### (٢) نثر الصحافة

قد عرَفْتَ أن الصحف تنقسم إلى جرائد سياسية ومجلات علمية أو فنية . فنثر الجرائد السياسية يجب أن يكون واضحا سهلا بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه . لأن هذه الصحف إنما تخاطب العامة كما تخاطب الخاصة ، وتتحدث إلى الجُهّال

كما تتحدث إلى المتعلمين. هذا إلى أن قُراءها إنما يبغونها للساعة، فلا محل للارتفاع بعباراتها والتعمق فى معانيها بما يقتضى القارئ كَدَّ الذهن و إرهافَ العَصب .

وإذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاجُ فيه على الأقيسة المنطقية لما عرفتَ من أنه يتكئ ، فى الغالب ، على القضايا العلمية ، وعلى الحقائق الواقعة . فإن النثر الصحفى لا يُلتزم فيه ذلك . بل إن أكثر اعتماده فى هـذا الباب على الأدلة الخطابية ، لأنها هى الأنفذ فى إقناع الجماهير من جهة ، ولأن النزعاتِ السياسةَ تقوم ، فى الغالب ، على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

أما نثر المجلات العلمية والفنية ، ويلحق بها الأبواب التى تُحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها والإيغال فى معانيها تحقيقا للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب . ولأن هذه الصحفَ لا يُقبِل على قراءتها إلا المتعلمون .

## ( ٣ ) النثر الأدبى

وهو أشـد أنواع النثر حاجة إلى تخيّر اللفظ ، والتأنق فى النظم ، حتى يخرج الكلام مُشْرقا نيِّرا ، لطيفَ الموقع فى النفوس، حلو النبرة فى الآذان . لأن الصناعة اللفظية عنصر فيه ذو خطر كبير . فهو أدنى ألوان النثر إلى الشعر ، ولهـذا لا يُنكر منه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارئ ، وبحيث لا يُستكره على النظم استكراها، ولا تُساق الجملة لمجرد اصطياده ؛ بل إن خيره ما جاء عفوا ، وما استشرف له الكلام استشرافا .

وهـذا التخيّر والاصطفاء ، وتجويد النسج ، والتأنق فى النظم ، يقتضى إلمـاما بوفر من مفردات اللغة وخبرة بمواقعها ، واستظهار كثير من الشعر . وما جادت به أقلام البلغاء ، وأرسلته ألسنة أعلام الخطباء ، إلى أن يكون لمرء طبيعة ودقة ذوق ، ورهافة حسّ ، وبَصَر بدقائق الأشياء ، وفطنة إلى مواقع الجمال .

ومن أشهر من شهروا فى هذا العصر فى النثر الاجتماعى : السيد جمال الدين الأفغانى ، وقاسم بك أمين . وفى النثر الصحفى الشيخ على يوسف . وفى الكتابة فى الموضوعات الدينية الشيخ محمد عبده . والشيخ عبد العزيز جاويش . وفى الكتابة العلمية الدكتور صروف . وفى النثر الأدبى أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله باشا فكرى ، وإبراهيم بك المويلحى ، والسيد مصطفى المنفلوطى .

وإليك موجزا فى سيرة كل منهم وفى آثاره :

## ( ١ ) جمال الدين الأفغانى

### المتوفى سنة ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٧ م )

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما . وُلد بقرية أسعد أباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان ، وعشيرته فيها من أكبر العشائر وأجلّها محلا . وقد تحول به أبوه إلى كابل وهو لمـا يزل فى الثامنة من عمره فتلق فيها مبادئ العلوم العربية، وعلوم الشريعة، والعلوم العقلية ودرس التاريخ وعلوم الرياضة والهيئة وغيرها ، وواتته شدة ذكائه بالتبريز فى كل ذلك فى مدّى قصير . ثم شخص إلى الهنـد فأقام هنالك سنة وبضعة أشهر راجع فيهـا العلوم الرياضية على الأسلوب الحديث . وما زال يضطرب بين أقاليم الأرض المختلفة يعالج العظائم ، ويعانى جُلّ الأحداث حتى وفد على مصر سـنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) . ولم يكن وفوده بنية الإقامة . غير أنّ المرحوم رياض باشا ، رئيس الوزارة يومئذ ، حبّب إليه المُقـام استفادة بفضله وحكيم رأيه . وأجرتْ عليـه

الحكومة رزقا شهريا يقيم به شأنه . وتصدّر فى داره لقراءة كتب العلم فى التوحيد والفلسفة وأصول الفقه وغيرها ، فاستوى إلى دروسه الكثير من نجباء الطلاب .

ولقد كان جمال الدين يمتاز بحدة الذكاء ، ووثاقة العقل ، وشدة الطبع ، وقوة العزم ، كما أوفى على الغاية من اللَّسَن وصَوْلة الحجة . وكان لا يفتأ ينفخ فى طلابه وجُلّاسه رُوح الحرية السياسية ، ويدعو إلى العمل على جمع كلمة المسلمين فى أقطار العالم . وقد تخرج عليه طائفة ممن علا صِيتهم فى العلم والفضل والسياسة وقوة البيان .

على أن الرجل وإن كان هو نفسُه لم يُصِبْ حظا عظيما من العربية ، ولم يتذوق منازع بلاغاتها بقدر كبير ، إلا أنه أجْدَى على العربية فى نهضتها الأخيرة باستحثاث طلابه على الالتفات إلى المعانى وترك العناية بزخرف اللفظ ، والتكاثر بالعبارات الجوفاء لا تحمل معنى ولا تتدفّع إلى غرض ، وصرفهم عن التمهيد بين يدى كل موضوع بتلك المقدمات الطويلة التى لا تدعو إليها حاجة الكلام .

ومع أنه لم يكن سريًّا من العربية وآدابها إلا أنه بشدة نفسه وقوة تفكيره كان ينتزع البلاغة انتزاعا : فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام وإن كانت تأبى عليه أعجميته إلا أن يغلَط أحيانا فى بسائط الإملاء [1] .

ولقد أُخرج من القطر المصرى فى سنة ١٢٩٦ هـ ( ١٨٧٩م ) فرحل إلى الهند ثم تحوّل إلى انجلترا فلم يلبث فيها طويلا . ثم شخص إلى باريس ، وهناك وافاه إليها تلميذه المرحوم الشيخ محمد عبده ، وأخرجا جريدة ( العروة الوثقى ) داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ورفع النير الأجنبى عنهم .

وانتهت به خاتمة المطاف إلى الآستانة ، فأقام فيها مُكرَّم المنزلة أثيرًا عند السلطان حتى قبض إلى رحمة الله .

---

(١) تجد نموذجا من بيانه فى الجزء الثانى من المنتخب .

## ( ٢ ) قاسم بك أمين

### المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٨ م )

انحدر من أصل كردى ، ولكنه وُلد فى مصر وتعلّم فى مدارسها ، ودرس الحقوق ثم شخص إلى باريس فأتمّ علومه هناك . ولما عاد نُظم فى السلك القضائى وما زال يتدرّج فيه حتى صار مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية . وظل فى هذا المنصِب حتى تُوفى إلى رحمة الله .

ولقد كان قاسم شديد الذكاء ، راجح العقل ، هادئ السعى ، لطيف النفس كثير الإطراق . لا يتهافت على مجالس الناس ولا يُكثر من التّرائى لهم ، قانعا بنفر من صحبه يجالسهم ، ويتبسّط بالحديث معهم . وكان له حسّ مرهَف ، وذوق دقيق ، لا يتعلق من المعانى إلا بكل جميل . وهو إلى هذا قوىّ الطبع جرئ الجنان .

رأى أن المرأة المسلمة محرومة من العلم ، محرومة من الحرية ، يحول الحجاب بينها وبين المشاركة بقسط صالح فى أسباب الحياة . وأن إمعانها فى الجهالة مما يحول بينها وبين تربية الصغار وإحسان نشأتهم ، فضلا على أنه يَفْسح المدى بينها وبين زوجها لاختلاف العقل والثقافة . وليس من شأن هذا أن يعقد التعاون بين طرفى الأسرة على ما يحقق منافعها . ويتضمّن المستقبل السعيد لها . فوق أن السعادة البيتية لا يمكن أن تتهيأ مع تلك الحال — فوضع كتابا دعاه ( تحرير المرأة ) دعا فيه إلى وجوب تعليمها وإطلاقها من الحجاب . والتمس لرأيه الأدلة الكثيرة من الشرع الحكيم ، ومن التاريخ ، ومن قواعد الاجتماع ، ومن الواقع المحسوس . فثارت لهذا الكتاب ثائرة الخاصة والعامة جميعا . ففريق من الخاصة أيدوه وشايعوه . وفريق خاصموه وجادلوه . أما العامة جميعا وأشباههم فقد كرهوه وأطلقوا

ألسنتهم بكلمة السوء فيه . على أن الرجل صمد لهذا ولم يَهِنْ له عزم ، فعاد إلى تأييد رأيه وردّ حجج مخالفيه فى كتاب دعاه (المرأة الجديدة) .

ولم يكن قاسم بك متمكّنا من العربية، ولا على حظّ عظيم من مظاهر بلاغتها. بل لعلّه كان أشدّ تمكنا من الفرنسية وآدابها . ولكنك مع هذا تجد كلامه مشرقا نيرا ، يجرى فى قَصْد وحُسْن سبك . وذلك إنما جاءه من جمال نفسه ، ورهافة حسّه ، ولطف ذوقه ، وتمكّنه من الأدب الفرنسى الذى ترى أثره واضحا فيما استخرج قاسم من طريف الصِيغ ، كما تراه واضحا فى أسلوب حواره ؛ وطريقة تدليله [1] .

## ( ٣ ) الشيخ على يوسف

### المتوفى سنة ١٣٣١ هـ ( ١٩١٣ م )

ولد فى قرية بَلَصفوره من أعمال مديرية جرجا . وقد نجم من أسرة حسيبة كريمة ، غير أنها قد رَقّت على الأيام حالها . وبعد أن تعلم فى كُتّاب القرية مبادئ القراءة والكتابة وحفِظ القرآن الحكيم أُشْخِصَ إلى بلدة بنى عَدِىّ من أعمال مديرية أسيوط ليتلقّ العلم على أفاضل العلماء هناك . ولما حَصّل من العلم صَدْرا محمودا وَفَد على الأزهر فانتظم فى طلابه ، وجعل يأخذ عن كبار شيوخه . على أنّ هواه إلى الأدب صرف أجلّ عنايته إلى قراءة كتبه ، والتروِّى من ألوان بلاغات العربية . فقرض الشعر فى المديح وغيره شعرا يتّسق لطالب أزهرى فى مثل تلك الأيام . وجعل يعالج الكتابة فى الصحف الحين بعد الحين . وكان رحمه الله وثيق الحِلم ، شديد الطبع ، صُلب العزم ، فأصدر فى سنة ١٨٨٥ م مع صديق له

---

(١) تجد نموذجا من بيانه فى ( المرأة الجديدة ) فى الجزء الأول من المنتخب ، وآخر من تحرير المرأة فى الجزء الثانى .

يدعى الشيخ أحمد ماضى مجلة دعواها الآداب . ثم أصدرا جريدة المؤيد سياسية يومية . ثم استقلّ بها الشيخ علىّ بعد قليل . وقد علمتَ شأن المؤيد فى الحديث عن الصحافة فلا محلّ لمعاودة الكلام فيه ، وإنما هذا الحديث لصاحبه ، فما زال بيان الشيخ ينصقل ويعلو حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ فى هذا الضرب من البيان ، وحتى سوّى لنفسه أسلوبا كتابيا لا عهد للناس به من قبلُ ولا من بعد إلى الآن .

كان بيانه يجمع إلى السهولة والسلاسة متانة الرصف وقوةَ الكلام . وكان لحجته فى حواره السياسى سطوة لا تتهيأ لكثير من الكتّاب . وكان رجُلَ كفاح ونضال . ولقد طالما تظاهرتْ عليه القوى المختلفة وأخذته الصيحات من جميع أقطاره ، فصمد لنزالها ما يتجلجل له عزم حتى يخرج من الميدان ولا يخرج منه إلا منتصرا قاهرا . وكثيرا ما كان خصومه يؤلبون جمهرة الناس عليه ، فتجهد فى عداوته والكيد له ، حتى إذا حدثت الأحداث وكَرَثتِ الكوارثُ ارتفعت الأنظار إلى الشيخ علىّ من كل جانب ، وتطالّت الأعناق تسمعا لما يقول ، فإذا قال كفى وشفى ، ونقع الغُلل وأبرأ العلل .

وهنا ينبغى أن ننبه الطالب إلى شىء حقيق بالتنبيه : ذلك أن هناك نوعا من البيان لا يُدْرَك وزنُه ، ولا يُقْدَر قدرُه ، إلا فى وقته أو ما جاورَ وقته ، فإذا تقادم العهد تغير حكم النَّقَدَة عليه بقدر كبير أو صغير . لأنه خرج فى ظرف خاص ، إذ شعور الجمهور وعواطفه ثائرة فى لون خاص . فإذا ذهب الحادث وانصرفت العواطف إلى شىء آخر ذهبت جِدّة المقال ، ولم يبق عليه من الطّلاوة ما كان له فى وقته . وأكثر مايكون هذا فى المقالات السياسية . وكذلك كان شأن الشيخ على فى أكثر ما كتب . وليس هذا بغاضّ من قدر بيانه ، فحسبه أن عرف ساعة النزال كيف يصيب المقاتل ، ويُقصد بالسهم الكُلَى والمفاصل[1] .

---

(١) تجد نموذجا من إنشائه الصحفى فى الجزء الثانى من المنتخب .

وقد أدرك الشيخ علىّ من عظم الشأن وجلالة المحلّ ما لم يُدركه صحفى فى مصر قبــله .

وفى مؤخرات أيامه ولّاه ولىُّ الأمر مشيخة السادةالوفائية خلفا لصهره المرحوم السيد أحمد عبد الخالق السادات . وظلّ مع هذا قائمـا بتحرير المؤيد ، بعد أن رفع اسمه عنه ، إلى أن وافاه القضاء .

## (٤) الشيخ محمد عبده

### المتوفى سنة ١٣٢٣ ﻫ (١٩٠٥ م)

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله . وُلد بمحلة نصر من أعمال مديرية البحيرة . وتعلم فى كُتّاب القرية مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم . وأُشخص إلى طنطا لطلب العلم فى الجامع الأحمدى . ثم تحوّل إلى الطلب فى الجامع الأزهر فما لبث فيه طويلا حتى فرّ . ثم عاد إليه وأخذ عن كبار شيوخه . وما إن هبط السيد جمال الدين الأفغانىّ مصر حتى كان الشيخ من أوائل من استَوَوْا لدروسه ولازموا مجالسه واستمعوا لدعوته . وأحرز شهادة العالمية فى سنة ١٢٩٤ ﻫ ثم تولّى التدريس فى دار العلوم . ثم رياسة التحرير فى "الوقائع المصرية" . ثم شبّت الثورة العرابية نخاض غِمارها وأوضع فيها أيّمـا إيضاع . فلما خَبَتْ نارُها أُبعد عن مصر فرحل إلى سورية فأقام فيها دهرا ، شرح فى أثنـائه نهج البلاغة ومقامات البديع . ثم رحل إلى باريس لاحقا بأستاذه جمال الدين ، فأصدرا صحيفة "العروة الوثقى" كما تقدم . ثم عفا عنه ولىّ الأمر فعاد إلى مصر وأُقيم قاضيا فى المحاكم الأهلية ، ثم رقى مستشارا فى محكمة الاستئناف العليا . ثم اختير مفتيا للديار المصرية ، وعُيّن عضوا فى مجلس إدارة الأزهر لأول العهد بإنشائه لتقدّم رغبــة أولى الأمر فى تنظيم الأزهر و إصلاح التعليم فيه ، و إدخال طَرَف من العلوم الحديثة إليه . وما برح فى منصب الإفتاء حتى قُبض إلى رحمة الله .

وقد قرأ فى الأزهر فى أثناء قيامه بالإفتاء كتبا فى البلاغة والمنطق، وصَدْرًا من تفسير الكتاب العزيز نحا فيه نحوا طريفا من التوفيق بين آيه الكريمة وبين موجَب العقل والحكمة ، ومسايرة أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران ، والإبانة عما تنطوى عليه من جليل المرامى فى إصلاح شأن الأفراد والجماعات ، والارتفاع بشأن الإنسانية إلى أوفى حدود الكمال . وله رحمه الله من المصنفات رسالة فى التوحيد ، وتفسير جزء (عمّ) وشرح لنهج البلاغة وآخر لمقامات البديع . ورسالة دعاها ( العلم والمدنية فى الإسلام والنصرانية ) .

وأسلوبه الكتابى ينزع إلى جزالة اللفظ وقوة السَّبك ، وسَطوة المقال ، وقد يَعْمِد أحيانا إلى السجع وإلى غيره من المحسنات فيروضها فى لباقة لنظم الكلام . ولعل فحولة لفظه نضحت عليه من طول النظر فى نهج البلاغة . أما سطوة قلمه فلا شكّ أنها كانت من أثر شدة طبعه[1] .

## ( ٥ ) الشيخ عبد العزيز جاويش

### المتوفى سنة ١٩٢٨ م

ينحدر من أصل مغربى ، ولكنه وُلد فى الإسكندرية ونشأ بها . وبعد أن تعلّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الحكيم طلب العلمَ فى جامع الشيخ هناك ، ثم وفد على الأزهر فطلب العلم فيه وأخذ عن كبار شيوخه . ثم دخل دار العلوم ، واشتهر بين لِداته بالجدّ فى الطلب ، والحِدّة فى القول والعمل ، والغَيْرة على الدين وعلى الكرامة جميعاً . أما صلابة رأيه فيما يراه الحق فكانت عندهم من مضارب الأمثال . فلما نال إجازة دار العلوم تولّى التدريس فى مدرسة الناصرية . ثم سافر فى بعثة إلى إنجلترا ، فلما أتم ما تحرر له من العلوم عاد مفتشاً

(١) ترى نموذجا من بيانه فى الجزء الأول من المنتخب .

فى الوزارة . ثم عين أستاذا للغة العربية فى جامعة كمبردج . فقضى هناك مدة ثم عاد إلى التفتيش فى الوزارة .

ثم آثر على المنصب الحكومى خدمةَ البلاد من طريق الصحافة ، وكان هواه السياسىُّ كلُّه إلى الحزب الوطنى ؛ بل لقد كان من الغلاة فى هذا المذهب ، فاستقال وقام بالتحرير فى جريدة اللواء ، وجعل يكتب المقالات السياسية تتدفق قوة وتلتهب حماسة ، ثم اتهم فى جريمة صحفية ، فقُضِىَ عليه بالحبس فيها أشهرا . ولما خُلِّىَ سبيلُه رحل إلى أوربا . ثم نشبت الحرب العالمية فلم يجد إلى العودة سبيلا ، فظلّ يتقلب فى بلادها المختلفة ، وكان أكثر مقامه فى ألمانيا .وقد ذاق الأمرّين من الفاقة والغربة فى تلك الظروف القاسية ، والبعد عن الصَّحْب والولد ، وامتُحن بهذا كله امتحانا شديدا ، لكنه صبر لقضاء الله.على أنه ما برح يجهد فى الدعوة لمصر ما وجد إلى الدعوة سبيلا . و بعد أن وقفت رحى الحرب عاد إلى مصر وهو فى أسوإ الأحوال . و بعد لأْىٍ أسند إليه منصب مراقب التعليم الأوّلى فى وزارة المعارف ، والعزم مجتمع لتعميم هذا النوع من التعليم فى جميع أرجاء البلاد ، طوعا لحكم الدستور . فاضطلع رحمه الله بالأمر وجدّ وجهد ، وذلل الصعب و يسّر العسير . وخَطَا المشروع خُطًا واسعة . إلا أن الشيخ لم يلبث بضع سنين حتى أدركته علة القلب ، فما وهن ولا فتر حتى غلبه الأجل المحتوم .

وكان الشيخ جاويش ، رحمه الله ، إلى ماله من الصفات التى ذكرناها لك فى صدر هذه الترجمة ، عذب الروح ، حلو الحديث فى توقر واحتشام ، شديد الحياء حتى مايكاد يرفع بصرَه إلى محدثه .وكان مع هذا حادّ المزاج يثور لأقل ما يتوهم فيه الغضّ من كرامته أو تهاون دينه : بل مخالفة رأيه . على أنه كان من صفاء النفس ، وطيبة القلب ، وخلوص النية بالمكان الأرفع ، كما كان سمحا كريما يجود حتى بقوته ولو لم يكن إلى سواه السبيل .

أما أسلوبه فقوىّ جزل سهل : ولفظه شريف نخم . يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة . وقد يعْمِد إلى السجع فيجىء به فى براعة و إحسان (١) .

---

(١) ومن بيانه ، رحمه الله ، فى الموضوعات الدينية ما كتبه تحت عنوان ( فى الإسلام ) :
سمعت بعض المارقين الذين لا يجاوز إسلامهم أزياءهم وأسماءهم يقول ذات يوم إنه يستهجن أن تلتمس الفضائل والمكارم من طريق الدين . إذ خير للمرء أن يمتّ إليها بأسباب أخرى كالبحث والنظر فى مزاياها وخواصّها حتى تجلى له صفاتها الطيبة فتجتذب نفسه إليها تعشّقا لمحاسنها وجمالها . فإذا قام الناس بالهداية والإرشاد من هذا الطريق فما حاجة الناس إذن إلى الدين ؟

يزعم أمثال هذا الجاهل أن دعوى العلم قد تؤيدها أمثال هذه السخافات ، فهم ، ما استطاعوا ، ينشرونها بين الناشئة من أبناء المسلمين ليضلوهم بها غير مبتغين منهم سوى أن ينعتوهم "بالفلاسفة" أو بذوى الأفكار الحرة . ولو فقهوا قليلا لعلموا أنه ليست الفلسفة إلا إدراك حقائق الأشياء من غير تنطع ولا جحود وأنهم لو كانوا من أهل النظر لعلموا أن الدين أقرب طريق إلى معرفة الحق والباطل . وأن الأخذ بمسائله وأحكامه وأخباره يحدث فى النفوس وازعا عن الشرور والمآثم أكثر مما تحدثه الدراسات على النحو الذى يبتغيه أولئك المتعالمون المتفيهقون . يفسر هـذا قوله عليه الصلاة والسلام ما معناه : "يزع الله بالقرآن أكثر مما يزع بالسلطان" .

والأصل فى ذلك أن زمام العالم فى قبضة عقائدهم ، فبها يرتكبون المناكير ، و يقترفون السيئات وبها يفعلون كثيرا من الطيبات والحسنات . ذلك لأن الاعتقاد الجازم الذى لا تنقضه الشكوك ، ولا تؤثر فيـه هواجس الشبهات يستلزم أن يعمل صاحبـه على مقتضاه . فإذا ما وهنت العقيدة ، وأرخت الشكوك والوساوس العنان للنفس خبطت خبط العشواء ، وتقاذفتها عوامل الأهواء . وقلما سلمت لها سيرة من عثرة ، أو وضحت أمامها سبيل إلى الخير .

## ( ٦ ) الدكتور صروف

### المتوفى سنة ١٣٤٦ ﻫ ( ١٩٢٧ م )

هو الدكتور يعقوب صرُّوف بن نقولا . وُلد فى بلدة الحَدَث القريبة من بيروت . وتلقَّ علومه الابتدائية فى مدرستى سوق الغرب وعُبية التى يقوم عليهما المبعوثون الأمريكان . ولما بلغ من التعليم الابتدائى غايته دخل الكلية الأمريكية فى بيروت، وظلّ فيها طالبا مجدّا يدرس العلوم اللغوية والكونية والطبيعية والفلسفية حتى نال الإجازة العالية فى سنة ١٨٧٠ م وبرع فى اللغة الإنجليزية، وحصَّلَ طَرَفا من الفرنسية واليونانية . وأقيم أستاذا فى الكلية التى تخرَّج عليها . وفى سنة ١٨٧٦ م أصدر مع زميله فى الطلب الدكتور فارس نمر مجلّة دعواها ( المقتطف ) لمعالجة البحوث العلمية والأدبية والزراعية والصناعية . وبعد عامين انضم إليهما شاهين مكاريوس على أن يَلِيَ إدارة المجلّة . وفى سنة ١٨٨٦ م تحوَّل بها ثلاثتهُم إلى مصر، وما بَرِحَ المقتطف يصدر فى القاهرة إلى الآن . وفى سنة ١٨٨٨ م أصدر مع زميليه جريدة المقطم يومية سياسية . وما زالت كذلك تصدر فى القاهرة إلى الآن .

والدكتور صروف كان إلى رجاحة عقله، وذكاء لبّه، غزيرَ العلم، واسعَ الاطّلاع، شديدَ الصبر على معاناة القضايا العلمية وتحقيقها . وحسبه فى هذا أنه طوى من عمره نحو اثنين وخمسين سنة يعالج فى "المقتطف" أجلّ البحوث فى العلوم والفنون والآداب، ويجيب بعد المراجعة والتبيُّن عن كل ما يُسأل عنه مما يتصل بأسباب الحياة . هذا إلى اشتراكه، بقدر، فى تحرير صحيفة يومية سياسية. ونقول بقدر لأنه جعل أكثر باله للمقتطف لا للمقطم .

ولقد كان وديعا طيب النفس حلو الحديث عذب اللسان . وعلى الجملة فقد كان الرجل متخلقا بما ينبغى لمثله من كبار العلماء . وله ثلاث روايات من وضعه

اثنتان عن مصر والثالثة عن لبنان . وترجم إلى العربية كتاب ( سرّ النجاح ) . أما أسلوبه البيانى فسهل رصين لا يتكلّف فيه ولا يطلب الزخرف، تغلب عليه اللهجة العلمية ولو جرى فى غير قضايا العلم [١] .

والدكتور صروف يُعتبر بحق من بُناة الثقافة فى مصر وفى سائر الأقاليم العربية التى لها حظ من الحضارة والعرفان .

## ( ٧ ) أحمد فارس الشدياق

### المتوفى سنة ١٣٠٥ ﻫ ( ١٨٨٧ م )

أصله مارونى ، وُلد فى بلدة عشقوت من أعمال لبنان . وبعد أن حصّل صدْرًا صالحا من العلم وأصاب حظًا من اللغة تحوّل إلى مصر فأتمّ فيها علومه . ثم شارك فى تحرير ( الوقائع المصرية ) . ثم انتهى به المَطَاف إلى لندن للمعاونة فى ترجمة التوراة إلى العربية . ثم رَحَل إلى تونس واتّصل بالباى فأكرمه وآثره . فأسلم وسُمى أحمد . ثم شخَص إلى الآستانة . وهناك أصدر جريدة الجوائب ، فكان لها شأن مذكور فى ذلك الزمان . وكان متبحرا فى العربية ، متمكنا من فنونها ، واقفا على أسرارها ودقائقها . وقد أوتى مع هذا بيانا سهلا يُلين له وجوه المقاصد ، وترهف له الآذان . ويهفو إليه مُستصعب الأذهان [٢] . وله كذلك شعر مشرق الديباجة رصين البناء . وقد مدح باى تونس بقصيدة رنّانة جارى فيها مِدْحَةَ كعب بن زُهَير فى النبى صلى الله عليه وسلم .

وله مؤلّفات جمة من أهمها كتاب ( الساق على الساق ) أجراه على أسلوب فكاهى بديع لم يُسْبَق إليه فى العربية ، لولا إسفافه أحيانا إلى ألوان من المجون

---

(١) تجد نموذجا من بيانه التعليمى فى الجزء الأول من المنتخب .

(٢) تجد نموذجا من نثره فى الجزء الثانى من المنتخب .

لا تُجْحَدُ من مثله . ولقد تعمّد أن يبذُل فيه ما شاء الله من فنون المترادفات اللغوية فى الأغراض المختلفة مما يدلّ على سَعة علمه بدقائق العربية . وله مؤلّفات أخرى فى نحو اللغة العربية وصرفها ، وفى نحو اللغة الإنجليزية ، وفى صرف اللغة الفرنسية وفى الأدب العربى - وله كذلك كتاب فى نقد قاموس الفيروزابادى دعاه (الجاسوس على القاموس) . وله رحلتان إحداهما إلى أوربا والأخرى إلى مالطة . وله كتب أخرى فى موضوعات متفرقة . وديوان شعر لم يطبع .

## ( ٨ ) عبد الله فكرى باشا

المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ( ١٨٨٩ م )

هو الوزير العالم الكاتب الشاعر عبد الله فكرى باشا ، ابن محمد أفندى بليغ المهندس ، ابن الشيخ عبد الله من علماء الأزهر . وُلد المترجَم فى مكة المكرمة إذ كان أبوه قد رحل إلى الحجاز مع الجيوش المصرية . ثم عاد به إلى القاهرة ، وتُوفى أبوه وهو لما يبلغ الحلم ، فتولّاه بعضُ قرابة أبيه من السادة العلوية ، فواصلوا تحفيظه القرءان الكريم حتى أتمه وجوّده ، ثم طلب العلم فى الجامع الأزهر وأخذ عن كبار شيوخه ، وكان فى الوقت نفسه يتعلم اللغة التركية حتى إذا حذقها عُين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدائى ، على أن لم ذلك يصرفه عن طلب العلم فى الأزهر قبل ذهابه إلى الديوان و بعد قفوله ، إلى ان تزاحمت أشغاله فانقطع عنه ، ثم حول إلى ديوان المحافظة ، ثم إلى الداخلية ، ثم التحق بالمعية الخديوية فى عهد المرحوم سعيد باشا ، وتولّى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية تارة و بالعربية أخرى .

ولما صار أمر مصر إلى المرحوم إسماعيل باشا استبقاه فى خدمته وقربه واستصحبه معه مرارا إلى الآستانة ( مثوى الخلافة يومئذ ) . وعهد إليه بمراقبة الدروس الشرقية التى يتلقاها فى باريس الأمراء أولاده وأحفاده مع ما يتلقّون فيها

من العلوم والفنون . فكان يُشرف على تلك الدروس ، وأحيانا يتولّاها بنفسه ثم عاد مع المرحوم توفيـق باشا أكبر أولاد الخديو إسماعيل . ثم نقل إلى نظارة (وزارة) المـالية، وفى هذه الأثناء أعان المرحوم على مبارك باشا إعانة قيمة فى إنشاء الكتبخانة الخديوية ( دار الكتب المصرية ) وقد سلف عليك موجز من تاريخها .

ثم عُين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، ثم صار وكيلا لنظارة المعارف العمومية ثم أسند إليه مع قيامه فى هذا المنصِب منصبُ الكاتب الأول فى مجلس النوّاب ، ثم صار ناظرا للمعارف العمومية، ثم استقال مع سائر النظار ( الوزراء ) بسبب الفتنة العرابية . فلما أُخمدت تلك الثورة اُتُّهم بالمشاركة فى إذكائها مع مَن اُتُّهموا، ثم ثبتت براءته فأُطلق من سجنه، إلا أنّ ( معاشه ) ظلّ محبوسا عنه لتغيّر الخديو توفيق عليه فراح يستعطفه ويتبرأ لديه من تهمة الانحراف عن طاعتـه بتلك القصيدة الفاخرة التى مطلعها ( كتابى توجّهْ وجهة الساحة الكبرى )[1] فعفا عنه وأطلق له (معاشه) ثم مضى إلى الحجاز حاجًّا فلَقِىَ من أمرائه وعلمائه وأدبائه أبلغ الحفاوة والإعظام . وله فى هذه الرحلة مقال يُعرَف بالرِحلة المكّية. ثم شخص إلى القدس والخليل حتى إذا تم له ما أراد من زيارة مقامات الأنبياء والأصفياء عرج على لبنـان للسياحة وتبديل الهواء، فلَقِى من أهله ما شاء الله من إكبار وإكرام لمـا رأَوا من سَعة علمه وعظم فضله، وبراعة أدبه، وحسن محاضرته .

وفى سنة ١٣٠٦ هـ أقيم رئيسا للوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الذى عُقد فى مدينة استكهلم عاصمة السويد والنرويج ( يومئذ ) ، فأدرك من سائر العلماء الوافدين على المؤتمر أبلغ حظّ من الرعاية والتبجيل، وانتهز هذه الفرصة فجال فى كثير من عواصم أوربا وكبار مدنها يطالع مكتباتها ودور طباعتها ، ويشاهد متاحفها ، ومعاهدها . ثم عاد وتهيأ لوضع رحلة جامعة يضمنها ما شاهد من مجالى الطبيعة فى تلك البلاد ،

---

(١) تجد هذه القصيدة بنصها فى الجزء الثانى من المنتخب .

وما رأى من آثار العقل الغربى فى الحضارة الأوربيـة القائمة . غير أن الموت لم يُلبثه حتى يتم هذه الرحلة فأتمها ولده المرحوم أمين فكرى باشا .

وعبد الله باشا فكرى من أوائل مَن بعثوا نهضة اللغة العربية فى هذا العصر ، وردوا عليها قوى بيانها شـعرا ونثرا، إن لم يكن أولهم جميعا . ولو قارنتَ بيانه ، فى هـذين البابين ، ببيان مَن أدرك عصرهم ومَن تقدّموهم من أول عهد الأدب العربى بالانخذال ، لعرفتَ أنه ممن لم يرتفعوا بالبيان فحسب ؛ بل ممن لقـد طَفَرُوا به طَفرا .

ولقد كان فى أسلوبه الكتابى يتأثر البديع والخوارزمى بالتزام السجع القصير والمحسنات البديعية فى غير تكلُّف ولا استكراه .

ومن مآثره الجليلة أن المراسلات الديوانية، لأول منجمه، كانت تحرر بالتركية الخالصة وأحيانا بعربية عامية بالغة حدودالغاية فى الركاكة والإسفاف . فلما اتصل بمعية الأمير جعل يُصدر عنها الرسائل بلغة فصيحة قوية رصينة اتُّخذت بعدُ نموذجا للمكاتبات الديوانيـة، وتأثرها الكتّابُ من عُمّال الحكومة بقدر ما واتاهم الجهـد وانفسح لهم فى صدر البيان[1] .

وله ، رحمه الله، عدا تلك الرحلة التى سبقت الإشارة إليها مؤلَّف تعليمى جميل يدعى ( الفصول الفكرية ) وترجم عن التركية كتاب ( المملكة الباطنية ) . وقد جمع ولده المرحوم أمين فكرى باشا ما أصابه من شـعره ونثره فى كتاب دعاه ( الآثار الفكرية) مُهدله بترجمة طويلة لحياته بقلم المرحوم الشيخ محمد عبده، وعنها اقتبسنا هذه الترجمة . وكل هذه الكتب مطبوع بمصر .

---

(١) تجد نماذج من شعره ونثره فى جزأى المنتخب .

## (٩) إبراهيم بك المويلحى

### المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦ م)

هو إبراهيم بك ابن السيد عبد الخالق المويلحى . أصل أجداده من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، وقد انحدروا إلى مصر من زمان بعيد . وولد إبراهيم فى مصر ونشأ بها . وكان أبوه من كبار المتجرين فى الحرير ، و بيته ، على العموم ، معروف بالحَسَب والغِنَى . ولما نال حظًا من التعليم الابتدائى أراده أبوه على التحرر للتجارة ، ولكن رغبته فى العلم وشغفه بالأدب ، دفعا به ، مع اشتغاله بالتجارة ، إلى مطالعة الكتب ودواوين الشعر ، وكان من أول مَن تَهَدَّوا فى هـذه النهضة إلى الأدب القديم ، وأخذوا برَوْعة بلاغته وسحر بيانه . وأخذ عن السيد جمال الدين الأفغانى ، وصاحَبَ كبار العلماء والأدباء فى مصر فتروى عنهم وروَى لهم ، وحذَق الفرنسية والتركية ، وجوّد التاريخ القديم والحديث. وقرأ من الكتب فى ألوان العلوم والفنون ما شاء الله أن يقرأ . وما برح يروض قلمه على البيان متحللا من قيوده فى ذلك العصر شيئا فشيئا ، مترسِّما أثر الجاحظ وغيره من فحول الكتّاب ، مع رعاية العصر وأسبابه ، حتى أوفى على الغاية من صناعة القلم .

ولقد كان المويلحى، رحمه الله ، ملتهب الذكاء ، حاضر البديهة ، شديد الطبع عضب اللسان ، مغامرا ، لا يرى الرِضا بما يجىء من العيش إلا ضَرْبا من العجز والسكونَ إلى ما يسكن به الناس إلا من ضعف الهمة ، فالحياة عنده وثب ومجازفة وانتزاع . فلما قضى أبوه غامر بتجارته فأتت مغامرتُه على رأس المال . فنفحه الخديو إسماعيل بمال جليل إبقاء على هذا البيت القديم ولكريم موضعه عنده . فما لبث هذا المال أن ضاع أيضا . فأقامه عضوا فى مجلس الاستئناف وتقلب فى مناصب أخرى . واشترك فى تأليف جمعية دُعِيَتْ (جمعية المعارف) لإحياء الكتب القيمة . وأنشأ فى سنة ١٢٨٥ هـ مطبعة لطبع تلك الكتب . وأنشأ مع المرحوم محمد عثمان جلال بك جريدة (نزهة الأفكار) ، لكنها عُطِّلَتْ كما تقدم فى الكلام على الصحافة

فى هذا الكتاب . على أنه لم ينقطع عن الكتابة فى الصحف إلى أن أدركته الوفاة . ولما غادر الخديو إسماعيل مصر إلى إيطاليا دعا به ليتخذه كاتب سره، فلبث هناك بضع سنين . ثم رحل إلى الآستانة فأكرم السلطانُ وفادته وأقامه عضوا فى مجلس المعارف . فلبث هناك بضع سنين كذلك . ثم عاد إلى مصر وأنشأ صحيفة أسبوعية دعاها (مصباح الشرق) كانت نموذجا من أعلى نماذج الأدب الحر فى هذا العصر يتطلع إليها المتأدبون فى شوق ولهف . لما تَطْلُعُ به من مصفَّى الكلام ومنتقاه، وأبدع البيان وأحلاه فى أبواب السياسة والعلم والفلسفة والأدب . ويترقبها الكبراء فى قلق ووجيب قلوب، كلٌّ خشية أن تَدْمَغَه بنقدها المُرّ الأليم. فلقد كان المويلحى أقدر كتاب العربية على النقد وأمرّهم وأوجعهم فى غير ما نهش للعرض ولا نُشوز على أحكام القانون . وكان يعاونه فى تحرير هذه الصحيفة الفذة ولده الأديب الكاتب العالم محمد بك المويلحى ، وهو الذى كان يكتب رسائل ( حديث عيسى ابن هاشم ) التى سُوِّيت بعدُ كتابا[1] .

وإبراهيم بك المويلحى يمتاز بجزالة اللفظ ، وحلاوة العبارة ، ودقة الوصف ، والتفطن إلى الدقائق التى لا يتفطن إليها كثير ، والوقوع على المعانى الغريبة التى تثير فى النفس عجبا ، وتشيع فيها طربا ، وحضور الشاهد على كل ما يكتب من شعر قديم ، أو حكمة مأثورة ، أو حادثة كثيرا ما تكون راكدة فى إحدى زوايا التاريخ ، حتى يبعثها المويلحى ليكمل بها غرضه فى رشاقة إلا تتهيأ إلا للأقلين من الناس. أما قدرته على النقد فقد أوفى بها على الغاية. وعلى الجملة فقد شرع المويلحى أسلوبا من البيان لم يكن للناس عهد به . وهو يُعَدّ ، بحق ، من أقوى دعائم النهضة الأدبية الحديثة . وله شعر جزل بديع . وله كتاب أسمه ( ما هنالك ) لم يضف إليه اسمه ، وصف فيه بلاط السلطان وحال الحكم التركى فى تلك الأيام . وعلى ذكر الحكم التركى نقول إنه كان فى ذلك العهد من شر أنواع الحكم وأشده

---

(١) تجد نماذج من بيانه فى جزأى المنتخب .

استبداداً . يؤخذ برأس المرء فيه على الشبهة، وينكل به بمحض الوشاية ، فاضطرتْ هذه الحال المويلحى إلى أن يحذِق ذلك الفنّ الذى لا ينبت ولا يعيش ، ولا تدعو إليه حاجة إلا فى مثل تلك البيئات . وهــذا الفنّ يُعلِّم كيف يُتّقَى الكيد ، وكيف يكاد للناس ، والعياذ بالله .

## (١٠) المنفلوطى

### المتوفى سنة ١٩٢٤ م

هو السيد مصطفى لطفى . وُلد فى منفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وإليها نسب ، وأسرته فيها معرقة بالوجاهة والحسب . ولـما تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفَد على الأزهر طالبا ، وحصَّل صدراً من علومه . وكان به شغف شديد للأدب ، فعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر ، ولازم من فتائه رجال الأدب وأعيان كُتّاب الصحف ، وكانت له ملكة ، وفيه طبيعــة ، فنظم الشعر جزلا سهلا رصين القافية . وأرسل النثر حلوا مسلسلا محبوكا . وقد شغله هذا ، بقــدرٍ مّا ، عن الكدح فى مطاولة كتب الأزهر ومعاناة دروسه ، على أنه واظب على حضور دروس الشيخ محمد عبده إلى غايتها . وفى أثناء طلبه فى الأزهر نُسِب إليه أنه هجا الخديو السابق بقصيدة نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية ، فحكم عليه فيهـا بالحبس فقضى فى السجن مدة العقوبة ، ثم عفا الخديو عن جُرمه بشفاعة مَن لهم عنده كريم منزلة . فلما صارت نظارة المعارف إلى المرحوم سعد زغلول باشا عينه محررا عربيا لها . ولـما تحول إلى نظارة الحقانية حوله معه وولّاه فيها مثل هذا المنصِب . ثم فُصِل بعد سنين من هذا المنصِب ، حتى إذا قام البرلمـان عُين فى ( سكرتاريتــه ) . على أن الموت لم يُلبثه فقَضَى فى العقد الخامس من عمره .

والمنفلوطى ، رحمه الله ، كان دقيق الحسّ ، رقيق العاطفة ، رحيم القلب ، يغمره الشعور بالأَسَى من كل ما يتغيّر على هذا العالم من ضروب الويل والشقاء . لهذا ترى قلمه أجود ما يكون فى صفة مدنف عان ، أو يتيم محروم ، أو متّهم مظلوم . ونحو هذا من مآسى الحياة . وهو بعدُ رشيق القلم ، سهل البيان ، حلو العبارة ، متين نظم الكلام . إذا هبطت عليه السجعة فذاك ، وإلا لم يتكلف طلبها ولم يتعمّل . وكان شديد التذوق لبلاغات العرب ، يحتفل للجملة البارعة ، وللصيغة الرائعة ، فيَفْسَح لها فى خلال نثره مكانها المقسوم . وقد جمع قدراً عظيما من مقالاته فى كتاب دعاه ( النظرات ) وأخرى فى كتاب دعاه ( العبرات ) . وله مختارات بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم دعاها ( مختارات المنفلوطى ) . وهى تدلّ على حسن ذوقه ودقة اختياره . وترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية رواية (مجدولين) فجوّد فى العربية صياغتها وصقلها صقلا جميلا (١) .

(١) ترى نماذج من بيانه فى جزأى المنتخب .

## الخطابة

هى التحدث باللسان إلى جمع من الناس قلَّ أو كثر، ولا تكون عادة إلا فى شأن عام . فينبغى أن تكون الخطبةُ من السهولة والوضوح بحيث يكون المعنى فى ظاهر اللفظ ، حتى يستطيع فهمَها أبطأُ مَن يخاطَبون بها فهْماً ، كما ينبغى أن تكون صغيرةَ الفواصِل قصيرةَ الجُمل ، ليتهيأ للسامعين حسنُ المتابعة ، وللخطيب الاستراحةُ متى شاء . وأن تكون عباراتُها قويّة ، وخاصّة عند مواقف الكلام . فإن من شأن هذا أن يُحمِّس الجمهورَ ويستثير عواطفه . وهذا أبلغ ما يُطْلَب بهذا النوع من الخطاب .

ولا يشترط فى الخطبة التزامُ الأقيسة المنطقية ؛ بل إنه لَتُغْنى فيها الأقيسة الخَطابية والشِعرية فيما لا صِلَةَ له بقضايا العلم ونحوها مما لا بُدّ فيه من التحرّى والتحقيق .

أما الخطيب نفسُه فينبغى أن يكون جَهير الصوت فى غير إزعاج ، وأن يكون فصيح اللسان ، حاضر البديهة ، جريئا ثَبْت الجَنان ، فإن لمطالعة الجماهير رهبة ورَوْعاً . كما أن الخطيب قد يُفاجأ بما لم يَدخل فى حسابه ، فإذا لم يُواته ذهنُه ، ولم يُسْعِده بيانه ، فلربما سقط سقوطا لا قيامَ له منه على طول الأيام .

واعلم أن مَلَكَةَ الخطابة إنما تقوَى وتشتدّ وتشيع فى الناس فى أثناء الرجّات الاجتماعية ، والسياسية بوجه خاصّ ، لأنها هى التى تبعث قادة الفكر والمتصدّين لمعالجة الأحداث على استثارة الجماعات وتوجيهها إلى ما يبغون منها فى الشأن العام .

وطوعاً لهذا لقد ظلّت مَلَكة الخطابة فى ركودٍ من قيام محمد علىّ ، ثم انبعثت فى عهد توفيق ، ثم شَبّتْ وزكَت فى أثناء الثورة العرابية ، فقام الخطباء المقاويل فى كلّ مكان . حتى إذا أُخمِدَت تلك الثورة ، واستقرّ الأمر للجيش الإنجليزى عادت إلى ركودها . على أنه لم تمض سنون طوال حتى جَعَل جماعات من المصريين

يتخاطبون فى جمعيات صغيرة فى الغالب ، مطالبين بجلاء الجيش البريطانى عن البلاد . وفى بعض هذه الجمعيات كان يخطب المرحوم مصطفى كامل تلميذا . فما إن شَبَّ وختم دروسه حتى جُعل يخطب فى الآلاف المؤلفة من الناس .

بعد هذا نورد عليك ذكر نفرٍ من أفذاذ من اشتهَروا بالخطابة فى هذه النهضة الأخيرة :

## ( ١ ) عبد الله نديم

### المتوفى سنة ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٦ م )

هو السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهم ، وُلد فى الإسكندرية ونشأ بها ، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن العزيز صغيرا ، ودخل معهدَ الإسكندرية الدينىّ فى ذلك الوقت ( جامع الشيخ إبراهيم باشا ) فدَرَس ما يُدرس فيه من العلوم الدينية واللغوية والعقلية . وتعلّق بالأدب، فحفِظ واستَظهر ، ونَظَم ونَثَر ، وما لبِث أن شاع ذكرُه فكاتبه العلماء ، وطارحه المتأدبون ، وقد نهَج فى بيانه نهجا طريفا لم يسبق إليه . على أن مطالب العيش أعجلَته عن مواصلة الطلب فى ذلك المعهد ، فتعلم فنّ (التلغراف) ، واستُخدم فى (تلغرافات الحكومة) ولم تقفِه هذه المهنة عن مذاكرة العلم ومراجعة رفاقه فى مسائله أوقات الفراغ . ثم فُصل عن الخدمة فاحترف التجارة فى مدينة المنصورة ، فلم يخرج منها ولا برأس المال ، فقد كان كريما إلى حد الإتلاف . ثم عاد إلى الإسكندرية ، فجدّ فى مُؤخرات عهد إسماعيل فى تأليف جمعية خيرية إسلامية ، وتمّ له ما أراد ، وتسارعَ أعيان الإسكندرية وسراتُها إلى معونتها والاشتراك فيها . وكان غرضُ هذه الجمعية تربيةَ النشء وتعليمَهم وطبعهم على مكارم الخلال . ولقد سارت فى سبيلها شوطا ، حتى إذا صار الأمرُ إلى المرحوم توفيق باشا غذاها بماله وبرعايته معا ، وأجرت عليها نظارة المعارف مالًا سنويا غير قليل . ثم سعت الوشايات سعيها ففُصل النديم منها فصلا .

ومن قَبْل ذلك جعل يعالج الكتابة فى المطالب السياسية ويرسل المقالات فى الصحف السيارة، فعظم شأنه، وازدادتْ نباهة اسمه. وأنشأ جريدة أسبوعية دعاها (التنكيت والتبكيت) ظاهرها الهزل المضحك، وباطنها الجدّ الأليم. ثم استبدل بها الطائف. وكان من النافخين فى ضرام الثورة العرابيـة، فلما اشتعلت كان خطيبها المفوّه، وفارسها المعلَم، كما كانت جريدة (الطائف) أفسح ميدان للثائرين من حَمَلة الأقلام. ولما خَبَتْ الثورة وقُبِضَ على مَن قُبِضَ من أعلامها اختفى ولَزِم التنكُّر عشر سنين، ثم قُبِضَ عليه وحُبِسَ أياما. ثم عفا الخديو عنه على أن يترك البلاد المصرية إلى حيثُ يشاء، فاختار فلسطين مقاما. ثم عاد إلى مصر بعد أن أُطْلِق له ذلك، فأنشأ فى القاهرة مجلة علمية أدبية دعاها (الأستاذ) فعلا صيتُها وتخطَّفتها الأيدى. ولكنه كان يَدُسّ فيها من المغامز ما بعث الحكومة على إبعاده ثانية من هذه البلاد. وأخيرًا طاب له المقام فى الآستانة فنال حظوة عند السلطان وعُين مفتشا للمطبوعات فى الباب العالى، ولبث هناك حتى قُبِض إلى رحمة الله.

وبعد فإن السيد عبد الله نديما لم يكن وافر المحصول من العلم، إلا أنه كان عظيم الحظّ من الأدب. وكان ذكيا متوقّد الذّهن، حاضر البديهة، سريع الجواب ذرِب اللسان، قوى العارضة، بصيرا حقّ البصر بعادات المصريين وخلالهم، وأحوال طبقاتهم، محيطا بالدقيق والجليل من أسبابهم. فإذا كتب أَعْجب، وإذا خَطَب خَلَب، وإذا جادل عزّ وغلَب. وأسلوبه البيانىّ طلىّ طريف، وكثيرا ما يأتى فيه بالعجب العاجب من غريب الكلام. ومما أُثِر عن السيد جمال الدين الأفغانى أنه قال: "ما رأيت طول حياتى مثل النديم فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل، ووضع الألفاظ وضعا محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب". وعلى الجملة فالسيد النديم يُعَدّ بحق من أعظم قادة الجماهير [1].

---

(١) تجد نموذجا من شعره وآخر من نثره فى الجزء الثانى من المنتخب.

## ( ٢ ) مصطفى كامل باشا

### المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٨ م )

ولد بالقاهرة ونشأ فيها ، وتعلم فى مدارس الحكومة ، وجاز مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى . فى غير عُسْر ، ثم دخل مدرسة الحقوق فتدرج فى سنيها طالبا متقدما حتى نال إجازتها . وكان فى أثناء الدراسة الثانوية يختلف إلى مجلس المرحوم على مبارك باشا ، ناظر المعارف يومئذ ، فيحاور القوم ويأخذ معهم فى أحاديثهم ، والباشا يظهر الإعجاب به ، وكثيرا ما يُسْنى له الجوائز تشجيعا له واستدراجا لغيره .

ولما صار إلى مدرسة الحقوق جعل يكثر من حديث الوطن ، ويناجى به لِداته ومَن يلابسهم من غيرهم ، كما جعل يأخذ نفسَه بالتمرين فى الخطابة فى الجمعيات التى كانت تقوم فى ذلك العهد ، وأنشأ يكتب المقالات السياسية يرسلها فى جريدة المؤيد ، ويرتصد لكل حادث يتصل بالوطن فيكون أولَ المحتفلين له . فلفت إليه الأنظار وأهفَى له القلوب . ولما نال إجازة الحقوق لم يلتمس منصبا فى القضاء ولا طلب مهنة المحاماة ، بل عدل عنهما جميعا إلى التحرر لخدمة الوطن ، من طريق السياسة . وشخص إلى أوربا مرات يدعو لمصر ، وخاصة فى فرنسا ، ويظهر حجتها بمقالاته فى صحفها ، وخطبه فى محافلها ، ويستدرج كبار الساسة والصحفيين لمظاهرتها فى قضيتها . ثم أنشأ اللواء العربى ، فاللواءَين الإنجليزى والفرنسى ، كما تقدم ، ففسح فى دعوته ، ومكّن لها فى البلاد وفى خارج البلاد تمكينا عظيما ؛ على أنه رحمه الله ، لم ينقطع عن الوفود إلى أوربا كل عام يرفع صوته بالدعوة لمصر ، والمطالبة بالجلاء عنها بكل ما تهيأ له من الوسائل جادّا جاهدا لا يثنيه عارض ولا يخذل له عزم . فأسرع هذا الجهد الشديد فى صحته حتى حطمه تحطيما . وقضى ولم يرتق إلى السابعة والثلاثين من عمره . ولما أحسّ مقدم المنية أسرع إلى تأليف الحزب

الوطنى ، وتولى بنفسه زعامته . على أن المنية لم تلبثه بعد ذلك إلا أياما فقضى إلى رحمة الله تعالى .

ولقد كان مصطفى كامل خطيبا لا يُتعلق بغباره : جهارة صوت فى حلاوة وعذوبة نبرة ، وحضور ذهن وتدفق بيان ، ونصاحة قول ، وروعة مطلع ، وبراعة مقطع .

وعلى كل حال فمصطفى كامل باشا ، رحمه الله ، أول من أثار الحمية فى هذه البلاد ، بعد خمود الثورة العرابية ، وأذكى شُعلة الوطنية ، وألقى أعلى الدروس فى الكرامة القومية . ومما يُذكر له أنه لم يَدْعُ ، طوال دعوته ، إلى التوسل إلى المطالب القومية بالعنف ؛ بل لقد كان يدعو جاهدا إلى التدرّج بالسلم(١) .

## (٣) سعد زغلول باشا

### المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٧ م)

وُلد فى بلدة إبيانه من أعمال مديرية الغربية ، وبعد أن تعلم فى كُتّاب القرية مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرءان أشخِص إلى مصر لطلب العلم فى الأزهر فجدّ فى الطلب وتمثّل لدروس كبار الشيوخ . ووافق أسلوبُ التعليم فى الأزهر هوًى من طبعه، فقد كان من أول نشأته مولعًا بالجدل شديد الاحتفال له . وكثيرا ما كان يخلق أسباب المناظرة بينه وبين لِداته خلقا إذا هى لم تعرِض عفوا ، ويأبى دائما إلا أن يكون غالبا . فشاع بين الطلبة اسمه . ولما هبط السيد جمال الدين الأفغانى مصر كان سعد ممن أخذوا عنه ولازموا مجالسه . ولما كانت الثورة العرابية كان فيمن خاضوا غِمارها . فحبس فى الضبطية (المحافظة) بضعة أشهر ثم أُطلق . ثم احترف المحاماة ولم يكن يُشترط فى احترافها إجازة ، بل مجرد امتحان يعقد فى المحكمة . ولم يمض عليه طويل فى المحاماة حتى نبُه اسمه ، وعلا

(١) تجد نموذجا من خطبه فى جزأى المنتخب .

فيها صيته ، وانتهت إليه الزعامة فيها غير مدافَع ، ثم عُيِّن مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية ، بجدٍّ فى تعلُّم الفرنسية ، وما زال يطلب فرنسا كلَّ عام ليتكمَّل فى علوم القانون حتى أحرز من إحدى كلياتها إجازة الحقوق (ليسانس) .

ولقد كان ، رحمه الله ، قاضيا عظيما تُضْرب الأمثال بكفايته وقوة استنتاجه ومتانة أحكامه . وفى سنة ١٩٠٦ م عُيِّن ناظرًا للمعارف العمومية ، وكانت جميع العلوم ، ما عدا الدين وعلوم العربية بالضرورة ، تدرس باللغة الإنجليزية ، فوجه أجَلَّ همته إلى تدريسها بالعربية ، ومَهَّد السُّبُل لتحقيق هذه الغاية ، فتُرجمت كتبُ العلم الحديث إلى العربية ، ونشط المتعلمون للتأليف والتدوين فيها . ثم عُيِّن ناظرا للحقانية بجدّ فى إصلاح نُظُم القضاء . وتعقّب القوانين القائمة بألوان التعديل حتى تفى بالحاجة وتدارج روح العصر . ثم أُقيل من الوزارة فلزم داره . ثم شبَّت نيران الحرب العالمية بجعل يتتبع تصرُّفاتها فى اهتمام واحتفال ، حتى إذا وضعت الحربُ أوزارها ، وتهيَّأت الدولُ لعقد مؤتمر للصلح وتقرير مصير الأمم ، تحرّكت مصرُ للمطالبة بحقّها فى تقرير مصيرها ، ووكلت عنها وفدا يسعى إلى هذه الغاية ، وانتخب هذا الوفد لرياسته سعد باشا زغلول . وبعد قليل نفته السلطة العسكرية فى نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة . ثم أُطلقوا فشخصوا إلى باريس (مَثْوَى مؤتمر الصلح) حيث وافاهم إليها سائر أعضاء الوفد . ولما لم يحعل هذا المؤتمر إلى الأمانى المصرية بالًا عاد بعض أعضاء الوفد ، وبقى سعد فى باريس مع سائرهم .

وفى سنة ١٩٢٠ م شخص إلى لندن ومعه بعضُ أعضاء الوفد ، وذلك بدعوة من الحكومة البريطانية للمفاوضة فى شأن المطالب المصرية . وكانت تمثل تلك الحكومة لجنة برياسة اللورد ملنر . ولما لم تسفر هذه المفاوضة عن تحقيق الأمانى القومية قطعها الجانب المصرى ورجع أدراجه .

وفى صدر سنة ١٩٢١ م عاد سعد باشا إلى مصر فقوبل من الأمة مقابلة منقطعة النظير ، وظلّ قائما بالزعامة حتى نفته السلطة ثانيا مع نفر من أصحابه إلى جزيرة

سيشل ، فلبثوا بها مدة ، ثم حُوِّل وحده إلى جبل طارق ، ثم أطلق سراحهم فشخص من فوره إلى فرنسا . فبقى فيها مدة ، ثم عاد إلى مصر ، وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت من جانبها فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تصريحا بالتخلية بين مصر وشؤونها ، واحتفظت فيه ببضع مسائل ، وأعلن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم استقلال الدولة المصرية . ثم أصدر الدستور فى سنة ١٩٢٣ م ، ثم تولّى سعد باشا رياسة الوزارة فى أوائل سنة ١٩٢٤ باعتبار أنه زعيم الكثرة فى مجلسى البرلمان . ثم اعتزل الوزارة فى السنة نفسها . ثم تولّى رياسة مجلس النوّاب ، وظلّ فيها حتى قُبِض إلى رحمة الله .

وبعد ، فلقد كان سعد باشا زغلول ، رحمه الله ، متسعّر الذهن ، نافذ البصيرة ، حاضر البديهة ، شديد الطبع ، رائع الفصاحة ، قوىّ الحجة ، يحاجك فى الأمر تجزم بأنّ الحقّ فيه معك ، ولكنه ما يزال يسطو عليك بالحجة بعد الحجة حتى ما ترى بدّا من التسليم . وكان خطيبا لا يجارَى : جهارة صوت ، وفصاحة منطق ، وقوة كلام . وقد أُثِر عنه ما لا يحصَى من الصيغ والتعبيرات التى استحدثها فى العربية ، وخاصّة فى الأسباب السياسية . وكان على ارتفاع سنه ، جم النشاط ، وأنشط ما يكون إذا دعاه داع إلى الكفاح . فقد كان . كما قال هو نفسه ، رجل كفاح [1] .

(١) تجد نماذج من بيانه فى جزأى المنتخب .

## اللغة والأدب

أسلفنا عليك فى الكلام على ( التأليف ) فى النهضة الحديثة أنه جعل يطرد فى الرقىّ من حيث التحقيق العلمىّ والجرى على مذاهب النقد الحديثة . والواقع أنه فوق أخذه بحظّ صالح فى هذين البابين فقد عُنِى المؤلفون كذلك بإحسان الترتيب والتبويب ، والإكثار من الشواهد والأمثلة تيسيرا للعلم على المتعلمين .

ومن العلوم التى بلغتْ فى التدوين والتصنيف غاية محمودة من الإحسان والإجمال علوم اللغة والأدب ، والتاريخ وتقويم البلدان . فقد وُضِعَتْ فى أثناء هذه النهضة معاجم لغوية عدة ، تعمد فيها واضعوها إسلاس الكشف وتيسير المراجعة ، وأحاطوا فيها بكثير من الدخيل الذى دار على ألسن الخاصّة مع النصّ على أنه دخيل . وحلّى بعضهم بعض هذه المعاجم برسوم الحيوان والنبات والأشجار والآلات وغير ذلك تجلية للمسميات بإزاء الأسماء وغير ذلك .

كذلك ، وُضِعَتْ كتب الأدب وتاريخه على أسلوب حديث يتضمّن فوق التيسير والتسهيل بحسن الترتيب والتبويب والشرح والضبط بالشكل فيما يستبهم لفظه ، التحقيقَ العلمىَّ بقدر ما تواتى الطاقة . وتجلية صورة واضحة للأدب فى كل عصر ، والإبانة عن العوامل التى كان لها أثر فيه .

أما فنا التاريخ وتقويم البلدان فلم يقِلّ حظُّهما من العناية والتجويد عن حظ اللغة والأدب .

وإليك طائفة ممن اشتهروا فى هذه النهضة فى اللغة والأدب ، وكان لهم فيهما اثر كبير :

## ( ١ ) المعــلم بطرس البستانى

المتوفى سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٣ م)

هو العالم اللغوىّ الكاتب المؤلِّف المربى بطرس بن بولس البستانى . وهو مارونى انحدر من أسرة عريقة فى الفضل والحسب . وُلد ببلدة الدّبيّة من أعمال لبنان . وتلق العلوم الدينية واللغوية فى إحدى مدارسه . وكان بعيد الهمة وافر الذكاء شغِفا بطلب العلم . فأصاب فى مدى عشر سنين حظا غير يسير من اللغات العربية والسريانية واللاتينية والتليانية . ومن التاريخ وتقويم البلدان والحساب والحقوق والعلوم اللاهوتية . ثم قضى دهرا فى التعليم فى المدرســة التى تعلم فيها . ثم تحوّل إلى بيروت ودرس الإنجليزية ، واتصل بمبشرى الأمريكان، فعلّم بعضَهم العربية ، وأخذ عنهم العِبرية واليونانية . ثم اعتنق مذهبهم فانتحل البروتستنتية . وأصبح مبشرًا بنحلتهم ، وتولّى رياسة إحدى مدارسهم زُهاء خمس عشرة سنة ، وأعانهم إعانة قيّمة فى ترجمة التوراة إلى العربية . ثم أنشأ فى بيروت مدرسة عالية مالبثت أن طارت شهرتها فى الآفاق ، وطلبها طُلّاب العلم من كل مكان .

ومن آثاره البليغة فى تاريخ الصحافةالسورية أنه أول من أنشأ مجلة علمية فى تلك البلاد . فقد أصدر فى سنة ١٨٧٠ م مجلة (الجِنان) كما أخرج جريدة سياسية دعاها (الجنة) .

وقد عكف فى مؤخرات عمره على المطالعة والكتابة والتأليف ، فعالج وضع ( دائرة معارف ) وهى أول دائرة معارف بالمعنى الجامع خرجت فى العربية ، أتمّ منها ستة أجزاء ضخمة، وعوجل بالموت فى أثناء وضع الجزء السابع، فواصل العمل فيها ابنه وحفدته حتى أتموا الجزء الحادى عشر .

ووضع قاموسا لغويا دعاه ( محيط المحيط ) رتبة على أوائل الكلم ، وضمنه ماحوى محيط الفيروز ابادى وزاد عليه كثيرا من المصطلحات العلميـة ، والفوائد اللغوية المتفرقة فى الكتب المختلفة . ووضع مختصرا لهـذا القاموس دعاه ( قطر المحيط ) . وله كتب أخرى فى النحو والصرف ، والحساب ، ومسك الدفاتر .

والمعلم بطرس البستانى يعدّ، من غير نزاع ، من أقطاب النهضة العلمية واللغوية فى سوريا فى العصر الحـديث . كما أنه من أوائل من طبعوا المجموع على الثقافة الحديثة فى تلك البلاد .

على أن فضله وأثره فى العلم واللغة والأدب لم تحتجزه البلاد السورية ؛ بل لقد تعداها إلى غيرها من الأقطار العربية [١] .

## ( ٢ ) الشيخ حسين المرصفى

### المتوفى فى سنة ١٣٠٧ هـ ( ١٨٨٩ م )

هو العلامة اللغوى الأديب المحقق الشيخ حسين بن أحمد المرصفى . ولد بمصر ونشأ فيها . وبعد أن حفظ القرءان الكريم ، وكان مكفوف البصر ، جىء به إلى الأزهر ، فأخذ العلم عن كبار شيوخه ، حتى أدرك منه الكفاية ، وتصدر للتدريس فيه . وكان هواه الشديد إلى علوم العربية وآدابها ، فجدّ فى مدارستها وتقليب الذهن فى منازع بلاغاتها . ولم يسترح إلى ذلك الأدب الذى كان شائعا فى عصره ؛ بل كان من أوائل من تفطنوا فى هـذه البلاد إلى قدر الأدب القـديم ، فراح يقرأ كتب أعلام البلاغة ودواوين متقدمى الشعراء ، ويتروى منها بالحفظ والاستظهار ، ويروض قلمه على البيان القوى حتى أصبح الأديب التام . ودرّس الأدب فى دار العلوم للسابقين الأوالى من طلابها ، وكان منهم حفنى ناصف وأترابه . وأخذ عنه

---

(١) تجد نموذجا من كتابته التأليفية فى الجزء الأول من المنتخب .

كبار المتأدبين فى عصره من أمثال البارودى وعبد الله فكرى ، وصاحبوه ولازموه وعرضوا عليه بيانهم فهدى ونقح وهذّب ، وكتب فى مجلة ( روضة المدارس ) وغيرها ، فعلم الأدب علما ، كما درّب بالعمل والقدوة على صحيح البيان . وقد ألف فى البلاغة كتابا جليلا دعاه ( الوسيلة الأدبية ) نحا فى تفصيل قضاياها نحوا طريفا ، فشاع الانتفاع به ، ولا يزال هـذا الكتاب مرجع المتأدبين إلى اليوم . وله كذلك رسالة دعاها ( الكلمات الثمان ) تحدث فيها عن معانى : الأمة ، والوطن ، والحكومة ، والعدل ، والنظام ، والسياسة ، والحرية ، والتربية .

وعلى كل حال فالشيخ حسين المرصفى، رحمة الله ، يُعَدّ من أقوى الدعائم التى قامت عليها النهضة الحديثة فى اللغة والأدب [1] .

## ( ٣ ) الشيخ إبراهيم اليازجى

### المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ ( ١٩٠٦ م )

هو العالم المحقق الأديب الشاعر الكاتب إبراهيم بن ناصيف اليازجى من أعلام أصحاب اللغة والبيان . ولد فى بيروت ونشأ بها . وأخذ العلم عن أبيه . وتوفر على كتب اللغــة والأدب درسا وحفظا واستظهارا حتى أوفى من ذلك على الغاية . وقام بتدريس اللغة فى إحدى مدارس بيروت ، وعالج الصحافة فى بعض جرائدها ، ولما اجتمع رأى اليسوعيين على ترجمــة التوراة إلى العربية عهدوا إليه بضبط صيغها وتنقيح عباراتها ، فقضى فى هذا نحو تسع سنين لم ينقطع فى أثنائها عن النثر والنظم . ثم نزح إلى مصر ســـنة ١٨٩٤ م فأصدر مع آخر مجلة دعواها ( البيان ) ثم استقلّ بأخرى دعاها ( الضياء ) وظلّ يصدرها حتى وافاه الأجل المحتوم . وقد دأب فى كلتا صحيفتيه على تعقُّب الأدباء إذا كتبوا أو نظموا فدلّهم على ما وقعوا

(١) تجد نموذجا من بيانه فى الجزء الثانى من المنتخب .

فيه من الأخطاء الشائعة فى اللغة وفنونها ، وهداهم إلى الصحيح الفصيح من القول. فكان لصنيعه أثر بليغ فى تجنب كثير من الأخطاء ، وفى أخذ المتأدبين أنفسهم بالتحرى والمراجعة إذا نظموا أو نثروا طلبا للسلامة من نقد الناقدين . وله كتاب جليل دعاه ( نجعة الرائد فى المترادف والمتوارد ) ورسالة أخرى دعاها ( لغة الجرائد ) أحصى فيها ما وقع له من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء ، وردّ الأمر فيها إلى الصواب . وشعره جزل رصين ، ونثره منسجم متين . فإذا التزم السجع جاء به محكما لا قلقا ولا مستكرها . وعلى كل حال فاليازجى يُعَـدّ كذلك من أركان النهضة الحديثة فى اللغة والأدب [١] .

## ( ٤ ) الشيخ حمزة فتح الله

### المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ ( ١٩١٨ م )

هو العالم اللغوى الحجة الكاتب الشاعر . ينحدر من أصل مغربى ، ولكنه وُلد فى الإسكندرية ونشأ بها ، وطلب العلم فيها ، ثم أكمل علومه فى الأزهر . ودرس الآداب ، وأصاب حظا عظيما من فقـه اللغة . ونثر ونظم . ثم رحل إلى تونس فوُكل إليـه تحرير جريدة ( الرائد التونسى ) فلبث فى هـذا بضع سنين . ثم عاد إلى الإسكندرية وقام على تحرير جريدة ( البرهان ) . ومثّل الحكومة فى المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد فى ڤينا سـنة ١٨٨٦ م ، ثم مَثّلَها فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى أستكهلم سـنة ١٨٨٩ م . وفى سنة ١٨٨٨ م أقيم مدرّسا فى مدرسة الألسن ، ثم حُوّل إلى دار العلوم ، فتخرجت عليـه طائفة من كبار المتفقهين فى العربية ، السابقين فى معرفة آدابها . ثم وُلّى رياسة التفتيش فى وزارة المعارف، فظل فيها حتى خرج إلى (المعاش) بحكم الستين . وله ، رحمه الله ، كتاب (المواهب الفتحية

(١) تجد نموذجا من بيانه فى المنتخب .

فى علوم اللغة العربية ) ألّفه فى أثناء تدريسه فى دار العلوم . ولقد أجدى على العربية كثيرا بتعليمه وتلقينه ، وبتصحيحه لِمَا كانت تقوم الوزارة بطبعه من كتبها ، وبتفتيشه فى المدارس وتنبيهه أساتيذ العربية إلى مواطن الصواب ، واستحثاثهم على أخذ تلاميذهم بالصحيح الفصيح . وله شعرٌ ترسّم فيه نهج المتقدمين ، وترسّلٌ جارَى فيه أساليب المتأخرين .

وكان ، رحمه الله ، يلتزم الحديث بالعربية الصحيحة حتى مع خادمه فى أتفه أسبابه ، وكان إلى هذا مُولَعا بالغريب يأتى به فى شعره وترسُّله وتقاريره وحديثه . وهو أيضا يُعَدّ من أقوى الآساس لنهضة اللغة والآداب فى هذا العصر .

## ( ٥ ) جرجى بك زيدان

### المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ ( ١٩١٤ م )

هو جرجى بن حبيب زيدان . وُلد فى بيروت ، وتعلم فى بعض مدارسها الابتدائية ، إلا أن حاجة العيش أعجلته عن مواصلة التعلم فيها ، فتركها صغيرا وراح يعاون أباه فى أعماله . وكان فيه شغف بالعلم والأدب من أول نشأته ، فأكبّ على مطالعة ما تصل إليه يده من كتبهما . وفى سنة ١٨٨١ م بدا له أن يدرس الطبّ ، وبعد أن درس بنفسه علومه الإعدادية فى زمن وجيز تهيأ له أن يدخل المدرسة الطبية فتقدم فيها قرناءه . ثم جرى على تلك المدرسة ما استدعى أن يتركها أكثرُ تلاميذها ، فعدل إلى الصيدلة وأحرز إجازتها . ثم هبط مصر ليكمل علوم الطبّ فى مدرستهِ المصرية ، غير أنه تعاظمه طول زمن الدراسة فيها ، فعدل إلى معالجة العلم والأدب . وتولى تحرير جريدة ( الزمان ) مدَى سنة . ثم عُين مترجما بقلم المخابرات ، وصاحَب الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤م وحضر هناك بعض المواقع الحربية ، ثم عاد إلى بيروت ، فتفقه فى اللغتين العبرية والسريانية وغيرهما . وألّف كتابا دعاه ( الفلسفة اللغوية ) . ثم عاد إلى مصر فساعد فى تحرير مجلة

(المقتطف) مدة ، ثم تولَّى التدريس فى إحدى المدارس مدة أخرى . ثم أنشأ مجلة (الهلال) سنة ١٨٩٢ م لمعالجة البحوث العلمية والتاريخية والأدبية وغيرها ، ولا يزال يَصْدُر فى القاهرة إلى الآن . وقد ألَّف ثمانية كتب فى التاريخ ، وثمانية أخرى فى العلوم الأدبية واللغوية وغيرها ، وثمانى عشرة (رواية) سلسل فيها القدر الأعظم من تاريخ الإسلام . وأربع روايات أخرى فى موضوعات مختلفة[1] .

من هذا القدر الموجز من تاريخ جرجى زيدان تدرك مبلغ همته ، وصدق عزمه ، وشدة بلائه فى سبيل العلم والأدب ، وخاصة إذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل مبتوت الذرائع . ومن أهم مؤلفاته التى تتصل بموضوع هذا الكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) . يتم فى أربعة أجزاء ، وهو يشهد له بالجهد وطول الصبر على المراجعة والاستخبار ، والواقع أنه مرجع قيم للمشتغلين بتاريخ الآداب العربية . .

(١) تجد نموذجا من بيانه التأليفى فى الجزء الثانى من المنتخب .

# التاريخ والجغرافيا

وهنا نورد عليك طائفة ممن اشتهروا فى هذين العلمين ولهم فيهما آثار مذكورة :

## ( ١ ) على باشا مبارك

### المتوفى سنة ١٣١١ هـ ( ١٨٩٣ م )

هو الوزير العالم ، الرياضى ، المهندس ، المؤرخ ، المصلح الجليل القدر والبعيد الأثر. ولد فى قرية برنبال من أعمال مديرية الدقهلية . ثم تحوَّل به أبوه الشيخ مبارك إلى عرب السماعنة بالشرقية ، وتولَّى تربية ابنه بنفسه . ثم عهد به إلى آخر لختم القرءان فى سنتين . ثم عهد به إلى رجل يتعاطى الكتابة فلازمه دهرا ، ثم تركه لقسوته وسوء معاملته . وتاقت نفسه إلى طلب العلم فى القاهرة فلق فى هذا من أبيه عنتا . وما زال يحتال لذلك حتى تمكَّن من الفرار ودخل مدرسة قصر ابن العينى . ولم تكن مدرسة الطب قد تحولت إليه بعد ، وكانت سنه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . ثم انتظم فى مدرسة الهندسة ، حتى إذا نال من فنونها حظا محمودا أوفده محمد على إلى باريس ليدرس فنون الحرب. ولما عاد ألحق بالجيش المصرى .

وقد تقدم إليه عباس باشا الأول بوضع نظام للمدارس فصدع للأمر وعمل وجدَّ ، ووضع تقريرا حافلا أعجب به الأمير ، فرفع رتبته وولاه نظارة المدارس لتنفيذ ما سَنَّه لنظامها ، فقام بالأمر أحسن قيام .

ولما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا سافر مع الحملة المصرية التى أمدّت بها تركيا لخضر حربَ القِرْم . ثم عاد بعد ماعانَى صنوف الأهوال ، فعُطِّل عن العمل بسبب ما دبّ عنه من الوشايات عند الأمير . فتفرَّغ للعلم والأدب قراءة

وتدوينا . حتى إذا صار الأمر إلى المرحوم إسماعيل باشا ألحقه بمعيته ، وآثره وأكرم مثواه . ومابرح يتقلّب فى عليا المناصب الحكومية حتى صارت إليه نظارة الحربية ونظارة المعارف . وله فى كلتيهما وخاصة فى ثانيتهما ، إصلاحات تخلد على الزمان .

ومن أجلّ أعماله وأبعدها أثرا فى نشر الثقافة الحديثة إنشاؤه دار الكتب المصرية . وقد تقدم ذكرها . ومدرسة دار العلوم . وقد مضت الإشارة إليها .

ولقد كان ، رحمه الله ، حركة قوية دائبة لا تَنِي ولا تكِل فى معالجة الإصلاح وبعث النهضة العلمية والأدبية من جميع أقطارها . وكان فوق جده فى تصريف الأمور فى الديوان العام ، وطول معالجته لسُبُل الإصلاح ، لا يفتُر عن مطالعة المدارس بشخصه الحين بعد الحين : يمتحن تلاميذها ، ويراجع أساتيذها ، ويتفقد الجليل والدقيق من شؤون التعليم فيها ، ويسرع إلى إثابة المجد المحسن ، والتغير للوانِي المقصِّر .

وكانت داره ندْوَةَ علم وأدب . فإذا دخل الليل طلبها الكثير من معلمى المدارس والقائمين عليها ومن متقدمى الطلاب أنفسهم . وكذلك يظلّ صدرا من الليل يذاكر جلاسه ويراجعهم ويحاضرهم . ويُثيب نجباء الطلاب من حُرّ ماله . وبهذا أذكى الهمم فى طلب العلم والأدب بما جنت منه البلاد وما زالت تجنى منه أنضج الثمار .

ومن آثاره كتاب ( الخطط التوفيقية ) وقد جرى فيه على نهج خطط المقريزى وزاد عليها ما استجد إلى عصره .

وقد وصف فيه مصر وبلادها وخططها ومدارسها وجوامعها وغير ذلك . وإذا عرض لشىء من هذا ذكر من أنشأه وترجم له . وقد ضمن خططه ، فوق ذلك مالا يحصى من الفوائد الفنية والأدبية . وهذا الكتاب الجليل يقع فى عشرين جزءا وله كتاب دعاه ( علم الدين ) وهو دينى عمرانى ، سبكه فى قالب قصصى طريف . وله غير ذلك من المؤلفات والمترجمات .

## ( ٢ ) إسماعيل باشا سِرْهَنك

المتوفى سنة ١٩٢٤ م

هو إسماعيل باشا ابن سِرْهَنك بك ابن عبد الله افندى . وُلِد أبوه فى إحدى البلاد من أعمـال جزيرة كريد . وجاء به إلى مصر المرحوم إبراهيم باشـا الكبير وهو فى سن السادسة مع كثير من فتيان تلك الجزيرة عقب الثورة التى شبت فيها . ثم ألحقه محمد علىّ بمدرسة ( الجهادية ) ثم تحول إلى المدرسة البحرية فظل فيها حتى خرج ضابطا وبقى دهرا يتقلب فى مناصب البحرية حتى أحرز رتبة ( أميرآلاى )، وشغل كذلك بعض المناصب الإدارية ( الملكية ) .

ولمـا ترعرع ولده إسماعيل ، وأحرز فى المدارس صدرا صالحا من العلوم العامة ألحق هو الآخر بالمدرسـة البحرية ، حتى أتم تعليمه فيها . ولمـا كانت قد بانت براعته فى فنه بُعث به إلى انجلترا . وأُلحق بالبحرية الإنجليزية ، فتزود منها ما شاء الله أن يتزود علما وتمرينـا . ثم عاد إلى مصر وظلّ يرقى فى المناصب العسـكرية حتى أصبح ناظرًا للمدارس الحربية . ثم صار مديرا للقرعة العسكرية . وينسب إليه وضع قانون القُرعة القائم الآن . ثم صارتْ إليه وكالة وزارة الحربية ، ولبث فى هذا المنصب حتى أحيل بحكم السن إلى ( المعاش ) . ونال رتبة ( الفريق ) وهى كما تعلم أعلى الرتب العسكرية فى مصر .

وكان ، رحمه الله ، رجلا عظيم التواضع ، جم الحياء . وقد عُنِى ، فيما عُنِى به ، بدراسة التاريخ فحذقه وألّف فيه كتابا جليلا دعاه ( حقائق الأخبار عن دول البحار ) ، وهو يقع فى ثلاثة أجزاء ضخام : طبع منهـا الأول والثانى وصدر من الثالث . وقد خصّ الثانى كله بتاريخ مصر من أول علم التاريخ بها إلى مطلع القرن العشرين للميلاد .

## ( ٣ ) رفيق بك العظم

### المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ ( ١٩٢٥ م )

هو العالم المؤرخ المصلح الأديب رفيق بن محمود العَظْم . وهو سليل بيت من أفخر بيوتات الشام وأكرمها موضعا ، وفى بيته الحكم والسيادة من الزمان القديم . وقد وُلد رفيق بك فى دمشق ونشأ بها ، وتعلم فيها وكان هواه إلى الأدب والتاريخ فأكبّ على دراستهما ، وتروّاهما من أصفى ينابيعهما . ولما لم يطب له المقام فى بلاده لما كان يتولّاها من سوء الحكم رَحَل إلى مصر فى سنة ١٣١٠ هـ وأقام بها حتى أدركته الوفاة . وشارك فى الكثير من الأسباب العامة . وجال بقلمه ومسعاته فى طلب الإصلاح للأمم الإسلامية عامة ، والدولة التركية خاصة . وكان ، رحمه الله ، وافر الذكاء جمّ الأدب ، أبىّ النفس ، شريف الخلق ، عصبىّ المزاج . تتسعر عصبيته إذا مُس أباء دينه أو نيل من قومه .

وله بحوث قيمة أرسلها فى الصحف السيارة ، طاف فيها بالكثير من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية . ومن مصنفاته : كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، أخرج منه أربعة أجزاء ولم يكمل . والبيان ، فى كيفية انتشار الأديان . والدروس الحكمية ، للناشئة الإسلامية . والبيان ، فى أسباب التمدن والعمران . وتنبيه الأفهام ، إلى مطالب الحياة الاجتماعية فى الإسلام . والجامعة الإسلامية وأوربا .

ومن كرائم مآثره أن أهدى مكتبته النفيسة وبها قَرابة ألف مجلّد إلى المجمع العربى فى دمشق .

## ( ٤ ) الشيخ الخضرى

### المتوفى فى سنة ١٩٢٧ م

هو العالم المؤرخ الأديب الشيخ محمد بك الخضرى ابن الشيخ عفيفى الباجورى، نسبة إلى بلدة الباجور من أعمال مديرية المنوفية . وُلد بالقاهرة ونشأ فيها . وتعلم فى بعض كتاتيبها مبادئ القراءة والكتابة . وحفظ القرآن الكريم . ثم أُدخل الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين ، وكان رحمه الله وافر الذكاء جيد الحفظ ، ثم تحوّل إلى دار العلوم فتخرج على كبار أساتيذها . وكان معروفا عندهم كما كان معروفا بين لِداته بالجدّ فى طلب العلم ، والحمل على النفس فى سبيل تحصيله . ولما أحرز إجازة تلك المدرسة خرج للتعليم فى مدارس الحكومة سنين عددا . ثم تولّى القضاء فى السودان دهرا . ثم تحول إلى التدريس فى كلية غردون . حتى إذا أنشئت مدرسة القضاء الشرعى دُعى للتدريس فيها . ثم صارت إليه وكالتها . وظلّ فى هذا المنصب إلى أن قبض إلى رحمة الله . وفوق عمله الأصيل فى مدرسة القضاء ندب لتدريس التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة .

وكان فيه ميل شديد إلى التاريخ الإسلامى ، يعالج مباحثه ما تهيأ له ذلك بالمحاضرة والكتابة والتأليف . وهو مرسل القلم ، سَلِس العبارة ، لا يتعمل ولا يتكلف بديعا ، على أنه كان على حظ من الأدب غير يسير . ومن مؤلفاته : نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين . وإتمام الوفاء ، بسيرة الخلفاء . وتاريخ التشريع الإسلامى . وكتاب الأصول ( فى أصول الفقه ) . ومهذّب الأغانى ( لأبى فرج الأصبهانى ) ، فضلا عن محاضراته فى الجامعة فى التاريخ الإسلامى ، فقد جمعها بعد ذلك . ومؤلفاته كلها مطبوعة بمصر . وله مقالات كان يبعثها فى الصحف السيارة فى المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية ، وفى أكثرها كان يطوى اسمه عن جمهرة القارئين [1] .

---

(١) تجد نموذجا من كتابته العلمية فى الجزء الثانى من المنتخب .

## المستشرقون

الاستشراق وتاريخه — يراد بكلمة "المستشرقون" كلُّ مَن تجـرَّد من أهل الغرب فى دراسة بعض اللغات الشرقية ، وتقصِّى آدابها طلبا لتعرف شأن أمة أو أمم شرقية، من حيث أخلاقها وعاداتها ، وتاريخها ودِيانتها ، أو علومها وآدابها ، أو غير ذلك من أسباب الأمم . والأصل فى كلمة "استشرق" أنه صار شرقيا ، كما يقال "استعرب" إذا صار عربيا .

وأول عهد الغربيين بالاستشراق يرجع إلى القرن العـاشر للميلاد . ذلك بأنه لمـا شهد القوم ما بلغ العرب من الحظ العظيم فى العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها من علوم الحياة ، وبهرهم ما رأوا من آثارها فى ازدهار حضارتهم انبعثوا فى طلبها ، وتقليب النظر فيها ، والانتفاع بقضاياها فى حياتهم العملية . فأقبلوا على دراسة العربية ليتهيأ لهم ماطلبوا . ثم جعلوا يترجمون مايقع لهم من كتب العرب فى تلك العلوم إلى اللاتينية التى كانت لغة العلوم والآداب فى ذلك الزمان . وكان أولَ من شمر فى ذلك رجالُ الدين ، إذ كانوا يومذاك المستأثرين بمذاهب الفكر فى تلك البلاد .

ولم يمض قرنان على ذلك التاريخ حتى كان كثير من مدائن الأندلس ، وخاصة طُليطلة ، مثابة طلاب العلم من الإفرنج بين دارس وناقل . وجدّوا فى هذا حتى تمّ لهم نقل بضع مئات من المصنفات العربيـة ، أو المترجمة إليهـا عن اليونانية فى المنطق ، والفلسفة ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ،

والطبيعة وغيرها . وحملوا ما ترجموا من الكتب إلى بلادهم ، فأقبل عليها طلاب العلم بالنظر والدرس ، فتفتحت العيون ، وصغت إلى العلم العقول . وبثق هذا السعى بفجر الحضارة الغربية التى تقوم على أساسها مادة حياة القوم إلى اليوم .

ولقد ظلت هذه الحركة مشبوبة طوال القرون الوسطى تتنافس فيها الأمم ، وتتبارى الدول . وإذا كان الهم مصروفا بادئ الرأى إلى نقل العلوم والفنون التى يدخل أثرها فى الحياة المادية لأنها مما يتصل بحاجات العيش ، ويعلق بضرورات الحياة ، فإن من الطبيعى بعد إذ أصابوا كفايتهم فى هذا الباب أن يلتفتوا إلى درس الفنون الأخرى من الشرائع والأخلاق والآداب ونحوها . وكذلك فعلوا ، وكذلك فعلنا نحن فى نهضتنا الأخيرة . وقد تقدم فى ذلك الكلام .

ولا يذهب عنك ، فى هذا المقام ، أن إقبال الغربيين على درس اللغات الشرقية وتفهمها لم يكن الغرض منه مقصورا على الانتفاع بما خرج فيها من العلوم فحسب ؛ بل لقد طلبوا ذلك أيضا للأغراض التجارية . وطلبوه بحظ أعظم من هذا لتيسير التبشير بالمسيحية فى البلاد الشرقية .

وظلّت حركة تعلم العربية وفنونها فى بلاد الغرب فى اطراد وتقدم ، حتى لم يكد يدخل القرن السادس عشر الميلادى إلا وقد جعلوا يعلمونها فى بعض المدارس ، كما أقبلوا على إنشاء المطابع العربية تحقيقا لما سلف من الأغراض . على أن الزمن لم يطل حتى أصبح الاستشراق فنا قائما بنفسه ، يُطْلب لدرس اللغات الشرقية وآدابها وفنونها وأديان أهليها وعاداتهم ونحو ذلك . وراحت المطابع تطبع ما يُلْقَى إليها من الكتب فى اللغات الشرقية . فكان من أوائل ما طُبع فى العربية كتاب (المجموع المبارك) فى التاريخ لابن العميد المعروف بالمكين . وكتاب (تاريخ الدول) لابن العبرى . و (نظم الجوهر) لسعيد بن البطريق . ثم تاريخ أبى الفداء ومقامات الحريرى . وما برحوا إلى هذه الغاية يوالون طبع نفائس الكتب العربية فى مطابعهم

ويعلقون عليها الحواشى ، ويلحقون بها ألوان الفهارس تيسيرا للاستفادة منها .
حتى بلغ ما أخرجوا من كتب العربية مالا يحصى كثرة .

ولم يقتصر همهم على هذا ؛ بل لقد جعلوا يعالجون البحوث المختلفة عن بلاد الشرق وتواريخها ، وأخلاق أممه وعاداتهم وشرائعهم ولغاتهم وعلومهم وفنونهم وكل ما يتصل بأسبابهم . وما برح للدين الإسلامى وللغة العرب وآدابها حظ عظيم من جهودهم .

ومما عُنُوا به كذلك جمع الكتب العربية فى مختلف العلوم والفنون يتلقطونها من هنا ، ويستخرجونها من هنا ، حتى اكتظت بها المكتبات العامة فى أمهات بلادهم ، وحتى أصبح أبناء العربية يلتمسون الكثير من كتب آبائهم فلا يصيبونها إلا فى تلك المكتبات !

أثر المستشرقين — لاشك فى أن للمستشرقين أثرا بعيدا فى بعث اللغة العربية وآدابها . وهذا الأثر يرجع فى جملته إلى هذه العناصر :

( ١ ) نشر مجفوات الكتب العربية القيمة ، وإحسان طبعها ، وبذل أقصى العناية فى تصحيحها . ومعارضتها على النسخ المتعددة ، ولو تفرقت فى الممالك المختلفة توسلا إلى ضبطها ، وبيان ما اختلفت عباراته فى تلك النسخ ، وضبط الأعلام وأسماء الأمكنة ونحوها . وتعليق الحواشى بما يعين على الفهم ويستفتح المستغلق . وتعقيبها بألوان الفهارس الجامعة للموضوعات ، وأسماء الأشخاص والأمكنة وغير ذلك مما ييسر للطالب الوقوع على ما يبغى من الكتاب من غير كدّ فى طول المراجعة ، ولا جهد فى كثرة التقليب .

( ٢ ) البحوث القيمة فى متن اللغة من تحقيق كثير من ألفاظها ، وردها إلى أصولها . وكذلك التحقيق فى كثير مما يتصل بتاريخ العربية وآدابها . فضلا عن تحقيق الكثير من مسائل تاريخ العرب فى جاهليتهم و إسلامهم .

( ٣ ) الاعتماد فى البحث على التحقيق العلمى ، وفى النقد على مذاهب النقد الحديثة مما أجدى على العربية وطلاب التفقه فى آدابها كثيرا . ومما يدلك على هذا أن مصر ، وهى فى طليعة البلاد العربية فقها فى اللغة ، وعلما بتاريخ آدابها ، و إصابة لمنازع بلاغاتها — مابرحت من يوم إنشاء الجامعة المصرية القديمة إلى اليوم تستقدم المستشرقين لتستعين بهم فى تدريس الآداب العربية على خير الوجوه .

ولا يذهب عنك أن علماء الأدب فى مصر وفى غير مصر قد جعلوا يتكلفون فى كل ماتقدم صنعهم ويحذون فى البحث والاستقراء حذوهم . ولن يمضى ، إن شاء الله ، زمن طويل حتى يدركوا فى هذا شأوهم ، بل و يبزّوهم فى مساعيهم . فاللغة لغتهم ، و بلاد العرب إنما هى بلادهم .

ومن آثار المستشرقين فى العربية وعلومها وفنونها وأنبائها وتاريخها أن الغرب كان بهذا كله فى جهالة تامة ، بحيث لا يتمثل لأبنائه من هذا إلا بقدر ما كانوا يتصورون العرب ، وما كانوا يتصورونهم إلا جماعات من البدو ترعى الإبل فى الصحراء المجدبة ، يقوم عيشهم على النهب والسلب ، والعدوان والبغى ، لا أكثر ولا أقل . فلما ترجموا إلى لغاتهم كتب العرب فى الآداب والأخلاق والعلوم والفنون عرّفوا أقوامهم قدر العربية وقدر العرب .

وفوق هذا وهذا فإنهم مابرحوا الحين بعد الحين يعقدون المؤتمرات الشرقية فى أمهات مدن الغرب ، ويدعون إليها رجالات الآداب الشرقية فى أقطار العالم . وهنالك يُدْلِى كلٌّ ببحوثه فيما عند قومه . ولقد كان للأقطار العربية ، ومصر خاصة ، فى هذه المؤتمرات حظّ غير يسير .

وأخيرا ، لقد كان الدين الإسلامى وكانت علومه وآدابه مجهولة جهلا فادحا فى بلاد الغرب ، وكان يمثلها غلاة المتعصبين لقومهم أشنع تمثيل . فانظر بعد هذا قدر سعي المستشرقين فى ترجمة القرآن الكريم وتفاسيره ، وكتب السنة ، والكلام ، والفقه ، والتصوف ، والأخلاق الدينية ، وغيرها مما يتصل بآداب الشرع الحنيف . على أن التعصب الأعمى قد عصف ببعض هؤلاء فافتروا على هـذا الدين وأحالوا حسناته سيئات ، وتعمّدوا تشويه كثير من حقائقه الناصعة . فخانوا بهـذا أمانة العلم ، وعملوا على تضليل أقوامهم . فهم غير أحرياء بأن ينسبوا إلى العلم ، وينظموا فى سلك العلمـاء .

أشهر المستشرقين — ونحن ذاكرون لك أسمـاء طائفة من أعلام المستشرقين ، وبعض آثار كل منهـم فى العربية . وهذا على جهة التمثيـل لا على سبيل الاستقصاء :

## ١ — البارون سلفستر دى ساسى الفرنسى

### المتوفى سنة ١٨٣٨ م

هو من أعلى المستشرقين قدرا ، وأبعدهم فى هـذا الباب أثرا . ولقد تجرد فى تعلم العربية والفارسية حتى برع فيهما أيما براعة . وتخرج عليه فيهما طائفة من أعلام المستشرقين فى أرجاء بلاد الغرب . ومن مؤلفاته فى العربيـة كتاب دعاه ( الأنيس المفيد للطالب المستفيد ) جمع فيه صدرا محمودا من المنتخبات العربية . وله شرح وجيز على مقامات الحريرى . ونشر كتاب كليلة ودمنة . وألفية ابن مالك ورحلة عبد اللطيف البغدادى . وذلك عدا الكتب العربية التى ترجمها إلى لغته ، والبحوث الكثيرة التى عالجها فى الموضوعات الشرقية والعربية .

## ( ٢ ) إتيان كترمير الفرنسى

المتوفى سنة ١٨٥٧ م

تلميذ دى ساسى وخليفته . وهو من أعلى المستشرقين كعبا ، وأنفذهم أثرا ، وأكثرهم تلاميذ تخرجوا عليه فى بعض اللغات الشرقية ، والعربية منها خاصة . وقد ترجم إلى لغته بعض كتاب السلوك للمقريزى ، ونشر مقدمة ابن خلدون . ومنتخبات أمثال الميدانى . وكتاب الروضتين . وله عدا ذلك بحوث كثيرة تتصل بالشرق والشرقيين .

## ( ٣ ) فرايتاج الألمانى

المتوفى سنة ١٨٦١ م

وهو أيضا من تلاميذ دى ساسى . ألف معجما فى العربية واللاتينية . ونشر حماسة أبى تمام عليها شرح التبريزى مع ترجمة لاتينية . وحكم لقمان . وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه . والمنتخب من تاريخ حلب . وأمثال الميدانى . ورحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر . وذلك غير ما ألفه عن العرب والعربية فى لغته ، وما عالجه فى هذا الباب من البحوث الكثيرة .

## ( ٤ ) جنبول الهولندى

المتوفى سنة ١٨٦١ م

نشر قصائد المتنبى ومعاصريه فى مدح سيف الدولة مع ترجمة لاتينية ، وكتاب الجبال والأمكنة للزمخشرى . ومراصد الاطلاع "مختصر معجم البلدان" ، والنجوم الزاهرة لابى المحاسن تغرى بردى . والخراج لابن آدم .

## ( ٥ ) ادوردلين الإنجليزى

المتوفى سنة ١٨٦٤ م

عاش بمصر فى صدر شبابه بضع سنين . ووضع كتابا فى وصف مصر . وآخر فى آداب المصريين وعاداتهم . وقاموسا عربيا إنجليزيا . وترجم ألف ليلة وليلة ، وصدرا من القرآن الكريم . وله عدا ذلك بحوث فى الآداب الإسلامية .

## ( ٦ ) جستاف فلوجل الألمانى

المتوفى سنة ١٨٧٠ م

نشر كشف الظنون. والفهرست لابن النديم. ومؤنس الوحيد للثعالبى. وطبقات الحنفية لقطلوبغا . والقرءان ، ونجوم الفرقان ، وهو فهرس للقرءان الكريم .

## ( ٧ ) كازمرسكى البولونى

المتوفى سنة ١٨٧٠ م

وضع قاموسا عربيا فرنسيا . وترجم القرءان الكريم إلى الفرنسية . ونشر طائفة من الكتب العربية .

## ( ٨ ) دوزى الهولندى

المتوفى سنة ١٨٨٣ م

ألف معجما عربيا وصله بالمعجمات العربية ، جمع فيه الألفاظ التى لم ترد فيها ، وهو يقع فى جزأين . ومما نشره تاريخ ابن زيان . وتاريخ المعجب للمراكشى . والبيان المغرب لابن عذارى . وجغرافية الإدريسى .

## ( ٩ ) فلتشر الألمانى

المتوفى سنة ١٨٨٨ م

ألف فى الآداب الشرقية كتبا كثيرة جدا . ومما نشره تفسير القاضى البيضاوى . والمفصل للزمخشرى . وبعض ألف ليلة وليلة . وبعض تاريخ أبى الفداء .

## ( ١٠ ) فردينان وستيفيلد الألمانى

المتوفى سنة ١٨٩٠ م

من أهم مانشره من الكتب العربية : طبقات الحفاظ للذهبى . وسيرة ابن هشام. ووفيات الأعيان لابن خلكان. وكتاب الاشتقاق لابن دريد . ومعجم البلدان لياقوت . ومعجم ما استعجم للبكرى . وتهذيب الأسماء للنووى . وتهذيب الأنساب للسمعانى . والمشترك لياقوت . وعجائب المخلوقات للقزوينى . والمعارف لابن قتيبة . وغير ذلك كثير .

## ( ١١ ) نلدكى الألمانى

المتوفى سنة ١٩٣١ م

ألف فى الألمانية (تاريخ القرءان) ،وأحرز به الجائزة من المجمع العلمى الفرنسى ( الأكاديمية ) . وتاريخ عروة بن الورد . وبحث فى الشعر الجاهلى . وتاريخ الفرس والعرب فى عهد الساسانيين. واللغات السامية . وبحث فى المعلقات الخمس. وغير ذلك .

## (١٢) الأستاذ جلتزير المجرى

له مؤلفات عدة فى اللغة العربيـة والإسلام . وبحوث فى الفقه لإسلامى والحديث النبوى . وبحث فى آداب البحث والمناظرة عنـد الشيعة . وآخر عند الظاهرية . وكتاب فى طبقات المفسرين . وكل هذا بالألمـانية . وله آثار غير هذه كثيرة .

ومن جليل ما قام به المستشرقون من الأعمال تأليفُ دائرة المعارف الإسلامية مرتبة على الحروف الأبجدية تنشر باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمـانية ، وتشمل تراجم أعلام الرجال ، وأهم الموضوعات الإسلامية من جغرافيا وتاريخ وفقه وأصول وأدب ، بدأوا فى نشرها فى أعداد تشبه المجلات من سـنة ١٩٠٨ ولا يزالون يوالون النشر إلى اليوم ، وإذا تمت كانت فى أربعة مجلدات ضخمة يحوى كل مجلد نحو ألف صفحة .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢٥ أغسطس سـنة ١٩٣٦
(٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥) هـ

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ٤٤٢٥-١٩٣٦-٣٨٧٠